دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

العدد الرابع – السنة العاشرة – ذو القعدة 1386 – مارس 1967



تصدرها وزارة عموم الأوقاف
والشؤون الاسلامية
بالمملكة المغربية

ثمن العدد درهم واحد

العدد الرابع
السنة العاشرة
شوال - ذو القعدة 1386
يبراير - مارس 1967
ثمن العدد
درهم واحد

دعوة الحق

مجلة تصدرها وزارة
عموم الأوقاف والشؤون
الإسلامية بالمملكة المغربية

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنة 10 دراهم ، والشرفي 30 درهما
فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :
مجلة « **دعوة الحق** » رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

**Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat**

او تبعث رأسا في حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ
الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية
والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :

« **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ الرباط
تليفون 308.10 ـ 327.03 ـ الرباط

وَلاء .. من صفوة مختارة ...

يستقبل الشعب المغربي النبيل في اهتبال كريم ، واحتفال عظيم طلعة هذا اليوم الضاحك الاغر ، يوم عيد العرش المجيد ، وقلوب ابنائه تفيض من البهجة ، ووجوههم تشرق بالسرور ، واملهم يشع في الصدور والعيون .

واحتفال الشعب المغربي بهذه الذكرى السادسة لتتويج صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله ، تمجيد للتاريخ الحافل الذي تضافر على تسطيره شعب طموح ناهض ، وملوك لهم في سجل التاريخ الخالد اياد ، استيقظ في عهدهم المجد ، وعقد النصر المؤزر في حياتهم لواء ، لانهم عمموا العدالة ، واقاموا قواعد المجتمع على اساس من الخير ، وهدوا ، بسلوكهم ، النفوس الشاردة الى النهج اللاحب ، والغرض الاسمى ، والسبيل القويم .

وان من يستعرض تاريخ دولة ملوكنا العلويين ، ويقف على الجهود المضنية التي بذلوها في سبيل توثيق العقد ، وتوكيد العهد ، وتحقيق الوحدة ، والحفاظ على سيادة البلاد ، وتجديد ما رث من حبل الدين ، ليدرك ذلك المجد الشامخ ، والعز الباذخ الذي اسسه لهذه البلاد المغربية العرش العلوي الراسخ البنيان ، المنيف القري ، والذي لقي من العقبات الكاداء ، والاصطدامات المتوالية في سبيل درء العدوان، وحماية الكيان خلال فترة ليست بالقصيرة كان فيها المد الاستعماري في قمة جبروته يصول ويجول ، وعنفوان طغيانه يحيف ويجور !! ولكنهم — نضر الله وجوههم — كفكفوا شرة نفوذه ، وتغلبوا على تلك الصعاب بالعزم الغالب، وذللوا تلك العقبات باللب الحصيف ، والعقل الراجح ..

ثم املوا ارادتهم الحازمة الحكيمة على التاريخ .

فلا غرو اذا كان الشعب المغربي الواعي مدينا لهذه الاسرة العلوية بفضل لا ينسى طوال التاريخ ، ومعترفا بالجميل للعرش المنيف الذي الف نوافر القلوب بالحب والاخاء ، ومثل وحدة البلاد ، واتحاد المواطنين في وضوح وجلاء .

ولا عجب اذا خرج الشعب المغربي اليوم عن طوره ، فعبر عن فرحته بحماس متقد ، وسرور دافق ، وصور من الزينة والبهجة والرضى ، لانه شعب واع ينشد الحياة الكريمة ، ويسعى لتحقيق الغاية الامينة ، في وطن حر يفيض بالحماس والشعور والنبل .

ولا غرو اذا القى هذا الشعب المغربي مقاليد اموره في يد ملك اصطفاه الله من رجال القيادة للتحرير والتعمير والتطهير يريد لابناء وطنه ، وافراد شعبه ان يعيشوا في هذا البلد الامين متفيئين ظلال الاخوة والوحدة على سرر الود والصفاء متقابلين ..

صاحب الجلالة :

اذا سمحتم للفئة الواعية في بلدك ، واذنت للطبقة المتنورة من ابناء شعبك ان تقدم لسدتكم العلية بالله هذه الباقة الفواحة من العواطف الصادقة المشتملة على دراسات سطرتها عن اجدادكم الغر الميامين ، فان هذا العدد الخاص من مجلة « دعوة الحق » الذي ساهمت في تحبيره صفوة مختارة من ابنائك المثقفين هدية متواضعة عن حبها الخالص ، وتعبير صريح عن ولائها المكين ، وحجة قاطعة على تعلقها بعرشكم الراسخ المتين .

دعوة الحق

الدرس الملكي الجامع

نص المحاضرة الدينية الجامعة التي ألقاها صاحب الجلالة أمير المومنين الحسن الثاني نصره الله أمام جمع حاشد من العلماء في نهاية الدروس الرمضانية التي تلقى بالضريح الحسني .

ألقى مولانا امير المؤمنين في شهر رمضان المعظم درسا دينيا جامعا امام الصفوة المختارة من علماء الاسلام في المشرق والمغرب الذين حضروا الدروس الدينية التي تعقد بالضريح الحسني .

وكان للدرس الملكي التاريخي صدى كبير في جميع المحافل والابهاء سواء في الداخل او الخارج ، كما كان تفسيرا لمعاني العظمة والسمو في نفس الملك العالم حيث جمع حفظه الله في درسه الوافي بين سمو العلم وجلال العلماء ، ونزاهة الصلحين الذين اوتوا الحكمة وفصل الخطاب .

وقد حلق جلالته في تفسير الآيات القرآنية ، والاحاديث النبوية ، والاستشهاد باقوال العلماء ، واساطين المفسرين فبلغ حفظه الله بذلك الشأو البعيد ، تعينه على ذلك قريحة سمحة ، وحافظة قوية ، وبصيرة نيرة ، وذوق سليم .

ذرية بعضها من بعض

لقد عودنا ملوكنا العلويون العناية بالعلم ، وتشجيع طلبته ، والاحتفاء بالعلماء ، ورجال الفكر ، ودعاة التجديد ، بغية تكوين مجتمع صحيح قوي حر ، يساير الزمن ، ويجاري الطبيعة ويصالح بين حفاظ التقاليد وطبيعة التطور .

وما النهضات الفكرية ، والوثبات العلمية الا مظهر صارخ للمجد الروحي في نفوس ملوكنا العلويين ، فبهم ازدهر العلم والادب ، وانتشر في افياء ظلالهم .

وملوكنا العلويون الامجاد كان لهم ولوع بالمعرفة ونشرها ، وشغف بالعلم واذاعته سواء عن طريق التاليف او التدريس يتغون من ذلك تركيز كيان الامة واعلان قوتها ، واعزاز كلمتها ، وتحصين عزتها ، فيقومون عن طريق المعرفة والعلم ما اعوج من اخلاق، ويصححون الزائف ، ويتحرون وجوه الاصلاح .

فالتاريخ يحدثنا حديثا مسلسلا منقطع النظير عن امجاد هذه الدولة في ميدان الاصلاح والتعليم وعن مدى تشجيعهم للعلماء الذين لايفتأون يتنافسون في تحصيل العلم ، ويتفاضلون في احسانه وتجويده .

فيحدثنا هذا التاريخ الامين عن المولى الرشيد العلوي الذي كان يحضر بنفسه مجلس العلامة ابي علي اليوسي تحفيا له ، واكبارا للعلم .

وقد قال عنه العلامة ابو علي الحسن اليوسي هذا في رسالته للمولى اسماعيل : (ثم جاء المولى الرشيد بن الشريف فاعلى للعلم مناره ، واوضح نهاره ، واكرم العلماء اكراما لم يعهد ، واعطاهم ما لم يعهد ، ولا سيما بمدينة فاس ، ففضح من قبله ، واتعب من بعده ، ولو طالت مدته لجاءته علماء كل بلد) .

وان صنوه ابا النصر يأمر العلامة المجاصي بختم التفسير في قصره ، ويقوم بخدمة العلماء الحضور لذلك ، ويصب الماء على ايديهم اجلالا للعلم والعلماء .

وهذا السلطان سيدي محمد بن عبد الله قال في حقه عبد السلام بن الخياط القادري : (كان اماما من علماء الاسلام ، له تصاليف تقرأ بالمشرق والمغرب ، فهو الامام الموهوب لهذه الامة على راس المائة ..)

والمولى سليمان كان ولوعا بزيارة القرويين ، وزيارة علمائها ، وحضور مجالسهم والايعاز اليهم بالتصنيف واجابة من دعاه منهم.

ولقد كان اماما عالما مؤلفا قال عنه صاحب الدرر الفاخرة : (وكان يحض على العلم ، ويشجع على تعاطيه ونشره بالتدريس والتاليف في مختلف الفنون ، وكان يزور جامع القرويين كل اونة ، ويتردد على مجالس الصدور ، وكان يزور شيوخ العلم وقادات بدورهم ، ويلبي دعوة من استدعاه منهم ، ويعود مرضاهم ، ويحضر جنائزهم .

ولقد كان للسلطان محمد بن عبد الرحمان باع طويل ، وقدم راسخة في العلوم العقلية ، كالحساب والتوقيت والتنجيم والهندسة والموسيقى . درس تلك الفنون بالنقد والتحرير وختم كتاب اقليدس في الهندسة .

وهذا السلطان المقدس المولى عبد الحفيظ العالم الماجد الذي له من المؤلفات النثرية والقصائد الشعرية والاراجيز التعليمية ما لا يكاد يحصى عدا ...

(من راى منكم منكرا فليغيره بيده)

ذلكم هو الحديث الذي تناوله صاحب الجلالة امير المؤمنين الحسن الثاني حفظه الله في درسه بالتحليل والتمحيص وصحة الاستدلال وقوة التوجيه ، وثقوب النظر :

قال صاحب الجلالة امير المؤمنين :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على مولانا محمد خاتم النبيئين والمرسلين .

« ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من امرنا رشدا » . « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث ، فاطر السماوات والارض ، انت وليي في الدنيا والاخرة ، توفني مسلما ، والحقني بالصالحين » .

جيل الكفاح

معشر السادة والاساتذة :

رايت من الواجب علي ان اقوم بحديث — ولو بحديث فضولي متطفل — عند انتهاء الدروس الدينية التي تقام كل سنة في شهر رمضان . وقد اجهدت نفسي على ان لا ارجع الى مرجع . ولا اطالع كتابا ، او تفسيرا ، او تأويلا ، حتى يكون حديثي هذا بمثابة امتحان لا لي فحسب ، ولكن لجيلي . ذلك الجيل الذي قضى اكثر ايامه في الكفاح . ذلك الجيل الذي حجبت عنه حضارته — ومنع من ثقافته — ذلك الجيل الذي كان يذهب الى الدرس والى التعليم خلسة وخفية من الاعداء ومن المستعمرين — فاذا وفقنا الله سبحانه وتعالى لتمكنا بان نقول بأن جيلنا — رغم ضيق علمه . وعدم اتساع اطلاعه ومعرفته باجتهاده وبمقارناته — امكنه ان يعلم ولو النزر القليل من الديانة الاسلامية والسنة النبوية . **وان نحن والعياذ بالله لم نوفق فسيكون ذلك لنا حافزا بان نسعى دائما وراء العلم ، ونعاشر اهل العلم ، ونجالسهم ، حيث انه يقال : « لا حد للكمال ولا نهاية للفضيلة »** .

اما بعد :

فان اصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر



صاحب الجلالة الملك العالم وهو يفسر الحديث الديني .
« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ... »

الامور محدثاتها وكل محدثة بدعــة ، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالــة فى النــار .

روى الترمذي فى صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قــال : « **من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك اضعف الايمــان** » .

من حيث الشكــل والموضــوع :

واننا سنحاول تفسير هــذا الحديــث واللــه المستعان ، سنحاول ان نبين جوانبه من حيث البنية ، ومن حيث تفسيــر بعض الفاظه ، ومــن حيث كذلــك جانب مهم وهو انه وضع فى شطره الاول ، قاعدة عامة مطردة وفسرها بتطبيقات يمكننا ان نقول بان الشطــر الاول وهو القسم التشريعي منهــا ، وان الشطـــر الثاني هو القسم التنظيمي الذيينظم المجتمع الاسلامي، والسلط الاسلامية ويضع كل سلطة فى يد كل من وجب عليه الاخبار ، **والدين النصيحة** ، وتجعل المسؤولية فى يد كل مسلم ، مسلــم فى سلوكــه وتصرفاتــه اذ : « **كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته** » .

كان صلى الله عليه وسلم اعلم الناس بامته

الملاحظة الاولى : تذكرني باية من القرآن وهي: « **فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهــم ساهــون** » لما سمعها الصحابة بكى ابو عبيدة الانصاري وقــال : « يا رسول الله ، من لا يقع له سهو فى صلاته ؟ » فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك قــال الله : « **عن صلاتهم ساهون** » ولم يقل فى صلاتهم ســاهــون واتبعها « **الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** » فكانــت الاية التي تلت هذه الايــة رحمة للمؤمنين .

كذلك لو قال النبي صلى الله عليه وسلــم فقط : «**من رأى منكم منكرا فليغيره** » لكان ضرر هذا الحديث اكثر من نفعه ، اذ الفتنة اشد من القتل ، ولكان النبي صلى الله عليه وسلم من غير قصد ، **فتح لهذه الامــة** باب الانتقام وباب الشهوات وباب الفوضى الا انه صلى الله عليه وسلموكان اعلم الناس بأمته ، وكان اعلم الناس بما يريده الله لها من خير وتنظيم وانظمــة ، اضــاف « **بيده** » ، فمن لم يستطع فبلســانه ، فمن لم يستطــع فبقلبه ، وذلك اضعف الايمــان .

ديــن الحشمة الجماعيــة والاجتماعيــة

الملاحظة الثانية فى الشكــل : نــرى ان النبــي صلى الله عليه وسلم قال : « **من رأى** » ولم يقل : «من سمع او علم » والسبب فى ذلك **ان الدين الاسلامي هــو ديــن الحشمة الجماعية والاجتماعية ، فمنع علينا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أن ناتي المنكر والفواحش بكيفية اباحية امام الناس فى الشوارع ، فى المكاتــب ، فى المعــامــل ، فى المجتمعــــات** ، بل قـــال النبــي صلــى اللــه عليــه وسلــم : « ومــن ابتلى منكم بهذه القاذورات ، فليستتر » ، وازيد حتى فى لفظ « أرى » فى لفظ ارى منع الله عيــن الوشايــة والنميمة راى بعينيــه .

وهناك شيء آخر اريد أن انبه عليه ، ان الرؤية لا تكفي فيها الرؤية بالبصر ، ولكن الرؤية بالبصيرة . وقضية موسى مع الخضر عليهما السلام تصور لنــا هذا ، فنحن لم نــر من اعمال مولانا الخضر عليـــه السلام الا ما قام به ، لقلنا : اللهم ان هذا منكر انــه منكر بمجرد الرؤيــة ، رؤيــة الاحساس ، رؤيــة العينين ، ولكن لما نفذنا ونفذ سيدنا موسى الى الاغراض الحقيقية التي دفعت مولانــا الخضر عليه السلام الــى ان يخرق السفينة ، ويقتل الغلام ويقيم الجدار الــذي اراد ان ينقض . فهم اذ ذاك ان من وراء الشيء الــذي نسميه منكــرا حسنــات جليلة قام بها مولانا الخضر عليــه السلام .

وفى شكل الحديث كذلك نصل الى الاخير فنقول وذلــك اضعف الايمــان .

لا اعتقد شخصيــا ان الايمان يزيــد وينقــص ، قيل ان الايمان يزيد وينقص ، ربما الذي يزيد وينقص هو التعبير عن الايمان ، وما يشكل مظاهر الايمان مــن عبادات واخلاق ، فالايمان اما أن يضعه الله فى قلب الرجل واما أن ينتزعه من قلب الرجل ، هذا مذهــب مومن مسلم ، اجتهد امام الله ، وان كان لا يقول بزيادة الايمان يرجــو اللــه سبحانــه وتعالــى ان يزيد فى ايمانــه .

وبمعنــى ذلك أن يزيده طاعــة على طاعــة ، واستقامــة على استقامــة .

اضعف الايمــان

معنى اضعف الايمان وذلك هو الحد الادنـــى الــذي يطلب مــن كــل عضو فى المجتمــع ، ذلــك المجتمع الذي خلقه الله فى صورة تعاقــد جماعــي او ترابط اجتماعي بين فرد وفرد ، بين الجماعة والفرد ، بين الدولة والجماعة ، بين الدولة والافراد ، ذلك هــو الحد الادنــى الذي يتطلب من ذلــك الشخص الــذي تعاقد مع اخوانه ومع مجموعة من اخوانه ومع كيان دولتــه ومع انظمتهــا .



صاحب الجلالة يتتبع باهتمام بالغ الدروس الحديثية التي يلقيها السادة العلماء بالضريح الحسني .

غيـزوا المنكـر في الحيـن

فلنحاول الان تفسير الحديث ، وتفسيري هذا سوف لا يكون تفسيرا فقهيا ، او تفسير علماء الحديث ، فانا — واعوذ بالله من قول « انا » — لا زلت طالب علم وتلميذا لكم ، لكن ساحاول ان افسره على ضوء السياسة الاجتماعية وعلى ضوء فصل السلط وعلى ضوء تنظيمها ، وذلك شغلي ، فاهل مكة ادرى بشعابها ولذا ساآخذ الحديث من هذا البـاب .

تحليـل لغـوي

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مـن راى منكم منكـرا فليغيره» راى قلنـا مـا معنـى راى ، هنـا ، لـم يقـل النبـي «ص» مـن راى منكم منكرا وجب عليه ان يغيره لان ذلك ربما يقتضي التمادي والتماطل في التغيير بل « لام » الامر والمضارع يقتضي كل ذلك الفور في التغيير والفور في العقوبة بل المضارع يقتضي التجديد اي كلما رايتم منكرا فغيروه في الحين حتى لا يستفحل الامر وحتى لا يعظم الشيء وحتى لا نصبح في مصيبـة والعياذ بالله .

المنكـر ما تنكـره الاخلاق الاسلامية

وما هو المنكر ، يقول الفقهاء ، وهنـا بحثت — اقول الحق — عن تعريف الفقهاء للمنكـر ، يقـول جميع العلماء : « ان المنكر هـو ما تنكره الشريعـة بكيفية عامة » ، انا اقول : **ان المنكر هو مـا تنكـره**

الاخلاق الاسلامية، اذ النبي صلى الله عليه وسلم قال « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ».

وتتميم مكارم الاخلاق ضامن بالطبع وبكيفية مسبقة تتميم الشريعة.

ومن ما تتكره الاخلاق الاسلامية فهو منكر فكيف يمكننا اذن ان نميز بين الخبيث والطيب والصالح والطالح .. بين الحلال والحرام ؟

اولا : ان نكون على بينة مما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، سواء كان على لسان ربه في الكتاب العزيز، أو ما جاء في الاحاديث القدسية منها والنبوية وذلك الاطلاع يقتضي منا أن نكون قد المنا بجوانب كثيرة من الديانة الاسلامية، وبالاخص ما يخص المعاملات لان العبادات في مجملها واضحة حتى تمكننا ان نميز بين الخبيث والطيب وبين الصالح والطالح وبين المنكر وبين ما هو غير منكر وبين الحلال والحرام.

الديانة الاسلامية : ديانة تكريم للعقل البشري

كان في امكان الله سبحانه وتعالى وهو القادر على كل شيء والملم بكل شيء ان ياتينا صحبة كتابه وقرآنه بلائحةاو منشورفيهتعدادلماهوحلال وماهوحرام، كما تاتي مناشير الجمارك ومناشير الضرائب، هذا منشور الحلال وهذا منشور الحرام. الا ان الله سبحانه وتعالى **ابى الا أن تكون الديانة الاسلامية ديانة تكريم العقل البشري، ديانة تجعل من المسلم رجلا مسؤولا عن مضاعفة اعماله، مسؤولا عن نياته، مسؤولا عن مضاعفة اعماله، اتاه الله فكرا واتاه عقلا، فلم تكن له الديانة بمثابة الحاجب، بل كانت له بمثابة الشيء الذي فتح امامه آفاق الاجتهاد وآفاق التميز، لذلك وضع الله سبحانه وتعالى حدودا فلا تعتدوها، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه**.

من وقع في الشبهات وقع في الحرام

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين، وبينهما امور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات، فقد استبرا لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك ان يقع فيه، الا وان لكل ملك حمى، الا وان حمى الله محارمه ..»

هنا نرى أن هناك حدا للحرام، وحدا للحلال. وان هناك فسحة تضيق وتتسع حسب المواضيع، تضيق وتتسع، لتفتح امامنا باب الاجتهاد.

ولكن يمكن لقائل ان يقول اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اني تركتكم على المحجة البيضاء ليها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك ». ربما يكون الحديثان متناقضين، هنا الحلال بين، والحرام بين، وفسحة بينهما، وهنا الليل والنهار والمحجة البيضاء.

ودين الاجتهاد

في الحقيقة الحديثان غير متناقضين، لان هذه الطريقة طريقة الاجتهاد والفسحة جاءت بها الاية القرآنية في عدة آيات وبالاخص في آية تشبيه الليل والنهار، كما في هذا الحديث، ليلها كنهارها ... وحينما يقول الله سبحانه وتعالى في اي وقت يجب علينا ان نبدا الصيام ؟ **حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر**، فهنا يدخل الليل، وهنا يدخل النهار، فقبل أن تكون الساعات وقبل ان يكون ضبط المواقيت كان المسلمون يجتهدون في تقدير ذلك الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر بمعنى بين الليل والنهار، **فكيفما كان الحال : فالاجتهاد ممكن وجائز وواجب في هذا الباب ..**

الفتوى على العلماء .. والسؤال على المسلمين

أما الشبهات : هو ما تشابه في ذهن الانسان ما من شانه ان يوهمه ان الشيء حلال، والحالة هذه انه حرام، اوالعكس بالعكس،فأمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نتقي الشبهات، وفي ذلك اعطانا الله سبحانه وتعالى قاعدة اذ قال : « **فاسالوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون** » ... فاذا اوجب الفتوى على العلماء اوجب السؤال على المسلمين غير العلماء. **فبهذا يكون الله سبحانه وتعالى قد القى المسؤولية كلها على عاتقنا، اذ من جهل منا شيئا فليستفت امره العلماء العالمين بمسائل الدين ومسائل العقيدة ومسائل العبادات ومسائل المعاملات**.

لكي نميز بين الحلال والحرام

ومن الطف ما يروى في هذا الباب عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الرسول المصون النبي المعصوم الذي قال فيه الله سبحانه وتعالى : « **الم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك** »، وفي تعبير « وضعنا » حكمة ظاهرة فلم يقل رفعنا

عنك وزرك حتـى اذا رفعه يكون اذ ذاك اعطاه قيمة بل وضعه على الارض غيـر موجود .

ومع ذلك اتقـى الشبهات ، يروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اتته صفية زوجته فكان يكالمهـا فاذا برجلين من الانصار يمران .. فصاح فيهما النبـي ان اقتربا ، فاقتربا ، فقال لهما : ان هـذه صفيـة زوجتي ، فقالا : انيك يا رسول الله ؟ فقال لهما : لا ، ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم .

فيجب علينا تعريفنا للمنكر ، وفى معرفتنـا للمنكر ان نميز بين الحلال والحرام ، وان نجتهـد فى تلـك الفسحـة التي تركها لنا الله ورسوله على ان لا نقـع فى المنكـر وفى الحـرام .

معنـى : فليغيـره بيـده

والان فلندخل للناحية التنظيمية والتشريعيـة وناحية فصل السلطت من هـذا الحديث : **« فليغيـره بيـــده »** .



السادة الوزراء يستمعون الى الدروس الحديثية بالضريح الحسني

كثـرت فى عصرنـا مواطـن الزلـق

فاذا كان النبي صلى الله عليه وسلم الذي هو الرسول المصون والنبي المعصوم ، قد اجتهد وجاهد نفسـه على ان لا يقع فى الشبهات فما بال المسلم العـادي الـذي يعيش فى القرن العشرين بالاخص **والذي هو معـرض كل يوم وكل لحظة لان يقع فى مصائب وفى مشاكـل .. بل ان مواطن الزلق ومواطن الضعف كثرت فى عصرنا هـذا ، وتضاعفت** .

وتفسيري انا شخصيا بكـل تواضـع « بيـده » بمعنى **بالسلطة** التي اتاه الله . وهـي عنده بكيفيـة شرعية لا بكيفية غير شرعية . **فالمجتمع مبنـي علـى تنظيم السلط وفصلها ، هناك المشرع سواء كان امامـا او كان رئيسا او كان مجموعة ، هنـاك مشرع : وتحت المشرع منفذون ، لهم أن يتخذوا القوانين التنظيميـة والقرارات التي تجعل ذلك التشريع نافذ المفعـول سهل التطبيـق حتـى يمكن لكل ذي سلطة سلطـة أن يطبقه دون أن يقع فى زلل أو خطـا** .

وهناك تحت الوزراء السلطة الادارية التي تشمل الموظفين الكبار او الصغار والقواد واهل الجبايات والنظار والقضاة وما الى غير ذلك من الموظفين الكبار والصغار .

«بيده» بمعنى اذا كان لك ايها الامام او ايها الملك او ايها الرئيس ، تلك السلطة التشريعية ورايت اما ببصرك او ببصيرتك او بلسانك بمعنى المخبرين . والحقيقة ان اللسان اليوم هو الهاتف والراديو حيث انه يمكن ان تصل الرسائل بسرعة .

فاذا رايت هذا المنكر أو رآه من ينوب عنك وعلمته ولم تغيره فسوف تكون اذ ذاك مذنبا مجرما بالنسبة لله اولا ، وبالنسبة لذلك المجتمع الذي جعلك الله عليه قيما وراعيا ومسؤولا ، فان غيرته ، كنت من المؤمنين المسلمين الذين اذا تحملوا الامانة كيفما كانت هذه الامانة جسيمة أم صغيرة حملوها بصدق وأمانة .. تلك الامانة التي وردت فيها وفى قيمتها احاديث كثيرة ومن اجلها اعتقد : لا ايمان لمن لا امانة له ..

نرى هنا ان التغيير باليد يدخل فى مفهومه الدولة ، الملك او الرئيس والوزراء والولاة والقواد والموظفون والقضاة .

واما « **بلسانه** » **فان لم يستطع** اي لم تكن له هذه السلطة فبلسانه واللسان هنا الاخبار او الكتابة . عليه ان يكتب الى عامل الاقليم او الى والي المدينة او الى قاضي القرية ، ان يكتب له ويمضي كتابه او يبلغه بواسطة الهاتف .. وهو اللسان .. المنكر الذي رآه وشاهده حتى يمكن للقائمين على الامر ان يغيروا ذلك المنكر .

ومعنى بقلبه

« **فان لم يستطع فبقلبه** » .. ما معنى : بقلبه . لا اعتقد ان النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال : **بقلبه** . قصد القلب . لانه ليس من شيمة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا من عبقرية الاسلام ، ان ننطوي وننزوي ، ونكون كالرهبان نتعبد ونستغفر لغيرنا . بل حتى فى « قلبه » اراد بذلك عملا ايجابيا وحركة ... بمعنى : بخلقه فى نظري ، بسيرته . فليكن مواطنا صالحا موظفا تقيا ، رجلا نزيها فى امانته رب اسرة لا يقوم باي منكر ولا باية فاحشة ، بكيفية عامة ، « بقلبه » وبمعنى بقلبه وجوارحه فى كل مظهر من مظاهر سيرته فى مكتبه فى معمله فى حياته العامة او الخاصة . اذ يمكن للانسان ان ينصب نفسه « **مثلا** » فى بيته قبل أن يكون مثلا لاصحابه خارج الدار . **«وانذر عشيرتك الاقربين»** .

كلكم راع ....

وبالامس الامس سمعت عالما جليلا يرثي لحالنا ويقول :

ان الشقة قد ابتعدت بيننا وبين ابنائنا فما الله الذي أراد أن تبتعد الشقة ، وما الاولاد هم الذين فروا من دائرتنا ودائرة آبائهم ، ولكن الاباء هم الذين خانوا مسؤوليتهم وذلك بتنازلهم عن السلطة الابوية التي يجب عليهم ان ينفذوها فى كل وقت وحين تبعا لقول النبي صلى الله عليه وسلم « كلكم راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته » .

هذا هو المنكر وهذه هي وسائل تغييره . ولكن هل وسائل التغيير كلها بيدنا ؟ الم يعطنا الله سبحانه وتعالى وسائل سماوية تعيننا على أن لا يكون هذا المنكر ؟ وان لا ينتشر المنكر ! وان لا نقوم بالمنكر بلى ..

قال الله عز وجل ، « اتل ما اوحي اليك من الكتاب ، واقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله اكبر ، والله يعلم ما تصنعون ..»

اقامة الصلاة قيل فيها ما قيل وقد سمعنا عنها ثلاثة من العلماء تحدثوا عنها باسهاب وبكيفية عاقلة تجعلنا فى غنى عن ذكر « اقم الصلاة » الا انني اريد ان اعطي هنا تشبيها اداريا وسياسيا مرة اخرى فى اقامة الصلاة .

بين المؤمن وربه

يقولون **ان المصلي يناجي ربه** . انا اقول قبل هذا كله ان المصلي يقف امام ربه خمس مرات فى اليوم

فلا يمكن ان نقبل من الموظف او من الضابط او من الشرطي او من الوزير الا يرجع الينا مرات ومرات في اليوم ، ليطلعنا على ما قام به من عمل ، ونسمح لبشر، وزيره هو الله ، ومديره هو الله وضابطه هو الله ، وملكه هو الله ، ان لا يقف امامه سبحانه وتعالى خمس مرات في اليوم ، ليتلو عليه تقريره ويقول له : ها ما قمت به في اليوم وها ما قمت به ...

هذا هو الحد الادنى من الواجب ، اما المناجاة فهي الطبقة الثانية ، ولنا في حياتنا اليومية امثلة ، فكم منا من رئيس ياتي عنده الموظف فيقرا عليه تقريرا ، فاذا كان الموظف من المقربين — كيفما كانت مكانته الاجتماعية — تناجى معه مديره وتذاكر . واذا كان من الذين يتعاطون لمهنتهم بضمير مهني فحسب ، ولم يكن من المقربين اكتفى منه المدير او الوزير بان يتلقى منه تقريره ، وقال له : اذهب الى حال سبيلك . فالوقوف امام الحضرة الالهية — قبل كل شيء — والمناجاة تاتي من بعد .

تواضع العلماء

وهنا — وهذا تطفل وفضول مني اسمحوا لي به — وهنا : اريد ان اذكر شيئا من الفقه المالكي كما يطبق عندنا في المغرب .. قرانا في ابن عاشر : « وكرهوا بسملة تعوذا .. » الى ان قال :

تشبيك او فرقعة الاصابع * تخصر تغميض عين تابع

فجعل بعض المفسرين او تلاميذ الامام مالك رضوان الله عليهم ، ان تغميض العينين مكروه في الصلاة ، والحالة هذه ان تغميض العينين والظلام عند الصلاة ربما يعين المسلم في اول حياته في شبابه ، ان يخلق ذلك الجو الذي من شانه ان يخلق تلك المناجاة شيئا فشيئا ، فحضرة الالاه ، ليست قاعة السينما لا يدخلها من اراد وكيفما اراد . بل ندخلها تدريجيا ، بعمل مستمر ، وحتى نظن اننا دخلناها . ثم نلتفت فنجد انفسنا لم ندخلها بعد وانما تصور لنا اننا دخلناها .

وقال في هذا الامام الغزالي رحمه الله « اذا كان من الشيء ما يمكنه ان يقربك من الله في صلاتك وهو ن تغمض عينيك او تصلي في محل لا ضوء فيه ، فافعل .

مناقشة فقهية

فانا اواخذ على تلميذ الامام مالك عبد الرحمن ابن القاسم رحمه الله وعفا عنا جميعا انه جعل تغميض العينين من المكروه ، كما انه خالف في الصلاة قول النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : (صلوا كما رايتموني اصلي) وذلك لان النبي (ص) كان يقبض في صلاته ، فقالوا : « ما زال صلى الله عليه وسلم يقبض حتى قبض » بمعنى حتى مات . وعند قوله (ص) : « صلوا كما رايتموني اصلي » هناك جزئية لطيفة .. لم يقل صلوا كما اصلي . اذ صلاته صلى الله عليه وسلم اعظم من كل صلاة . ومناجاته اعمق من كل مناجاة ، وخشوعه صلى الله عليه وسلم اكبر من كل خشوع . كما قال البوصيري :

ظلمت سنة من احيا الظلام الى
ان اشتكت قدماه الضر من ورم

بل قال : « صلوا كما رايتموني اصلي »

معنى القبض في الصلاة

لقد حاولت ان افهم معنى القبض ، فقال البعض: لئلا يعبث المرء بيده عند صلاته ، اظن ، فالنبي صلى الله عليه وسلم كجميع الانبياء والرسل كانت لهم معرفة دقيقة بالرياضيات فكانوا يصومون ويواصلون الصيام وكانوا يمشون كثيرا على ارجلهم وكانوا يعتزلون الناس والنساء فترات طويلة كانما عندهم شيء من العلم بما يسمى اليوم « باليوكا » ورياضة اليوكا تقتضي اول ما تقتضي بانه اذا كان الانسان يفكر وكان دمه يدور من روحه فهو بمثابة اسلاك كهربائية ، فمتى شد على اعضائه كلها لم يضع شيء من تلك الطاقة الكهربائية النفسية ، اما اذا اسدل يديه فسيكون شل تلك الخطوط الكهربائية التي تلقى على الارض فيضيع ضوؤها وتضيع قوتها ولا يمكن ذلك الدوران الروحي والمادي في القلب الذي يخلق التخشع والذي يجعل الانسان يصبر على الجوع ويصبر على البرد ويصبر على التعب ..

واقـم الصـلاة

« **واقم الصلاة ان الصـلاة كانت تنهـى عـن الفحشـاء والمنكـر ، ولـذكـر اللـه اكبـر** » — وسنفسر المقصود بهذه الاية — « ولذكر الله اكبر» مما جعل الناس يعتقدون عن بينة أن من ترك الصلاة فهو مشرك وذلك ان هناك حديثا نبويا يقول : « **بين المسلم والمشرك ترك الصلاة** » وجاء فى الفقه الاسلامي أن من ترك الصلاة قتل . وقال الشيخ خليل : « **ومن اقر بوجوبها وامتنع مـن ادائها قتل بالسيف حدا ولو قال أنا أفعل .. وصلى عليـه غير فاضل ولا يطمس قبـره** بمعنـى يبقـى قبره عبرة لمن يعتبر والصلاة على جنازته تجعل جميع المسلمين يفرون منها حتى لا يقال فى فلان انه غير فاضل فصلى على فلان ، لماذا اعتبر الناس والفقهاء بان ترك الصلاة هو شرك ، وقالوا شركا اصغر ، **وانا أقول كما فـي الايمان لا شرك اكبر ولا شرك اصغر ، اما ان نشرك بالله واما ان لا نشرك به** . لماذا لانه قال : « **ولذكـر الله اكبـر** » . فمن لم يذكر الله فى صلاته فمتى سيذكره ؟ فان لم يذكر الله ذكر نفسه . فهو اناني ، وان لم يذكر الله ربما يذكر الطبيعة فيصبح من اولئك الذين قالوا : « الارض تبلع والارحام تدفع ، وما يهلكنا الا الدهـر » ؛ فصار دهريا مشركا والعياذ بالله .

فمن لم يذكر الطبيعة ، ذكـر التاريخ والمادة ، فاصبح ماركسيا لا يعرف للدين قيمة ، ولا يعترف للروح بقيمة فاصبح مشركا والعياذ بالله ، لذلك قيل : « بين المسلم والمشرك ترك الصلاة » .

يسـروا ولا تعسـروا

ولكـن المشكل هنا ليس هو اقرار الصلاة او تبيين الحد لتارك الصلاة بل المشكل هو اننا نـرى الناحية الاخلاقية . فى العالم الاسلامي نرى الشباب — واقول بما اعلم فى المغرب — ربما عسروا عليه الامور ولم ييسروها ، فيا « اللهم يسر ولا تعسر » ، يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه دعـا بلالا حينما نام الجميع ولم يستيقظوا حتى ايقظتهم الشمس، فقال عليه السلام ما هذا يا بلال ؟ قال اخذ بعيني يا رسول الله الذي اخذ بعينك . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بصلاة الصبح ، فصلى الناس .

فيقولون ان الصلاة اذا لم تؤت فى اوقاتها فهي باطلة . لماذا ؟ فهل يعقل ان سائق « **الكارافيل** » يترك طائرته تذهب كما تريد ويصلي ؟ هل يعقل ان سائق القطار يترك قطاره سائرا على هـواه ويصلي ؟ هل يعقل ان الرجل الذي فى المعمل وقد اتعب نفسه فى ان يحرك محركا من المحركات فيسكته حتى يصلي؟؟ حتى يضيع ساعة او ساعتين فى اعادة تسيير ذلك المحـرك ليؤدي صلاتـه .

الصـلاة تعـود .. فلنصـل

هذا نوع من المبالغة ومن الغلـو من شانه ان ينفر الشباب — الذين فى جبلتهم وفى طبيعتهم ان يكونوا نفرين من الديانة — ان ينفرهم وان يجعلهم يفرون منها . اظن شخصيا ان الصلاة قبل كل شيء هي تعود فى الاول . فلنصل . لنعود انفسنا على الصلاة دون أن نبحث عن مناجاة وعن ملاقاة فلنتل فى انفسنـا وجب عليك يا فلان ان تقف امام القبلة وتاتي بالركعات الضرورية وتقرا الفاتحة والشيء التي تعلمه من القرآن فان لم تكن تعلم سورة. فالفاتحة كافية . فاذا نحن تعودنا ان لا يطيب لنا منام بالليل حتى نصلي العشاء نكون اذ ذاك قد وصلنا الى درجة تؤهلنا لان نعطي لتلك الصلاة قيمتها ومعناها ثم نتذوق حلاوتها وندرك كنهها وسرها .

الدين الاسلامي ديـن جماعـة

فبايجاز — كما رأينا فى الحديث — امكننا ان نتناوله من جوانب تنظيم الدولة الاسلامية والمجتمع الاسلامي فى قرننا هذا بالاخص . من باب تعريف المنكـر ، وكيفية مشاهدته ، ومن باب : **ان الديـن الاسلامي هو ديـن جماعة قبل ان يكـون ديـن اجتماع ، والدليل على هذا ان صحابيا سال رسـول الله صلى الله عليه وسلم** فقال له : المؤمن يزني ، قال نعم . قـال : المؤمن يسرق ؟ قال : نعم . قـال : المؤمن يكذب ؟ قـال : لا .

فاذا اخذنا الحديث على ظاهره نجد ان الزنا ذنب اجتماعي وليس ذنبا جماعيا ، حيث انه يهم الفردين . وان السرقة ذنب اجتماعي يهم السارق



والمسروق منــه ، ولكن الكذب من شأنه ان يأتــي على قريــة كلها ، ونقــول كقول الشاعــر :

وكذب قاله سفهــاء قــوم ※ وحل بغير قائله العقاب

ولكن اذا نحن تعمقنا في هذا الحديث نجــد ان النبي صلى الله عليه وسلم استعمل معنــا طريقــة غير مباشرة ، وذلك بانه قال : « او المؤمن يزني ؟ قــال : نعم ، الكذب ، لا . لكن اذا نحن نظرنا بامعان، نــرى الزنــا يكون مبنيا علــى الكذب ، والسرقــة مبنية على الكذب والاختلاس . ففي كليهما الكــذب ، فصار المؤمن الذي لا يكذب يستحيل عليه ان يزنــي ويسرق . وفي كلتا الحالتين يظهــر ان الاسلام ديــن جماعة وديــن اجتمــاع وديــن حشمــة .

لا ارضى لفتياتنــا وامهات ابنائنا ...

فانا لا ارضى لفتياتنا وامهات ابنائنا ان يخرجن الى الشوارع بما يسمى « بالميني جوب » ولا ارضى عن امهاتنــا وفتياتنــا ان يخرجن الى الشارع علــى الكيفية المزعجــة المتحديــة لا للطبيعــة البشريــة ولا لنزوات الرجل فقط ، فالمراة كلها تحدي خرجــت بحجاب او بغيــر حجاب . لكن هذا التحدي للاخــلاق وللصبيان وللاطفال الذين يشاهدون امهم في تلــك الحالة وخالتهم وعمتهم امر غيــر لائق ولا مقبول ، فيجب علينا اذن ان نعلم بان النبي صلى الله عليــه وسلم لم يجعل علينا ديننا ضيقا بل جعله صلى الله عليه وسلم واسعــا : « وما جعل عليكم في الديــن مــن حــرج » .

فعلى من اراد ان يأتي بمثل هذه الامور رغــم الوازع الديني ورغم الوعظ والارشاد فليستتر في قعر بيته ، وليلبس ما شاء في بيته . وليقــل ما شــاء في بيته ، وليلبس ما شاء في بيته وليرقص ما شــاء في من الرقصات في بيته . اما ان يأتي بذلك امام الناس فهو تحد لله ، وتحد لاستمرار الفضيلــة الاسلاميــة وهذه الفضيلة هي التي جعلتنا امة ــ كيفما كــان الحال ــ لا زالت تطمع في خير الله وتطمع في رحمته .

الفنــا ونحن صغار ان نستيقظ في رمضان وغير رمضــان ، فنجد خادمتنا او مرضعتنا تصلي . والفنا في الليلة السابعة والعشرين من رمضان ان نسمعهــا ــ كما يقــول العامة ــ وهي تناجــي « **سيدنا قدر** »

بمعنى ليلة القدر وتقول لنا ونحن صغار : اطلبوا ما شئتم : اطلبوا ما شئتم — سيدنا قدر — سوف يعطيه لكم فمن شب على مثل هذه الاخلاق ، ومن راى مثل هذا ومن آنس فى اهله وفى عشيرته وفى اقاربه مثل هذه الاعمال سهل عليه ان يلقنها لابنائه. اما اذا نحن بقينا على هذه السيرة — **واذا بقيت تعاليم الاسلام مهملة واذا بقي التعليم الاسلامي مهملا فسوف يحق علينا قول الله سبحانه وتعالى : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله ، فانساهم انفسهم »** .

قراران تاريخيان

لذا قررنا ان نصدر امرنا بمجرد انتهاء هذه العطلة ان تقام الصلوات فى جميع المدارس الموجودة فى المملكة المغربية ، ابتدائية كانت أم ثانوية ، ام عالية . وسوف يكون المسؤول على تنفيذ هذا القرار وزير التعليم اولا والمديرون ثانيا ، فان لم يغيروا هذا المنكر وهو ترك الصلاة . فالله يتولاهم وان سمعت بعدم تغييره غيرته .

ثانيا : يجب علينا ان نعتز فى كلياتنا وجامعاتنا باللغة العربية وبالمعرفة العربية .. فيجب علينا اذن ان نزيد فى برامج الكلية مادة . وهي مادة الحضارة الاسلامية او العلم الاسلامي — والاسم لا يهم هنا — فنجعل من ذلك الامتحان انه من لم يحصل على نقطة معدل فى تلك المادة يسقط فى الامتحان كيفما كانت نقطه الاخرى .

فاذا نحن قمنا بهذا ، وقام معنا الاباء فى بيوتهم ، والولاة فى عمالاتهم ، والقضاة فى محاكمهم ، فسيقع شيء غريب وهو اننا سنوقع مع الله فى دفتر واحد، فالله سبحانه وتعالى تنازل وقال : سوف اتعاقد معكم على شيء ، وسوف اضع توقيعي على ذلك الشيء وهو سبحانه وتعالى لم يأت بهذا التعاقد فى حديث نبوي ، ولا فى حديث قدسي ، بل سجله فى دفتر المحافظة الالهية فى دفتر القضاء الاعلى ، فى القرآن الكريم حيث قال : « ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا ، يوتكم خيرا » .

دعاء ... وابتهال ....

فاللهم نسأل ان يلهمنا حتى نعمل الخير فيصير الخير فى قلبنا وينمو فى قلبنا . فيكون فى قلبنا الخير العميم ويكون الله سبحانه وتعالى اذ ذاك علم فى قلوبنا خيرا ، فأعطانا خيرا .

اللهم اهدنا ، اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول ، فيتبعون احسنه ، « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد ان هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، انك انت الوهاب » ، اللهم ارحم جلالة والدنا ، اللهم جازه علينا خير الجزاء جميعا ، اللهم اننا نعترف ان لا فضل لنا ولا قوة لنا ، ولا حول الا ما اعطيتنا انت من فضل ومن قوة ومن حول وما اعطيته لنا بكيفية غير مباشرة على يد عبدك محمد الخامس طيب الله ثراه ، **اللهم انه كان يخشاك فاعطه على قدر خشيته اياك ، اللهم انه كان يحب نبيك وصفيك صلى الله عليه وسلم فاعطه على قدر محبته ، اللهم انه كان يتلو كتابك فاعطه على قدر تلاوة كتابك ، اللهم انه كان يحيي سنتك ، فاعطه على قدر ما كان يحيي سنتك ، اللهم انه كان ياخذ بيد الضعيف فى سبيلك فلا تجعله من المستضعفين يوم القيامة ، اللهم انه بيض وجهنا بين الامم فبيض وجهه يوم تسود وجوه وتبيض وجوه . اللهم انه انار لنا الطريق فانر طريقه ونورضريحه اللهمانه ارانا للعالمين فىمجد وفى حلة الكرامة فاره اللهم وجهك ، وتجل له يا ذا الجلال والاكرام، اللهم اجعل دعواتهورضاه حافا بشعبه ، حافا بهذه الاسرة ، حافا بعبدك المتوكل عليك الخاضع لك المذنب** كجميع العباد ، والمستغفر بقلبه وجوارحه حتى يكون لنا ذلك سددا وعونا ، وحتى يمكننا ان نسير فى الطريق التي رسمها الله ورسمها التاريخ ان نسير فى تواضع وفى اطمئنان ونزاهة واستقامة ، وان تكون من تلك الحلقات المتواضعة التي يربط بها الله الحاضر بالماضي ، وبها يحيى الامجاد الاسلامية .

اللهم وفق بين قلوب ملوك ورؤساء المسلمين

اللهم انك تعلم — وانا نفسي اعرف هذا ، لانني زميلهم — ان هدفهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، ولكن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم .

اللهم ابعد الشيطان عنا : شياطين الجن وشياطين الانس .

اللهم اجعلهم يتحدون حول كتابك .. فنحن جربنا السياسة ، ففرقت بين صفوفنا ، فلنجرب

الديـن ، والملة ، لعـل الملـة والديـن والكتـاب العظيم والسنة النبوية تجمع من شملنـا ما تشتت .

اللهم اهدنـا سـواء السبيـل .

اللهم جـاز العلماء والاساتذة الذيـن القـوا دروسا امامنـا ، ونوروا بذلك افكارنا وافكار امتنا.

اللهم اجزهم احسـن الجزاء .

اللهم اجعله علمهم الذي يعلمون به .

اللهم اجعلهم بذلك فى صف الصالحين والاولياء والشهداء الذيـن يكونون بجانب نبيك صلـى اللـه عليه وسلم يوم القيامة . ولا تخزنا يا رب ، واجعل فى قلوبنـا خيـرا حتـى تعطينا خيـرا ، ونصبـح مشـرفين مكرمين بان نضع توقيعاتنا مـع توقيعات الالاه فى « كنـاش » المحافظة الالهية فى دفتـر القضـاء السماوي .

« ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا ، يوتكم خيرا »

والسـلام عليكم ورحمة الله

« اننا نود ان تصرف عناية بالغة الى التعليم ، وان يعاد النظـر فى مقاصده وبرامجه ومناهجه ، ليصبح موافقا لمقتضيات العصر ، فيستطيع ارضاء حاجيات البلاد ، الى المسائل الضرورية ، التي لا تستغني عنها امة تبني استقلالها على اسس متينة . فيتعين علينا ان نعطي الاسبقية الـى العلوم ، والتكوين التقني والمهني » .

من خطاب جلالة المغفور له محمد الخامس ـ رضي الله عنه ـ فى تأسيس الحكومة الجديدة ـ 12 مايو 1958

الملوك العلويون

وتاريخ جلوسهم على اريكة الملك بالتاريخ الهجري

اسم الملك	من سنة	الى سنة
المولى محمد الشريف	1050	1075
المولى الرشيد	1075	1082
المولى اسماعيل	1082	1139
المولى أحمد الذهبى 1	1139	1140
المولى عبد الملك	1140	1141
المولى أحمد الذهبى 2	1141	1141
المولى عبد الله 1	1141	1147
المولى علـى	1147	1149
المولى عبد الله 2	1149	1150
المولى محمد بن عربية	1149	1151
المولى المستضيىء	1150	1152
المولى عبد الله 3	1152	1153
المولى زين العابدين	1154	1154

اسم الملك	من سنة	الى سنة
المولى عبد الله الرابع	1145	1171
المولى محمد الثالث	1171	1204
المولى اليزيد	1204	1206
المولى هشام	1206	1211
المولى سليمان	1211	1238
المولى ابراهيم	1234	1236
المولى سعيد	1236	1236
المولى عبد الرحمان	1238	1276
المولى محمد الرابع	1276	1290
المولى الحسن 1	1290	1311
المولى عبد العزيز	1311	1326
المولى عبد الحفيظ	1325	1330
المولى يوسف	1330	1346
المولى محمد الخامس	1346	1380

اعتلى مولانا صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثانى عرش اجداده المنعمين عام 1380هـ نضر الله أيامه ، ونشر اعلامه ، وأعلى مقامه ، واطال عمره ، وحفظه قرير العين بولى عهده سيدى محمد وصاحبة السمو الملكى للا مريم .



وانمــا أولادنــا بيننـــا   أكبــادنــا تمشــي على الارض

أُعجب رجال الفكر الإسلامي
في درس
صاحب الجلالة الملك المعظم
الحسن الثاني نصره الله



للأستاذ العميد:
الرحالي الفاروقي

... والملك الحسن الثاني بتواضعه الجميل ، وذكائه الالمعي ، واستعداده الفكري ، ومعرفته الواسعة ، يتبوأ مقام العالم المتمكن ، والمفكر الامين الرصين الذي يربا ولا يعبا بسفاسف المعاني ، ويعدل ولا ينزل عن علياء المعالي ... وكفى شاهدا على ذلك الدرس القيم المحكم ...

تعودنا فى شهر رمضان وهو خير الشهور . ان نتعرض لحياة تتماسك وتتمالك فى المبدأ والغاية . وان نتلقى فيه نسيما كنسيم الصبا او كنسيم الصباح . وان نعيش فى جو تتقبله الامانة . وتترقبه السعادة .

كان ذلك بحكم طبيعة الزمان وشريعة رمضان ثم تزايد عندما احسن عاهل البلاد الاختيار . وآثر ايقاظ سنة من سنن هذه الدار . كانت قد نامت بعد ان قامت على عهد اسلافه المنعمين الابرار . وضاهت فى وضعها وطبعها ما كان يعقد من الحلقات ايام الازدهار .

تلك سنة الدروس الخاصة التي تفالها الجميع . والتي اشرف على وجودها ونظامها البلاط الملكي العامر .

ولقد كان من سنة النبي صلى الله عليه وسلم انه يتخول الناس بالموعظة فى زمن خاص كما كان يدارس جبريل القرآن فى شهر خاص .

وهذه الدروس المبعوثة بمالها من منهج سواء متبع . وبما فيها من انتفاع عام مطلق تعتبر بحق من اعتى الدراسات الاسلامية واعمقها ــ ومن اقوى الوسائل وانفعها لتوجيه الدعوة بمناسبة الوقت الذي ابتدئت فيه هذه الدعوة .

كما انها تعتبر خطوة حاسمة فى الدعوة الى توحيد الصف والعمل من اجله تحت شعار الثقافة العربية الاسلامية ــ هذا الشعار الذي يتجلى فى استدعاء اعيان علماء الشرق العربي الى جانب اخوانهم فى المغرب العربي ، واملنا وطيد ان تتسع هذه الخطة الرشيدة فى المستقبل القريب ، فتشمل اقطار الاسلام وما ذلك على همة امام هذه البلاد ببعيد . **« وما هي باول بركتكم يا ءال ابي بكر »** .

ولئن كنا نرى هذه السنة المتحركة تتوسع فى اطارها المشترك . وتتمتع بانواع التحبيذ والتاييد . فاننا نراها تتمخض سنة بعد اخرى عن مشاريع الخير والبر . ورفع راية الدين الحنيف ــ **فبعد ما وقع تدشين دار الحديث الحسنية اوائل هذه الحركة المباركة فى ليلة القدر ــ وفى محفل حفيل كنتيجة لهذه الرياضة المحمودة . وبعد ان اخذت هذه الدار طريقها باذن الله ثم برعاية الحسن الثاني نصره الله .**

اذن صاحب الجلالة الملك المعظم في شهر رمضان الاخير . وفي خاتمة درسه المفيد باجبارية الصلاة لتلاميذ المدارس على اختلاف صفوفها . والقاء المسؤولية في ذلك على المكلفين بهذه المدارس — وبالمحافظة على اللغة العربية والحضارة الاسلامية .

وما من شك ان هذه المبادرات التي يتردد صداها ويتعدد هداها كان لها الاثر الطيب والوقع المستحب في النفوس .

والملك الحسن الثاني بتواضعه الجميل وذكائه الالمعي واستعداده الفكري ومعرفته الواسعة ، يتبوا مقام العالم المتمكن والمفكر الامين الرصين الذي يربا ولا يعبا بسفاسف المعاني ويعدل ولا ينزل عن علياء المعالي . وكفى شاهدا على ذلك الدرس القيم المحكم . الذي كان في الاغلب من وحي ضميره وبنات فكره . والذي كان مركزا على نقط رئيسية مدعمة بالحجج المنطقية والقواعد الشرعية — والذي ابدى فيه من الدقائق والمناقشات ما جعل الحاضرين والسامعين يقدر قدره ويرفعون وزنه ، ولئن دل ذلك على شيء فانما يدل على خصوبة الفكر وعذوبة المنطق . وحب التجديد والابتكار . وعلى سبيل المثال نسجل بعض النقط باختصار . ((من راى منكم منكرا)) اي ببصره وبصيرته مما دل على ضرورة التعمق في موضوع المنكر حتى لا يؤدي تغييره الى ما هو انكر ((فبلسانه)) يعني تبليغ ذلك باي وسيلة من الوسائل الى من بيدهم سلطة التنفيذ ((فبقلبه)) يعني باخلاقه وسلوكه بين اهله وعشيرته وفي معمله ومتجره مما افاد ان التغيير يجب ان يتجه اتجاها ايجابيا لا اتجاها سلبيا ، الى غير ذلك من الفرائد والفوائد التي تضمنها الدرس .

واذا كانت العلوم منحا الاهية ومواهب اختصاصية فغير مستبعد ان يدخر لبعض المتاخرين ما عسر فهمه على كثير من المتقدمين . والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

مراكش : الرحالي الفاروقي



رجال السلك الدبلوماسي يتتبعون الدروس الحديثية

حديث ملك المغرب الديني

لسماحة الشيخ عبدالله غوشة
قاضي القضاة ورئيس الهيأة العلمية
الاسلامية بالقدس .

« ... والحقيقة انني لم أكن أظـن أن جلالته على هذا القدر من العلم ، ولا انه واسع الاطلاع بهذا الشكل .. »

اختتمت (الدفاع) الجريدة اليومية الاردنية عودة سماحة الشيخ عبد الله غوشه قاضي القضاة ، ورئيس الهيأة العلمية الاسلامية بالقدس لاعطائها نظرة عـن ارتساماته بعد رجوع سيادته من المغرب ، تلبية لدعوة جلالة الملك الحسن الثاني للاستماع الى الاحاديث الدينية التي تلقى خلال شهر رمضان المعظم .

فأجاب سماحته بما عرف عنه من سعة صـدر وترحيب :

(بالفعل تلقيت دعوة جلالة الملك ، وزرت المغرب الشقيق ، وكنت اجتمع بجلالة الحسن الثاني يوميا في مسجد ضريح مولاي الحسن الاول والملك محمد الخامس ، اذ كانت تلقى فيه الاحاديث الدينية التـي استمرت نحو 11 يوما .

وقد القيت حديثي في تفسير لقوله تعالـى : (واعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا ، واذكـروا نعمة الله عليكم ، اذ كنتم اعداء ، فالف بين قلوبكـم ، فاصبحتم بنعمته اخوانا) .

ذكرى المجالس العلمية

والواقع ان السنة التي ينتهجها جلالـة الملـك الحسن الثاني في استماعه للاحاديث الدينية خلال ايام شهر رمضان الفضيل سنة حميدة تعيد الينا ذكـرى المجالس العلمية التي كانت تعقد في ايام المسلمين الاولى بحضور الخلفاء والملوك والامراء ، وكبار الرجال .

كانت هذه الدروس تلقى بحضور جلالة الملـك الحسن الثاني ، اذ يجلس على الارض ، ويجلس امامه العلماء ، وعن يمينه سفراء الدول العربية والاسلامية ، وعن يساره الوزراء ورجال الحكم والمدراء ورجـال الثقافة والفكر ، وقد دعي لحضورها اربعة علماء من الدول العربية : اثنان من الجمهورية العربية المتحدة ، وواحد من تونس ، وانا عن الاردن ، وبقية العلماء من المغرب ، وهم كثيرون .

وكان يلقي كل عالم درسا يوميا واحيانا يلقـي درسين ، وامام العالم الذي يلقي درسه ميكروفـون حيث يذاع من الراديو والتلفزيون ، ويستغرق الحديث اكثر من ساعتين ، ومن بين العلماء الذين القوا احاديث دينية السيد علال الفاسي .

اما حديثي ، فقد استغرق نحو ساعة وعشرين دقيقة ، كما القيت حديثين آخرين ، احدهما في جامع الرباط الكبير بعد صلاة الجمعة ، والاخر في مسجـد مدينة (سلا) في اليوم التالي ، وموضوع الاول (الايمان الحقيقي الذي لا ارتياب فيه) والثاني : (شهر رمضان المبارك) .

حاجتنا الى وحـدة واتحـاد

واما سبب انتقالي لتفسير قوله تعالى بالذات : (واعتصموا بحبل الله جميعا ...) فلانني اعتقد انه موضوع الساعة . والعرب والمسلمون في حاجة ماسة

الى وحدة واتحاد قويين متينين قلبا وقالبا ، ليتمكنوا من الصمود امام اعدائهم والتغلب عليهم .

وبغير هذا ، ليس للمسلمين والعرب من امل يرتجى فى حياة طيبة او فى حرية وكرامة واستقلال ، فالاسلام يريد من المؤمنين ان يكونوا وحدة واحدة متماسكة على تباعد ديارهم ، وتعدد اجناسهم ، واختلاف السنتهم والوانهم ويقول تعالى : (انما المؤمنون اخوة) وان على العرب والمسلمين واجبا كبيرا ، وهو ان يصلحوا بين الفئات المتنازعة فى هذه الايام . اذ ان الضرر الذي ينجم عن هذا النزاع ، لا يقتصر على الفرقاء المتنازعين فحسب ، وانما يعم جميع الاشقاء .

ولا يجوز لاي فرد او جماعة او دولة ان تقول : ما دمت لست طرفا فى النزاع فلا شان لي به ، فمن شان المؤمن ان يحب لاخيه ما يحب لنفسه ، وان يهتم بشؤون اخوانه ، يسره ما يسرهم ويسوءه ما يسوءهم وجاء فى الحديث الشريف : « من لم يهتم بامر المسلمين فليس منهم » .

وقد تعرضت فى حديثي لقضية فلسطين، وذكرت ان هذه القضية هي قضية عربية اسلامية ، وان على المسلمين والعرب ، فى جميع اقطارهم ، واجب الدفاع عنها ، كما دافع عنها اسلافنا الاكرمون . وعليهم ايضا ان ينبذوا الخلافات الجانبية ، ويقفوا كتلة واحدة ، فى سبيل تحرير فلسطين الغالية ، واستعادة الحقوق المهضومة ، واعادة ما فقدوه من عزة وكرامة .

ووجدت فى المغرب دماثة ، وحسن الخلق ، وطيب المعشر ، وكرم الوفادة ، وانا الان احمل لهم كل محبة وتقدير وثناء ، كما اشكر الملك الحسن الثاني على عطفه ورعايته .

واحب ان اقول ان هناك نهضة دينية رائعة : اذ توجد جامعة القرويين فى فاس ، ودار الحديث فى الرباط ، وكلاهما لتخريج العلماء للوعظ والارشاد .

حديث ملك المغرب الديني

وكان الحديث الديني الاخير من سلسلة المحاضرات الرمضانية لجلالة الملك الحسن الثاني فكان مسك الختام وقد شرح فيه قوله عليه السلام : (من راى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه، وذلك اضعف الايمان)

والحقيقة لم اكن اظن ان جلالته على هذا القدر من العلم ، ولا انه واسع الاطلاع بهذا الشكل .

فقد استشهد فى شرح حديثه بكثير من الايات القرآنية الكريمة والاحاديث النبوية والاثار . وهو يحفظ القرآن الكريم حفظا جيدا ـ كما علمت ذلك ـ وجلالته يحب العلم والعلماء .

وبهذه المناسبة فقد تفضل فمنحني وسام الكفاءة الفكرية الذهبي من الدرجة الممتازة ، وانا اشكره جزيل الشكر على ذلك .

الاردن : عبد الله غوشة

قاضى القضاة بالمملكة الاردنية





... الا فليهدأ بال الحيارى .. فان القائد ماهر .. ولتقر عين رسول الله صلى الله عليه وسلم في برزخه الشريف، فان من اولاده ملكا عالما، وحاكما عادلا ...

للشيخ احمد عبد الرحيم عبد البر

استمعت الى الحديث الديني الجامع الذي القاه امير المؤمنين مولاي الحسن الثاني ملك المغرب فى ختام دروس شهر رمضان ، فايقنت ان الله قد اكرمني بالاستماع الى ملك عالم ، والتلمذة على عالم ملك ، وكنت اتصور ابن رسول الله يشرح حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصرت اقول : (والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) .

واكتسبت همة ، وازددت يقينا ، بشرف الدعوة الى الله عز وجل والتبليغ عن رسول الله (ص) .

وصرت مع السامعين نلمس بايدينا مواطن عزنا واسباب مجدنا ، ونصغي الى تشخيص الداء ووصف الدواء ، من عالم ماهر .

واسترشدت فى فن الدعوة الى الله الى ما ينبغي ان يكون عليه الداعي : وقار العالم ، والاسلوب السهل الممتنع ، والحجة الظاهرة ، والقلب النقي يملي على اللسان الفصيح ، والعقل الذكي ينظم القضايا بمقدماتها الصحيحة ونتائجها الصادقة .

ثم بدا الكلام — حفظه الله — ببيان مباني الحديث والفاظه .

لناخذ المعاني من نص الفاظ الرسول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى . وافاض فى شرح المادة اللغوية وابدع فى النطق الصحيح السليم حتى لم تفته شاذة ولا فاذة مما قد يخفى على كثيرين من اهل الفن .

فاذا جاء بمعنى جديد نسبه الى نفسه بتواضع جم وادب رفيع ، يسال نفسه ثم يجيب .. كانه يطلع على ما يخطر ببال السامعين من شبهات فيلاحق الشبهة بالجواب السديد ثم يخطو الى الناحية الايجابية .. فتذكرت عمل القائد الماهر يحتاط بالصيانة والوقاية وحماية الظهر والجوانب ثم يكر ايجابيا ويسير الى الامام فادخل فن الحرب فى فن الدعوة الى الله .. فكنت ابتسم اعجابا ، وانفعل استجابة ثم اقول : هذا من فضل الله .

ثم وضح — نصره الله — عمل القلب اوضح بيان بارقى اسلوب فقال (فان لم يستطع فبقلبه) حيث ارشدنا الى اهمية اعمال القلوب فان القلب هو مجمع المحركات النفسانية ومنه تنبعث الحركات ... كما قال البوصيري رحمه الله :

واذا حلت الهداية قلبا

نشطت للعبادة الاعضاء

فلا يكفي ان ينكر الانسان بقلبه ويسكت ، بل لابد من ان يظهر عمل القلب فيدفع صاحبه الى ان يجعل من نفسه صورة حية للحق ونموذجا كريما الصدق فيبدا واحدا ... ولن يعدم بعد ذلك زميلا موافقا ثم يتكاثر اهل الصدق .. واقل الجمع اثنان .

ولقد مدح الله صاحب القلب السليم وذم من فى قلوبهم مرض لان القلب هو باعث الحركة ايجابا واسلوبا

فهي ملاحظة دقيقة ومعنى رفيع طالما اسهب فيه اهل التصوف الشرعي والتربية النقية والتهذيب السليم .

فراجعت بعد ذلك مادة (القلب) واستعرضت كتاب الله اتلوه فوجدت ان الله عز وجل كثيرا ما ربط الاعمال بالقلوب .

فالذين يحبون ان تشيع الفاحشة ، والحاسدون، واصحاب الظن السيء يعملون بقلوبهم ثم تسرى اعمال القلوب الى الجوارح باعمال شنيعة .

والذين في قلوبهم مرض تحيروا ثم ضاعوا وساءت سمعتهم لما كان في قلوبهم .

والخاشعون في قلوبهم ظهر الخشوع على جوارحهم اعمالا صالحة .

والله عز وجل ينادي عباده المؤمنين بهذا الاسلوب الكريم فيقول : (الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟)

فمن انكر بقلبه فلن يقف مكتوف اليدين حيادا يترك الشر يستفحل بل سيبدا بنفسه ليصنع من نفسه النموذج الحي اولا .

فتستفيد المثل العليا بذلك واحدا يتلوه ثان وثالث ، واول الغيث قطر ثم ينهمر ...

واستفدت واستفاد السامعون معي ان الرياضة البدنية تخدم الدين ، وان العلم يخدم قضايا الدين ، وان كل تهذيب نفسي وتحليل علمي انما يمكن الاستفادة به لو وجد بصيرة نيرة وعالما ماهرا وقلبا مستعدا للخير .

وما احسن ما شرحه مولانا امير المؤمنين — ادام الله عزه — معنى ما بين الحلال والحرام من مشتبهات ... وهي محل عمل القلب في ادراكها ، ومحط الاجتهاد في الوصول الى حكمها ... وهنا ميدان كبير يعمل فيه المجتهدون ويصول فيه العالم ويجول ويسهر الليالي ليحقق ويدرك ، حتى كتبت فيه موسوعات للتربية والتهذيب والورع وترك ما يريب الى ما لا يريب

وحتى نصل الى قمة الورع كما قال الرسول (ص) :

لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا باس به حذرا مما به باس .

وضح — زاده الله يقينا — كل ذلك في عبارات سهلة موجزة تغني عن الاسفار وحمل الاسفار وتقرب البعيد وتاتي بعصي الصيد .

وادهشني جدا وفرحت واطمان قلبي .. ان يتكلم مولاي امير المؤمنين عن عمل الملك كمسؤول امام



الله وامام الشعب كما تكلم عن القوة التنفيذية حتى عن سلطة الاباء للتنفيذ في الاسرة ، وبذلك وضع السيف في يد بطل وبث في المؤمنين القوة في الحق ، والشجاعة التي تتطلبها اعمال الاسلام باقدام وحزم ويقين .

المناجـــــاة :

وما احسن ما شرحه مولانا امير المؤمنين من حالات المصلين امام الله ، فمنهم من يدخل في الصلاة لينفذ امرا ويطيع ربه .. ومنهم من يتدرج بعد ذلك الى درجات المقربين ، فيناجي مولاه وقد جعل له الرحمن ودا بعد عمل الصالحات كما قال تعالى : (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) كحالات الموظفين الذين يقدمون التقارير الى رئيسهم : فهم مختلفون في اللقاء على حسب الود السابق .

وكان القراران التاريخيان في نهاية الدرس تنفيذا عمليا لما قال :

1) **اقامة الصلاة جماعة في المدارس ليتعود التلاميذ على الخير .**

2) **الاعتزاز باللغة العربية والتعاليم الدينية والثقافة الاسلامية .**

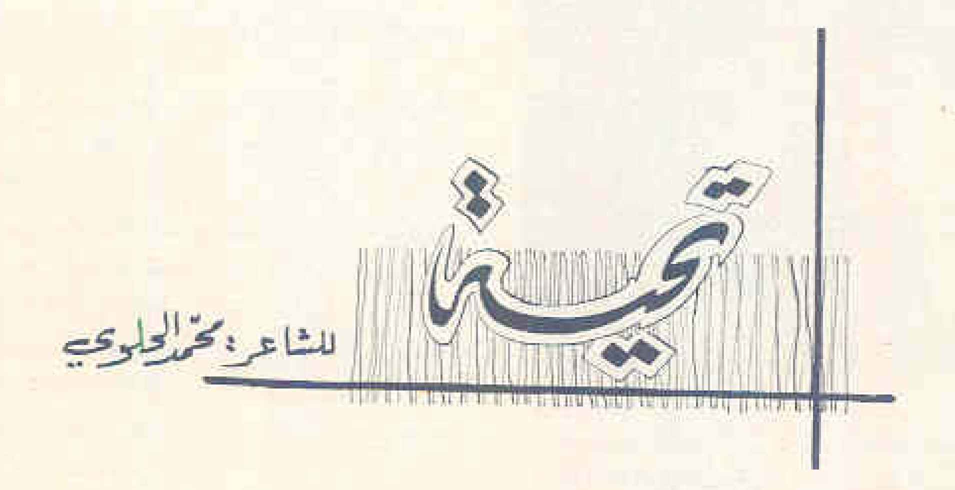
*

الا فليهدا بال الحيارى .. فان القائد ماهر .

ولتقر عين رسول الله صلى الله عليه وسلم في برزخه الشريف ، فان من اولاده ملكا عالما وحاكما عادلا .

ووراءه شعب يستجيب ويطيع يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولوا الالباب .

مصر : احمد عبد الرحيم عبد البر



هللي يا ربوات الاطلس الحر ... وغني اليوم قدسي النشيد

والبسي تيجان أمجادك عذراء ... تهادت فى اكاليل ورود

واملأي الدنيا أهازيج بطولات ... مجيدات لقومي وجدودي

وانشري عطرك فواحا ... بذكرى ضمخت وجه الوجود

زغردي يا ربوات الاطلس الحر ... فهذا عيدك الغالي وعيدي

فأنا من نشوة الفرحة عربيد ... طليق من اساري وقيود

مذ وثبنا وثبة العرب المغاوير ... وثرنا فى حمانا كالاسود

ورفعنا العلم الاحمر خفاقا ... سناه بين هاتيك البنود

وقذفنا بالدخيل المعتدي فى ... عزة شامخة خلف الحدود

وانبعثنا أمة تزحف للمجد ... بايمان وعزم كالحديد

ما انحنت يوما لجبار ولم ... يخضع بنوها لاناني حقود

ورأى الباغون أنا أمة ... لم تشب يوما باخلاق العبيد

قد عدلنا حكمنا أمما ... وعقدنا فوفينا بالعقود

زغردى يا ربوات الاطلس الحر ... فهذا عيدك الغالي وعيدي

* * *

حدثي الاجيال عنا اننا ... أمة ثارت على كل دخيل

بذلت أرواحها طائعة ... لارتجاع العز والمجد الاثيل

علمت أن ليس ادراك المنى ... لمريديها بأمر مستحيل

فسعت للموت والموت لها ... فاغر فاه على كل سبيل

جولة كانت وما اروعها ... أسفرت كالليل عن صبح جميل

فى حمى الله وفى ذمته ... كل مقدام فدائي أصيل

عانق الموت وفى أجفانه ... دمعة تسري على خد أسيل

وسقى بالدم أرضا فزكا ... غرسها بعد شحوب وذبول

وانطلقنا خلف شهم حسن ... طاهر النبعة من خير رسول

ورث المجد فتى عن ماجد ... وارتوى فرعه من تلك الاصول

ألمعي مشرق الذهن اذا ... أظلمت يوما منارات العقول

يا بن من قادوا وشادوا وحموا ... شعبهم من كل محتال دخيل

وحد الصف وقدها أمة ... وأرحها بعد من قال وقيل !

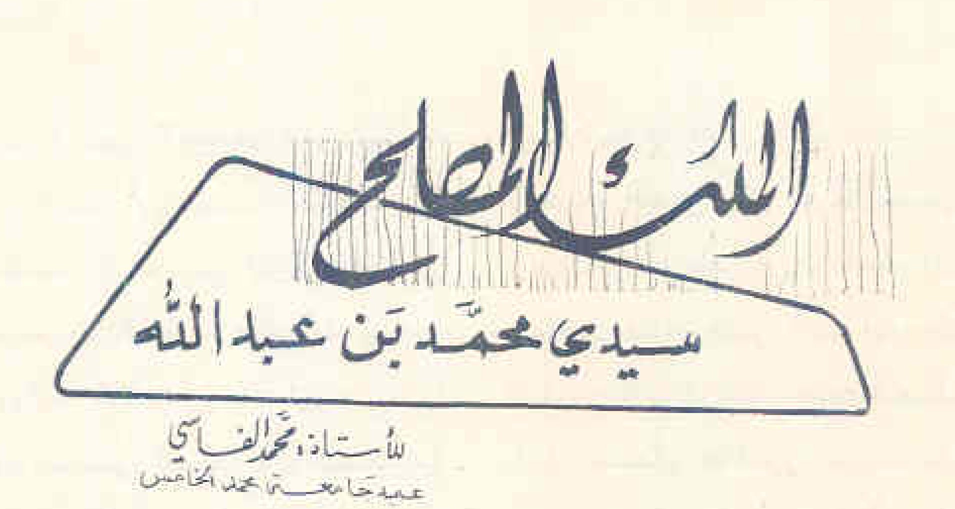
وأعدها سمحة طاهرة ... من عوادي الرجس والكفر الذيل

وارتجع من كل باغ أرضنا ... بسلاح العقل والحد الصقيل

أنت حاميها ومن كنت له ... حاميا ، أصبح فى حرز ظليل

وابق للشعب أمانا ومنى ... وأبا يرفل فى عمر طويل

تطوان — محمد الحلوي



للأستاذ: محمد الفاسي
عميد جامعة محمد الخامس

شاهد المغرب بعد وفاة السلطان المولى اسماعيل فترة عصيبة من تاريخه ، تميزت بالفوضى والفتن والمشاحنة على الملك ، مما أدى الى اختلال عام في الحياة المغربية من سائر الوجوه حتى قيض الله له ملكا عظيما يعتبر احد القادة الافذاذ في تاريخ الشعوب عموما وفي تاريخنا بوجه خاص الا وهو سيدي محمد بن عبد الله ابن اسماعيل الذي أعاد للمغرب الهدوء والرفاهية وبواه مقاما مرموقا بين الامم في الشرق والغرب .

وتاريخ سيدي محمد بن عبد الله حافل بالاعمال الجليلة والمنجزات العظيمة ولا يمكن في عجالة قصيرة ان يشار اليها بتفصيل وانما نريد في هذه الكلمة ان نرسم الخطوط الرئيسية لهذه الحياة .

ولد سيدي محمد بن عبد الله بمدينة مكناس سنة 1134 هـ وربي في أحضان جده المولى اسماعيل ، وقد اعتنى بتعليمه على قاعدة الملوك العلويين الذين يولون العلم اهتماما كبيرا ، ولما بلغ التاسعة من عمره صاحب جدته السيدة خناثة بنت بكار لما توجهت للديار المقدسة لاداء فريضة الحج وكان دون بلوغ اذ ذاك . وبعد الرجوع من الحجاز تابع تعلمه وممن اخذ عنهم ابو محمد عبد الله بن ادريس المنجرة . وكان له على صغر سنه ولوع بالعلم واقبال كبير عليه ، حتى صار له باع طويل في كل فنونه العقلية والنقلية . قال القادري في نشر المثاني بعد ان اشاد بعلمه : (فهو ادام الله نصره سلطان العلماء وعالم السلاطين) .

وقد اتاح له التفرغ لطلب العلم انه لم تنط به اية مسؤولية سياسية حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره حيث عينه والده خليفة عنه بمراكش . وهنا ظهرت مواهبه السياسية ومقدرته على تسيير شؤون البلاد وتحمل اعباء الملك اذ الخليفة بمراكش يكون له شبه استقلال فاذا كانت له شخصية قوية استطاع ان يقوم بأعمال كبيرة .

وهكذا نرى سيدي محمد في خلافته بمراكش مشمرا على ساق الجد في الاصلاح والتنظيم ، ساعيا في توفير اسباب الراحة لكل افراد الشعب ، جاعلا نشر العلم من آكد مهماته فاستدعى عددا من علماء فاس وبثهم في مساجد عاصمة الجنوب لالقاء دروس في مختلف العلوم واسس المدارس الخاصة لذلك .

والتفت الى حالة الجيش فنظم شؤونه واتخذ العساكر من الفرسان والمشاة وبنى الدور لسكناهم ، وتقدم بجنوده الى بلاد سوس فنشر الامن فيها ودوخ القبائل العاصية .

واهتم بالعمران فبنى المساجد والقصور واسس البساتين التي تدر ثمارها الخير على البلاد مما هو مشاهد الى الآن .

وقد انتشر ذكره في المغرب بما قام به من هذه الاعمال مدة اثنتى عشرة سنة واحبه الخاص والعام ، فلما توفي والده مولاي عبد الله تسارع أهل الحل والعقد بالعاصمة الفاسية الى مبايعته وعلى راسهم كبار العلماء كأبي القاسم العميري وابي حفص الفاسي والشيخ التاودي ابن سودة ومحمد بن قاسم جسوس وابي مدين الفاسي وهو الذي تولى انشاء البيعة وكتابتها بيده وذلك يوم الاثنين 25 صفر 1171 ثم انتخب وفد من العلماء والاعيان وقصد مراكش لتقديمها لسدته ، فوجده بأحواز مراكش قاصدا مدينة فاس فاقتبلهم خير مقتبل وتابع سيره الى عاصمته .

وكان سيدي محمد في الثامنة والثلاثين من عمره وقد حنكته تجارب الحكم وكان من الساسة الموفقين ومن رجال الاصلاح الملهمين ، فلما جلس على عرش اسماعيل اخذ يدير امره بحكمة وحزم ونظام يشمل سائر النواحي الداخلية والخارجية . فكأنه وضع برنامجا مفصلا واخذ يطبقه فصلا فصلا مبتدئا بالاهم في الاهم .

ولا شك ان اول ما يجب الاعتناء به في سياسة الامم هو حفظ كيانها ، ولا يتأتى ذلك الا باتخاذ الجيوش المنظمة وآلات الحرب الراقية ، وذلك متوقف على المال ، فتكون اذن السياسة المالية هي اول الواجبات وذلك ما فعله سيدي محمد ، بل ذلك ما كان يهتم به قبل مبايعته ، وهو سبب نجاحه في خلافته بالجنوب .

وهكذا نراه يوجه عنايته بعد مبايعته وقدومه من مراكش الى فاس في اول ما اعتنى به الى هذه الناحية ، فأحدث ضرائب غير مباشرة كانت تسمى في الاصطلاح المالي المغربي « المكس » .

وقبل الاقدام على احداث هذا المكس بفاس وبسائر مدن المغرب استفتى علماء فاس في ذلك فافتوه بان السلطان ان يوظف على الرعية مالا تدفعه ليستخدم به الجند للدفاع عن بيضة الاسلام ، وممن افتى بذلك من علماء وقته الكبار الامام ابو حفص عمر الفاسي والعلامة ابو عبد الله بن قاسم جسوس والقاضي عبد القادر ابو خريص والشيخ التاودي ابن سودة وغيرهم ، فعند ذلك احدث ضريبة على الابواب وعلى ميزان قاعة السمن وعلى ميزان قاعة الزيت وغير ذلك بمعنى ان كل من يبيع شيئا من المواد المجعول عليها ضريبة يؤدي قدرا من المال لامين خاص ، وكانت تلك المداخيل تقدر كل سنة ويبيعها السلطان لاحد المتمولين يدفعها مقدما ويكلف هو من يقبضها ، وما زاد على القدر المقدر يكون ربحا له وما نقص فهو يخسره . والذي كان يشتريه في ايامه باشا فاس الحاج محمد الصفار ثم ولده العربي بعد وفاته ، وقد اشتراه الحاج محمد الصفار في السنة الاولى من احداثه بائتي عشر الف مثقال .

وقد كان هذا المكس من اهم الموارد التي اعانت السلطان سيدي محمد على جلائل الاعمال التي قام بها .

ومن الاهتمام بمالية الدولة بحثه اول وصوله الى فاس بعد مبايعته على بيت مال الدولة . قال الناصري في الاستقصا ج 4 ص 92 : ومن الغد جاء الى دار الدبيبغ فدخلها ووقف على متخلف والده من مال واثاث وسلاح وخيل الى ان عاينه واحصاه وابقاه بيد من كان بيده من اصحاب والده واوصاهم بالاحتفاظ) (استقصا ج 4 ص 92) وكذلك بحث عن سائر مال بيوت الاموال بالعواصم المغربية واحصاه وكلف به الامناء .

ثم بعد ان نظم مسألة المال من سائر وجوهها من زكوات واعشار ومكوس واحباس واملاك مخزنية ومداخيل المراسي واتخذ لكل ذلك دواوين خاصة وموظفين اكفاء امناء ، التفت للناحية العسكرية وهي التي عليها المدار لحفظ كيان الامة كما قدمنا ولضمان هيبة الدول الاجنبية لها .

فكان اول ما اهتم به في هذه الناحية اعادة تنظيم جيش العبيد فامر بجمعهم من كل القبائل التي كانوا تفرقوا فيها وفرق عليهم العطايا والملابس والخيل المسومة وجعل عليهم قوادا واعاد لهم سابق مجدهم ، الا انهم كانوا في ايامه كما كانوا ايام جده المولى اسماعيل خاضعين لسلطته منفذين لاوامره ، لا تسول لهم نفسهم شيئا من التمرد الذي قاسى بسببه المغرب المرائر في ايام الفترة .

وكذلك اعتنى بجيش الوداية واعاد تنظيمهم وفرق عليهم رواتبهم وسجلهم من جديد في ديوان الجيش الا انهم على خلاف جيش عبيد البخاري بقوا على ضلالهم الماضي ولم يقدروا صرامة السلطان سيدي محمد حق قدرها وظنوا ان في امكانهم ان يسيروا بالسيرة التي كانوا عليها ايام المولى عبد الله وهيهات .

اذا رايت نيوب الليث بارزة

فلا تظنن أن الليث يبتسم

وقد كانت في الماضي منازعات دائمة بين قبيلتي ايت يدراسن وجروان وكان الوداية يتحالفون مع جروان ، فامر السلطان ان تنتهي هذه العداوات وتلزم كل قبيلة السكينة وتقبل على ما يهمها . ولكن حدث نزاع على العادة بين القبيلتين فقصد الوداية ايت يدراسن ووقعت بين الفريقين حرب قرب مكناس بالمحل المسمى ويسلن كان النصر فيها حليف ايت يدراسن وحلفائهم ايت يمور وجيش العبيد الذي وجهه عامل مكناس لاعانة ايت يدراسن وكانت الهزيمة على جروان والوداية الذين قتل منهم في هذه المعركة خمسمائة رجل ، وقد اغتاظ سيدي محمد غيظا عظيما لعصيان الوداية وامرهم بعدم متابعة الخلافات القبلية واوقع بهم لما وصل الى فاس في رحلته الى الشمال للمرة الثانية وهو ملك وذلك سنة 1174 ونفاهم الى مكناس حيث بقوا الى ان ارجعهم المولى اليزيد ابنه في

اول ولايته ، وكذلك اوقع بقبيلة سفيوة التي كانت من الطغيان والاستخفاف بالدولة كما يقول الزياني في البستان على غاية لم تكن لاحد فلما نكبهم السلطان في سنة 1175 استقامت طاعتهم وصلحت احوالهم .

وعندما تم له ما كان يريده من ضمان الموارد المالية ومن اتخاذ الجيش الذي بسببه عم الامن في المغرب ودخلت كل قبائله بدون حرب في طاعته اهتم باصلاح الشؤون العامة الداخلية منها والخارجية فبدأ اولا بالعمال والولاة ، فقد كان اقر في اول مبايعته سائر موظفي والده على ما بيدهم من الوظائف حتى يسبر غورهم ويرى الصالح منهم وغير الكفء وهذا عمل العقلاء العادلين . ثم لما تبين له ذلك وتحقق ان بعض الولاة الذين كانوا مستبدين ايام والده بل مستقلين عنه اعتادوا تلك الاحوال المنافية لجمع الكلمة ووحدة الامة وظهورها بمظهر النظام اخذ بعزلهم واحدا بعد الآخر ففعل ذلك بقائد سلا عبد الحق فنيش بل لم يكتف بعزله وأمر بقتله ، وقد شرح ذلك المؤرخ الناصري صاحب الاستقصا بتفصيل (1) .

وكذلك عزل احد قواد دكالة واودعه السجن تسعة اعوام ثم سرحه وهو القائد الحاج علي بن العروسي الدكالي البوزراري وبعد اطلاق سراحه ولاه قائدا على مدينة شفشاون وكذلك عزل قائد تامسنا المسماة اليوم بالشاوية وهو المسمى ولد المجاطية وقائد تادلة الرضي الورديغي وغيرهم من القواد الظالمين رؤوس الفتنة فاراح الله البلاد منهم وكانوا عبرة لغيرهم فاعتبروا وتحققوا ان الاحوال تغيرت وانه لا ينفعهم مع هذا الملك العظيم الا الاستقامة والقيام على ساق الجد في خدمة الصالح العام وتنفيذ ما يرسمه السلطان المصلح من خطط .

وعزل كذلك بعض الولاة الشرعيين كقاضي مراكش ابي فارس عبد العزيز العبدلي وكان كما يروي الزياني كلما عزل قاضيا الزمه الخدمة ببابه وضمه لكتابه وكان يستفهمهم في تحقيق شكايات الرعية بالعمال فكانوا يتوجهون بامره لمقر العامل مع المشتكين ليحققوا في القضية ويرفعوا التقارير لسدته ليعمل فيها برايه .

فنتج عن هذه التدابير الجريئة ان تحسنت احوال البلاد وامن كل واحد على نفسه وعرضه وماله واقبل الناس على اعمالهم بجد ونشاط فترقت الصنائع وازدهرت المعارف وعم العدل سائر البلاد وهو اساس كل رقي وتقدم وانتشر صيت السلطان سيدي محمد في البلاد الاجنبية فوفدت عليه السفارات بالهدايا الثمينة كما سنبينه في كلامنا على علائقه الخارجية بدول الشرق والغرب .

ومن اهتمامه بشؤون البلاد الداخلية اصلاحه العدلية اصلاحا لابد ان نتعرض له بشيء من التفصيل .

كان سيدي محمد بن عبد الله عالما جليلا له اطلاع واسع على التاريخ والادب مما حصله ايام خلافته ، فكان مكبا على دراسة كتب الادب والتاريخ والسياسة ، قال الزياني عنه : (كان يستحضر كل ما يطالع حتى كاد أن يحفظ كتاب الاغاني برمته لا يعزب عنه منه الا النادر) ثم بعد مبايعته اشتغل بدراسة كتب الحديث واقبل على ذلك بكليته في اوقات فراغه حتى تبحر في علوم الحديث وكانت له آراء خاصة في المذاهب الفقهية والكلامية وكان في الحقيقة سلفي النزعة يقول عن نفسه في كتاب الفتوحات : (المالكي مذهبا الحنفي اعتقادا) يعني بذلك انه لا يقول بمذاهب المتفلسفة من المتكلمين وأنه في اعتقاده على مذهب اهل السنة من الحنابلة الذين لا يزيدون على ما ورد في صريح القرآن والسنة الصحيحة من صفات الله تعالى وهذا هو مذهب السلف الصالح رضوان الله عليهم .

وقد ساعدته ثقافته العلمية الواسعة على تفهم احوال القضاء الشرعي تفهما جيدا ولاحظ ما في نظامه من اعوجاج فدرس هذه المسالة دراسة مستفيضة وكان له مجلس من العلماء يستشيرهم في كل الامور ولا يعتمد على مجرد نظره وبعد ذلك اصدر امره في منشور لكافة قضاة ايالته باصلاح العدلية ، وقد نشر هذا المنشور بكامله المؤرخ المرحوم مولاي عبد الرحمن ابن زيدان في كتابه « اتحاف اعلام الناس » ج 3 ص 188 — 211 .
ومن الاطلاع عليه يظهر انه كان يجتهد في كثير من المسائل ويرتكز في نظرياته على المصلحة العامة كما تبينه من احوال الرعية والقضاة والعدول والوكلاء . الا ترى كيف يامر القاضي في خصومة بين فقير وغني ان يعمل بالقول الذي يؤيد الفقير اذا تساوى القولان مع ان الغني والفقير في الحق سواء ولا يجوز الحيف على الفقير كما لا يجوز على الغني . ولكن ظهر لسيدي محمد تقديم مصلحة الفقير لما يعلمه من انحياز الولاة لاصحاب الاموال . وهكذا في جل اصلاحاته العدلية .

---

(1) انظر الاستقصا ج 4 ص 103 .

وكذلك اهتم باصلاح التعليم بجامعة القرويين فاصدر في ذلك مرسوما يأمر فيه بقراءة التفسير والحديث والفقه بالكتب القديمة ومن اراد أن يدرس مختصر الشيخ خليل فانه يحذره من استعمال الشروح المطولة كالزرقاني وكذلك يأمر بتدريس السيرة والنحو والصرف والبيان والادب والحساب والفلك ، اما علم الكلام فانه يأمر ان يقتصر فيه على العقائد السلفية كرسالة ابن أبي زيد القيرواني ، ويحذر من غيرها قائلا : (ومن اراد ان يخوض في علم الكلام والمنطق وعلوم الفلاسفة وكتب غلاة الصوفية وكتب القصص فليتعاط ذلك في داره مع اصحابه الذين لا يدرون انهم لا يدرون ، ومن تعاطى ما ذكرنا في المساجد ونالته عقوبة فلا يلوم الا نفسه) (ابن زيدان ج 3 ص 213) .

واعتنى بالناحية الاخلاقية فاصدر وصيته للامة المغربية ملاها بالنصائح الثمينة لكل طبقات الشعب مقدما فيها الحث على طلب العلم خصوصا في البوادي جاعلا مسؤولية في عدم انتشار العلم بها على العمال قائلا في ذلك : (لانهم (أي العمال) ينبغي لهم الغبطة في العلم والعلماء وتقريب اهل الخير والدين واعانة النجباء من قبيلتهم على طلب العلم من محله واخذه عن أهله) (ج 3 ص 256 — 257) وقد اطال في هذا الموضوع نظرا لاهميته مما لا يزال العمل به صالحا الى الآن .

كما تعرض في هذه الوصية لمسالة الجهاد ذاكرا انه فرض كفاية ما لم يفاجىء العدو فيصير اذ ذاك فرض عين حتى على المرأة والصبي مؤيدا كلامه بالآيات البينات والاحاديث الصحيحة كقوله عليه السلام : الجهاد رهبانية امتي ، ثم تعرض للامراض الاجتماعية الخطيرة كالزنى والقتل ، وتعرض كذلك لمسالة الحكم بغير ما أنزل الله معتمدا في ذلك على الآيات البينات كقوله تعالى : « ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون » .

وهو يجعل المسؤولية في كل المسائل التي تعرض لها في هذه الوصية الجامعة على العمال كما يلزمهم بتنفيذ فصولها قائلا : (ومن حاد عن هذا السبيل من العمال وقصر في نصح رعيته ولم يحملها على أفضل الاخلاق والاعمال فقد تعرض لسخط الله ومقته وحلول العقوبة المعجلة به ولا يلوم الا نفسه ولا يضر الا راسه ، ولتكن نسخة من هذا الكتاب عند كل شيخ وكل طالب ليبلغ الشاهد الغائب) (ج 3 ص 224) .

ومن المبادىء السياسية التي ساعدته على النجاح في برامجه مقاومة الفقر والبؤس وتنظيم الاحسان فكانت تفرق العطايا والصلات على كل الطبقات المحتاجة كالضعفاء والطلبة والايتام ، وكانت له ادارة خاصة لهذا الشأن تحتوي على دواوين متعددة هي ديوان الشرفاء والمتشرفة وديوان الارامل والايتام والمساكين وديوان العلماء وديوان الطلبة وديوان المؤذنين ، وهكذا كان لكل طبقة عطاء معلوم . ومما اعانه على هذا العمل زيادة على تفكيره في الشؤون كلها وتنظيمها طبيعته الخاصة وهي اتصافه بالكرم بما لم يعهد مثله في أحد من ملوك المغرب قبله . قال عبد السلام القادري في تاليفه عن ابناء محمد النفس الزكية: (واعطى للعلماء والطلبة عطاء لم يسبق اليه) . وذكر صاحب الجيش ونقله ابن زيدان (ج 3 ص 225) أنه « اعطى لطبيبه الماهر العلامة الحكيم ابي العباس احمد بن عبد الوهاب ادراق الف دينار في آن واحد » .
اما عدد الاسارى من المغاربة وغيرهم الذين انقذهم من الاسر بالاموال الطائلة فانه يفوق الحصر وسنشير الى بعضه في كلامنا على علائقه الخارجية وكذلك هداياه الى علماء الامصار واشرافها من الحجاز والعراق واليمن ومصر وغيرها فانه بهذا اعلى اسم المغرب في تلك البلاد وخلد لنا بها صيتا حسنا . وقد وقعت في ايامه مسغبة عالجها بسياسته المعهودة وحكمته حتى تغلب عليها وذلك باجراء الارزاق على الضعفاء وحتى على الاغنياء الذين لايجدون طعاما واسقط الخراج ونظم محلات يطبخ فيها الطعام ويفرق على الارامل والايتام والمساكين حتى عادت المياه الى مجاريها .
واحباسه بمختلف مدن المغرب سواء على المصالح الدينية والاجتماعية الداخلية أو على الحرمين الشريفين لما يطول تعداده لو اردنا ان نتعرض له بالبحث وقد استوفى الكلام عليه ابن زيدان في كتابه (ج 2 ص 241)

علائقه الخارجية

كان الاضطراب والفوضى والفتن التي عمت المغرب بعد وفاة المولى اسماعيل جعلت البلاد تشرف على الاضمحلال اذ كان من شأنها ان تطمع فينا أعداءنا خصوصا من الاسبان والبرتغال . ولكنهم لم يحاولوا شيئا من ذلك لان صدى قوة المولى اسماعيل كان لايزال يرن في الآذان وذكرى عظمته كانت لاتزال ماثلة في كل الاذهان . ولكن ذلك لم يكن ليجدي نفعا لو تمادت تلك الاحوال ، ولكن الله من على المغرب بالملك العظيم سيدي محمد بن عبد الله وقد كانت له اتصالات بالدول الاجنبية لما كان خليفة بالجنوب

وتوصل لعقد معاهدتين مع الدانمارك وهولاندا باسم والده طبعا وكان فيهما خير كبير للمغرب .

وكانت لهولاندة بالخصوص تجارة واسعة النطاق مع الجنوب المغربي بواسطة مرسى آسفي فانتهز هذه الفرصة سيدي محمد واجرى مفاوضات مع القنصل العام الهولاندي ليحصل على السماح للسفن المغربية بالتوجه الى المراسي الهولاندية للاتجار بها كما يسمح للهولانديين بالاتجار في مراسي المغرب . فتم ذلك بمقتضى المعاهدة المذكورة ، وعين عدة قناصل هولانديين بمختلف المدن المغربية ليقوموا باعطاء الجوازات للسفن المغربية بقصد السفر لبلادهم وكان ذلك سنة 1166 (1753) .

كما انه بدا مفاوضات مع الدانمارك سنة 1164 (1751) ادت الى ابرام معاهدة في سنة 1168 (1755) كانت ايضا في صالح المغرب . (1)

ولما طلع على عرش المغرب وسع دائرة علائقه بالدول الاجنبية وبنى سياسته الخارجية على مبادىء سامية ثابتة جعلت منه احد اقطاب السياسة العالمية في وقته بما نادى به من وجوب القضاء على اسباب الحرب واسترقاق البشر وبوجوب تعويض ذلك بربط العلائق السلمية التجارية والاقتصادية بين الشعوب.

ولتكون كلمته مسموعة في الميدان الدولي اعتنى بتقوية بحريته بتنظيم شؤونها وبناء السفن الكبيرة واتخاذ العدة الراقية وتعيين امراء البحر الاكفاء . ثم اخذ يوجه السفراء الى بلاد اوربا والى المشرق حتى لم يعهد المغرب نشاطا ديبلوماسيا مثل ما شهده ايام سيدي محمد بن عبد الله ومن اشهر سفرائه الكاتب الغزال والوزير ابن عثمان المكناسي وابو القاسم الزياني وقد كتب هؤلاء السفراء عدة رحلات وصفوا فيها البلاد التي زاروها كاسبانيا وايطاليا والنمسا ومالطا وغيرها .

وعقد معاهدات مع هذه الدول ومع غيرها كالبرتغال وفرنسا والدانمارك والسويد .

وكان سيدى محمد بن عبد الله من انصار حرية الشعوب والافراد وله في ذلك مواقف شريفة . من ذلك انه جعل امر سراح الاسارى شغله الشاغل وانفق في ذلك اموالا طائلة وبعث لهذه الغاية سفراءه الى كافة الممالك الغربية التي كانت لها قراصين تجوب البحار وتقطع الطرقات على المراكب وتعلن عليها الغارة حتى اذا وقعت في حوزتها نهبت ما بها من الامتعة واسرت ركابها ، ولم يكن سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله يفرق بين المسلم من رعاياه او من غيرهم بل جل من انقذهم من الاسر كانوا من رعايا الاتراك من طرابلسيين وتونسيين وجزائريين . وسفارة ابن عثمان سنة 1193 (1779) الى اسبانيا كانت خاصة بافتداء الجزائريين الذين كانوا اسارى ٥٠٦ ١١٦١، كارلوس الثالث .

وفي سنة 1777 م كتب سيدي محمد بن عبد الله رسالة لملك فرنسا لويس السادس عشر يقترح عليه القضاء على الاسترقاق والاسر بين المسلمين والنصارى ، ونعتبر هذا الموقف من البادرات الاولى للدفاع عن حقوق الانسان في العصور الحديثة .

ولم يكن من الصدف ان يسارع سيدي محمد بن عبد الله الى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة واعانة هذه الدولة الناشئة بشتى الوسائل كالتدخل لدى باي طرابلس في صالحها ، وكذلك لدى باي تونس وانما كان ذلك داخلا في اطار مبادئه السامية واعماله في سبيل الكرامة الانسانية ، اتباعا لتعاليم الاسلام السمحة . وزيادة في اظهار عنايته بما حصل عليه شعب الولايات المتحدة من استقلال وحرية امر بان تجعل تحت تصرفهم بطنجة دار ليتخذوها مقرا لاول قنصلية فتحوها في العالم . وهكذا كان المغرب اول من قدر استقلال الشعب الامريكي واعترف به . وكتب الرئيس واشنطن رسالة شكر وامتنان لسيدي محمد بن عبد الله مقدرا له هذه المنة ، الا ان الاجيال المتعاقبة نسيت ذلك حتى لهذه السنين الاخيرة لدرجة انني لما تعرضت لهذه القضية في الخطاب الذي القيته في شهر دجمبير سنة 1965 بجامعة بريد جبورت في ولاية كنيتيكت بمناسبة منحي للدكتورة الفخرية كان لذلك وقع عميق ، وكان حادث تاريخي جديد مما حدا باحد نواب هذه الولاية ان نوه به في البرلمان الامريكي وطلب ان ينشر خطابي برمته في الجريدة الرسمية (للكنكريس) (1)

---

1) انظر مجلة « هسبريس » الجزء الرابع من مجلد سنة 1926

2) انظر REMARKS OF MOHAMMED EL FASSI OF MOROCCO AT BRIDGEPORT UNIVERSITY: in CONGRESSIONAL RECORD n° 7 Proceedings and debates of the 89th Congress Second Session. Washington Wednesday, January 19, 1966.

ولو اردنا ان نتتبع كل اعمال سيدي محمد بن عبد الله في الميدان الخارجي للزم ان نملأ الاوراق العديدة بمفاخره والنتائج الجليلة التي توصل اليها .

اما آثاره والمباني التي شيدها بكافة انحاء المغرب فهي لاتزال قائمة الى الان تشهد على ما بلغ اليه الفن المعماري على عهده . فمن تاسيس المدن العظيمة كالصويرة والجديدة وفضالة الى انشاء المعاقل والحصون في البسائط والجبال وتوسيع المدن القديمة وتحصينها وتجديد اسوارها وبناء المساجد والمدارس والاسواق والحمامات كما فعل في طنجة والرباط والمهدية والعرائش وتطاوين وغيرها من مدن المغرب . واهتم كذلك بالبناء على اضرحة مشاهير العلماء والملوك السابقين كضريح المولى ادريس الاول وابي العباس السبتي وسيدي محمد بن سليمان الجزولي وغيرهم .

وقد كان لهذه النهضة الشاملة أثر كبير في انتعاش الحركة العلمية والادبية في المغرب فنبغ من الشعراء امثال ابن الونان صاحب الشمقمقية وابي حفص الفاسي وابي العباس الغزال صاحب الرحلة وابن عثمان الكاتب الوزير واخيه أبي العباس وغيرهم، ووضعت في ايامه مؤلفات في التاريخ والرحلة والادب والعلوم الشرعية وناهيك بأمثال الشيخ التاودي ابن سودة وابي حفص عمر الفاسي وابي قاسم الزياني وابي مدين الفاسي صاحب الحكم وامثالهم ممن تزخر بآثار اقلامهم خزاناتنا والتي لايزال الكثير منها مخطوطا عسى أن تعمه هذه النهضة العلمية التي يرعاها سليله المجيد جلالة ملكنا المحبوب الحسن الثاني نصره الله ووفقه .

وبعد فهذه لمحة قصيرة من مآثر الملك العظيم سيدي محمد بن عبد الله الذي احيى مفاخر جده المولى اسماعيل وجدد معالم الدولة العلوية وارسى بنيانها على دعائم المحافظة على كيان البلاد والسعي في اسعاد الشعب وتوفير اسباب الرفاهية والعدالة لكافة افراده ، والعمل على نشر العلم في حواضر المغرب وبواديه وتلك مميزات هذه الدولة التي سارت عليها في كل اطوار تاريخها المجيد .

وقد كانت وفاته من مرض اصابه وهو في طريقه الى رباط الفتح في محل بين وادي الشراط ووادي يكم . في السادس والعشرين من رجب سنة 1204 (ابريل 1788) . ونقل الى الرباط حيث مدفنه الكريم تغمده الله برحمته .

الرباط : محمد الفاسي



عناية الملوك المغاربة بالحديث الشريف

للاستاذ رضا الله ابراهيم الالغي

... فان العصر العلوي يمتاز بالتمسك بالكتاب والسنة ، من عهد المولى اسماعيل الى عهد المولى محمد بن عبد الله وولده المولى سليمان المعروفين بالدعوة الى السلفية ، وبتخريج الاحاديث وجمع الاسانيد في مجامع ملكية معلومة الفاها بانفسهما ، ورتبا لها قراء ومدرسين ، الى العهد الحفيظي والعهد المحمدي اللذين انتصرت فيهما السلفية ، وانتشرت السنة ، ثم الى عهد مولانا الحسن الثاني محيي السنة ومؤسس دار الحديث ومجدد العصر ....

شرف علم الحديث

معلوم ان علماء المسلمين اجمعوا على ان الحديث النبوي ياتي في طليعة علوم الشريعة الغراء باعتباره بيانا وتفسيرا للتنزيل الحكيم الذي يعلو ولا يعلى عليه .. لذلك حظي الحديث الشريف باعتنائهم الفائق، حفظا ورواية ودراية .. ضربوا في ذلك امثلة رائعة لانظير لها في تاريخ الاديان ، ولا سيما في الصدر الاول يوم كانوا يرون الاشتغال بالحديث أعلى درجات العلم والمشتغلين به اشرف العلماء .. حيث كانوا يطلقون عليه « العلم » وعلى رجاله « اهل العلم » اطلاقا حقيقيا لان المتبحر في علم السنة كفيل بالخوض فيما سواه اذ هو علم النبوة المحيط بالعلوم .

كذلك مضى اهل الصدر الاول ولا شرف يضاهي عندهم شرف اهل الحديث فكانوا يخلعون عليهم اسمى النعوت وافخم الالقاب ، فهذا لقب **«الامام»** وهو اسمى الالقاب الدينية والمدنية كانوا يطلقونه على المتمكن في علم الحديث بحيث لايعلى عليه فيه واصبح فيه قدوة يحتذى ومرجعا يحتج به كالامام مالك والامام البخاري والامام احمد بن حنبل — ثم اصبح هذا اللقب يخلع على كل عالم مبرز في علمه — وهذا لقب **« امير المؤمنين في الحديث »** قد لقب به جماعة من كبار المحدثين في الصدر الاول منهم المحدث ابن راهويه اسحاق ابن ابراهيم من رجال الصحيح .. وكذلك لقب « **الحافظ** » فانه من اسمى الدرجات عند المحدثين لان الحفظ ضرورة من ضرورات التحديث.. حفظ المتن وحفظ السند معا في ضبط واتقان .. ومن حفظ حجة على من لم يحفظ .. ولا يوصف بالحفظ ويحمل ذلك اللقب الا من غزر حفظه واتسعت روايته مع تثبت واتقان .. ولم يتفقوا على العدد الاقصى الذي يجب ان يصل اليه حفظه .. قيل عشرة آلاف وقيل اقل وقيل اكثر لكون مبلغ الحفظ يختلف ويتفاوت .. ولهم في ذلك اخبار عجيبة مثل ما ذكره الخطيب البغدادي عن الامام البخاري انه لما دخل بغداد واراد اصحاب الحديث معرفة ما عليه من الحفظ عمدوا الى مائة حديث قلبوا متونها واسانيدها فدفعوها الى عشرة منهم القوها عليه مقلوبة .. واحدا بعد الآخر ، فكان يجيبهم لا اعرف .. لا اعرف .. حتى انتهوا ، فقال للاول اما حديثك فهو كذا .. ورد المتن الى سنده الصحيح .. وهكذا الى ان رد كل متن الى اصله .. فكان ذلك دليلا على غزارة حفظه وتمام ضبطه ..

وكذلك « **المحــدث** » فانه لقب يطلق على العالم المختص بدراسة الحديث متنا واسنادا .. يقول تاج الدين السبكي انما المحدث من عرف الاسانيد والعلل واسماء الرجال والعالي والنازل وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة وسمع الكتب الستة ومسند الامام ابن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني .. هذا اقل درجاته.. ثم « **المسنــد** » وهو ادنى مراتب المحدثين واقل درجاتهم والقابهم ، يطلق على من يروون الحديث باسناده سواء كان عنده علم او ليس الا مجرد رواية..

هذه القاب واعتبارات تذكرنا بالمرتبة العليا التي كان المحدثون يتبوءونها بين صفوف العلماء فى المجتمع الاسلامي .

تأثير الحديث فى بقية العلوم

وهناك جانب آخر جدير بالذكر .. يدلنا على مدى التفوق العلمي عند رجال الحديث وعلى مدى تأثيرهم فى كافة الاوساط العلمية .. ذلك هو منهجهم العلمي التحليلي العديم النظير الذي ابتكروه والتزموه ووضعوه اساسا لابحاثهم وعلومهم .. فنرى مفعوله الى مختلف الميادين العلمية .. اللغوية والادبية والتاريخية وغيرها .. مما يبرهن على ان المحدثين كانوا المثل والقدوة فى البحث العلمي والضبط والتحري .. وقد قيل ان ابن خلدون حذا حذوهم في منهجه التاريخي الذي انفرد به ..

نذكر من ذلك اعتمادهم على « **الرواية** » فى نقل الاحاديث ، اذ ان اصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كانوا يروون عنه ما سمعوه منه وما شاهدوه .. ثم روى عنهم التابعون ملتزمين نفس الرواية .. فتتابعت الرواية واصبحت عمود العلم ، لا يصح علم بدونها الا انها لم تكن مقيدة بشروط الى ان جاء الامام ابن شهاب الزهري الذي جمع الحديث بامر من عمر بن عبد العزيز .. فقرر شروط الرواية المعروفة فالتزمها المحدثون وغير المحدثين اهل العلوم الاخرى لما راوا من فائدتها وحسنها ..

وكذلك « **السنــد** » الذي كان خاصة من خصائص روايات المحدثين .. بان يسمي الراوي جميع الاشخاص المروى عنهم قصد التحري فى نسبة المرويات الى اصحابها توثيقا للرواية وضمانا لصحتها .. كما أنه يسهل تتبع رواة كل حديث واحدا واحدا والبحث عن حالهم فى الحفظ والضبط والعدالة كيلا يتسرب الى رواية الاحاديث النبوية ذوو الوضع والاكاذيب..

لذلك قيل الاسناد من الدين ومن خصائص هذه الامة، قال عبد الله بن المبارك لولا السند لقال من شاء ما شاء .. وقد ادى ذلك — من غير ستر احد — الى الكشف عن حقيقة جميع الرواة وتقدهم واحدا واحدا بموازين مضبوطة انفرد بها المحدثون مبينة فى ميزان التعديل والتجريح .. وقد سرى هذا النقد الى غير المحدثين فكانوا بدورهم يسندون مروياتهم وينقدون رجالهم .

يضاف الى ذلك « **نقد المتن** » اي نقد متن الحديث ونصه نقدا تحليليا موضوعيا ، وهذا ايضا من مزايا منهج المحدثين تجاوزهم الى غيرهم .

وكذلك « **الاخــذ** » اي اخذ التلميذ عن الشيخ فلا بد فيه من اللقاء والسماع منه اذ العلم يوخذ من افواه الرجال .. وذلك يتطلب غالبا شد الرحال والضرب فى الآفاق للقاء المشايخ ورفع السند كي لا يحصل ارسال فى الرواية ولا اعضال .. وقد انتقل هذا المعنى ايضا الى اصحاب العلوم الاخرى رغبة في اتصال السند وحصول الاخذ المباشر ..

وايضا « **الاجــازة** » اي اذن الشيخ لتلميذه فى الرواية عنه حسب الشروط المعروفة عند المحدثين حتى تتحقق نسبة الاحاديث الى شيوخها ولا يصل التحديث ممن ليس له اهلا .. واقتدى العلماء الآخرون بالمحدثين فى هذا السبيل اذ كان العلماء بصفة عامة يكرهون اخذ العلم مباشرة من الاوراق ومن الكتب بدون اجازة ولا جلوس الى المشايخ ، وكانوا يسمون من يفعل ذلك « الصحفي » وفعله « التصحيف » وهي كلمة غير شريفة فى ذلك العهد اذ انها مظنة الخطا والتصحيف ..

وكانت « **الرحلــة** » لاجل تلك الغايات مما سنه المحدثون واستن بهم فيها غيرهم ، وهي الرحلة فى سبيل طلب الحديث وروايته عن مشايخه المتفرقين فى البلدان سماعا منهم وطلبا للاجازات .. وقديما كان الطالب ينتقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر رغم صعوبة المواصلات آنذاك رجاء ان يسمع حديثا او يرفع سندا او ينال اجازة .. قال سعيد بن المسيب كنت اسير الليالي والايام فى طلب الحديث الواحد .. ويقول ابن خلدون ان الرحلة فى طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعليم لان حصول الملكات على المباشرة والتلقين اشد استحكاما واقوى رسوخا، فعلى قدر لقاء الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها

ومن ذلك « آداب الالقاء » فان المحدثين التزموا حالات حسنة واوصافا حميدة عند تصديهم لالقاء الحديث .. ورأينا بقية العلماء تأسوا بهم فيها والتزموها مثلهم وان كان الدرس في موضوع غير ديني .. وكان من آداب المحدثين المستحبة الجلوس على الطهارة وعلى هيئة حسنة وخشوع واستكانة ، امثلهم في ذلك هو الامام مالك المأثور عنه انه اذا اراد التحديث تطهر وتطيب وتزين وجلس في وقار وهيبة .. فلما سئل في ذلك قال : احب ان اعظم حديث رسول الله ص.. ويضاف الى ذلك ما ذكره النووي من انه اذا كان الدرس في علم من علوم الحديث فان الدرس يبدأ بتلاوة آي الذكر الحكيم ثم يملي الشيخ ما عنده ويساعده ممل يردد ما يمليه حتى يبلغ السامعين خاليا من شوائب الخطأ ..

فهذه بعض جوانب سيرة المحدثين ومناهجهم العلمية التي سبقوا اليها وكانوا فيها محل القدوة والتأسي .. وهي تؤذن بنشاط مختلف العلوم حين كان المحدثون في عز نشاطهم واوج سلطانهم .. كما تؤذن بفتور العلم وخمود جذوة اهله بعد ان اخذ الخمول يتسرب الى الهمم والوهن الى العزائم ..

الاعتناء بالحديث

لذلك اتجهت همة العلماء واولي الامر في مختلف العصور الى التمسك باهداب السنة واحياء مآثر الحديث والمحافظة على تقاليده وادواته ومدارسة امهاته وحفظ متونه واسانيده حتى لاتذهب الرواية وينقطع السند وينمحي العلم بذهاب اهله كما اشفق منه ابن خلدون في عهده .

والمشارقة في هذا السبيل ضربوا امثلة رائعة لا يتسع المقام لذكرها .

واما **المغاربة** ـ علماؤهم وملوكهم المسوق اليهم هذا الحديث ـ فانهم يروون حديث ابي هريرة : يوشك ان يضرب الناس اكباد الابل يطلبون العلم فلا يجدون اعلم من عالم المدينة .. قالوا ان فيه اشارة الى شدة تعلق المغاربة بصفة خاصة بطلب الحديث والرحلة الى اخذه عن الامام مالك عالم المدينة الذي قال فيه الامام البخاري أن سند : مالك عن نافع عن ابن عمر اصح الاسانيد .. او سلسلة الذهب كما يقولون ..

وفعلا فان **المغاربة** على بعد النوى ، ونأي الديار ، كانوا من اكثر الناس رحلة وطلبا للحديث اينما كان وبالاخص من الامام مالك امام دار الهجرة ودار النبوة ، فهذا كتابه الموطأ ـ الاصل الاول في الحديث ـ يرويه عنه خلق لايحصى شرقا وغربا .. غير ان رواية يحيى بن يحيى الليثي المصمودي المغربي هي التي خلدت كتاب الموطأ ونشرته في الآفاق .. وكذلك كتاب صحيح البخاري ـ الاصل الثاني ـ فان رواية عبد الله ابن ابراهيم بن محمد الاصيلي المغربي من اصح رواياته التي طبقت الآفاق واطبق الناس عليها .. وكذلك الاصل الثالث صحيح الامام مسلم فان ابن خلدون ذكر ان عناية المغاربة به اكثر .. قال : اكبوا عليه واجمعوا على تفضيله .. وقل مثل هذا القول في بقية كتب السنن ..

فلا غرو اذا وجدنا في العصر الاول ـ عصر الادارسة ـ طائفة من المحدثين المغاربة الكبار رحلوا الى الشرق واتقلوا بعلم غزير حدثوا به في المغرب الكبير وفي الاندلس بل وفي الشرق نفسه ، نذكر منهم زيادة على من ذكر عبد الله بن سعادة الفاسي الذي تنازعه المحدثون والفقهاء لما توفي بمصر ـ كلهم يدعيه ويقول انا احق بالصلاة عليه .. ودراس بن اسماعيل الموصوف بانه ليس في وقته احفظ منه .. وابو عمران الفاسي الشهير وهو من احفظ الناس واعلمهم بالحديث .. وغيرهم ..

مجالس الموحدين

وفي العصر المرابطي والموحدي نجد امراء الدولتين اخذوا بحظ وافر في رواية الحديث والاعتناء به وبرجاله .. فان علي بن يوسف كان يهتم بالعلماء وباهل الحديث كان يكثر من جمعهم ويذاكرهم ويأخذ عنهم .. وقد استجار لنفسه ابا عبد الله احمد بن محمد الخولاني جميع مروياته لعلو سنده فاجازه وكذلك ولده سير بن علي بن يوسف عرف عنه ولعه بالحديث ، وكان محمد بن ياسين من امراء المرابطين ممن رحل الى الشرق لاجل الرواية فسمع من ابى مكتوم بن ابى ذر الهروي صحيح البخاري بل انه اشترى منه اصل نسخة ابيه ـ ابي ذر ـ التي سمعها من ابى اسحاق المستملي ، وهذا دليل على عظيم همته وشغفه بالحديث ، ولما قفل حدث بالاندلس وروى عنه علماء كبار ..

واما الموحدون فان التاريخ يحدثنا عن مجالسهم العلمية التي طبقت اخبارها الخافقين ، وشارك فيها رجال المشرقين .. لقد ذكر صاحب المعجب ان خلفاء الموحدين كانوا يعقدون المجالس مع اشياخ علماء الموحدين وكبار العلماء من الواردين عليهم من مختلف

جهات العالم الاسلامي .. وكانت حافلة بالمذاكرة والمناظرة في انواع العلوم .. ولم تكن خاصة بفن بل كانت تتناول غير ما فن ، وكان لكل فن مجلس ـ وبالاحرى فن الحديث ـ قال المراكشي عبد الواحد: وكانت تفتح بالقاء مسالة من العلم يلقيها الخليفة نفسه او يلقيها باذنه بعض الطلبة (اي العلماء) من الحاضرين وكان عبد المومن ويوسف ويعقوب يلقون المسائل بانفسهم .. وكانت هذه المجالس مطبوعة بطابع النظام حتى في ترتيب الجلوس ، فكان يجلس الى جانب الخليفة خطيبه فقاضي الجماعة فرئيس الاطباء فاكبر علماء الحضرة فباقي الاعلام الحاضرين على اختلاف مراتبهم .. وكان يجب ان يراعي الحاضرون في هذه المجالس ما يجب لمجالس الخلفاء من التزام الوقار والمحافظة على الآداب الملوكية .. ومن بدرت منه بادرة غير لائقة ابعد وادب .. واخيرا كانوا لا ينفصلون عن هذه المجالس الا على الدعاء .. يدعو الخليفة ويؤمن الوزير جهرا يسمع من بعد من الناس.

وكذلك امام الموحدين محمد بن تومرت كان مولعا بعقد المجامع يلقي فيها تعليماته الثورية ويلقن مبادئه العقائدية ويحدث بمروياته ويسرد مؤلفاته الحديثية وغيرها باللغتين العربية والبربرية .. اذ انه تقلب في ارجاء الشرق وروى الحديث وتفقه فيه والف فيه مؤلفات تعليمية منها اختصاره الموطا ـ محاذى الموطا او موطا ابن تومرت ـ واختصاره صحيح مسلم، ومجموع احاديث في احكام الطهارة ، ومجموع في تحريم الخمر ، ومؤلفات اخرى كان يلقيها بنفسه في مجالسه الخاصة والعامة .. وكذلك كان خلفاؤه من بعده يوسف بن عبد المومن الذي كان يحفظ احد الصحيحين، وابنه يعقوب المنصور الذي كان يحفظ متون الحديث ويتقنها ، والمامون المعدود من حفاظ الحديث لم يزل ايام خلافته يسرد في مجالسه كتب الحديث مثل البخاري والموطا وسنن ابي داود ، وكذلك الامير ابراهيم ابن يوسف الذي قال عنه المراكشي لم ار في العلماء بعلم الاثر المتفرغين لذلك انقل منه للاثر .. وقال ايضا متحدثا عن يعقوب المنصور ان طلبة الحديث ـ يعني علماءه ـ نالوا عنده ما لم ينالوه في ايام ابيه وجده .. وانه تقدم الى الناس في ترك الاشتغال بعلم الراي والخوض في شيء منه وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة وامر جماعة من العلماء المحدثين بجمع احاديث من المصنفات العشرة : الصحيحين والترمذي والموطا وسنن ابي داود وسنن النسائي وسنن البزار وسنن ابن ابي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي .. في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الاحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة ، فاجابوه الى ذلك وجمعوا ما امرهم به ، فكان يمليه بنفسه على الناس في مجالسه العلمية وياخذهم بحفظه ، وانتشر هذا المجموع في المغرب وحفظه الناس من العامة والخاصة ، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السني من الكسا والاموال ، بل انه كان يشتط في ذلك على ما رواه الحافظ ابو بكر ابن الجد انه دخل عليه يوما وجرى بينهما حوار في الموضوع الى ان قال المنصور : يا ابا بكر ليس الا هذا ـ واشار الى المصحف ـ او هذا ـ واشار الى كتاب سنن ابي داود وكان عن يمينه ـ او السيف ..

فكان ذلك من اسباب اقبال اهل العلم على الكتاب والسنة حفظا ورواية ودراية .. ونبغ مفسرون ومحدثون يكفي ان يكون القاضي عياض في طليعة محدثي ذلك العصر وهو الموصوف من الجميع باكبر محدثي المغرب في عهده .. وكذلك الاخوان ابو الخطاب وابو عمرو ابناء دحية السبتيان اللذان ارتحلا الى الشرق وقد استكملا ادواتهما .. فامتحن اولهما ـ ابو الخطاب ـ من طرف علماء الحضرة المصرية بذكرهم له احاديث محولة المتون والاسانيد ، فاعاد من حفظه المتون والاسانيد الى حالها الصحيح .. فدل ذلك على متانة حفظه وتثبته .. وكان من اشهر محدثي ذلك العصر محمد بن قاسم التميمي الذي حدث بالمشرق والمغرب .. وابن القطان الذي كان من ابصر الناس بصناعة الحديث .. وغيرهم ..

كراسي الحديث

وفي العصرين المريني والسعدي نرى ظاهرة جديدة تدل على عظيم اهتمام اولي الامر بالحديث والمحدثين ، وهي احداث الكراسي العلمية ـ الحديثية وغيرها ـ في المساجد الكبرى وتحبيس اوقاف على العلماء والمحدثين الذين يعينون لتدريس كتاب من كتب الحديث وغيره عليها ، وهو تقليد علمي عظيم الشان في تلك العهود الزاهية ، ربما حذوا فيه حذو المشارقة مثلما احتذوا حذوهم في تأسيس المدارس والخزانات العلمية ..

وقد كانت ولاية هذه الكراسي تعتبر منصبا رسميا ساميا يسنده السلطان نفسه او خلفاؤه الى من تتوفر فيه الشروط .. وهذه الكراسي كانت مبثوثة في جل المساجد العظمى بالمدن الكبرى وان كانت فاس دائما هي المركز العلمي الاهم ، وكانت هذه

الكراسي تضاف الى الفن الذي انشئت لاجله او للعالم المسندة اليه ..

فنجد في جامعة القرويين وما حولها عدة كراسي للحديث خاصة ، وكان بها لكل كرسي مكان قار لا يتغير .. كالكرسي القديم المخصص للحديث الواقع بسرة الداخل من باب الجنائز الموصوف بانه كرسي مبارك جليل ، وهو المعروف فيما بعد بكرسي ابن غازي الامام المشهور .. واخيرا تداول الدراسة عليه جماعة من علماء عائلة ابن سودة المحدثين .. وككرسي الحديث الواقع بشرقي القرويين ـ ظهر خصة العين ـ المحبس على ابي الفضل احمد بن الحاج السلمي وعلى عقبه ، وقد ظل متوارثا بين علماء هذا البيت المحدثين. ومثل كرسي البخاري بشرح فتح الباري لابن حجر العسقلاني الذي انشاه السلطان احمد بن الشيخ الوطاسي بشرقي القرويين الموالي للفندق الكبير وحبس عليه نسخة من الشرح المذكور منقولة من خط ابن حجر نفسه ، وهي ما زالت محفوظة بخزانة القرويين ، وكان من المدرسين على هذا الكرسي بالشرط المذكور الامام عبد الواحد الونشريسي ومن فوقه قبض عليه بين العشاءين واخرج وقتل ايام قيام الدولة السعدية بالسبب المفصل في كتب التاريخ .. كما كان هناك قرب باب الكتبيين كرسي مخصص لصحيح مسلم ، كان ممن درس عليه ابو العباس المنجور والقاضي عبد الواحد الحميدي بتولية من محمد الشيخ بن المنصور السعدي .. وغير ذلك من الكراسي الحديثية التي يطول تتبعها ..

فكان من نتائج هذه العناية ان برز علماء محدثون في العهد المريني والسعدي ، لعل اشهرهم افراد بيت العبدوسي الذين ظلوا رجالا ونساء حاملين راية الفقه والحديث .. على ما ذكروه عن ابي القاسم عبد العزيز العبدوسي لما رحل الى تونس فشاهد منه التونسيون العجب في حفظه وكثرة استحضاره ، فشهدوا بانه احفظ علماء المغرب الكبير في وقته .. وكذلك ابن رشيد الفهري الذي جال شرقا وغربا فاعترف له المشارقة بالتحقيق في الحديث وضبط الاسانيد مع كمال الثقة والعدالة .. وعبد المهيمن الحضرمي الذي حلاه معاصره ابن خلدون بامام المحدثين .. ومحمد بن عبد الملك المراكشي صاحب الذيل والتكملة الامام الحافظ .. ثم ثم ابو محمد سقين السفياني احد مشاهير رجال الحديث بالمشرق والمغرب .. ومحمد بن قاسم المعروف بالقصار الامام المحدث .. واحمد بن يوسف الفهري الفاسي الحافظ الثقة الذي كانت نسخ الصحيحين تصحح من حفظه وغيرهم ..

جيش البخاري

وفي عهد الملوك العلويين ـ ابد الله امرهم ـ برزت ظاهرة كان لها اثرها البالغ في المحافظة على علم الحديث في هاته الديار .. ذلك ان الدولة العلوية ـ الرشيدية والاسماعلية ـ منذ ان استوت على العرش المغربي احتبلت بالحديث وتمسكت باهداب السنة واتخذت لها من صحيح البخاري شعارا ودثارا ، معلنة انها تعمل تحت شعاره وتلتزم أوامره وتجتنب نواهيه، كما اتخذته وردا يسرد في كل مناسبة ويدرس بصفة رسمية خلال الاشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان.

ومبدا ذلك على ما اثبته المؤرخون هو ان المولى اسماعيل فخر الدولة العلوية وعيسوبها الاكبر لما جمع العبيد من اطراف المغرب وكون منهم جيشا نظاميا بجانب جيوشه النظامية الاخرى وقربهم وجعل منهم حراسه الاقربين .. جمع قوادهم واعيانهم واحضر نسخة من صحيح البخاري وقال لهم انا وانتم عبيد لسنة رسول الله ص وشرعه المجموع في هذا الكتاب، فكل ما امر به نفعله وكل ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل .. فعاهدوه على ذلك ، وامرهم بالاحتفاظ بتلك النسخة وان يحملوها حال ركوبهم ويقدموها امام حروبهم كتابوت بني اسرائيل ..

فمنذ ذلك اليوم سمي ذلك الجيش بجيش البخاري ـ او البواخرة ـ وظل ذلك التابوت المحتوي نسخة البخاري المزين باجمل الحلل يحمل في محفة بهية على فرس كامل الادوات يسير في الموكب السلطاني في الاسفار والرحلات ، محوطا بالعلم النبوي الذي يحمله الملوك في اسفارهم وباعلام جيش البخاري كحراس له تشريفا له وتعظيما .. ويأتي ترتيبه ومكانه المرموق خلف السلطان لايفصله عنه الا الحاجب .. وقد ظلت هذه العادة متبعة في المواكب السلطانية طيلة القرون الماضية الى قريب من هذا العهد .. وكان قد عهد اخيرا بحفظ النسخة في اوعيتها الحريرية المذهبة الى الفرقة المعروفة بالغرابكية ـ اصحاب الفراش ـ فهؤلاء هم الذين يسهرون اخيرا عليها حسب الطريقة المذكورة في حالة الركوب .. وفي حالة النزول يضعونها خلف فراش السلطان في قبته الملوكية .. اي في اعز مكان واقربه اليه .. مما يدل على المكانة السامية التي يحظى بها الحديث الشريف في الدولة العلوية المنيفة .

مجالس الحديث السلطانية

وفي نفس الوقت كان سلاطيننا المجلون يحضون العلماء على مدارسة كتب الحديث عامة والبخاري خاصة طيلة ايام السنة فى الدروس الخاصة والعامة فى المساجد الهامة .. ويخصون رمضان والشهرين قبله بسرد البخاري وغيره .. ويروون ان بعض الملوك كالمولى رشيد والمولى اسماعيل ربما حضروا بعض الدروس العامة التي يلقيها كبار الاساتذة فى جامع القرويين ..

ثم انهم سنوا السنة الحميدة التي كادوا ان يتفردوا بها بين ملوك الاسلام .. وهي هذه المجالس الحديثية التي يعقدونها فى معيتهم .. ظعنا واقامة .. خلال الاشهر الثلاثة على طريقة خاصة .. يدعون اليها كبار العلماء من عموم المملكة فيفدون عليهم مزودين مكرمين ..

وطريقتهم فى ذلك انه اذا اظلتهم الشهور الثلاثة صدرت المكتوبات السلطانية الى قضاة المملكة وعمال الاقاليم وامنائها من الحاجب السلطاني ليختاروا العلماء الاجلاء ويوجهوهم معززين الى الحضرة الشريفة محفوفين بكل عناية فى الذهاب والاياب .. فاذا وصلوا الى الحضرة عينت لهم الدور التي ينزلون فيها والمراكب التي يستعملونها وتجري عليهم النفقة الكافية

واذا استهل شهر رجب افتتحت الدراسة في محفل رهيب وانتظمت فى ايام معلومة ـ مساء غالبا ـ على نظام معلوم وبرنامج مقرر .. وتكون رياسة الجلسات للسلطان نفسه .. الا انه يعين لكل دورة العالم المقرر والعالم السارد ـ او جملة سراد يتناوبون ـ والسارد يقتصر على سرد الحديث بصوت متغم وفي استرسال .. والعالم المقرر يتولى التعليق والتفسير لبعض الاحاديث التي يشير جلالة السلطان الى تناولها بالشرح ومزيد بيان .. كما ان لبقية العلماء الحاضرين حق ابداء ما ظهر لهم من الابحاث والمناقشات ..

والعادة المتبعة فى ذلك ان جلالة السلطان يجلس فى صدر المجلس يحف به رجال دولته المقربون وأمامه يصطف العلماء فى ترتيب مخصوص .. وتوضع امام جلالته الساعة المخزنية وبرنامج الدروس المقررة



علماء الاسلام فى المشرق والمغرب فى الضريح الحسني يتتبعون الدروس الحديثية التي يحييها مولانا الامام أمير المومنين بمناسبة شهر رمضان المعظم

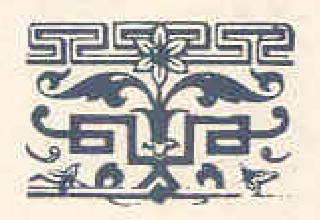
الحديث رائجة .. اما في عصرنا هذا فان الامر بالعكس .. لذلك كان عمل الحسن الثاني بتأسيس دار الحديث في هذه الظروف المقفرة وفي هذه البيئة المجدبة عملا تجديديا مدهشا يحق ان يكون به وحده من المجددين العظام ..

واجمالا .. فان العصر العلوي يمتاز بالتمسك بالكتاب والسنة .. من عهد المولى اسماعيل الى عهد المولى محمد بن عبد الله وولده المولى سليمان المعروفين بالدعوة الى السلفية وبتخريج الاحاديث وجمع الاسانيد في مجاميع ملكية معلومة الفاها بانفسهما ورتبا لها قراء ومدرسين .. الى المعهد الحفيظي والعهد المحمدي اللذين انتصرت فيهما السلفية وانتشرت السنة .. ثم الى عهد مولانا الحسن الثاني محي السنة ومؤسس دار الحديث ومجدد العصر .. اعلى الله مقامه واطال ايامه ..

الرباط : رضا الله ابراهيم الالفي

مراجع البحث :

الفية السيوطي
نفح الطيب للمقري
المعجب للمراكشي
وفيات الاعيان لابن خلكان
القرطاس لابن ابي زرع
الديباج المذهب للسوداني
مقدمة ابن خلدون
رحلة ابن بطوطة
الاستقصا للناصري
الفكر السامي للحجوي
فجر الاسلام لاحمد امين
اتحاف أعلام الناس لابن زيدان
النبوغ المغربي لكنون
الجامعات الاسلامية لغنيمة
العز والصولة لابن زيدان
العلوم والآداب على عهد الموحدين للمنوني
بحث في الكراسي العلمية لنفس المؤلف
الكتاب الذهبي لذكرى جامعة القرويين
ومطالعات اخرى



وكما اسلفنا فان المناقشة كانت تجري اثناء تلك الدروس ، و لاسيما في العهد الحفيظي فما بعده .. حيث كان النقاش يحتدم بين العلماء المحافظين والعلماء المجددين .. وكان السلطان يتدخل لحسم الخلاف او لتوجيه المناقشة نحو الوجهة الصالحة .. وذلك مثل مسائل السلفية وقضايا الاجتهاد التي كثر فيها النقاش وطال حولها الجدال في العهود الاخيرة ، ومثل مسألة ثبوت الهلال المثارة اخيرا في مجلس امير المومنين الحسن الثاني حفظه الله وحررت فيها ابحاث هامة من جراء ذلك ..

وقد لاحظنا ان مولانا الحسن الثاني حريص كل الحرص على طبع دروسه المولوية بطابع المناقشة واضفاء روح البحث ومبادلة الآراء حولها .. صرح بذلك مرارا وطالب به العلماء الحاضرين .. اذ ان الحقيقة بنت البحث .. والمناقشة بالعلم شجاعة ادبية واجبة .. والحياء في السؤال والبحث من آفات العلم .. فقد ذكر ابن جبير في رحلته انه حضر ببغداد درس الامام رضى الدين القزويني .. قال وبعد ان تكلم في افانين من العلوم من تفسير وحديث .. رشقته شآبيب المسائل من كل جانب .. فأجاب وما قصر .. وكذلك ذكر الرحالة ابن بطوطة انه شهد بفارس مجلسا .. قال وبعد ان انتهى الشيخ ترامت اليه رقاع الاسئلة من كل جانب .. فجمعها واخذ يجيب عنها واحدة بعد واحدة بأبدع جواب واحسنه .. وينتقد ابن خلدون اهمال المغاربة لطريقة المناقشة السائدة في الشرق ، ويعتبر ذلك سببا لضعف الملكة العلمية بين الطلاب المغاربة .. قائلا انك تجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من اعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لاينطقون ولا يفاوضون .. وظننا ان مولانا الملك الحسن الثاني اراد ان يجنب مجالسه العلمية داء السكوت المطبق ويجعلها حية متجاوبة ومنتجة خلاقة .

ثم لاشك انها ـ مهما كانت ـ تترك اثرا طيبا وصدى بعيدا في تنوير الافكار وشحذ العزائم وبعث الروح الدينية في النفوس .. وآية ذلك هذا القرار الاخير الذي اتخذه امير المومنين واعلنه اثناء حديثه السامي الذي اختتم به دورة هذا العام .. هذا القرار العظيم الشأن الذي ينتظر ان يحدث تحولا جذريا في تكوين النشء والشباب .. ثم لاننسى قرار انشاء دار الحديث الذي اعلنه جلالته اثناء دورة رمضان 1383 ـ 1964 ..

دار الحديث الحسنية

ذلك ان جلالة الحسن الثاني مولع باحياء المآثر الاسلامية وبالحض على التمسك باهداب الشريعة .. ولما راى حفظه الله بثاقب بصره البعيد ان همم الطلبة اخذت تتحول عن الثقافة الاسلامية الى الثقافة العصرية العاتية التي اصبحت تتحكم في توجيه الشباب التوجيه المدني البحت .. وهمم العلماء اخذت تقصر عن بلوغ شأو العلماء الاقدمين في مضمار علوم الحديث وما اليها ـ امر جلالته اثناء رمضان 1383 بتأسيس دار الحديث ازاء قصره العامر وامام سمعه وبصره .. حتى تكون مثابة لطلاب الحديث ورجال الحديث .. وحتى تتكفل بتخريج محدثين يحافظون على تقاليد هذا الفن الرفيع ويتحلون برونقه وبهائه ويحفظون متون الاحاديث واسانيدها .. رواية ودراية .. كما كان العهد عند السلف الصالح وكما هو الشأن في دور الحديث المؤسسات قديما لاجل تلك الغاية .. اذ ان الملاحظ ان هذه الروح التي احس بها جلالة الحسن الثاني هي نفس الروح التي احس بها ملوك الاسلام الاولون الذين فزعوا هم بدورهم الى تأسيس دور الحديث .. فلقد ذكر المؤرخون ان الملك السلجوقي العادل نور الدين محمد بن زنكي راى في ايامه (اواسط القرن السادس الهجري) فتور علماء السنة في مملكته التي كانت تمتد الى اقطار الشام ، فبادر بتأسيس دار الحديث بدمشق للمشتغلين بالحديث وهي التي اجمع المؤرخون على انها اول دار للحديث اسست في الاسلام .. وقد كان منها خير كثير للاسلام .. كما ان الملك الكامل بن الملك العادل الايوبي اسس لنفس الغاية ـ وانتصارا لاهل السنة ـ اوائل القرن السابع الهجري (622) دار الحديث الكاملية بالقاهرة ووقفها على اهل السنة المشتغلين بالحديث، وقال المؤرخون انها ثاني دار حديث في تاريخ الاسلام ، ونشير بالمناسبة الى ان اول عالم محدث تولى التدريس في هذه الدار هو العالم المغربي المحدث الحافظ ابو الخطاب ابن دحية الآنف الذكر ثم اخوه بعده ابو عمرو ابن دحية .. كما اشتهرت بدمشق دار الحديث الاشرفية التي بناها الملك الاشرف ابن الملك العادل الايوبي عام 628 وهي التي يشغل الآن المجمع العلمي بنايتها العتيقة .. وهناك دور اخرى للحديث لانطيل بذكرها ..

على اننا نكبر عمل جلالة الحسن الثاني ايما اكبار ، لان اولئك الملوك كانوا يعملون في ظروف مواتية وفي عصور ما زالت فيه بعض الهمم نشيطة وصناعة

ونسخة البخاري الملوكية واذا فتح جلالته النسخة شرع السارد فى قراءة الباب المعين فى البرنامج .. ويسترسل ولا يتوقف .. وربما يتناوبه جملة سراد.. حتى اذا اراد جلالته تقرير حديث .. فانه يطوي الكتاب ويرفع رأسه لجهة المقرر اذنا له فى تقرير الحديث المراد شرحه .. فحينئذ يشرع المقرر فى القاء ما عنده فى الموضوع ، فاذا أصاب وسلم له العلماء الحاضرون فتح السلطان نسخته من جديد وتمادى السارد فى سرده .. وهكذا الى انتهاء النصاب المعين الذي ربما استغرق ساعتين فاكثر .. غير ان المناقشة قد تطول فى بعض الاحيان فيشير جلالته الى تاجيل المسالة الى جلسة اخرى او يعهد التحقيق فيها الى بعض الحاضرين ..

والانصبة التي تقرا محصورة فى البرنامج الموضوع ، لايزاد فيها ولا ينقص وايام الدراسة كذلك معلومة لايكون منها الخميس ولا الجمعة .. واحيانا يقتصر على بعض ايام الاسبوع ، من ذلك ان عمل السلطان الحسن الاول استقر على 36 درسا خلال الاشهر الثلاثة مدة تنيف على عشر سنين ، وكان لا يعطل الدراسة سفرا ولا حضرا على كثرة اسفاره.. قال ابن زيدان : وعلى هذا كان العمل جاريا من لدن الدولة الرشيدية الى اواسط الدولة اليوسفية .. ثم قال وقد وقع الاقتصار فى الدولة المحمدية (محمد الخامس رضوان الله عليه) على القراءة فى خصوص شهر رمضان .. عند صلاة الظهر .. وتنتهي فى ليلة 27 وهو عمل جلالة ملكنا الهمام الحسن الثاني أعز الله امره الذي يخص رمضان بكامل العناية ويحافظ على القاء الدروس الدينية فى لياليه بعد صلاة العشاء.. ولا سيما فى العشر الاوائل منه التي تصادف ذكرى الترحم على روح فقيد الامة جلالة والده المنعم مولانا محمد الخامس رضوان الله عليه ..

ثم نذكر ان من العوائد التي كانت متبعة ان الطعام كان يقدم للعلماء خلال الشهرين رجب وشعبان اثر انتهاء الدرس اليومي .. وفي الدرس الختامي كانت تلقى القصائد من شعراء المملكة تمجيدا للمناسبة وتعظيما للجناب الشريف .. واذا انتهت الدروس اجزل العطاء للعلماء المشاركين وخلعت عليهم الكسا وزيد لهم فى المبرات .. واذا انقضت ايام العيد اذن للعلماء الوافدين فى الانصراف الى اهليهم مكرمين معززين بعد ان تقضى حوائجهم وتلبى مطالبهم كما تكتب لهم مكاتيب الانعامات والايصاءات ..



وهذه بعض اسماء الشيوخ الكبار الذين كانوا يقررون الحديث فى الحضرة الشريفة ممن حضرتنا اسماؤهم الآن .. منهم ابو العلاء ادريس بن محمد العراقي الحافظ المحدث .. والشيخ التاودي ابن سودة .. والحافظ محمد بن الطاهر العلوي المدغري.. والفقيه التهامي بن حماد الطيري المكناسي .. والفقيه عبد القادر بن محمد الكوهن ، والعباس بن محمد ابن كيران .. وهؤلاء الاخيرون كانوا يقررون فى عهد المولى عبد الرحمن .. ثم الشيخ المهدي ابن سودة فى عهد سيدي محمد بن عبد الرحمن ، ثم شقيقه احمد بن سودة فى عهد مولاي الحسن الاول وفى عهد مولاي عبد العزيز .. ثم ابو العباس احمد بن الخياط فى بداية عهد المولى عبد الحفيظ ، ثم المحدث الحافظ ابو شعيب الدكالي فى العهد الحفيظي وفى العهد اليوسفي وفى العهد المحمدي .. ثم الحافظ عبد الرحمن ابن القرشي فى العهد اليوسفي .. ثم المحدث المدني بن الحسني في العهد المحمدي .. ثم الشيخ الرحالي الفاروقي فى هذا العهد .. عهد مولانا الحسن الثاني نصر الله ايامه واعلى مقامه .. وعلماء آخرون اجلاء نستغني بشهرتهم عن ذكرهم ..

عناية ملوك الدولة العلوية ورجالاتها بالكتاب والسنة تعلماً وتعليماً وعملا

للدكتور تقي الدين الهلالي

عناية دول المغرب واهله بالعلم والدين :

جاء في دائرة المعارف الاسلامية في لفظ (مركو) اي المغرب ما معناه : منذ تأسست الدولة المغربية المسلمة في المغرب ، ثم في الاندلس ، غص بها (البابا) رئيس الكنيسة الكاثوليكية وسائر الدول النصرانية التي تحيط بهذه الدولة المسلمة ، ولم يزالوا يحثون السعي وينصبون الحبائل ، ويكيدون المكايد للقضاء عليها .

فلما تمكنوا من القضاء على الاسلام في الاندلس ، كانوا جميعا متعاونين على ذلك ، ولم تكن (اسبانيا) وحدها هي التي قضت على دولة الاسلام في جنوب اوربا . ومنذ ذلك العهد اخذوا يبذلون كل جهودهم للقضاء على البقية الباقية ، وهي دولة المغرب المسلمة، وتعصبوا في ذلك كل التعصب ، حتى تمكنوا من بغيتهم في سنة 1912 . هذا ما علق بذهني مما قرأته منذ زمان طويل في الكتاب المذكور . وليس عندي الآن نسخة من دائرة المعارف الاسلامية فأراجعه .

ومن المعلوم ان جهاد الدول المغربية من مرابطين وموحدين ومرينيين . وقد نقل مؤرخو المغاربة ان العالم العامل الاصيل النبيل مولاي علي الشريف السجلماسي رحمه الله واثابه رضوانه ضرب بسهم وافر في هذا الجهاد ابتغاء مرضاة الله وامتثالا لامره قبل أن تؤسس الدولة العلوية من قبل ابنائه البررة بزمان طويل .

ولا شك ان جهاد المغاربة ، ودفاعهم عن اخوانهم المسلمين في الاندلس آخر غزو الدول النصرانية بزعامة الكنيسة الرومانية لدولة الاسلام في الاندلس زهاء خمسمائة سنة على الاقل ، وذلك برهان قاطع على علمهم وشهامتهم ونجدتهم . والشجاعة التي لا يصحبها العلم حيوانية وحشية ، لا تدوم ولا تثمر ، كما وقع في غزو التتر لبلاد الاسلام ، فانه كان كغزو ذئاب لزريبة غنم ، افساد محض ، وتدمير ، لم ينشأ عنه اصلاح ، لا في الدين ولا في الاخلاق ، ولا في العلم ولا في العمران ولا في التمدن ، بخلاف الغزو المغربي لعدوة الاندلس ، فقد نشأت عنه مدنية بهرت العالم ، وانتشر نورها في جميع انحائه ، ولا تزال آثارها شامخة ، قرة عين للاسلام ، وسخنة عين لاعدائه . ومن لم يطلع على علوم المغاربة ملوكهم وامرائهم وخاصتهم وعامتهم ، فليقرأ كتاب اخينا الاستاذ العبقري سيدي عبد الله كنون الذي اسماه (النبوغ المغربي) فانه يجد فيه فوق ما يؤمله ، مع أن ما ضاع من ذلك ، وما لا يزال في بطون الخزائن اكثر بكثير مما نشر .

ولكني لا اريد ان اخرج كثيرا عن الموضوع فأقول: ان العناية بكتاب الله وسنة رسوله لم تزل الشغل الشاغل لدول المغاربة منذ تأسست اولاها بقيادة السلالة الطاهرة الامام ادريس بن عبد الله الكامل رحمه الله واثابه رضاه الى يومنا هذا . وهذا المقال لا يتسع لمآثر ملوك المغرب في هذا الباب ، فان من اراد ذلك يحتاج الى مجلدات ، ولكني اريد ان الم المامة بذلك ، واجمل فيه القول اجمالا فأقول :

ان التمسك بكتاب الله وسنة رسوله يندرج تحت اقسام التوحيد الثلاثة ، توحيد الاسماء والصفات ، وتوحيد الالهية والعبادة ، وتوحيد الاتباع . فدولة المرابطين وجهت اكثر عنايتها الى القسم الاول ، وهو توحيد الاسماء والصفات ، فكانوا على عقيدة السلف الصالح ، من الصحابة والتابعين والائمة المجتهدين وابي الحسن الاشعري وتلامذته المتقدمين .

وقد الف الامام ابن ابي زيد القيرواني كتاب السنة في العقائد، وذكر نبذة في ذلك في أول الرسالة. وقد نقلت نبذة منه من كتاب (الجيوش الاسلامية في غزو المعطلة والجهمية للحافظ ابن القيم في كتابي (مختصر هدي الخليل في العقائد وعبادة الجليل). ونقلت مثله عن ابي القيم ايضا للامام الحافظ ابي عمر ابن عبد البر، امام السنة في زمانه رحمه الله تعالى في كتاب (التمهيد) في شرح الحديث الثامن لابن شهاب.

فاذا اردت ان تعرف عقائد اهل المغرب والاندلس في اسماء الله وصفاته قبل ظهور محمد بن تومرت ودولته، فعليك بالكتابين المذكورين. ولذلك اجمع علماء المغرب من اهل العدوتين على احراق كتاب (الاحياء) لابي حامد الغزالي لوجود مباحث علم الكلام فيه على طريقة المتاخرين من الاشاعرة.

ودولة الموحدين وجهت اكثر عنايتها الى القسم الثالث من اقسام التوحيد، وهو توحيد الاتباع، فاحيت علوم السنة، وابطلت كتب الفروع والراي، وحصرت الفتوى والقضاء والعبادة في العمل بحديث رسول الله (ص).

قال الناصري في الاستقصا في ج 2 ص 126 بالطبعة المغربية ما نصه : امر عبد المؤمن بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى الاصول من الكتاب والسنة.

لما كانت سنة خمسين وخمسمائة امر امير المؤمنين عبد المومن بن علي باصلاح المساجد وبنائها في جميع ممالكه، وبتغيير المنكرات ما كانت. وامر مع ذلك بتحريق كتب الفروع، ورد الناس الى قراءة كتب الحديث، واستنباط الاحكام منها، وكتب بذلك الى جميع طلبة العلم من بلاد الاندلس والعدوة، فجزاه الله خيرا. اه.

وهذا اللفظ بعينه موجود في كتاب (القرطاس) لابن ابي زرع، في ترجمة عبد المؤمن ابن علي الموحدي من حوادث سنة (550) ه. ونقل عبد الواحد المراكشي مثل ذلك في كتاب المعجب، ونسبه الى يعقوب المنصور الموحدي.

ولا اشكال عندي في ذلك، لان ملوك هذه الدولة ومؤسسها محمد بن تومرت بنوا امرهم على تحقيق الكتاب والسنة ونبذ الراي. وعبد المؤمن هو المؤسس الحقيقي الذي تم له الامر، وكان عنده من العلم بالكتاب والسنة، وفنون الآداب، والسياسة والنجدة والشجاعة ما يحمله على ذلك.

ولا شك ان كتب الفروع المتضمنة للاقيسة الفاسدة التي هي قياس الفروع على الفروع، ولو بغير ضرورة، كانت منتشرة في جميع انحاء المغرب، لان الناس كانوا يعتمدون عليها ويعملون بها، فلا يمكن ان تحرق في وقت واحد. فالظاهر ان عبد المؤمن رحمه الله لما احرق ما حصل عنده منها جعلها سنة في عقبه، فاتخذوا يحرقون كتب الفروع متى وجدوا شيئا منها، فسار يعقوب المنصور على هذه السنة، وان شئت ان تعلم ان احرار العلماء ومحققيهم من اهل المغرب، لم يزالوا على هذا الراي الى زماننا هذا، فتامل قول صاحب الاستقصا رحمه الله بعد نقله هذا الخبر عن عبد المؤمن (فجزاه الله خيرا) فان ذلك يدل على ان الشيخ الناصري استصوب ذلك واستحسنه.

وحدثني من اثق به ان الامام المحدث عبد الله السنوسي نزيل طنجة ودفينها، وكان استاذا لمولاي عبد العزيز السلطان، وقدوة له، كما اخبرني مولاي عبد العزيز نفسه بذلك، اي بانه كان استاذا له، راى في فاس جماعة من الفقهاء، قد ارتكبوا بدعة فاعتزلهم فجاءه احدهم، وهو الشيخ العباس التازي قاصدا مداعبته فقال له : نحن خليليون فاجابه الشيخ على البديهة (افٍ لكم ولما تعبدون من دون الله) فضحك الشيخ التازي من هذه النكتة اللطيفة.

ولا شك ان من ترك الكتاب والسنة، وحكم براي غير المعصوم، فقد عبده من دون الله. قال القاسمي في تفسير آية التوبة (31 اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله).

قال الرازي : الاكثرون من المفسرين قالوا : ليس المراد من الارباب انهم اعتقدوا فيهم انهم آلهة العالم، بل المراد انهم اطاعوهم في اوامرهم ونواهيهم. اي لما روى الترمذي عن عدي بن حاتم قال : اتيت النبي (ص)، وفي عنقي صليب من ذهب فقال : يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن. وسمعته يقرا في سورة براءة (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) قال : اما انهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا اذا احلوا لهم شيئا استحلوه، واذا حرموا عليهم شيئا حرموه.

وروى احمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم انه لما بلغته دعوة النبي (ص) فر الى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فاسرت اخته وجماعة من قومه، ثم من النبي (ص) على اخته واعطاها، فرجعت الى اخيها ترغبه في الاسلام، وفي القدوم على رسول الله (ص)، فقدم عدي المدينة،

وكان رئيسا في قومه طيء ، وابوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على النبي (ص) ، وفي عنق عدي صليب من فضة ، وهو يقرأ هذه الآية (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله) .

قال ، فقلت : انهم لم يعبدوهم ، فقال : بلى ، انهم حرموا عليهم الحلال ، واحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم اياهم . اهـ .

ومن اراد ان يطلع على فساد التقليد ، ووجوب اتباع الكتاب والسنة فليقرأ كتاب (جامع بيان العلم وفضله) للامام ابي عمر يوسف بن عبد البر النمري الاندلسي المتوفى سنة 463 هـ ، وهو اندلسي ، وكانت بلاد الاندلس في زمانه متحدة مع المغرب تحت حكم المرابطين في اواخر دولتهم .

فكتب ابن عبد البر كجامع بيان العلم وفضله السالف الذكر ، وكتاب التمهيد شرح الموطأ الذي لم يؤلف في فقه الاسلام مثله على رأي بعض العلماء ، هي التي هيأت الافكار لقبول دعوة الموحدين الى توحيد الاتباع ، ونبذ التقليد ، والحكم بما انزل الله .

الدولة العلوية

لم يكتب لدولة من دول المغرب من طول العمر ، واذعان اهل المغرب وتعلقهم واخلاصهم مثل ما كتب لهذه الدولة المباركة ، وقد تقدمتها الدولة السعدية ، ولكن عمرها لم يبلغ مائة سنة حتى اصابها الوهن ، وتضعضعت أركانها ، ولملوكها كما لمن سبقهم من ملوك المغرب نصيب وافر من العلم ، واكرام أهله .

اما ملوك هذه الدولة العلوية ، فانهم قاموا بجمع الكلمة ، وضم الشمل ، والاجتماع على كلمةواحدة حين رأى اوائلهم الاماجد ما حل بالمغرب من التفرق والتقاتل ونسيان امر الدين والجهاد ، فصار بأسهم بينهم ، وطمع فيهم عدوهم الذي لم يزل لهم بالمرصاد . وعنايتهم بالعلم ، وخصوصا علوم الكتاب والسنة كنار على علم . ولم يكن ذلك فيهم خاصا بالملوك وحدهم ، بل كان رؤساؤهم وفضلاؤهم يتنافسون فيه ويعمرون به مجالسهم ، ولضيق المقام ، وعدم الخروج عن الموضوع كثيرا اخص بالذكر منهم اربعة ، سيدي محمد ابن عبد الله ، ومولاي سليمان بن محمد . والامام المنقذ محرر المغرب ومخلصه محمدا الخامس ، وخليفته امام الوقت جلالة الملك الحسن الثاني ، رحم الله سلفه ، وبارك في عمره ، وبلغه الآمال ، ووفقه لصالح الاعمال ، واقر عينه بولي عهده سيدي محمد .

الامام سيدي محمد بن عبد الله ابن اسماعيل

قال صاحب الاستقصا : كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله محبا للعلماء واهل الخير مقربا لهم ، لا يغيبون عن مجلسه في اكثر الاوقات ، وكان يحضر عنده جماعة من اعلام الوقت وائمته . منهم الفقيه العلامة المشارك ابو عبد الله محمد بن عبد الله الغربي الرباطي . والفقيه العلامة المحقق ابو عبد الله سيدي محمد المير السلوي . والفقيه الدراكة ابو عبد الله محمد الكامل الرشيدي . والفقيه السيد ابو زيد عبد الرحمن المدعو بابي خريص .

هؤلاء اهل مجلسه الذين كانوا يسردون له كتب الحديث ، ويخوضون في معانيها ، ويؤلفون له ما يستخرجه منها على مقتضى اشارته ، وكانت له عناية كبيرة بذلك . وجلب من بلاد المشرق كتبا نفيسة من كتب الحديث لم تكن بالمغرب ، مثل مسند الامام احمد وغيره .

والف رحمه الله في الحديث تآليف باعانة الفقهاء الذين ذكرناهم آنفا . منها كتاب مسانيد الائمة الاربعة ، وهو كتاب نفيس في مجلد ضخم ، التزم فيه أن يخرج من الاحاديث ما اتفق على روايته الائمة الاربعة او ثلاثة منهم ، او اثنان ، فاذا انفرد بالحديث امام واحد . او رواه غيرهم لم يخرجه ، وهذا المنوال لم يسبق اليه رحمه الله .

وكان كثيرا ما يجلس بعد صلاة الجمعة في مقصورة الجامع بمراكش مع فقهائها ، ومن يحضره من علماء فاس وغيرهما للمذاكرة في الحديث الشريف . وتفهمه ، ويحصل له بذلك النشاط التام ، وكان كثيرا ما يتأسف اثناء ذلك ويقول . والله لقد ضيعنا عمرنا في البطالة ، ويتحسر على ما فاته من قراءة العلم ايام الشباب .

ولما فاته الاشتغال بفنون العلم في حال الصغر . اعتكف اولا على سرد كتب التاريخ ، واخبار الناس . وايام العرب ووقائعها ، الى ان تملى من ذلك ، وبلغ فيه الغاية القصوى ، وكاد يحفظ ما في كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني ، من كلام العرب ، وشعراء الجاهلية والاسلام .

ولما ولاه الله امر المسلمين بعد وفاة والده ، زهد في التاريخ والادب ، بعد التضلع منهما ، واقبل على سرد كتب الحديث ، والبحث عن غريبها ، وجلبها من اماكنها

ومجالسة العلماء والمذاكرة معهم فيها . ورتب لذلك رحمه الله اوقاتا مضبوطة لا تنخرم ، حذا بها حذو المنصور السعدي في أوقاته المرسومة عند الفشتالي في مناهل الصفا ، حتى انه كان اذا خرج لزيارة أو صيد أو نزهة ايام الربيع ، واقام الاسبوع ونحوه ، فاذا حانت الجمعة ودخل تحرى النزول بمنازل المنصور التي كان ينزل بها وقت خروجه لزيارة اغمات ونحوها ورجوعه ويقول : هذه منازل المنصور رحمه الله ، وهو استاذنا في مثل هذه الامور .

ومن عجيب سيرته رحمه الله انه كان يرى ان اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيره ، واعراضهم عن الامهات المبسوطة الواضحة تضييع للاعمار في غير طائل .. وكان ينهى عن ذلك غاية ، ولا يترك من يقرأ مختصر خليل ، ومختصر ابن عرفة وامثالها . ويبالغ في التشنيع على من اشتغل بشيء من ذلك ، حتى كاد الناس يتركون قراءة مختصر خليل . وانما كان يحض على كتاب الرسالة والتهذيب وامثالهما ، حتى وضع في ذلك كتابا مبسوطا ، اعانه عليه ابو عبد الله الفربي ، وابو عبد الله المير وغيرهما من اهل مجلسه .

ولما افضى الامر الى السلطان العادل المولى سليمان رحمه الله صار يحض الناس على التمسك بالمختصر ، ويبذل على حفظه وتعاطيه الاموال الطائلة ، والكل مأجور على نيته وقصده ، غير انا نقول : الراي ما راى السلطان سيدي محمد رحمه الله .

وقد نص جماعة من اكابر الاعلام النقاد ، مثل الامام الحافظ ابي بكر بن العربي والشيخ النظار ابي اسحاق الشاطبي ، والعلامة الواعية ابي زيد عبد الرحمن بن خلدون وغيرهم : ان سبب نضوب ماء العلم في الاسلام ، ونقصان ملكة اهله فيه ، اكباب الناس على تعاطي المختصرات الصعبة الفهم ، واعراضهم عن كتب الاقدمين المبسوطة المعاني ، الواضحة الادلة ، التي تحصل لمطالعها الملكة في اقرب مدة .

ولعمري لا يعلم هذا يقينا الا من جربه وذاقه .
وقد تقدم لنا في صدر هذا الكتاب ان ملوك بني عبد المؤمن كانوا يحملون الناس على الرجوع في الاحكام الى الكتاب والسنة ، كل ذلك اعتناء بالعلم القديم ، ومحافظة على اصوله . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الاشعرية . وكان يحض الناس على مذهب السلف من الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من ظاهر الكتاب والسنة بلا تأويل .

وكان يقول عن نفسه ، حسبما صرح به في آخر كتابه الموضوع في الاحاديث المخرجة من الائمة الاربعة : انه مالكي مذهبا ، حنبلي اعتقادا . يعني انه لا يرى الخوض في علم الكلام على طريقة المتاخرين ، وله في ذلك اخبار وماجريات . قلت : وهو مصيب ايضا في هذا ، فقد ذكر ابو حامد الغزالي في كتاب الاحياء : ان علم الكلام ، انما هو بمنزلة الدواء ، لا تحتاج اليه الا عند حدوث المرض ، كذلك علم الكلام لا يحتاج اليه الا عند حدوث البدعة في قطر . اهـ .

تعليقات

1 ـ قوله رحمه الله (هذه منازل المنصور ، وهو استاذنا في مثل هذه الامور) هذا الكلام من ملك عظيم ، خصه الله بمزايا قل ما اجتمعت فيمن قبله من الملوك ، يدل على تواضع محمدي نبوي خالص ، وصفاء سريرة هاشمية طيبة .

ومن المعلوم ان اسلاف هذا الملك المؤسسين للدولة العلوية قضوا على بقايا السعديين حين اختل نظام ملكهم ، وعجزوا عن القيام بواجبهم ، وعمت الفوضى في انحاء المغرب ، ووقعت حروب بين الفريقين، فلم يلتفت قدس الله روحه الى شيء من ذلك ، ولم يكتف بالثناء على سيرة المنصور السعدي والاعجاب به حتى قال ، هو استاذنا ، وهذا غاية في مكارم اخلاق الملوك العظام ، والائمة الكرام .

2 ـ قوله رحمه الله (ومن عجيب سيرته انه كان يرى اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيره) الخ .

انا لا ارى في ذلك عجبا ، وكل من اطلع على تآليف هذا الامام ، وانعم النظر فيها ، وعرف سمو همته ، وغزارة علمه ، لا يتعجب ابدا في نصيحته لابناء شعبه ، بطرح تلك المختصرات التي افسدت العلم ، وابعدت طلابه عن الموارد الصافية العذبة المعززة بالادلة من الكتاب والسنة الواضحة المعاني ، البليغة المباني . ومن ذا الذي يرغب عن كتاب المسائل الكبرى والصغرى لعبد الحق الاشبيلي ، وكتاب التمهيد لابي عمر بن عبد البر ، والمحلى لابي محمد بن حزم ، ثم يشتغل بمختصر خليل وشروحه وحواشيها الا من حرم التوفيق ، واختار الظلمات على النور ، وترك الظل وجلس في الحرور .

وانا اعتقد ان اولئك الاساتذة الذين كانوا مع هذا الامام لم يكونوا الا ساردين وكاتبين ومذاكرين ، لان النتيجة التي خرج بها هذا الملك من دراسته لم يسبقه اليها احد من اهل زمانه ، لا اولئك الاساتذة ولا غيرهم.

وقد قرات منذ زمان طويل في كتابه الذي حاذا به الرسالة تشنيعه على خليل لقوله في مختصره (ومن ترك صلاة اخر ابقاء ركعة بسجدتيها من الضروري ، وقتل بالسيف حدا ، ولو قال انا افعل) لان هذا الحكم جائر ومخالف لادلة الكتاب والسنة ، فان الكافر كيفما كان كفره ، اذا تاب قبلت توبته ، فكيف يقدم على قتل الرجل وهو يقول : تبت الى الله واريد ان اصلي . هذا ما علق بذهني من كلام هذا الامام رحمه الله .

وحدثني استاذي المصلح سيدي محمد بن العربي العلوي ان الامام محمد بن عبد الله شنع على خليل ايضا لعبارة له في باب الردة من مختصره ، لا اريد ذكرها هنا . وانشدني شيخنا محمد سيدي بن حبيب الله التدغي الشنقيطي عن بعض شيوخه قوله :

من شر ما قد شاع في ذا الجيل

ترك الرسالة الى خليل

3 — قوله : وكان السلطان سيدي محمد ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الاشعرية) الخ .

هذه منقبة جليلة ، ومفخرة عظيمة منحها الله هذا الامام الجليل ، وخصه بها تبقى في سجل حسناته الى الابد ، ينتفع بها من اراد الله به خيرا من اهل المغرب وغيرهم .

وقد تقدم ان اهل المغرب منذ اكرمهم الله بالاسلام كانوا على عقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، والائمة المجتهدين ، وائمة الحديث ، ولم يزالوا كذلك حتى جاء محمد ابن تومرت بظلمات علم الكلام والجدل المبدعة ، المنسوبة زورا وبهتانا الى ابي الحسن الاشعري ، وهو منها بريء ، فهذه كتبه تصرح بعقيدته السلفية الحنبلية ، وتفير في وجه كل من ينسب اليه العقائد المبتدعة .

فمما وقفنا عليه منها كتاب (مقالات الاسلاميين، واختلاف المصلين) طبع في استنبول ومنها كتاب (الابانة عن اصول الديانة) طبع في حيدراباد في الهند .

اما ما في السنوسيات الثلاث ، والجوهرة ، واضاءة الدجنة ، وبدء الامالي ، وارجوزة ابن عاشر ، فنسبتها اليه باطلة . وقد الف الحافظ بن عساكر كتابا سماه (تبين كذب المفتري فيما نسب الى ابي الحسن الاشعري) طبع في دمشق .

وقد نقل الحافظ ابن القيم كلام ابي الحسن الاشعري ، واتباعه من ائمة الاشعرية المحققين ، كالقاضي ابي بكر الباقلاني ، والحسين بن احمد الاشعري ، والامام فخر الدين الرازي ، وابي العباس احمد بن محمد المظفري المختار الرازي . ذكر ذلك وبسط اقوالهم في كتابه (اجتماع الجيوش الاسلامية في غزو المعطلة والجهمية ص 119) .

فقد اطفات عقيدة ابن تومرت انوار العقيدة المحمدية القرآنية السلفية زهاء 650 سنة من اوائل القرن السادس الى بيعة سيدي محمد بن عبد الله في صفر سنة 1171 ، فغاص في بحور العلم والمعرفة ، واخرج منها درر العقيدة السلفية النيرة ، وجدد ما كان عليه اهل المغرب الى آخر زمان المرابطين ، من نبذ الجدل والتخرص ، ووصف الله تعالى بما وصف به نفسه في كتابه العزيز ، وبما وصفه به رسوله (ص) ، وهو اعلم الناس بالله ، واشدهم له خشية كذلك جدد محمد بن عبد الله عقيدة محمد بن عبد الله ، وكان احق بها واهلها .

وكان النصف الجنوبي من المغرب يعيش في رخاء وامن وطمانينة ، لانه كان خليفة لوالده في مراكش . اما النصف الشمالي الذي كان تحت حكم والده ، فقد كان في هرج ومرج والفوضى والفتن فيه تشتعل نارها .

وما منعه من اخذ بيعة الناس في حياة والده الابر الوالدين ، فان قلت : قد فهمنا من كلامك ان عقيدة المتاخرين من الاشاعرة مبتدعة وظلمات ، ولذلك نهى عنها الملك البار سيدي محمد بن عبد الله ، فهل لك ان تدعم هذا القول بنقل عن الائمة السابقين والعلماء المحققين لتطمئن به نفوسنا ، فالجواب ، نعم ، ونعمة عين .

قال ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم وفضله ج 2 ص 95 في سياق النهي عن الخوض في علم الكلام ما نصه : قال ابو عمر : اجمع اهل الفقه والآثار من جميع الامصار ان اهل الكلام ، اهل بدع وزيغ ، ولا يعدون عند الجميع في جميع الامصار في طبقات العلماء، وانما العلماء اهل الاثر والتفقه فيه ، ويتفاضلون فيه بالاتقان والميز والفهم .

ثم روى بسنده الى ابي عبد الله محمد بن احمد بن اسحاق بن خويزمنداد ، قال في كتاب الاجارات من كتابه في الخلاف قال مالك : لا تجوز الاجارات في شيء من كتب الاهواء والبدع والتنجيم ، وذكر كتبا ثم قال :

وكتب أهل الاهواء والبدع عند اصحابنا ، هي كتب اصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم ، وتفسخ الاجارة في ذلك ، قال: وكذلك كتب القضاء بالنجوم وعزائم الجن وما اشبه ذلك .

وقال في كتاب الشهادات في تأويل قول مالك : لا تجوز شهادة اهل البدع وأهل الاهواء . قال اهل الاهواء عند مالك وسائر اصحابنا ، هم اهل الكلام . فكل متكلم فهو من أهل الاهواء والبدع ، اشعريا كان او غير اشعري ، ولا تقبل له شهادة في الاسلام ابدا ، ويهجر ويؤدب على بدعته ، فان تمادى عليها استتيب منها .

قال ابو عمر : ليس في الاعتقاد كله في صفات الله واسمائه الا ما جاء منصوصا في كتاب الله ، أو صح عن رسول الله (ص) ، او اجمعت عليه الامة ، وما جاء من اخبار الآحاد في ذلك كله او نحوه يسلم له ولا يناظر فيه . اهـ .

فاذا فهمت هذا ، علمت مقدار النعمة الكبرى التي اجراها الله على يد الامام محمد بن عبد الله ، وانه يجب على اهل العلم من المغاربة أن يعرفوا قدر هذه النعمة ، ويشكروا الله عليها بتعليمها ونشرها بين ابناء جلدتهم وغيرهم من الناس ، ويشكروا من جرت على يده بالثناء عليه ، ونشر علمه ، والاقتداء به ، ودراسة سيرته ، والاستفادة منها .

فقد روى احمد والترمذي من حديث أبي هريرة قال ، قال رسول الله (ص) : من لم يشكر الناس لم يشكر الله .

وهذا هو القسم الاول من اقسام التوحيد ، شرع في تجديده واحيائه سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله . نسأل الله أن يوفقنا لاتمام ما بداه حتى يرجع أهل المغرب الى ما كان عليه اسلافهم من عقيدة السلف الصالح ، وما ذلك على الله بعزيز .

السلطان مولاي سليمان بن محمد ودعوته الى توحيد العبادة

كان السلطان مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل رحمه الله نسخة من ابيه المصلح العظيم ، المتقدم الذكر ، مقتديا به ، ناسجا على منواله في الشغف بالعلم وملازمة مجالسه ، وتحري اتباع الكتاب والسنة ، ومحاربة البدع المفرقة .

ولما بلغه كتاب امير الحرمين عبد الله سعود في شرح دعوة المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي تتلخص في الرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله ، ومنابذة ما احدثه المحدثون من الغلو في قبور الصالحين والتعلق بهم ، بالذبح والنذر والدعاء والاستغاثة ، وغير ذلك من انواع العبادة التي هي حق لله على عباده ، ولا يجوز صرف شيء منها لغيره ، تلقاها السلطان مولاي سليمان بما تستحقه من الاحتفال والاهتمام ، فجمع العلماء ، اقتداء بجده رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي امره الله أن يشاور اصحابه ، فلما درس السلطان ومن معه من العلماء رسالة الامير السعودي ، وعلموا ان ما تضمنته هو الحق الذي لاشك فيه ، بالغ السلطان في العناية بهذه الرسالة حتى اوفد ابنه المولى ابا اسحاق ابراهيم ، وبعث معه جماعة من العلماء ، منهم القاضي ابو الفضل العباس بن كيران . والاستاذ الامين بن جعفر الحسني الرتبي السجلماسي . والاستاذ ابو عبد الله محمد العربي الساحلي ، وغيرهم من علماء المغرب واعيانه .

قال في الاستقصا نقلا عن صاحب الجيش : ان المولى ابراهيم ذهب الى الحج ، واستصحب معه جواب السلطان ، فكان سببا لتسهيل الامر عليهم ، وعلى كل من تعلق بهم من الحجاج شرقا وغربا ، حتى قضوا مناسكهم وزيارتهم على الامن والامان ، والبر والاحسان .

وقال : حدثنا جماعة وافرة ممن حج مع المولى ابراهيم في تلك السنة ، انهم ما رأوا من ذلك السلطان — يعني ابن سعود — ما يخالف ما عرفوه من ظاهر الشريعة ، وانما شاهدوا منه ومن اتباعه غاية الاستقامة ، والقيام بشعائر الاسلام ، من صلاة وطهارة وصيام ، ونهي عن المنكر الحرام ، وتنقية الحرمين الشريفين من القاذورات ، والآثام التي كانت تفعل بهما جهارا من غير نكير .

وذكروا : ان حاله كحال آحاد الناس ، لا يتميز عن غيره بزي ولا مركوب ولا لباس ، وانه لما اجتمع بالشريف المولى ابرهيم اظهر له التعظيم الواجب لاهل البيت الكريم ، وجلس معه كجلوس احد اصحابه وحاشيته . اهـ

ولما وقعت المباحثة بين الوفد المغربي برئاسة الامير مولاي ابراهيم ، وبين الامير عبد الله بن سعود في المسائل التي ينسبها المبتدعون وعباد القبور الى آل

سعود وآل عبد الوهاب، ايقن الوفد المغربي، بأن تلك التهم اكاذيب ، وان عقيدة السعوديين مطابقة لما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، والائمة المجتهدين ، وشاهدوا ذلك باعينهم فرجعوا الى موفدهم السلطان الجليل مولاي سليمان بالخبر اليقين

ثم قال صاحب الاستقصا رحمه الله واقول: ان السلطان المولى سليمان رحمه الله كان يرى شيئا من ذلك (يعني انكار ما يفعله الجهال من التعلق بقبور الصالحين ، وقصدها بالذبح والنذر وطلب الحاجات من اصحابها ، والاستغاثة بهم في الشدائد ، واقامة المواسم عند قبورهم ، الى غير ذلك من البدع الشنيعة، المفضية الى الشرك بالله ، بل بعضها ، وهو الاستغاثة والدعاء من الشرك الاكبر) .

ثم قال صاحب الاستقصا : (ولاجل ذلك كتب رسالته المشهورة التي تكلم فيها على حال متفقهة الوقت ، (يعني اصحاب الطرق المدعين التصوف، المنغمسين في البدع والشرك) وحذر فيها رضي الله عنه من الخروج عن السنة والتغالي في البدعة ، وبين فيها بعض آداب زيارة القبور ، وحذر من تغالي العوام في ذلك ، واغلظ فيها مبالغة في النصح للمسلمين ، جزاه الله خيرا ..

ومن كلامه فيها ما نصه : تنبيه : من الغلو البعيد، ابتهال اهل مراكش بهذه الكلمة (سبعة رجال) فهل كان لسبعة رجال شيعة يطوفون عليهم ؟ الى ان قال : فعلينا ان نقتدي بسبعة رجال ، ولا نتخذهم آلهة ، لئلا يؤول الحال فيهم الى ما آل اليه في يغوث ويعوق ونسر . الخ

وصدق رحمه الله ، فكم من ضلالة وكفر ، اصلها الغلو في التعظيم . وما ضلت النصارى الا من غلوهم في عيسى وامه عليهما السلام قال الله تعالى : « يا اهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله الا الحق » الآية . ومن ذلك قصة يغوث ويعوق ونسر المشار اليها ، وهي مذكورة في الصحيح ، وفي كتب التفسير.

وحكى ابن اسحاق في السيرة : ان اصل حدوث عبادة الحجر في بلاد العرب ، ان آل اسماعيل عليه السلام لما كثروا حول الحرم ، وضاقت بهم فجاج مكة تفرقوا في النواحي ، واخذوا معهم احجارا من الحرم تبركا بها ، فكان احدهم يضع الحجر في بيته ، فيطوف ويتمسح به ويعظمه ، ثم توالت السنون ، وخلفت الخلوف ، فعبدوا تلك الاحجار ، ثم عبدوا غيرها، وذهبت منهم ديانة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام، الا يسيرا جدا بقي فيهم الى ان صبحهم الاسلام . هذا معنى ما ذكره ابن اسحاق .

وقد تكلم الشاطبي وغيره من العلماء فيما يقرب من هذا وذكروا : ان الغلو في التعظيم اصل من اصول الضلال . ولو لم يكن في ذلك الا قصة الشيعة لكان كافيا . فالحاصل : ان خير الامور الوسط .

ومن هنا ايضا كان السلطان المولى سليمان رحمه الله ، قد ابطل بدعة المواسم بالمغرب . وهي لعمري جديرة بالابطال ، فسقى الله ثراه ، وجعل في عليين مثواه . ا هـ

اقول : هذا هو القسم الثاني من اقسام التوحيد التي سبق ذكرها قام بنشره واعلانه الامام سليمان بن محمد في وقت اشتدت الحاجة اليه ، بغلو العامة في قبور الصالحين وغير الصالحين ، فجعلوا لها اعيادا ومواسم ، وساقوا اليها الهدي والنذور ، واخذوا يقسمون بها ، ويطلبون منها كل شيء حتى المطر والاولاد ، وشفاء المريض ، ويفزعون اليها في الملمات. فجزى الله هذا الامام خير الجزاء ، ووفقنا للاقتداء به .

والعجب من صاحب الاستقصا : كيف لم يذكر نص رسالة عبد الله بن سعود ، ولعله لم يظفر بها ، مع سعة اطلاعه وكثرة تحريه . وقد هممت ان ادرج هنا بدلها الرسالة الثانية من رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله التي ارسلها الى فقهاء اهل سدير والوشم والقصيم ، لاني لا اظن ان رسالة الامير عبد الله بن سعود الى ملك المغرب المولى سليمان تخرج عما جاء فيها ، ولكني رايت هذا المقال قد طال. ولم يبق فيه لنشرها مجال .

الامام المنقذ محرر المغرب

محمد الخامس طيب الله ثراه ، وجعل الجنة منزله ومثواه

نشا هذا الامام الفذ على محبة العلم واهله ، وكان فصيح اللسان اذا خطب ذكر السامعين بسحبان، لا يتلعثم ولا يتلجلج ، محافظا على الصلوات ، كامل الايمان ، ناصرا للكتاب والسنة ، محاربا للبدع . حدثني ثقة انه اصدر ظهيرا بابطال المواسم اقتداء بسلفه الامام سليمان بن محمد المتقدم الذكر ، وكان عالما فقيها يتولى صلاة الجمعة اماما وخطيبا في بعض الاحيان ، كما فعل في الجامع الكبير بطنجة سنة 1947م

حدثني من اثق به ان هذا الملك العظيم قدس الله روحه كان الاختلاف والنزاع بينه وبين الاستعمار

الفرنسي قد بلغ ذروته ، وكان المستعمرون يبذلون كل جهد في الحيلولة بينه وبين الاتصال بشبه المتلهف الى رؤيته ، وسماع حديثه ، والاهتداء بارشاده ، فقصد الامام محمد الخامس أن يوجه الى الاستعمار الطعنة الاولى التي تنذره بدنو اجله ، فتوجه الى طنجة ، وامر رجاله ان يهيئوا ما يلزم في الجامع الكبير لقيامه بصلاة الجمعة اماما وخطيبا دون ان يشعر الفرنسيون بذلك فتلطف اولئك الرجال الامناء حتى هيأوا كل شيء من مكبر الصوت وجمع الناس سرا ، فلم يشعروا الا والملك يرقى المنبر ، فكاد الناس يطيرون فرحا وسرورا برؤية محياه الكريم ، وشاع الخبر في المدينة وضواحيها ، فجاء الناس يهرعون ، وضاق المسجد مع سعته ، فلم يتسع الا للقليل منهم ، فخطب خطبة بليغة ، استبشر بها الناس واغتبطوا كل الاغتباط .

ولم اكن بعيدا عن طنجة في ذلك الوقت ، فانني كنت في تطوان ، ولكنني كنت ممنوعا من دخول طنجة ، فان السفير الفرنسي بمجرد ما دخل الحلفاء الغربيون مدينة طنجة توجه الى السفير الامريكي والسفير الانكليزي ، وطلب موافقتهما على القبض على محمد تقي الدين الهلالي اذا دخل طنجة ، لانه عميل الماني بزعمه . ونشر ذلك في الجريدة الرسمية بالعربية والفرنسية ، واخبرني بذلك اخواني هاتفيا . وكنت ادخل طنجة قبل ذلك حين كانت تحت اشراف الاسبانيين ، وكانت تلك الخطبة فاتحة الحرب التي اعلنها المجاهد العظيم محمد الخامس على طغاة الاستعمار .

وكان ادعياء التصوف والطرق محالفين للاستعمار في محاربة هذا المصلح العظيم مجاهرين بذلك غير مستخفين ، فخيب الله آمالهم ، ورد كيدهم في نحورهم ، وباء الاستعمار وانصاره بخزي عظيم .

ومما يدلنا على عناية الامام محمد الخامس بالكتاب والسنة واكرامه للعلماء السلفيين ، واستصحابه لهم ، والقاؤهم الدروس العلمية بحضرته . وطليعة هؤلاء العلماء هو المحدث النابغة فريد عصره الشيخ ابو شعيب الدكالي رحمه الله ، فان الملك محمدا الخامس رحمه الله ، كان يقربه ويدنيه ، ولا يصدر الا عن امره في المسائل العلمية والاحكام الشرعية .

وقد كان التفسير في المغرب مهجورا قبل رجوع الشيخ ابي شعيب من المشرق ؛ وكان العامة يزعمون انه اذا اعلن تفسير القرآن يموت السلطان . حدثني استاذي الاديب العلامة المصلح سيدي محمد بن العربي العلوي رحمه الله تعالى انه كان في مجلس جلالة الملك محمد الخامس رحمه الله ، وكان بعض من ينسب الى العلم حاضرا ، فتحدثوا في تفسير القرآن ، فقال بعضهم : اذا فسر القرآن مات السلطان . يريد بذلك التأثير على الملك ، وكان في اوائل شبابه ، قال استاذي . فقلت له : اذا فسر القرآن يحيا السلطان ويموت الشيطان . فاستحسن الملك هذا الكلام ، وقال لي : صدقت .

ومن حسنات الشيخ ابي شعيب الدكالي دعوته استاذنا سيدي محمد بن العربي العلوي الى اتباع الكتاب والسنة ، فاستجاب الى ذلك استاذنا رحمه الله ، وبلغ الغاية في الدعوة الى اتباع الكتاب والسنة ، ومحاربة ادعياء التصوف والبدعة ، وانا من جملة من انتفع بدعوته ، بعد ما كنت غريقا في البدع .

ولما زرت محمدا الخامس رحمه الله في اول مرة دخلت فيها المغرب بعد تحريره من الاستعمار سنة 1957 وجدته رحمه الله جالسا في غرفة بقصره العامر جالسا على كرسي ، والى جانبه كرسي آخر فسلمت عليه فرد علي احسن رد واشار الي بالجلوس الى جانبه ، فشكرته . قال لي قص علي رحلتك ، فقلت: يا سيدي ، انها طويلة استغرقت 35 سنة ، فقال لي: قصها علي باختصار ، فقصصتها عليه ، وهو يستمع ، فسألني : هل تعرف سيدي محمد بن العربي العلوي؟ فقلت : ايدك الله بنصره ، أن معرفتي له غيرت مجرى حياتي كلها ، وهي السبب في رحلتي ، في كل خير ادركته .

ولم يزل هذا الملك المؤيد بالله مقربا استاذنا ، وجاعلا له من علو الرتبة والمقام مالا يدانيه فيه احد من العلماء ، وقد كان ـ بحق ـ استاذه الخاص ، ومستشاره في مهمات الامور .

اما كون محمد الخامس منقذا للمغرب ، ومخلصا له من براثن الاستعمار ، وليس مقصودي المغرب الاقصى وحده ، بل المغرب الاكبر من شنقيط الى حدود ليبيا ، فعندي عليه براهين لا تقبل الجدل ، ولا يتسع لها المقام فرحمه الله ، واثابه رضوانه ، وجعل الخير في عقبه وذريته الى يوم القيامة .

جلالة الملك الحسن الثاني

ومحبته للعلم ، وخصوصا علم الكتاب والسنة

من المعلوم ان جلالة ملكنا الحسن الثاني ، ايده الله بنصره ، وبالمؤمنين ، وادام له العز والتمكين

كان وزيرا لوالده الكريم ، وشريكا له في جهاده ، ولا اريد بالوزير هنا ، الاصطلاح السياسي ، وانما اريد به المعنى الذي جاء في كتاب الله حكاية عن موسى عليه السلام في قوله في دعائه « واجعل لي وزيرا من اهلي هارون اخي ، اشدد به ازري ، واشركه في امري، كي نسبحك كثيرا ، ونذكرك كثيرا ، انك كنت بنا بصيرا . قال قد أوتيت سؤلك يا موسى » .

فقد نشأ جلالة الحسن الثاني نشأة طيبة مباركة، وكان قرة عين لوالده ، وكان محل عنايته وحسن تربيته وتنشئته ، وكان يؤهله لحمل اعباء الخلافة بعده ، ويتوسم فيه أن يكون خير خلف . ودعاؤه له، وثناؤه عليه في الغيب والشهادة من الاخبار المتواترة المسجلة في الاذاعات والصحف التي يستوي في العلم بها الخاصة والعامة ، وقد استجاب الله دعاءه ، وبلغه مناه ، فادرك جلالة الحسن الثاني من العلوم والاعمال الجليلة ، وحسن السياسة ، والتلطف في حل المشاكل، وصدق العزم ، وقوة الارادة ، وهو لا يزال في طور الشباب ، اطال الله بقاءه ، وادام عزه وارتقاءه ، ما بهر العقول ، وقرت به عيون الاصدقاء ، وشرق به الاعداء.

اما محبته للعلم والادب ، فحدث عن البحر ولا حرج ، وحسبك انه لا يوجد في العصر الحاضر بين ملوك العرب ورؤسائهم من يدانيه في الفصاحة والبلاغة، فله من الخطب الرنانة ما يشنف الاسماع ، ويبلغ الغاية في الابداع ، في زمان فشا فيه اللحن والحصر والركاكة عند اكثر اساتذة الجامعات ، فضلا عن غيرهم .

وعنايته بالدروس والمجالس العلمية معروفة في المشارق والمغارب ، لا يطمع احد من الملوك والرؤساء ان يجاريه في ذلك .

ومن ابرز البراهين واسطع الادلة على ذلك انشاؤه لمدرسة دار الحديث ، ولما سمعت باهتمام جلالته بهذه المدرسة ، وكانت لاتزال فكرة لم تخرج الى حيز العمل ، غمرني من السرور ما لا استطيع التعبير عنه . وقد كتبت في ذلك مقالا طويلا يتضمن قصيدة ، نشرته في مجلة دعوة الحق .

ولا ازال ارجو لهذه الدار ان يبارك الله فيها حتى تؤتي اكلها ، وتجنى منها الثمار المقصودة بانشائها التي قصدها جلالته ، واسلافه الصالحون من قبله . ولم ازل مهتما بانشاء دار للحديث في المغرب ، وتذاكرت في هذا الامر مع الاستاذ السيد المهدي الصقلي حين كان عاملا على مدينة فاس سنة 1957 م واتفقنا ان نلتمس من استاذنا سيدي محمد بن العربي العلوي رحمه الله ان يقترح على جلالة الملك محمد الخامس قدس الله روحه أن يؤسس دارا للحديث ، فعرضنا ذلك عليه فلم يوافق استاذنا رحمه الله على ذلك . وكان لسان الحال يقول لنا : ان هذه المكرمة لما يأت وقتها بعد

وسحاب الخير لها مطر   فاذا جاء الابان تجي

وقد ادخرها الله لجلالة ملكنا المؤيد بالله الحسن الثاني ، وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء .

وقد استبشر السلفيون وسائر المحبين لكتاب الله وسنة الرسول خيرا ، واغتبطوا ايما اغتباط بالدرس القيم الذي القاه في رمضان الملك المؤيد بالله جلالة الحسن الثاني أعزه الله في شرح حديث (من راى منكم منكرا فليغيره بيده) الذي اخرجه احمد ومسلم في صحيحه وابو داوود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابي سعيد الخدري عن النبي(ص) فقرت بذلك الدرس العيون ، واغتبط السامعون. وكان تقرير جلالته فيه تقرير الناقد البصير الذي يعلم ما يقول رادا فيه الراي الذي لايقوم عليه دليل ، وداعيا الى العمل بالحديث في وضع اليمنى على اليسرى شارحا اسرار العمل بهذه السنة . وآمرا امرا مؤكدا باقامة الصلاة في المدارس التي يتربى فيها جيل الغد، وجيل اليوم ، وجاعلا تحصيل علوم الدين شرطا في نجاح التلاميذ في جميع المراحل الدراسية ، ومقررا احسن تقرير أن ما صح عن النبي (ص) من الحكم بالكفر والشرك ، هو حقيقة لاتقبل التأويل فقال أعزه الله : انا لا اعرف ان الشرك في هذه المسألة أصغر او اكبر ، الشرك هو الشرك . وهذا الذي قاله جلالته هو الحق بعينه ، ومن ارتاب في ذلك فليطالبني بالدليل، فيرى من البراهين ما لا قبل له برده .

فاي مسلم لا يغتبط بهذا الدرس الملكي العظيم .

وقد بعثت الى جلالته ببرقية شكر ودعاء مطولة.

وقبل ان اختم مقالي ارى من الواجب علي ان اذكر ملكا آخر سلفيا كريما هو عم والد جلالته مولاي عبد العزيز بن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن رحمهما الله ، فقد كان هذا الملك متمسكا باقسام التوحيد الثلاثة ، ملازما للعمل بالكتاب والسنة طول عمره ، عالما بعلوم القرآن والحديث ، ملازما لدراستها مع استاذه الحافظ الحجة الشيخ عبد الله السنوسي، مقبلا على اعمال البر والاحسان .

ولما سمع بأني وصلت الى تطوان سنة 1942 بعث الي بالسلام ، فذهبت الى زيارته ففرح بي أشد

الفرح ، وتذاكرت معه أكثر من ساعة في قصره بالجبل، وقال لي : لاتنقطع عن زيارتي ، ومتى اردتها ، فاتصل بصاحبي فلان في طنجة ليحضر لك السيارة ويوصلك الي ، ثم تكررت زيارتي له ، وحدثني بأحاديث :

ثم قال لي : ما رايك في انقاذ المغرب مما هو فيه؟ فقلت : اسمع راي سموكم فيه ، فقال لي : اريد أن اعرف رايك أولا ، فقلت : ارى انقاذه لايتم الا بثورة على يد رجل من البيت العلوي الكريم ، فقال لي هذا هو الراي عندي ايضا . واراد بذلك ان الخطب والمقالات لا ترد على المغرب استقلاله . وقد صح ما رايناه بثورة الامام المنقذ محمد الخامس رحمه الله . ولولاها لبقيت المغارب الثلاثة ترصف في قيودها زمنا طويلا .

وكان رحمه في عباداته عاملا بالكتاب والسنة ، لايحب التقليد إبدا ، وكانت عقيدته خالصة . قال لي مرة : جاءني الفقيه الخصاصي وقال لي : ان تابوت أبي العباس السبتي في مراكش يرتفع من فوق القبر حتى يمس السقف ، ويبقى كذلك من غروب الشمس الى الصبح . قال ودعاني هذا الفقيه الى السفر الى مدينة مراكش لمشاهدة هذه الكرامة ، قال فقلت له : هل رايته بعينك ؟ قال : لا ، ولكنه امر متواتر لاشك فيه . قال ، فقلت له : اذهب أنت الى القبر المذكور ، واقعد عند الضريح ، من قبل الغروب الى الصبح ، فان رايت التابوت قد ارتفع ، فارجع الي واخبرني ، قال : فانطلق وسافر الى مدينة مراكش ، وفعل ما امرته به ، ثم رجع الي بعد مدة فقلت : هات ما عندك ، هل ارتفع التابوت؟ فقال : لا، قال فقلت له : كنت اعلم من يوم حدثتني بذلك انه كذب ، فاياك ان تحدث بشيء من هذا القبيل اعتمادا على قيل وقال .

وحدثني استاذي ابو مصطفى محمد بن العربي ، نضر الله وجهه في الجنة ان جلالة الملك محمد الخامس دعاه لمرافقة الوفد الذي سافر الى لبنان لخطبة حرم سمو الامير مولاي عبد الله ، وكان من جملة الوفد حرم الامير مولاي الحسن بن المهدي ، وهي ابنة مولاي عبد العزيز رحمه الله ، فكانت تصلي صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضع اليمنى على اليسرى ، ورفع اليدين عند الركوع والرفع منه ، وبعد القيام من التشهد الاول ، فانكر عليها شخص من الوفد تلك الصلاة واستغربها فقالت لهم : هذه صلاة رسول الله (ص) وهكذا علمني والدي ، فتحاكما الى استاذنا فحكم لكريمة مولاي عبد العزيز وقال : صدقت .

وقد طال هذا المقال حتى ظننت ان المجلة لاتتحمله ، فينبغي ان امسك عنان القلم حتى لايجري اشواطا اخرى تضيق بها المجلة ذرعا .

وقد تقرر مما ذكرته قبل ان اقسام التوحيد ثلاثة ، فتوحيد الاسماء والصفات كان المجلي فيه دولة المرابطين . وتوحيد الاتباع كان المجلي فيه دولة الموحدين . وتوحيد العبادة كان امامه المولى سليمان بن محمد رحمه الله ورضي عنه .

اما الملوك الثلاثة ، عبد العزيز بن الحسن ، ومحمد الخامس ، والحسن الثاني فقد ورثوا من اسلافهم الاولين رسول الله (ص) واصحابه ، ومن اسلافهم الآخرين اقسام التوحيد الثلاثة . فاسأل الله باسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وبمحبة النبي (ص) ، واتباع سنته ان يعطي ملك الزمان جلالة الحسن الثاني وولي عهده سيدي محمد ، وسائر ذريته وآل بيته من ذلك الحظ الاوفر ، انه سميع مجيب .

مكناس : الدكتور تقي الدين الهلالي

نص البرقية التي بعثها الدكتور تقي الدين الهلالي الى صاحب الجلالة

حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني ، نصره الله •

لقد غمرتنا موجة من الفرح والسرور بسماع الدرس القيم الذي تكرمتم بالقائه في رمضان ، وما نشا عنه من الامر باقامة الصلاة في المدارس ، وتادب المراة المسلمة بآداب الاسلام •

نسال الله سبحانه ان يزيدكم توفيقا ، ويؤيدكم بنصره وبالمؤمنين ويقر عينكم بولي العهد سيدي محمد وسائر اخوته ، ويبقيكم ذخرا لرعاياكم المخلصين خصوصا ، وللاسلام والمسلمين عموما •

ونهنئكم بعيد الفطر المبارك • وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين •

محمد تقي الدين الهلالي الاستاذ بجامعة محمد الخامس

خطوات أمير المومنين
الحسن الثاني
لاعادة مجد الاسلام

اللغة العربية والثقافة الإسلامية وإقامة الصلاة اجبارية في جميع مراحل التعليم

للأستاذ محمد الطنجي
رئيس قسم الوعظ والارشاد
بوزارة الاوقاف

عاهل المغرب العزيز سام ... يتوخى سعادة الاوطان

حسن زاد بالمحاسن حسنا ... علوي للدين والمجد بان

هو ثان لكنه اول في ... مكرمات الاسلام والعرفان

حقق المعجزات فى غيرة الدي ... ـن وزف المنى لنا والامانى

أنقذ الشعب من هوى وانحراف ... فسما قدره على السلطان

لاح نور النبى فى قوله الحـ ... ـق وفى ذوقه لأسمى المعانى

بركات الصيام فاضت على القـ ... ـلب فعمت هداية الرحمان

الهم الله قلبه شرح قول ... لرسول الهدى بخير بيان

شرح النكر ثم كر عليه ... طاعة للرسول بالنكران

وأبان الامام خير قرار ... ملأ الكون سره النورانى

وهو اشراقة من الله كانت ... مسك ختم الدروس فى رمضان

آمرا بالصلاة فى معهد الد ... رس ليقوى الايمان فى الشبان

ويشبوا على الامانة والصد ... ق ونبل الاخلاق فى الفتيان

ويكونوا للدين والعرش والشعـ ... ـب عمادا من خيرة الاعوان

وكذا الهمته رحمة ربي ... ان يعيد اعتبار خير لسان

لغة الضاد قد حماها لتحيى ... لغة للعلوم والقرقان

وتؤدى وظيفة اللغة الحيـ ... ـة مثل اللغات فى اتقان

ولها ميزة بما حفظت من ... معجزات القرآن فى الاكوان

انزل الله ذكره بلسان ... وسع العلم فائق التبيان

وتراث الاسلام أيقن بالنو ... ر وانقاذه من النسيان

اذ رعاه الامام ضمن علوم ... صاقلا للعقول والاذهان

نحمى الدين واللغى وفق دستو ... ر الاهى لخير ذا الانسان

أيد العاهل العظيم بالها ... م مزايا الاسلام والايمان

فرأى من تأييد شعب كريم ... برقيات الولا بكل تفان

نحن يا سيد البلاد جنود ... من وراء الامام فى الميدان

نبتغى للبلاد عزا ومجدا ... خالدا تحت راية القرآن

نبذل النفس كى نعيد من الامجـ ... ـاد ما كان سالف الازمان

وحدة عمت الامازيغ والعر ... ب فسادوا بعزة السلطان

شملتهم اخوة الدين حتى ... بلغوا الاوج فى حمى الاحسان

ان فضل القرآن دوما على الاقـ ... ـصى به فاز فى سباق الرهان

فعلا قدره بفتح ونصر ... بين أهل الدنا ورفعة شان

وكذا الوحي يرفع القوم حتى ... يبلغوا قمة العلا بأمان

ان هذا القرآن روح من اللـ   ـه شفاء لكل ذي وجدان

شرعة الله بالمكارم تتلى   ملء سمع الورى بكل مكان

كتبت للاباة صفحة عز   ما رآها التاريخ فى أي آن

أعطت النفس ما حماها من الزيـ   ـغ وراعت طبيعة الانسان

وحوت من مصالح الدين والدنـ   ـيا نظاما منسق الاركان

وبذا صار دين خير نبى   خالدا صالحا لكل زمان

هكذا فضل ربنا قد بدا فى   سبط هادى الورى بصدق جنان

خلد الله بيت ذا الحسن الثا   نى على الدهر شامخ البنيان

ورعا اهله وانبت غرسا   حسنا منه يانع الافنان

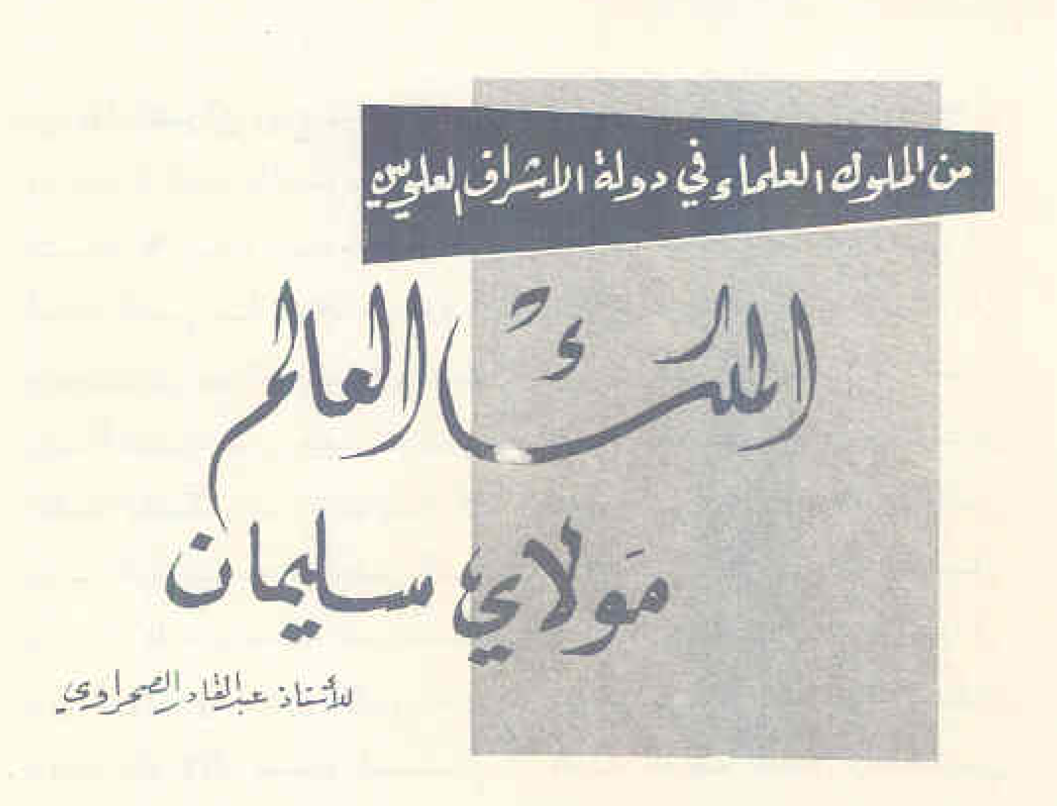
ولى العهد والبدور الالى قر   رت بهم من امامنا العينان

واطال الالاه عمر امام   قائد الشعب للعلا والامانى

سند الدين حاميا لبلاد   رائد الخير حافظ الاوطان

الرباط : محمد الطنجي





هـذه الكلمة نريد ان نخصصها للحديث عن الشخصية العلمية للملك العظيم المولى سليمان بن محمد بن عبد الله ، والنهضة العلميـة فى المغـرب على عهده ، ولالقاء نظرة ولو خاطفة على بعض مؤلفاتـه ومقالاته ورسائله وخطبه التـي وصلت الينـا ، والتي تمكنت شخصيا من الوقوف عليها ، اما مطبوعة ، واما مخطوطة بالخزانة الملكية العامرة ، او بالخزانة العامـة بالربـاط .

وابادر فاقول : انني لا ازعم هنا انني وقفت على كل الآثار العلمية لهذا الملك العالم ، فقد تكون له كتب اخرى غير التي سـاذكرها من بعد ، لم تصل الينـا ، او لا تزال مطمورة فى رفوف بعض المكتبات لم يكشف عنها الحجاب بعد ، او موجودة من اليسير الاطلاع عليهـا ولكنني شخصيا لم اهتد اليها . وعسى أن يكون غيري من المنقطعين للبحث او للكشف عن المخطوطات اقـدر مني على الوصول الى ما لم اصل اليه ، وعلى تتميم النقص الذي قد تتسم بـه هذه العجالـة .

كمـا ابادر فاقول : انني لا ازعم انني قد درست دراسـة وافية كتب المولى سليمان التي اريد ان اشيـر اليها هنا . فان ذلك يقتضي زمنا طويلا كما لايخفـى على احد ، وخصوصـا على الذيـن يعنـون بالنظـر في المخطوطات ، ولكني على كـل حـال قد وقفت عليهـا وتصفحتها ، واستطيع أن ازعم أنني كونت عنها فكـرة تسمح لي بالحديث عنهـا .

* * *

ولعل من الخير قبل الدخول فى صميم الموضوع، ان نقدم له بمقدمة يسيرة موجزة ، نعيد بها الى الاذهان الخطوط الاساسية العريضة لحياة المولى سليمان بن محمد بن عبد الله . والحالة فى المغرب على عهده .

ولـد هذا الملك العظيم سنة 1180 هـ الموافقـة لسنة 1766 م ؛

وبذلك يكون قد مر حتى الآن على مولده مائتـا سنة ، وتلك مناسبة اخرى للحديث عنه ، والتنويـه بعلمه وفضله ، وعهده الزاهر الميمون ؛

واصبح ملكا على عرش المغـرب سنـة 1206 هـ وكان عمره اذ ذاك ـ كما هو واضح ـ نحوا من خمس وعشرين سنـة ؛

وتوفى الى رحمة الله سنـة 1238 هـ الموافقـة لسنـة 1822 م

وبذلك يكون قد عاش ثمانية وخمسين سنة بحساب السنـة القمرية ، او خمسا وخمسين سنـة بحساب السنة الشمسية ؛ وتكون مدة ملكه اثنين وثلاثين سنة.

* * *

قضى المولى سليمان خمس سنوات الاولى من مدة ملكه ، فى العمل على ارساء قواعد الوحدة الوطنية وتدعيمها . وقضى السنوات الاخيرة من عمره فى مواجهة قلاقل واضطرابات وفتن كثيرة لا حاجة بنا لبسطها والدخول فى تفاصيلها . ويكفي ان نقول ، ان ذلك ربما حدا به فى وقت من الاوقات الى التفكير في التنازل عن العرش ، والانقطاع نهائيا للعبادة والذكر من جهة ، وللاشتغال بالعلم من جهة اخرى ، ولكنه لم يفعل ، بل صبر على المكروه ، وصابر ، وصمد صمود الابطال ، الى ان ادركته منيته ، فاوصى قبيل وفاته بالعهد من بعده لابن اخيه المولى عبد الرحمان بن هشام ؛

وفيما عدا ذلك ، فقد كانت أواسط ايام حكمه الذي استمر اثنين وثلاثين سنة كما اسلفنا ، ايام خير وازدهار وامن ورفاهية شاملة ، تحدث بذلك المؤرخون المعاصرون له كالزياني واكنسوس ، وتحدث به الناصري فى الاستقصا ، لا نقلا عمن سبقه من المؤرخين ، ولكن رواية عمن ادركه هو نفسه ، من الذين ادركوا عهد هذا الملك العظيم .

يقول الناصري فى ذلك : « واتفق له فى اواسط دولته من السعادة والامن والرفاهية ورخاء الاسعار، وابتهاج الزمان ، وتبلج انوار السعادة والاقبال، ما جعله الناس تاريخا ، وتحدثوا به دهرا طويلا ، حتى صارت ايام السلطان المولى سليمان مثلا فى السنة العامة ، ولقد ادركنا الجم الغفير ممن ادرك اواسط دولته ، فكلهم يثني عليها بملء فيه ، ويذهب فى اطرائها كل مذهب »

ويقول الناصري ايضا فى نفس الموضوع فى موطن آخر من كتابه المذكور :

« وكانت القبائل فى دولته قد تمولت ونمت ماشيتها وكثرت الخيرات بها من عدله وحسن سيرته، وذلك من توفيق الله له وتمسكه بالعدل والحلم والجود والحياء وجميل الصبر وحسن السياسة والتأني في الامور ، واجتنابه لما هو بضد ذلك »

❊ ❊ ❊

ونحن نؤيد هنا ما ذهب اليه مؤرخ مغربي معاصر ، هو الاستاذ السيد عبد العزيز بنعبد الله من تعليل هذا الازدهار الاقتصادي الكبير الذي عرفته البلاد فى هذه الفترة ، بما نهجه هذا الملك العظيم في ميدان السياسة الجبائية من التخفيف على الفلاحين وعموم الشعب من الضرائب والجبايات ، الا ما كان برسم الزكاة الشرعية ، كما بسط القول فى ذلك الزياني واكنسوس والناصري ؛

يقول الاستاذ بنعبد الله : « ويظهر ان التخفيف من الجبايات الاقتصادية ، ساعد على نمو النشاط الفلاحي ، فقوي الانتاج ، وتضخمت الماشية ، اذا اعتبرنا المظهر المادي لهذه النهضة الاقتصادية ، وهو النصاب الجبائي الموظف على المنتجين برسم الزكاة الشرعية الذي تزايد بثلاثة اضعاف »

❊ ❊ ❊

هذه مقدمة يبدو انها كانت ضرورية لتكوين فكرة مجملة عن عهد المولى سليمان قبل التطرق الى الموضوع المقصود هنا بالذات ، وهو الحديث عن الرجل العالم فى شخص هذا الملك العظيم ، الذي لم تشغله تبعات الملك والسياسة ، وما اضطر الى مواجهته من متاعب ومصاعب وآلام ، عن استمراره على ما فطر عليه ، وعلى ما رباه عليه والده سيدي محمد بن عبد الله ، من العناية بالعلم ، والاخلاص له ، والاخذ بنصيبه منه ، يتلقنه ويلقنه ، ويحض عليه ، ويناقش فيه ، ويحضر مجالسه ، ويشجع المشتغلين به ، ويدفعهم الى التاليف ، ويرسم لهم مناهجه ، ويساهم هو نفسه بنصيب وافر فى ذلك ، فيؤلف الكتب ، ويحبر الرسائل والمقالات ، ويكتب بنفسه الخطب النموذجية الوعظية . يقاوم بها البدعة والضلالة ، ويدعو الى السنة ، ويناصر السلفية ، كما ناصرها من قبل والده سيدي محمد بن عبد الله .

ان الذين دونوا تاريخ المولى سليمان ، وتحدثوا عن تفاصيل وجزئيات حياته واحواله ، سواء من المؤرخين المعاصرين له ، او الذين جاءوا على اثرهم ، قد وصفوه بكثير من الصفات الحميدة ، من نبل، وشجاعة ، وكرم ، ولين جانب ، وعفو عند المقدرة، وحلم واسع كبير ، ومراعاة الله فى كل ما ياتي وما يذر من اعماله ، واستشهدوا لكل ذلك بالكثير من مواقفه وتصرفاته ؛

ولكننا نرى مع كل ذلك ، ان الصفة الاكثر بروزا فى حياة هذا الملك ، أنه كان رجل علم فى الدرجة الاولى؛

ولا نعني هنا بالعلم مجرد تحصيل ما فى الكتب ولكننا نعني الشخصية العلمية التي تتلبس صاحبها او يتلبسها ، فتكون هي الغالبة عليه ، والمميزة له ، والمكيفة لاخلاقه ، والمتحكمة فى تصرفاته وعلاقاته ؛ نعني هنا بالعلم ، العلم اولا ، وثمرة العلم التي هي العمل ثانيا

❊ ❊ ❊

وفي سن مبكرة من حياة المولى سليمان ، وهو بعد مقيم بتافيلالت ، منقطع لتلقي العلم على نخبة من الاساتذة والعلماء ، احاطه بهم والده الذي لم تخف عليه مخايل النجابة المبكرة في ولده ، واستعداده العلمي الكبير ؛ في هذه السن المبكرة ، نجد المولى سليمان يهتم بالتاليف ويشجع عليه ، ويرسم للعلماء مناهجه ، ويراجع اعمالهم بنفسه اولا باول ، وهي في طريق الانجاز ؛

ويكفي ان نذكر كمثال لذلك ، ان المؤرخ المغربي ، ورجل الدولة ، ابا القاسم الزياني ، انما شرع في تأليف كتابه « الترجمان المعرب » ولعله اهم كتبه على الاطلاق ، باشارة من المولى سليمان ، وهو في هذه السن المبكرة التي اشرنا اليها ، لايزال مقيما بتافيلالت ، منقطعا لطلب العلم .

ويحدثنا الزياني نفسه ، انه كان يعرض على المولى سليمان نتائج اعماله اولا باول ، وانه كان يناقشه فيها ، وربما ساعده على تنقيحها او زوده ببعض التوجيهات ؛

واذا كنا نلاحظ ان الزياني قد وصل بتاريخه المذكور الى فترة متاخرة عن هذه ، فذلك لانه وان كان قد شرع فيه في هذه الفترة التي نتحدث عنها ، فانه لم يفرغ من تأليفه نهائيا الا في فترة لاحقة ، فقد كانت مهام الدولة ومشاغل السياسة ، لا تسمح له بمواصلة العمل في التاليف باستمرار ، فكان يعود الى كتبه يتممها ويواصل العمل فيها كلما وجد الفرصة المواتية ؛

ويحدثنا التاريخ ان المولى سليمان ، وهو حدث او شاب صغير ، كان احب اولاد ابيه اليه ، لاستقامته المثالية ، ولشغفه بطلب العلم وانقطاعه اليه ؛

ولا غرابة في ذلك ، فقد كان سيدي محمد بن عبد الله نفسه رجلا عالما سنيا سلفيا ، فكان لذلك نعم الاب الذي يستطيع ان يدرك الاستعداد العلمي المبكر في ولده ، وان يؤثره بسبب ذلك ، وان يهيىء له الاسباب لاستكمال شخصيته العلمية ، واشباع رغبته في المعرفة والتلقي والاطلاع .

بل اننا نجد الاشارة الى هذه الميزات في البيعة التي حررها علماء القرويين للمولى سليمان ، والتي اصبح بمقتضاها ملكا بعد وفاة اخيه اليزيد ، وذلك حيث يقول هؤلاء العلماء في وصفه : « .... **فتى نشا في عفة وصيانة ، ومروءة وديانة ، وعكوف على تحصيل العلم الشريف ...** »

* * *

واصبح المولى سليمان ملكا بعد وفاة اخيه اليزيد الذي لم يستمر عهده الا سنتين فقط ، مطالبا بمواجهة اعباء الملك وتكاليفه الخطيرة ، ومسؤولياته العظمى ، ولكن كل ذلك لم يشغله قط عن العلم والعلماء ، فكان يعقد بحضرته المجالس العلمية باستمرار ، ويساهم فيها بالمناقشة والاخذ والعطاء ؛

وكان ـ وهو ملك ـ يحضر دروس بعض العلماء بالقرويين بين الفينة والفينة ؛

وكانت الصلة التي تربطه ببعض العلماء الذين عاصروه واتصلت أسبابهم باسبابه ، اكثر من علاقة ملك ببعض رعيته ، كانت نوعا من الزمالة في العلم ، فكان يزورهم في بيوتهم ، ويأكل طعامهم ، ويحضر افراحهم ، ويعودهم اذا مرضوا ، ويمشي في جنازة من يموت منهم ، بل ربما فعل ما هو اكثر من ذلك ، فساهم في اجراءات الدفن ، من وضع الميت في قبره ، ورد التراب عليه ، وما الى ذلك ؛

بل اننا لنعلم ، انه انما الف كتابه : « عناية اولي المجد ، بذكر آل الفاسي بن الجد » تحية واكراما لذكرى استاذه العالم السيد محمد بن عبد السلام الفاسي ؛

وقد عهدنا العلماء يؤرخون للملوك والعائلات الملكية ، ولكننا لم نعهد الملوك يؤرخون لبعض رعاياهم من الافراد او العائلات ، فلعل هذا الكتاب أن يكون فريدا من نوعه في تاريخ الكتب والمؤلفات !

* * *

هذه الروح العلمية التي كان يتحلى بها المولى سليمان ، انعكست على عصره ، فنفقت فيه سوق العلم وراجت بضاعة الادب ، وبرز فيه علماء كبار احتفظ لنا التاريخ باسمائهم ، واصبح البروز في العلم والتفوق فيه غاية كل شاب طموح ، كما ان الصلات التي كان المولى سليمان يخصصها للعلماء ، والمنح التي كان يخصصها للطلبة ، وخصوصا النجباء منهم ، كل ذلك ساعد على التفرغ للعلم ، والانقطاع له ، والاجتهاد في طلبه ؛

وقد احتفظ لنا المؤرخ الكبير المرحوم السيد عبد الرحمان بن زيدان في الجزء الثاني من كتابه : « العز والصولة » بقائمة باسماء العلماء المنقطعين لتدريس العلم بمدينة فاس ، على عهد المولى سليمان ، ذكر فيها نحوا من خمسمائة عالم ، بطبقاتهم ورتبهم ، وذلك نقلا عن ظهير وقع اليه من عهد المولى سليمان .

* * *

وفي هذا الصدد ينبغي ان نذكر انه كان من رجال دولة المولى سليمان الذين اسندت اليهم مناصب مهمة كالوزارة وغيرها ، ثلاثة من اعيان المؤلفين والكتاب ، خلفوا لنا ذخائر مهمة في التاريخ والجغرافيا والرحلات ؛

اولهم هو محمد بن عثمان المكناسي ، الذي قضى فترة طويلة من عمره ، في خدمة الدولة على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله ، ولكنه ادرك عهد المولى سليمان ، وقام فيه بما يشبه دور وزير الخارجية بكفاءة كبيرة ، استحق التقدير عليها من الملك نفسه ، والثناء والمديح من الدول الاجنبية التي كان على صلة بها وبممثليها بحكم مهامه ومسؤولياته ؛

ومعلوم ان محمد بن عثمان المكناسي خلف لنا مؤلفات مهمة عن رحلاته وسفاراته بمختلف البلاد الاوربية ، من اهمها كتابه : « الاكسير » الذي طبع في السنين الاخيرة بعناية الاستاذ السيد محمد الفاسي، وهي رحلة لا يستطيع ان يقدر اهميتها الا من اطلع عليها ، سواء بالنظر اليها كمصدر من مصادر تاريخ المغرب السياسي والاجتماعي والعلمي في فترة معينة، او بالنظر اليها كتحفة في الادب المقارن ، لما تجسمه من نوع الرؤية التي واجه بها رجل مغربي مثقف ، مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية والفنية في اوربا في القرن الثامن عشر ؛

* * *

وثانيهم هو ابو القاسم الزياني ، الذي ترجع صلته بالمولى سليمان الى ايام انقطاع هذا الاخير بتافيلالت لطلب العلم كما سبقت الاشارة الى ذلك، واستمرت هذه الصلة الى نهاية حياة المولى سليمان، اذ ان الزياني عاش بعده نحوا من عشر سنين .

وقد سبقت الاشارة الى أن الزياني ، شرع في تاليف كتابه « الترجمان المعرب » باشارة من المولى سليمان نفسه ، وهو بعد طالب بتافيلالت .

ونزيد هنا ان مؤلفات الزياني بلغت نحوا من خمسة عشر كتابا ورسالة .

من اهمها زيادة على ماذكر ، كتابه « الترجمانة الكبرى »

ومن اهمها ايضا كتابه « البستان الظريف » او « الروضة السليمانية » لانهما معا بمثابة كتاب واحد، كما تبين لنا من الاطلاع على مخطوطاتهما بالخزانة العامة ، وان كان يظهر ان في الثاني زيادات بالنسبة للاول .

ومنها – وهو مهم جدا فيما نحن بصدده – كتاب له صغير الحجم ؛ اسمه الكامل **« جوهرة التيجان، وفهرست الياقوت واللؤلؤ والمرجان ، في الملوك العلويين ، واشياخ امير المؤمنين المولى سليمان »**

وقد اتيح لنا ان نطلع على مخطوطة لهذا الكتاب بالخزانة الملكية العامرة ، وهو يقع في مائة وعشرين صفحة ، خصصه الزياني لذكر اساتذة المولى سليمان، فذكر منهم نحو العشرين استاذا ، جعل اولهم هو والده السلطان المعظم سيدي محمد بن عبد الله ، وذكر منهم من المشاهير : حمدون بن الحاج ، والشيخ التاودي بن سودة ، واحمد بن التاودي بن سودة ، وغيرهم وغيرهم

ولعل خير تعريف بالغاية من تاليف هذا الكتاب هو ان ننقل هنا الفقرة التالية منه ؛

يقول الزياني : « ورجعنا الى المقصود ، وهو فهرست امير المؤمنين – المولى سليمان – وذكر اشياخه الذين اخذ عنهم ، ومن في عصره من علماء حضرته ، والذين يفدون على بابه ، ويحضرون مجالسه ودروسه ، ويذاكرهم ويباحثهم ، وانتفع بهم وانتفعوا به ، الى ان صاروا يغترفون من بحره ، ويستمدون من رفده ، وذكر تلامذته من طلبة الحضرة الذين يأخذون عنه ، وكتابه ، وسراد كتبه ، ونساخ دفاتره العلمية »

* * *

اما الثالث ، فهو محمد بن احمد اكنسوس الذي نبغ في عهد المولى سليمان ، واتصل به ، واصبح من وزرائه ؛

وقد خلف لنا اكنسوس اثرا علميا مهما ، هو كتابه « الجيش العرمرم » وهو كتاب في التاريخ لايزال مخطوطا ، ومن انسخه المعروفة ، نسخة بالخزانة العامة بالرباط ، في مجلد ضخم .

ويبدو من تصفح هذا الكتاب ان اكنسوس قد استفاد كثيرا مما كتبه الزياني من قبله ، ولكنه مع ذلك كان يرد عليه كثيرا ، خصوصا استطراداته وتعليقاته التي كان يجمح به فيها قلمه ، ويرخي لنفسه العنان ليقول كل ما يريد ، خصوصا في خصومه ، او في المذاهب التي لاتوافق رأيه او هواه ، فقد كان في الزياني نوع من النزق والتسرع ، وكان اكنسوس فيما يبدو على خلافه ، رجلا متزنا عاقلا هادىء الطباع .

* * *

وما دمنا بصدد الحديث عن النهضة العلمية فى عهد المولى سليمان ، وبصدد ذكر العلماء الذين كانوا على صلة بـه ، والذين الفوا كتبا لـه ، أو باشارة منـه ، فلنذكر انه باشارة منه ، الف العالم المغربي ، ابو العلاء ادريس البدراوي ، كتابه « التوضيح والبيان » فـي القـراءات ؛

ولنذكر ايضا انه باشارة منه شرع العلامة المغربي محمد البازغي فى تاليف كتاب « الفتح الكامل فـي توضيح الشامل » وانـه كتب منـه خمسة اجـزاء ، وعاجلته المنية قبل ان يتممه ، فكلف المولى سليمان باتمامه عالما آخر ، هو القاضي أبو الحسن علي التسولي ، وقد تم هذا الكتاب اخيرا على يد هذا العالم ، فجـاء فى تسعة اجـزاء .

ولنذكر ايضا انه هو الذي كلف العلماء الاربعة ، احمد بن سودة ، وعبد القادر بن شقرون ، ومحمد بنيس ، والطيب بن كيران ، بشرح الاربعين حديثا النـوويـة .

وسيطول بنا المقام اذا ذهبنا نستقصي الامثلة التي من هذا القبيل ، فلنكتف بهذا القدر ، فان فيـه غنية ودلالة ، اما المهم فهو أن نقرر ان الشخصية العلمية للمولى سليمان ، قد انعكست على عصره ، وظهرت آثارهـا فيـه .

* * *

ولننقل هنا اقوال بعض المؤرخين المعاصرين لـه ، او الذين جاءوا على اثرهم ، فى الاشادة بروحه العلمية ومقـدرتـه ؛

يقول الزياني فى كتابـه « الروضة السليمانية » متحدثا عن المجالس العلمية للمولى سليمـان : « .... ينتقي لذلك شيوخ القراء والاساتيذ ، ويجمع اعيان العلماء لسرد الحديث الشريف وتفهمه والمذاكرة فيه ، على مر الليالي والايام ، ويتأكد ذلك فى رمضان ، ويشاركهم بغزارة علمه وحسن ملكته ، ويتناول راية السبق فى فهم المسائل التي يعجز عنها غيره ، فيصيب المفصل .... ويعظم العلماء الذين هم ورثة الانبياء ، ويرفع مناصبهم على سائر رجال دولته ، ويجري عليهم الارزاق ، ويعطيهم الدور المعتبرة والضياع المغلة ، ويحسن الى من دونهم فى المرتبة من المدرسين وطلبة العلم ، ويؤثر المجتهدين منهم وذوي الفهم بمزيد البـر ، وتضعيف الجراية ، حتى لقد تنافس الناس لهذا الوقت فى اقتناء العلوم وانتحال صناعتها ، لاعتزاز اهل العلم وسعة ارزاقهـم »

اما مؤرخ الدولة العلوية السيد عبد الرحمان بن زيدان ، فانه يقول عن المولى سليمان فى كتابه « الدرر الفاخـرة » :

« لا احتاج هنا الى شرح النهضة العلمية التي كانت فى زمنه ، لاشتهارها اشتهار شمس الظهيرة »

ثم يقـول متمثـلا :

وكيـف يصـح فى الاذهـان شـيء
اذا احتـاج النهـار الـى دليـل

ويأتي اخيرا الاستاذ السيد عبد العزيز بنعبد الله فيجمل ما قالته المصادر التاريخية فى هذا الباب فـي العبارات المركزة التاليـة :

« ولم يفته ـ اي المولى سليمان ـ دعم النشاط الثقافي ، بتشجيع العلماء ، وبناء نحو ثلاثين مدرسة بالحواضر والبوادي ، وجلب المؤلفات مـن الشرق ، والاسهام شخصيا فى حركة التاليف والتكوين العلمي ، فحفظ اشعار العرب ، مـع صحاح الحديث وامهات الكتب ، تركيزا للملكة العلمية ، بدلا من الانكباب على المختصرات التـي تحجـر الفكـر ، وكـان من دعاة السلفية التي تستمد من الكتاب والسنة تلك الاشراقة اللماعة التي تطبع الروح الاسلامية ببساطتها ونصاعتها وصفائهـا »

* * *

هـذا هو المولى سليمان بن محمد بن عبد الله ، الملك العالم ، وتلك لمحات عن عصره ، قد لا تكون كافية ، ولكنها قد تساعد على تكوين فكرة ، وهذا هو المقصود هنا من هذه العجالة ، اما ايفاء موضوع مثل هذا حقه ، فانه قد يحتاج الى كتاب مستقل ، قائم الذات .

ونختم هذا الكلام بالقاء نظرة خاطفة على ما وصل الينا ، او على ما استطعنا الوصول اليه مـن الآثـار العلمية لهذا الملك العظيم الهمام ، من مؤلفات ، ورسائل او مقـالات

* * *

ـ فمن ذلك كتاب له فى الفقه والشريعة ، وضعه شرحا لكتاب الخرشي الـذي يشرح فيه مختصـر الشيـخ خليـل .

هذا الكتاب توجد منه نسخة خطية بالخزانة الملكية تحت رقم 1323 في مجلد واحد ضخم ، يقع في اربعمائة وستين صفحة ، مكتوبة بخط دقيق ، بحيث لو طبع كما هو لجاء في الف صفحة او تزيد .

وهذه النسخة مكتوبة بعناية كبيرة فائقة ، بخط مغربي جميل ، ومداد ملون ، مزخرف بماء الذهب، كما انها سليمة تمام السلامة .

وقد ورد في آخر هذا المجلد ، الاشارة الى انتهاء الربع الاول ، ومعنى ذلك ان الكتاب يقع في اربعة اجزاء ، او ان مؤلفه المولى سليمان ، كان ينوي ان يتمه اربعة اجزاء .

وقد اجتهدت ان اعرف ما اذا كان لهذا الجزء الذي بين يدي اجزاء اخرى تليه ، ولكني لم اصل الى نتيجة في هذا الموضوع ، ولكني وجدت صاحب فهرس الفهارس يذكر في صفحة 328 من الجزء الثاني من كتابه ، ان للمولى سليمان حاشية على الخرشي في مجلدين اثنين ، الا ان صاحب فهرس الفهارس لم يذكر مصدره في ذلك ، ولم يذكر ما اذا كان هو نفسه قد وقف على هذا الكتاب ام لا ، مع ان من عادته ان يذكر ذلك بالنسبة لكثير من الكتب .

والكتاب فيما يبدو عبارة عن المذكرات التي كان المولى سليمان يحررها بنفسه ، وهو يدرس كتاب مختصر الشيخ خليل بشرح الخرشي ، ايام طلبه العلم بتافيلالت ، على شيخه العلامة عبد الرحمان بن محمد بن احمد بن الحبيب ، جمعها اخيرا ، وجعلها كتابا ، يريد فيه ان يبسط عبارات الخرشي ، ويقربها الى الاذهان .

يقول المولى سليمان في مقدمة كتابه هذا :

« وبعد ، فيقول الفقير لرحمة مولاه ، الغني به عما سواه ، سليمان بن محمد بن عبد الله ، بيض الله غرة احواله ، واورق اغصان آماله : هذه حواش دقيقة ، وعبارات رشيقة ، عرف التحقيق منها يفوح ، وبمكنون سر مختصر ابي الضياء تبوح ، فاقت الاوائل وان جاءت في الزمن الاخير ، لما تحلت به من لطف السبك وتحبير التحرير ، على شرح العلامة ، الامام البركة الهمام ، ابي عبد الله الخرشي ، برد الله ضريحه، واسكنه من الجنان أعلاه وفسيحه ، لانه اشتهر في البوادي والحواضر ، وصار لمن يتعاطى علم الفقه بمنزلة الانسان من النواظر ، غير انه لاختصاره ، ربما قصرت عبارته عن المرام ، وجمحت به في ميدان الطروس سوابق الاقلام .... »

* * *

ونقف هنا وقفة لنقول كلمة يبدو ان المقام يقتضيها :

فمن المعلوم ان هذه الكتب المختصرة في الفقه وغيره ، المعقدة العبارة ، العسيرة الفهم ، كانت قد اصبحت لمدة طويلة هي مادة التعليم في الثقافة العربية الاسلامية ، وكان يظهر بين الحين والحين من ينتقدها ويحاول صرف الانظار عنها لتعقدها وتشعبها وكثرة الخلافات فيها ، بل كان يظهر بين الحين والحين من ذوي السلطان من يستعمل نفوذه وسلطته في حمل الناس على نبذها .

ونحن نعلم في تاريخ المغرب نفسه ، ان الموحدين – مثلا – ذهبوا الى ابعد من ذلك ، فحملوا الناس على طرح كتب الفروع جملة ، والرجوع الى القرآن والسنة ، وتراث السلف الاول ، ولا نريد هنا ان نطيل في شرح دوافعهم في ذلك ، فليس هنا مجال بسط القول فيه ؛

لكن مما يتصل بموضوعنا اتصالا وثيقا ، ان السلطان سيدي محمد بن عبدالله ، والد المولى سليمان، كان له راي مهم في الموضوع .

فقد كان يرى ان اشتغال الطلبة بالمختصرات الصعبة العبارة التي تحتاج الى شروح وحواش وشروح للشروح ، مضيعة للوقت فيما لا موجب له ولا طائل تحته ، وانه خير لهم ان يرجعوا الى الكتب المبسوطة ، الواضحة العبارة ، وكان يصرف الناس عن مختصر الشيخ خليل حتى كادوا ان ينصرفوا عنه نهائيا ؛

فلما جاء المولى سليمان فعل عكس ذلك فيما يتعلق بمختصر خليل على الخصوص ، فكان كما يقول صاحب الاستقصا : « يحض الناس على التمسك به، ويبذل على حفظه وتعاطيه الاموال الطائلة »

وها نحن نرى انه قد ذهب الى ابعد من ذلك، فاشتغل هو نفسه بوضع شرح يتعلق به ، لاشك انه قد كلفه وقتا طويلا جدا ، ومجهودا شاقا عسيرا . فليس من اليسير على كل حال ، أن يكتب الانسان كتابا في الفقه ، في نحو الف صفحة او اكثر لو طبع . هذا اذا اعتبرنا ان الكتاب يقف عند الربع الاول الذي بين ايدينا ، والا فمن المحتمل ان تكون له اجزاء اخرى، بحيث قد يكون في اربعة اجزاء .

ان هذا يبدو لنا متناقضا شيئا ما مع منهج المولى سليمان في التاليف ، وفي العلم بصفة عامة ، كما سيبدو لنا من بعد ، فهو يبدو في بعض الكتب الاخرى التي

الفها ، وفي بعض الكتب التي اشار بتاليفها ، يميل الى التبسيط ، وتجنيب التلاميذ والطلبة المسالك الوعرة التي تحملهم عليها بعض الكتب في غير موجب لذلك .

وهو نفسه ، لا شك انه قد قاسى الشدائد في صغره ، في استيعاب مختصر الشيخ خليل واستيعاب شروحه ، الامر الذي كان يحمله على تدوين مذكرات في دروسه — كما يفعل اليوم الطلاب الجامعيون — جمعها اخيرا ، وجعلها كتابا ، على امل ان يساعد الطلبة على تجنب بعض ما تحمله هو من المشاق .

ومهما يكن ، فنحن هنا امام مجهود علمي ضخم ، قد لا يستطيع النهوض به الا العلماء المتفرغون له ، المتخصصون فيه ، فاذا وجدنا ملكا لا تحول اعباء الملك وتبعاته بينه وبين القيام بعمل من هذا القبيل ، فان ذلك من غير شك سيكون جديرا بالتنويه والاعجاب ، بل انها في الواقع لظاهرة نادرة المثال ، ان لم تقل انها عديمة المثال على الاطلاق .

* * *

— ونعود الى استعراض مؤلفات المولى سليمان ، فنجد ان من بينها ايضا كتابا صغيرا عنوانه **« امتاع الاسماع بتحرير ما التبس من حكم السماع »** وقد اتيح لي ان اطلع على نسخة خطية منه بالخزانة الملكية تحت رقم 6040 وهي تقع في نحو من مائة وست وعشرين صفحة من حجم متوسط ، مكتوبة بخط جميل ، ومداد ملون ، وعلى ورق ابيض صقيل .

والسماع المقصود هنا ، يشمل الغناء ، ويشمل ايضا الاذكار التي يتغنى بها بعض المتصوفة في حلقات الذكر .

ونحن نعلم ان المولى سليمان كان كوالده رجلا سنيا سلفيا ، بل ان له خطبة مشهورة في الانتصار للسلفية ، كانت حجة في يد دعاة السلفية في بداية النهضة الوطنية الحديثة ضد الاستعمار ، وستأتي الاشارة الى هذه الخطبة من بعد .

ولعل الجدال كان محتدما في عهد المولى سليمان في شأن الغناء والتغني بالاذكار في الحلقات الصوفية ، فراى ان يكتب هذا الكتاب ليضع به حدا لذلك الجدال ، وليذكر ما يحل من ذلك وما لا يحل ، وليرد على بعض الشبهات ؛

وهذه الرسالة على صغرها تدل على سعة علم المولى سليمان وكثرة اطلاعه ، فقد ملأها بالاستشهادات من الكتاب والسنة واقوال السلف الصالح واقوال العلماء المشاهير كالسهروردي ، والغزالي ، وابي عبد الله بن الحاج في كتابه « المدخل » والقاضي عياض ، وغيرهم من العلماء الذين ورد ذكرهم والاستشهاد بكلامهم في هذه الرسالة ، ويمكن عدهم بالعشرات .

ولا باس ان ننقل هنا بضع كلمات من هذه الرسالة ، فهي تدلنا على الغرض المقصود منها ، كما تعطينا صورة عن اسلوب المولى سليمان في الكتابة والتأليف ؛

يقول المولى سليمان : **« هذا بعون الله امتاع الاسماع بتحرير ما التبس من حكم السماع ، حملني عليه اليوم ما شاع من التساهل فيه ، حتى ممن ينسب الى العلم والفضل ، فيفتر به مقتفيه ، مع انه لا يحل لامريء مسلم ان يقدم على امر حتى يعلم حكم الله فيه ، ومن الله استمد التوفيق والعون ، واياه اسال ان يصونني من الخطا والخطل كل الصون ، وان يهديني سواء السبيل ، فهو حسبي ونعم الوكيل »**

* * *

— ومن مؤلفات المولى سليمان كتابه الذي سبقت الاشارة اليه وهو كتاب **« عناية اولي المجد ، بذكر آل الفاسي بن الجد »** وقد طبع هذا الكتاب سنة 1347 هـ بعناية الاستاذ محمد العابد بن عبد الله الفاسي ، وصدره بترجمة للمولى سليمان ذكر فيها علمه وفضله ، وانه كان الف هذا الكتاب « تكرمة لشيخهم الذي اخذ عنه ، وهو الفقيه المغربي الكبير ، والعالم الشهير ، محمد بن عبد السلام الفاسي »

ويبدو المولى سليمان من خلال هذا الكتاب مؤرخا نسابة ، يتتبع اصول وفروع العائلة التي يؤرخ لها ويتحدث عنها ، ويستقصي افرادها في دقة متناهية ، لا شك انها قد كلفته كثيرا من البحث والاستقراء .

وهو بذلك يقدم لنا صورة مشرقة من اخلاقه ونبله ، اذ يدفعه الوفاء لذكرى استاذ من اساتذته الى التاريخ لعائلته كلها ، اصولها وفروعها ، بالمغرب والاندلس على السواء .

* * *

هذا ويبدو الى جانب المؤلفات ، ان المولى سليمان كان يهتم بتحرير مقالات او رسائل قصيرة في الموضوعات التي تكون مثار جدل بين العلماء في حضرته ، او تصل اليه اصداؤها ولو من بعيد .

— فمن ذلك رسالة له صغيرة عنوانها:
« جواز التجمير بالقسط في رمضان »

والقسط بضم القاف معناه العود الذي يتبخر به ، والتجمير بالقسط معناه التبخر بالعود .

وقد جرت العادة الى اليوم ان توضع في حلقة دروس الحديث التي تلقى بحضرة الملك مجامير العود ، وهي عادة كان يداب عليها الامام مالك رحمه الله ، كما روى ذلك القاضي عياض في الجزء الثاني من كتابه « ترتيب المدارك » فقد قال ما معناه ان الامام مالكا كان اذا جلس للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضع في المجلس مجامير فيها عود ، فلا يزال يبخر الى ان ينتهي الامام مالك من درس الحديث .

والذي يظهر انه كانت تعقد بعض المجالس للحديث في عهد المولى سليمان في شهر رمضان نهارا ، وانه ربما وضعت فيها مجامير عود ، وان بعض الناس ربما تكلموا في ذلك ، فكتب المولى سليمان هذه الرسالة « جواز التجمير بالقسط في رمضان »

وتوجد نسخة خطية من هذه الرسالة بالخزانة الملكية ضمن مجموع تحت رقم 5633

* * *

ومن رسائله هذه ، رسالة اخرى كتبها تعليقا على قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام ، وهي القصة المشهورة في القرآن الكريم :

وقد خلص المولى سليمان من التعليق على هذه القصة الى النتيجة التالية حيث يقول :

« ويؤخذ من هذه القصة ان ثبوت المزية لشخص بالنسبة الى غيره ، لايقتضي ثبوت الفضل له عليه ، بل قد يكون ذلك الغير افضل من ذي المزية ، الا ترى أن الخضر عليه السلام اقصى ما قيل فيه انه نبي ، واين هو من رسول الله موسى ، وهو من اولي العزم ، والذين هم افضل الرسل على الاطلاق ، وهم سيدنا محمد وابراهيم وموسى وعيسى ونوح صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين والحمد لله رب العالمين »

وهذه الرسالة الصغيرة التي تقع في ثلاث صفحات فقط ، توجد هي ايضا كسالفتها ضمن مجموع بالخزانة الملكية تحت رقم 911

ولا بأس ان نستطرد هنا ، فنذكر ان هذا المجموع يشتمل الى جانب هذه الرسالة على « رسالة في العقائد » ليست من تاليف المولى سليمان نفسه ، ولكن يبدو ان الذي كتبها هو احد العلماء الذين كانوا على صلة وثيقة به ، وانه كتبها باشارة منه ، بل ان المولى سليمان هو الذي رسم منهجها وخطتها .

يقول مؤلف هذه الرسالة الذي لم نستطع حتى الآن ان نهتدي الى معرفة اسمه :

« هذه رسالة شريفة ، جامعة لعقائد الدين متبعة ، جنبتها البراهين العقلية ، واقتصرت فيها على الدلالات السمعية من آيات واحاديث »

الى ان يقول :

« امرني بنسخها على هذا المنوال ، واختراعها على هذا الوضع العديم المثال .... مولانا ابو الربيع سليمان ... لما رأى اعزه الله ان علم التوحيد اشرف العلوم ، وافضلها على الخصوص والعموم ، وان هذا القدر انفع للولدان ، واقرب رسوخا في الاذهان »

* * *

— نأتي الآن الى **الخطبة الوعظية النموذجية** المشهورة ، التي كان المولى سليمان قد حررها بنفسه ، وبعث بها الى اقطار المغرب لتلقى على الناس من المنابر في يوم الجمعة ، وهي غنية عن التعريف ، فقد تحدث عنها جميع المؤرخين الذين كتبوا عن المولى سليمان ، واثبتوا نصها او فقرات منها .

وكان قد اعتنى بنشرها في كراسة صغيرة مستقلة ، الاستاذ السيد ابراهيم الكتاني ، وصدرها بمقدمة تحدث فيها عن المولى سليمان وروحه العلمية السلفية ، كما زودها بتعليقات في تخريج بعض الاحاديث الواردة فيها .

والكراسة المذكورة لا تحمل تاريخ طبعها ، ولكن يبدو ان ذلك كان في بداية النهضة الوطنية السياسية الحديثة ، التي قامت اساسا على التمسك بالسلفية ، والرجوع اليها ، ومحاربة البدع والضلالات ، لانها تشتمل على صور للعرائض والرسائل التي كان علماء القرويين يرفعونها في الموضوع الى الملك المقدس المرحوم محمد الخامس طيب الله ثراه ، مستدلين فيها بما ورد في خطبة المولى سليمان المذكورة ، الى جانب ما استدلوا من الآيات والاحاديث واقوال السلف الصالح والائمة الاعلام الثقات .

ولعل اهمية هذه الخطبة ، تكمن في كونها تقدم لنا صورة قوية وناصعة عن سنية المولى سليمان

وروحه السلفية ، شانه في ذلك شان والده سيدي محمد بن عبد الله .

والواقع ان سلفية المولى سليمان كانت من ابرز معالم شخصيته .

حتى انه عندما ظهرت الدعوة الوهابية في الحجاز على عهده ، وبعث اليه الامير عبد الله بن سعود يخبره بخبر هذه الدعوة ويشرحها له ، كما بعث بذلك الى كثير من الملوك في العالم الاسلامي في ذلك الحين ، لم يجد المولى سليمان ولا العلماء المحيطون به في ذلك شيئا جديدا ، وذهب الوفد الرسمي للحج في تلك السنة برئاسة الامير ابراهيم بن المولى سليمان، فاتصل بالوهابيين ، وناقشهم مناقشة طويلة وتفصيلية، فتبين انه ليست هنالك شقة خلاف .

وحتى بعض العلماء المغاربة الذين ناقشوا الدعوة الوهابية ، لم ياخذوا على الوهابيين الا شيئا من الغلو، كثيرا ما يصحب الدعوات في جدتها وعنفوانها .

* * *

هذه نظرة عجلى على بعض ما امكن الوقوف عليه من الآثار العلمية للمولى سليمان بن محمد بن عبد الله، وقد يكون هنالك غيرها مما لم اقف عليه ، كما ذكرت من قبل ، فعسى أن يتصدى لاتمام النقص ان كان من يحسن اتمامه .

هذا وقد ذكر صاحب فهرس الفهارس ، ان للمولى سليمان :

— تعاليق على الموطا

— وتعاليق على كتاب « المواهب »

وذكر مثل ذلك ايضا الاستاذ العابد الفاسي في مقدمته التي صدر بها كتاب المولى سليمان « عناية اولي المجد » وقد تولى نشره كما أشرنا الى ذلك من قبل .

ولكنهما لم يذكرا مصدرهما في ذلك ، ولا اي شيء يمكن الاعتماد عليه في الاهتداء الى هذين الكتابين ، وقد بحثت شخصيا فلم اجد

* * *

وقد كان من الممكن ان نشير هنا الى بعض رسائل المولى سليمان الشخصية التي كان يكتبها بنفسه ، اما لبعض المسؤولين في الدولة ، او لبعض العلماء ، وقد اورد الزياني نماذج منها في كتابه « جوهرة التيجان »

كما كان من الممكن أن نشير الى بعض القصائد الشعرية التي قيلت في مدحه والاشادة بعلمه وفضله ، وخصوصا منها مدائح استاذه حمدون بن الحاج الواردة في ديوانه « النوافح الغالية في المدائح السليمانية » وتوجد منه نسخة خطية بالخزانة الملكية تحت رقم 5913 . وكذلك مدائح سليمان الحوات الواردة في ديوانه ، وتوجد منه ايضا نسخة خطية بالخزانة الملكية تحت رقم 2941

ولكننا راينا ان ذلك اذا تتبعناه سيخرج بنا عن القصد ، وسيجعل هذه الكلمة تطول أكثر من اللازم ، خاصة ونحن لانقصد منها اكثر من اعطاء نظرة عن الشخصية العلمية لهذا الملك العظيم الجليل ، العالم، مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله ، رحمه الله ، وطيب ثراه .

الرباط : عبد القادر الصحراوي

مراجع :

1) امتاع الاسماع بتحرير ما التبس من حكم السماع

للمولى سليمان ، توجد منه نسخة خطية بالخزانة الملكية تحت رقم 6040

2) حاشية على شرح الخرشي لمختصر خليل

للمولى سليمان ، توجد منه نسخة خطية بالخزانة الملكية تحت رقم 1323

3) عناية اولي المجد بذكر آل الفاسي بن الجد

للمولى سليمان ، مطبوع بالمطبعة الجديدة بفاس سنة 1347 هـ ومصدر بمقدمة لناشره الاستاذ محمد بن عبد الله الفاسي

4) جواز التجمير بالقسط في رمضان

للمولى سليمان ، رسالة خطية صغيرة ، توجد منها نسخة ضمن مجموع بالخزانة الملكية تحت رقم 5633

5) تعليق على قصة موسى والخضر عليهما السلام

للمولى سليمان ، رسالة خطية صغيرة ، توجد منها نسخة ضمن مجموع بالخزانة الملكية تحت رقم 911

6) خطبة وعظية ضد البدع

للمولى سليمان ، مطبوعة في كراسة مستقلة بعناية الاستاذ ابراهيم الكتاني ، ومصدرة بمقدمة له

7) جوهرة التيجان

لابى القاسم الزياني ، توجد منه نسخة خطية بالخزانة الملكية تحت رقم 7159

8) الترجمان المعرب

لابى القاسم الزياني ، توجد منه نسخة خطية بتاريخ الدولة العلوية الشريفة ، نشره مع ترجمته الى الفرنسية المستعرب « هوداس » وطبع بباريس في المطبعة الجمهورية سنة 1886 ، وقد جعل هوداس عنوانه بالعربية « الخبر عن اول دولة من دول الاشراف العلويين من اولاد مولانا علي بن الشريف بن علي » وجعل عنوانه بالفرنسية « المغرب من سنة 1631 الى سنة 1812 »

9) الروضة السليمانية

لابي القاسم الزياني ، توجد منه نسخة خطية بالخزانة العامة تحت رقم 1275 وهو نفس كتاب « البستان الظريف » للزياني مع زيادات

10) الجيش العرمرم

لمحمد بن احمد اكنسوس ، توجد منه نسخة خطية بالخزانة العامة تحت رقم 965

11) فهرس الفهارس

لعبد الحي الكتاني ، مطبوع ، متداول

12) الدرر الفاخرة

للمرحوم عبد الرحمان بن زيدان ، طبع بالرباط سنة 1937

13) العز والصولة

للمرحوم عبد الرحمان بن زيدان ، طبع اخيرا بجزئيه بمطبعة القصر الملكي

14) النوافح الغالية فى المدائح السليمانية

لحمدون بن الحاج ، توجد منه نسخة خطية بالخزانة الملكية تحت رقم 5913 .

15) ديوان سيدي سليمان الحوات

توجد منه نسخة خطية بالخزانة الملكية تحت رقم 2941

16) الاستقصا

للناصري ، الجزء الثامن

17) تاريخ المغرب

للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ، الجزء الثاني

18) رسالة فى العقائد

لمؤلف مجهول ، كتبها باشارة من المولى سليمان الذي رسم له منهجها وخطتها كما يستدل على ذلك من مقدمتها ، وتوجد منها نسخة خطية ضمن مجموع بالخزانة الملكية تحت رقم 911



تقـــديـــم :

عرف الاستاذ السفير السيد عبـد الهادي التازي بانـه (صاحب مذكرات) لايترك حدثا مر به في يومه دون ان يكتب عنه شيئا ، عرفته بذلك مجالس شيوخه وزملاؤه وطلبته ، وكل الذين كانت لهـم معـه صلـة .

وقد طلبنـا اليه ان يتصفح امامنا بعضـا مـن تلـك المذكـرات ، فاختـار هـذه الصفحـات ....

عندما نحب محمدا الخامس ، وعندما نجل محمدا الخامس ، وعندما نؤمن بعلو قدره ، وشرف مقامه انما نأتي ما نأتي ونحن على اتم الايمان بمدرسته التي لم تتغير مبادئها ولم تختلف مراميها ... نحن الذين عشنا مراحل نضاله ، عشنا فترات جهاده نجد دينا علينا للاجيال الحاضرة والغابرة أن نحاول تجسيد شخصيته وتحديد فلسفته لانـه فعلا معلمـة تقتـدى ومنقبـة تحتـذى ...

ومن خصائص تاريخنا المعاصر ومميزات نضالنا الوطني ان كل الطبقات خاضت غماره : الصغير والكبير ، الرجل والمراة ، المدينة والقرية ، القصر والكوخ ، قـد تختلف درجة المساهمة تعمقا وتطرفا ولكنها احداث يمكن أن تجد لكل مواطن فيها ما يقول : أنت وهـو وأنـا نكون معا عناصر ذلك التاريخ فحق علينا جميعا أن نسهم في كتابة هذه الصفحات الناصعة من تاريخ بلادنا مهما كانت المصاعب ومهما كانت المتاعب

وقد فضلت ـ هذه المرة ـ الحديث عن لقاءات ثمان مع بطل الاستقلال جلالة محمد الخامس فيهـا ما كـان خاصـا وفيها ما كـان عامـا لكنهـا جميعـا مما لم يسبق له ان نشر ، وهي مجتمعة تعطـي فكـرة عن المناهج التي سلكها محمد الخامس والتي جعلت منه وليا يتوسل به المؤمنون ووطنيا يقتدي به المناضلون.

ستراه في اللقاء الاول بين اختيارين : مادة تعبر عن حب وحب يعبر هو نفسه ، فيزهد في تلك ويتعلق بهـذا !

وستراه في اللقاء الثاني يبني أهم صرح في حياة الامة المغربية : ذلك نداؤه بدخول الفتاة المغربية معركة الحيـاة ...

وستقف في اللقاء الثالث على ما يؤيد ماعرف سلفا من تواطؤ مسبق وعهد محكم بين جلالته وبين رجال الحركة الوطنية من اجل المطالبة بالاستقلال التام !

وسترى في اللقاء الرابع مظهرا من مظاهر عنايتـه بتطور جامعة القرويين باعتبارها الحصن الوحيد الذي يرى فيه المناعة الكافية ضد كل استسلام ، والذي كان الاستعمار يرى فيه العرقلة المكروهة ضد كل تعجيم وتنصيـر !

وسنلاحظ في اللقاء الخامس كيف انه لايدع متنفسا للاقامة العامة وخاصة بعد رحلة طنجة في اسلوبه الحكيم المستقيم .

ثم نجد في اللقاء السادس مثلا من امثلة ثباته وايمانه الناطق الصادق في ظروف كان الاستعمار يتوهم ان في استطاعته ان ينال من تصميمه !

ثم اللقاء السابع الذي دق فيه ناقوس الخطر داعيا الى توحيد الصف من اجل المعركة الفاصلة الواصلة !

ثم اللقاء الثامن الذي برهن فيه عن خلق عظيم انما سبقه اليه اولياء الله واصفياؤه ذلك هو خلق التسامح والعفو عند المقدرة .

※ 10 ابريل 1940 : فاس

لا هدايا وانما ولاء بولاء !

ان الذي يدرس الاساليب الخاصة التي كان جلالة محمد الخامس يبتكرها من اجل الهاب حماس شعبه وارهاف شعوره الوطني لايتردد في الاعتراف بان الرجل كان ملهما حقا . وان الظاهرة الغريبة في الموضوع انها اساليب كانت مفهومة جيدا بينه وبين مواطنيه بمجرد الاشارة الاولى منه او منهم ، واذا كان هناك من شيء يذهل الاستعمار فهو هذه « اللغات » التي لا تحتاج الى تلقين سابق !

وقد كانت سياسة الزيارات في صدر ما كانت تفرع منه الاقامة العامة ، زيارته فقط لمختلف جهات مملكته ! كانت « الاقامة » تخصص للجيش والدرك والبوليس والطابور الخامس ـ عند هذه الزيارات، ما لا تخصصه للزيارة نفسها ! ! هي تريد ان يبقى الملك بعيدا عن الاختلاط بالناس وكان هو على العكس من ذلك : يجد في فصل الربيع مثلا ، وفي بعض الاعياد الدينية فرصة لصلة القربى بهؤلاء الذين بقي لهم من آمالهم في الحياة هو ، وهو وحده . ولا بد أن نلاحظ ان في أول ما يقوم به المقيم العام بعد هذه الزيارات الملكية يسعى هو الاخر بزيارات مماثلة ليحاول « نسخ » او « مسح » الآثار التي قد تكون خلفتها الزيارات السلطانية ! هذه نوازل عشناها السنة بعد السنة .

وقد تنبهت الاقامة لخطر « سياسة الزيارات » بصفة خاصة على اثر استقبال منقطع النظير خصصه الوطنيون لجلالته بمناسبة زيارة قام بها صباح الخميس عاشر مايه 1934 لبعض اضرحة فاس ... فقد تدخل م هيلو المعتمد بالاقامة العامة الذي سافر من الرباط لفاس ليجعل حدا لنشاط « المثيرين للفساد » على حد تعبير الصحف الاستعمارية وكان ان غادر جلالة الملك فجاة المدينة صباح يوم الجمعة الموالي احتجاجا على تدخل الاقامة فيما لا يعنيها !

نعم تمت له زيارة لفاس بعد ذلك يوم تاسع ابريل 1940 فاهتزت المدينة عن بكرة ابيها وخرجت لاستقبال العاهل في يوم لم ينسه اهل فاس ، كانت السيارة الملكية تخترق الجماهير في مشقة لاتخلو من التوقف في كثير من الاحيان .

وبمقدار ما استعد المواطنون استعد المستعمرون ايضا ، ونحن نعرف عن استعداد اهل فاس فماذا عن نوع استعداد الآخرين هذه المرة ؟ لقد اوعزت السلطات الاستعمارية لباشا المدينة لكي يعمل على جمع «هدية» للسلطان بمناسبة زيارته هذه ، وكان القصد من ذلك خلق جو من الاحراج والارهاق للرعية حتى ياخذ بعض الناس على الاقل في الحساب للزيارات القابلة ! !

قصدت مشور فاس صباح اليوم الموالي 10 ـ 4 ـ 1940 ، دخلت عليه ضمن سكان فاس، وكان باشا المدينة قد قدم سلفا بين يديه « الهدية » . وعندما مثل الجميع امامه وتقبل ترحيب الحاضرين التفت يمنته وامسك بلفافة ماتزال امام عيني في حجمها الكبير وفي لونها الابيض وقال في لهجته العلية السنية مقدما هكذا :

« امس دخلت مدينة فاس ولا اخفي عليكم انني كنت لا املك دموعي من كثرة التأثر الذي كنت اشعر به وانا اخترق الجماهير ، وانا اسمع وارى تلك العواطف التي تنبعث من الرعية شيوخا وكهولا وشبابا وصبية ولكني لا اخفي عليكم انني في هذا الصباح تألمت كثيرا عندما توصلت بهذه « الرزمة » ! وبهت الحاضرون اذ انهم لم يكونوا يترقبون هذه المباغتة ، وسادت لحظات صمت قطعها الباشا الذي استجمع انفاسه ليقول: « ان ما قدمه اهل فاس لجلالة الملك ليس الا تعبيرا عن حبهم » فرد جلالته : « لو ان اهل فاس جمعوا الدنيا بحذافيرها ووضعوها في غلاف لما بلغت عندي تلك العواطف التي قراتها بالامس على وجوههم كبيرا وصغيرا ... » وتقدم احد تجار المدينة لا اذكر اسمه ليقول : (انها هدية من فاس الى صاحبي السمو

الاميرين الجليلين بمناسبة اعذارهما المنتظر) لكــن الملك الهمام عاد ليقول : « ان الاميرين اذ يشكران لكم حسن نيتكم يعبران لكم عن رغبتهما في ان ترجعوا هذه الامانات لاصحابهـا . »

وفي هذه الاثناء سمعت جلالته يستشهد حاجبه بما يشعر من سرور وانشراح كلما اقترب من مدينة فاس وبما يشعر به من مضاضة وهو يفاجأ بتقديم اللفافـة ! !

واطرق الحاضرون وعلى رؤوس الملا ناول جلالته الباشا السيد محمد التازي اللفافة آمرا اياه ان يبحث بضبط عن كل الذين اسهموا ليرجع اليهم ما اعطوا مع ابلاغهم رضى سيدنا نصره الله ...

كـان هذا اللقاء الاول بالنسبة الي ، وانا ما ازال تلميذا بالسنة الرابعة من الثانوي ، اقول كان بالنسبة الي النطق المقدس الذي نفذ الى اعماقي وانا اقرأ عن عظماء الاسلام ... لم انس ابدا هـذا العزوف منـه كما لا انسى ما تقبل به اهل فاس هذا الترفع وهـذا التكرم من جلالته ... وهكذا تبخر التناور الى هباء، وازدادت العلاقات تمكنا من المليك وبين اهل فاس .

※ 2 ـ اكتوبر ـ 1943 : الرباط

ماكـانت البنت افعـى

ومـا كـان العلم سمـا ! !

اما هذا اللقاء فقد تم بالرباط صبيحة يوم ثاني عيد الفطر 1362 الموافق لثاني اكتوبر 1943 ، وقـد حضر استقبال التهنئة هذه كثير من الناس ممن لم يسبق لهم أن كانوا يحضرون وقد عرفنا سر هـذا التجمع عندما توجه جلالته بالخطاب لهذه الوفـود مظهرا اهتمامه بتثقيف الفتاة المغربية ... وقد كـان رحمه الله خطب قبل ثلاثة اشهر وعلى سبيل التحديد يوم 25 جمادى الثانية 1362 ؛ 28 يونيه 1943) امام محراب جامعة القرويين مناديا بضرورة دخول الفتـاة المغربية معركة البنـاء !

لقد خاطب جلالته الوفود في لهجته المحببة يحض الابـاء على توجيه فتياتهم للمدارس من اجل «التثقيف في حدود الشريعة السمحة» قائلا : انـه « بالتعليم تحيى الامه وبانتشاره ترتقي وتبلغ اوج الكمال » وقد اشار رحمه الله الى الظهير الشريف الذي كان يعتـزم اصداره في الموضوع مهيبا بكل العناصر الطيبة ان تعمل على النهـوض بالبلاد ...

واذكر جيدا ان الصالـة رددت بعض الهمهمات كان منها همس قد نفذ الى مسامع جلالة الملك العظيم من بعض الافاضل الذين عرفت فيما بعد انه مقـدم زاوية . حرص جلالته على ان يعرف ما يدور بخلـد الرجل فردد هذا في بسالـة وهـو يبتسم : (افعـى وتسقيها سما ؟) يعني ان النساء عرفن سلفا بما بـه يعرفن فكيف نشجعهن ؟ ! وعندما كان احد الحاضرين ممن يجاوره يحاول الرد على المقدم تلطف جلالته وتولى هو الاجابة : « ان البنت ليست بافعى اولا ، الفقيه ، ولا يمكن أن تقبل أن تكونوا انتم وهؤلاء ونحن ابناء افاعي!! من البنات امهاتنا واخواتنا وبناتنا .. ! وعلى فـرض ان الفتاة كذلك فاننا نعتقد ان العلم ما كان ولا يمكن ان يكون سما ولكنه على العكس من ذلك ترياق يحفظ من السـموم ... » وسرعان ما اذعن الرجـل قائلا: نعم نعم ياسيدي ، الله يحفظك ، وهنا قـال جلالتـه مؤانسا للمقدم : اذن ستدخل بناتك للمدرسة ! فاهوى على اطراف جلالته بالتقبيـل وهـو يقـول : (عنـدي حفيدات ولكني ساساعد على ادخالهن المدرسة !)

※ 17 يناير 1944 : الرباط

الاستقلال غايتنا ، وانتم جديرون بـه !

فتح القصر ابوابه في هذا اليوم لعشـرات الوفود التي وردت من مختلف جهات المغرب لتتقـدم بعرائض التأييد للمطالبة بالاستقلال ، وكانت الرحاب العلية تتهادى الجماعات التي علاها البشر وغمرتها الفرحة ؛ كنت ممن مثلوا اساتذة المدارس الحـرة، وصعد الناس اخيرا الى ردهة العرش وعندما اكتمل الجمع تجلت طلعة امير المؤمنين من خلال ابواب فتحت، وعلى اصوات من دعاء رددت ، وجلس على اريكة الملك وهنا اذن للناس ان يتكلموا فارتجل رئيس كل وفد بين يديه ما سوف لانشاء تاريخ الكفاح الوطني ، كان فيهم من عرض لماضي المغرب بالتحليل والاشادة ، وفيهم من اعرب عن الاستعداد لحمل السلاح ! وفيهم شيخ تـلا نص عريضة بصوت متهدج واسلوب بـاك ... وهنـا اخذ جلالته الكلمة ليقول : « كل ما سمعناه نعتقد انـه تعبير عما يشعر به كل مواطن مغربي ونحـن نؤمـن بانكم لاتقصدون اطلاقا الى مجافاة احـد مـن النـاس بصنيعكم هذا لانكم تطمحون الى شيء هو جدير بكم

وانتم جديرون به ، وليس من شان الذين تطالبونهم ان يغضبوا من تلك « المطامح » وخاصة اذا كانت دولة قامت على احترام الحرية والديموقراطية ... انما لنا عليكم ان نذكركم بان خير سلاح يمكن ان تتسلح به هو سلاح الايمان فليس لنا غيره من سلاح وهو اذا توفر حصل كل شيء ... عليكم ان تتضامنوا وتتحدوا انكم ابناء ارومة واحدة وان دينكم واحد ومذهبكم واحد وها قد برهنت الايام على ان مطامحكم ايضا في هذه الحياة واحدة . لذا فليس لدينا من سلاح نلتجيء اليه الا قوة ايماننا . فعليكم بهذا الايمان ، غذوه ! قووه! عززوه ! ان الطريق الشاق الطويل في حاجة الى ذلك ذلك الايمان ... وكونوا على ثقة من اننا ساهرون على مطلبكم حتى يحقق بحول الله وقوته ولكن التزموا الهدوء والتبصر . ولا تسمحوا لاولادكم ان يقعوا فيما ليس من اهدافكم ولا من مصالحكم ... ثم قرا الفاتحة وتعالت الاصوات بالدعاء لجلالته ...

✻ 18 شتنبر 1946 : الرباط

على الطلبة ان لايغتروا بالخطوات الخيالية

لقد كانت السلطات الاستعمارية عملت على اقصاء الاستاذ السيد محمد الفاسي عن ادارة جامعة القرويين بالرغم من انها كانت تعرف ان الارادة الملكية كانت تتوق الى ابقائه هناك ، وعبثا حاول العاهل الكريم افهامهم ضرورة ارجاعه الى وظيفته فقد قابلوا اقتراحه بالاعراض قاصدين اشعاره بان الجامعة في استطاعتها ان تسير دون الفاسي ... فقرر السلطان ان يلغي امتحانات السنة احتجاجا منه على هذا العناد المستمر ...

كانت الصدمة بالنسبة الينا نحن ط[illegible] قسم التخريج النهائي عظيمة ، ولهذا عملنا على لقياه ، وتقدمت اليه بحجة اهدائه كتابي الجديد : « تفسير سورة النور » وفعلا تم ذلك صباح الاربعاء 22 شوال 1365 (18 شتنبر 1946) وبعد حديث آنسني به رضي الله عنه فاتحني في موضوع القرويين ، وفي موضوع « السنة الذاهبة » وشعور الطلاب منها ... وقد تحدثت اليه في صراحة بما يجري وبالخوف الذي يساور من تعطيل الدروس بالقرويين الى الابد ... وقد تصدى للكلام فذكر كثيرا مما كنا نحتاج اليه في تلك الظروف من توجيه : « ان القرويين عزيزة علينا وهي الامل الوحيد لنا في الحفاظ على هذه الامة مسلمة العقيدة عربية اللسان ، وقد كانت كعبة اسلافنا رحمهم الله ... ونحن عندما قررنا ادخال الاصلاحات عليها لم تكن نقصد الى اصلاحات في الشكل فقط وانما في المخبر ، في العمق ، وعندما عينا بعض الاساتذة في ادارة القرويين لم تكن نقصد الى اشخاصهم ، او الى اسمائهم ، وانما لما توخيناه فيهم من اخلاص وغيرة ..» وبعد ان لمح ببعض التوريات والاشارات التي تفيد ان الآمال ستحقق عما قريب وان المياه سترجع لمجراها ولا خوف بحول الله من ضياع سنة ثانية ! ! قال: « ينبغي أن يعرف الطلبة أن ضياع عام من عمر القرويين افضل من ضياع حياة بكاملها ! وخير لكم ان لاتغتروا بالخطوات الخيالية ... » وعلى العادة ختم حديثه بالدعاء بالرضى وقراءة الفاتحة ...

✻ 9 شتنبر : الرباط

ولتكن لكم قدوة بالسلف الصالح !

كان الجنرال جوان حديث عهد بالوصول مقيما عاما بالمغرب ، وكان ذلك بعد **الزيارة التاريخية** التي قام بها الملك لمدينة طنجة والتي اعتبرتها الاوساط الرجعية ضربة قاسية ضد الوجود الاستعماري بالمغرب ، فالجنرال جوان اتى من اجل « ان يسترد هيبة فرنسا التي ضيعها المقيم السابق » على حد تعبير بعضهم ؛ فالظروف مشحونة اذن بالاصوات المنذرة ! وصادف وصول الجنرال لفاس اعلان نتائج تخريج العلماء ، كنت لحسن الحظ اول الفوج فدعيت لتسلم جائزة منه عصر الاثنين 30 يونيه 1947 ، وفي اثناء ذلك الاستقبال الواقف الناشف معا سمعنا من ضروب التهديد والوعيد ما لم اعتده قبل :

(كان الطالب في الماضي لايحصل على الدرجة العلمية حتى لايبقى بينه وبين القبر الا ذراع وبفضل ما قامت به فرنسا في المغرب امسينا نلاحظ علماء في مثل هذا السن فبودي ان تقدروا النعمة وتعترفوا بالجميل ؛ أريد أن تبلغوا زملاءكم ان الواجب الذي ينتظرهم يفرض عليهم ان لاينساقوا مع الاهواء ؛ مع الترهات ، مع الاساطير .. نحن نريد قرويين لاتشتغل بالفضول ، قرويين تستطيع ان تقول لمن يريد بها الانحراف عن طريقها التقليدي « انه منحرف » انه زائغ .. ! وبهذا سيمكن لكم ان تحتفظوا بمركزكم وتضمنوا مستقبلكم آمنين مطمئنين ...)

وبلغت اصداء هذه «العصرية» الى علم مولانا الامام فبعث الينا في اليوم الموالي يدعونا للبيضاء لحضور احتفال بمناسبة احراز سمو ولي العهد مولانا الحسن

على شهادة الباكالوريا ، ثم تفضل باستقبالي بعد ذلك في الرباط يوم 23 شوال 1366 (9 شتنبر 1947)

كانما كان حديثه غفر الله له تعليقا على ما كنا سمعناه بالامس من تهديد ووعيد فهو يؤكد عدم الانسياق مع الاهواء والترهات والاساطير ولكن له في الثلاثة تفسيره الخاص .. ! وهو يريد قرويين لا تشتغل بالفضول ولكنه يرى ان الفضول هو ما يعتبره الواقع فضولا ! وهو يريدها قرويين صريحة تستطيع ان تقول كلمة الحق في وجه المضللين والمشعوذين ...

ولما سالني عما انوي الاتجاه اليه بعد تخرجي قال اعزه الله : « انت تعرف الفقيه مدى احتياج البلاد الى امثالكم ممن انتظرنا تخريجهم طويلا وخصوصا نحن مقبلون على نهضة المغرب العلمية بحول الله ... ان القرويين تجمع بين زواياها طلابا يردون عليها من كل جهة من جهات المغرب فبودنا ان تكونوا راوية عنا الى اولئك الذين يعز علينا تبليغهم ، واضاف يقول: « قد تصطدمون بمصاعب وعراقيل في طريقكم فاصبروا وصابروا ولست بحاجة الى تذكيركم بالتضحيات التي قدمها سلفنا الصالح من اجل توعية الناس ... » ولما اكدت لجلالته انني سوف اكون عند توجيهه تفضل قائلا : « وعندما تشعر بعناء تعال فان باب قصرنا مفتوح » ثم دعا واستفتح رحمه الله رحمة واسعة .

* 14 يوليه 1951 : ضايت عوة حفت الجنة بالمكاره !

اما هذا اللقاء فقد تم في ظروف قاسية ، فلقد عاش المغاربة اجمعون على اعصابهم ازاء تصرفات الجنرال جوان ، هذا الجنرال الذي فشل منذ البداية ولكنه كان يصر على ان يعتبر في عداد الناجحين ! هذا الجنرال الذي لم يتردد في ان يحرمنا من طلعة سمو ولي العهد في الحفلات العامة بل وحرمنا من رؤية اسمه مكتوبا على الصحف الوطنية !! لقد امر احد الوطنيين بمغادرة قاعة مجلس شورى الحكومة ، وكان من توابع هذا التعسف ان طرد جلالة الملك بعض المتعاونين من قصره ! وهنا اخذت الاوساط الاستعمارية تحاول ان توهم الراي العام ان القبائل تتكتل ضد القصر ! نعم في اثر هذه الازمات الحوالك حللت صحبة اسرتي « ضايت عوه » اصيل يوم السبت 9 شوال 1370 (14 يوليه 1951) ومن النادر ان يقع بصرك على غير الاجانب هنا لان السلطات الاستعمارية كانت تضايق كل من تسول له نفسه ان يصل الى مثل هذه الامكنة من المغاربة ! كانت الضاية قد ازدانت بالرايات ذات الرقاع الثلاثة ، اليس انه يوم 14 جويي ؟ وفيما نحن عائدون اذا بي اسمع احد افراد الاسرة : سيدنا ! والله هو سيدنا ! لقد كان يرتدي هذه المرة بدلة اروبية ... ووقعت عيونه على افراد الاسرة واحسب انه التفت بمنته في لطف الى احد مرافقيه ليطلب اليه شيئا ... ولم نشعر كيف وجدنا انفسنا جميعا بين يديه ، وتفضل بتواضعه المعهود وذكر بلقاءين سابقين في دقة وضبط! ثم تعرف على الجماعة وكان يقرا على الوجوه رجفة الفرحة من هذا اللقاء الغير المنتظر لمليك ظللنا كل هذه الشهور نعيش معه معاركه الباردة والمحمومة ، بدا حديثه هكذا : « كم انا مسرور ان ارى المغاربة يغشون مثل هذه الامكنة ! يجب علينا - يقول سيدنا - أن لانترك القوم يشعرون بانهم وحدهم في البلاد ! عليهم ان يتحملوا رؤية المغاربة غادين رائحين وخاصة يوم السبت والاحد ، وعلى آذانهم ان تتحمل سماع العربية في هذه الشعاب التي يريدون فصلها عن العربية ... اخبرته بما لاقيته فعلا من مضايقات وانا اقيم بايموزار، فقال : لهم ان يفعلوا وعليك أن تصبر واستمر يقول: بودنا ان يجعل المغاربة من هذه البقاع مصطافات لهم، وعندما سالته سيدة عن حاله من المتاعب و «المشاق» التي يلقاها هذه الايام ابتسم قائلا : وما لكن ان الحديث عن المتاعب ؟ اتركوا هذا للرجال ! واضاف اعزه الله : هل وصلتم الى تنسم هذا الهواء الطيب هنا دون متاعب ؟ لابد انكم هيأتم ولابد انكم صرفتم ... كذلك الجنة لايمكن ان نصل اليها الا بعد ان نتحمل كثيرا من المتاعب ، متاعب في بذل العزيز والغالي في سبيل الله ، متاعب في مناصرة الحق ... » كنا نشعر ان كلامه كان بردا وسلاما على الذين اكرمهم الله بهذا اللقاء .. ولم يفته ان يسال اعزه الله عن الاحوال؟ وكيف هي الدراسة في القرويين اليوم وهل الطلبة في تزايد ؟ وهل اقبال اهل المدن على القرويين يضاهي اقبال اهل البادية عليها ؟ وكان يتقبل كل ما حكي له بامعان ، وتخلص ليتحدث مرة اخرى عن ان مزية الاسلام الاولى ان يفتح الآفاق امام المسلم باستمرار.. وعرفت فيه اليوم ناحية اخرى ، لقد اقبل على الاطفال يباسطهم ويداعبهم ويقدم اليهم ما لذ من الفواكه المجففة ، والتفت في شقيقة يسالها؟ لم لم يصحبها زوجها لهذه النزهة ؟ فقالت : انه بفاس فقال اضحك الله سنه : او تسمحين له بالبقاء في فاس وحده ؟! فدعت له بالحفظ والرعاية تعبيرا عن السرور الذي



تملكها من هذا الخلق النبوي الكريم ... واستاذناه في الانصراف فرضي عنا ... ولكنه بعد ان اخذ طريقه على سيارته (جيب) وقف مرة اخرى ليسال : هل ما اذا كانت تتوفر لدينا وسيلة تنقلنا الى ايموزار فان الشمس آذنت بالانصراف وهو يخشى على الاطفال من البرد فشكرنا جلالته مرة اخرى ودعونا له .. وراح وكل جارحة منا تهتف به ... وقضينا بقية المساء نتلذذ بأطاييب احاديثه يذكر احدنا احدنا ما قد يكون الآخر غفل عنه نور الله ضريحه .

* 12 غشت 1953 : البيضاء
ارادوا أن يمحوا كيان المغرب !

كنا على موعد في الدار البيضاء نحن ثلة من علماء المغرب شيوخا وشبابا ... نحمل عريضة تتناول استنكار مساعي السلطات الاستعمارية وتتضمن المساندة المطلقة للسلطان سيدي محمد بن يوسف في كفاحه البطولي ضد المناورات المتوالية ...

كنت قد قابلت جلالته مرات سابقة لكني لم اره ابدا كما رايته عصر هذا اليوم العصيب الرهيب الاربعاء فاتح ذي الحجة 1372 (12 غشت 1953) وعرفته متفائلا دائما فيما يقول حريصا على ادخال يعتمد على الظروف لتملي هي تفسير ما يقول ... وعرفته متفائلا دائما مما يقول حريصا على ادخال المسرة الى القلوب يبتعد كل البعد عما من شانه أن يحمل على القلق او التطير لكنه هذا المساء كان على خلاف العادة ... جلس على شلية زاوية صالون قريب من الباب وقد ارتدى جلبابا وطربوشا رماديين، كان ينتظر هذا الوفد فقط ليغادر البيضاء ملتحقا بالرباط حيث امسى قصره مفصولا عن بقية اجزاء المغرب ! بعد ان استمع الى مقدمة حول موضوعي العريضة تصدى للكلام في صوت علوي مهيب وعلى وجهه امارة التاثر بادية أما عيناه فقد حجبتهما نظارة شمسية ، قال نصره الله : « ان هؤلاء القوم صمموا العزم على محو كيان المغرب ولكننا صممنا العزم كذلك على ان لانساعدهم اطلاقا ! وقد ردد كلمة **«كيان»** حتى لنقشت في اذهاننا جميعا بما فينا الشيخ الطاعن في السن ، ولما عقب أحد المشايخ بقوله : « ان أولئك القوم يا جلالة الملك لايستطيعون القيام بأي شيء » سمعت العاهل على العكس من عادته يتفرس بالاحداث القابلة قائلا : « ان من الحزم سوء الظن » وقد ردد هذا التعبير ايضا لغرض لايخفى ... ثم قال بالحرف الواحد : « لقد حاولنا أن نفهمهم بالتي هي احسن بيد ان الامل فيهم كاد ان يروح ! » كل تعبير منه كان يتدرج نحو تعبير اقوى لهجة وادق دلالة على ما ينبغي ان تواجه به الحالة ... « لو سالونا ـ يقول رحمه الله ـ شيئا كان ملكا لنا لتساهلنا معهم فيه لكنهم يساوموننا امانة ليس لنا من حق فيها الا واجب الحفظ والصيانة ! » واين هي تلك الابتسامات الحلوة التي كانت ترتسم على ثغره ! لقد استحالت الى تقطيب يخفي بين ثناياه معالم بقرب انفجار البركان..

ومع كل ذلك فبعد استعراض الحالة سريعا قال هذه الكلمات الطاهرات : « لنا قدوة بالمصلحين الصالحين من الانبياء والاصفياء ... وما دمنا ـ يقول جلالته ـ نتمتع بمساندة شعبنا فليس لنا هناك ـ والحمد لله ـ ما يمكن أن يرعبنا ! ان تلك المساندة هي مصدر اعتزازنا ومصدر سعادتنا وهي املنا » ولما اكدنا لجلالته مرة اخرى عن تعلق الشعب باذياله توجه الى الوفد طالبا منهم الدعاء الصالح وقرا هو الفاتحة بعد أن الح عليه المشايخ فى ذلك واستعمل عند الوداع كلمة « نحن على عهد الله » .

* 7 نونبر 1955 : سان جيرمان آن لي العفو عند المقدرة

كانت امنية غالية جدا ان نحظى برؤية هذا الذي ملك علينا كل المشاعر ! هذا الذي افقدنا غيابه كل شعور بالمتعة ! هذا الذي امسى ورد الناس على كل لسان آناء الليل واطراف النهار ... كنت رائد اخواني علماء جامعة القرويين الى هذه الديار كان اليوم 21 ربيع الاول 1375 (7 نونبر 1955) كنا قد اتخذنا ترتيبا بشان التهنئة لكن الموقف كان اعظم من ان يتمسك فيه بجانب تخطيط او تنظيم ، لقد كان كل واحد منا يريد ان يكون هو السابق لرؤيته ! ! وقف على يمين الداخل فى احد صالونات قصر هنري الرابع وعليه آثار الارهاق والعياء واغرورقت عيون الناس جميعا بالدموع عندما اخذ يرعاه الله الكلمة قال : « انه لما كان بالمنفى يستمع الى الراديو وهو يتحدث عن جهاد المغاربة وعن الشدائد التي ادركتهم من بعده وخاصة عندما استهدف علماء الامة انفسهم للاهانات والاعتداءات فكان يقول لمولاي الحسن : الحمد لله الذي لم يحرمني شرف الجهاد فى سبيل بلادي ولم يحرمني كذلك من مواجهة الشدة التي يعيشها ابناء وطني » ثم قال فى جملة ما قال : « لقد قطعنا اشواطا بعيدة ولكنها ليست بشيء بالنسبة لما ينتظرنا فان هناك اشياء تحتاج الى بناء ، بل كل شيء شيء فى البلاد فى حاجة الى بناء ، وان الامم التي حصلت على استقلالها والتي هي جديرة بذلك الاستقلال لترى انها دائما لم تصل الى الهدف الاسمى ولذلك فهي لا تفتر عن الطريق بل تواصل مسيرتها ... ونحن اولى واحرى بمواصلة هذا النضال . ثم قال اكرم الله مثواه : ان الرجاء الوحيد الذي كنا نثق فيه ونحن في ذلك المنفى السحيق هو الامل فى تحقيق النصر الذي وعد به المؤمنين وان علينا الآن بعد ان احرزنا على ذلك الامل أن ننصرف جميعا لبناء الصرح الذي كنا نتوق الى بنائه بالامس ، عليكم ان تدركوا ذلك حق الادراك، وانتم ايها العلماء اولى بهذا الشعور من غيركم ... وانني لا املك اللسان الذي يشكر الله على اعزازه وهنا تلكأ لسانه حقيقة ونابت عن الكلمات عبرات ابكت الحاضرين ... وعلى عادته توجه للعلماء يطلب اليهم ان يضرعوا الى الله فى ان يحسن اليه ويزيد ...

ولا اخفي ان مذكرتي لم تحمل شيئا مما ردده السادة العلماء فاولا كانت القابليات كلها متوجهة اليه ! وثانيا فان القول اختلط ، كل يتكلم ، كل يدعو، كل يهفو !

غير ان يوما بعد هذا كان هو يوم الخميس عاشر نونبر حضرت استقبالا منه لوفد من وطنيي الاطلس ... كان من بين ما لفت النظر ان احد الحاضرين قال لجلالته : والآن حان وقت الانتقام من الخونة والعملاء الذين تسببوا لنا فى هذه المآسي والمحن . فسكت سيدنا قليلا ثم نطق بهذه الكلمات التالية : « اننا لانعتقد انه يوجد من بين المغاربة اي خائن او عميل ، ان المواطنين كلهم عناصر خير ، وان اولئك الذين يظهر لكم انهم خونة انما هم فى نظرنا « ضحايا » استعمار داب على تخريب الشعوب وتسميم النفوس ، وتهديم القيم .. لهذا فانني اعتمد عليكم ، الله يرضي عنكم ، ان تترفعوا عن مثل هذه المتابعات وان لاتشغلكم مثل هذه الامور ، وان تقبلوا على البناء المنتظر فان البناء فى حاجة الى لبنات ولا علينا فى شكل اللبنات ، قد تكون مستقيمة ولكنها احيانا قد تكون محتاجة لما يقيم من عوجها فلا باس ان يغض الباني الطرف ... المهم ان نجد غدا بناء واقفا ! ان المغرب فى حاجة الى ابنائه جميعهم ، وان لنا فى الرسول صلى الله عليه وسلم خير اسوة فانه وقد فتح الله له مكة ومكنه الله من رقاب الذين اذوه بالامس واخرجوه من بلاده وقاتلوه ، انه وقد تم ذلك قال فى الناس: « يا معشر قريش ماتظنون اني فاعل بكم ؟ ... اذهبوا فانتم الطلقاء ! ! » .

* * *

لقاءات تمت عبر خمس عشرة سنة وهي تعطي فكرة عن التدرج الصاعد الذي كانت تتسم به خطى العاهل الراحل : من التجاوب مع الشعب الى الدعوة لتثقيف الفتاة ، الى المناصرة الصريحة للوطنيين ، الى مقارعة الاستعمار بين اساطين جامعة القرويين ، الى التضحية بعرشه فى سبيل الاستقلال ، الى الدعوة للبناء بمشاركة الطلقاء ...

الرباط : عبد الهادي التازي



بين انكلترا والدولة العلوية

للأستاذ محمد بن تاويت

ما ان تربع المولى اسماعيل على العرش العلوي المجيد ، حتى فكر فى تطهير البلاد من الاحتلال الاجنبي ، وكانت طنجة آنذاك فى حظيرة البلاد الخاضعة للتاج البريطاني ، حيث كانت قد آلت اليه من يد البرتغال الغاصبين ، من جملة المهر الذي مهر به مع بمباي شارل الثاني ، من قبل عروسه البرتغالية الاميرة كترين دي برغنصا ابنة جون السادس . فعهد المولى اسماعيل الى أحد قواده العظام ــ وهو علي بن عبد الله الريفي ــ ــ بمحاصرتها فى جيوش من اهل الريف ، وما اشتد الحصار بها ، حتى كان الانجليز يخلونها مضطرين لركوب سفنهم ناجين بأنفسهم الى البحار ، وذلك عام خمسة وتسعين والف هـ 1683 م . ثم قد عادت العلاقات الحسنة تربط بين المغرب وانجلترا ، فاشتدت الروابط بين ملكيها ، لدرجة ان جيمس الثاني أخو شارل الثاني ، لما فر لاجئا مخلوعا ، الى فرنسا بعد ثلاث سنوات من جلوسه ، كتب اليه المولى اسماعيل تلك الرسالة التي سبق منا نشرها فى « تطوان » وهي :

الحمد لله وحده

ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ،
لا رب غيره ولا معبود سواه .

من عبد الله المتوكل على الله المفوض أمره الى مولاه الغني به عمن سواه أمير المؤمنين المجاهد فى سبيل رب العالمين .

(الطابع)

ايده الله بعزيز نصره وامده بمعونته ويسره وخلد فى الصالحات شريف مناقبه وجميل ذكره آمين يا رب العالمين ، الى طاغية الانجليز القاطن ببلاد الفرنسيس يعقوب المسمى بلسانهم جيمس سلام على من اتبع الهدى وتجنب سبيل الغي والردى وآمن بالله ورسوله ثم اهتدى ، اما بعد فانا كتبناه اليك واوردناه عليك وواصلناك بهذا الكتاب واعتنينا لك بهذا الخطاب لمسالتين اثنتين احداهما دينية والاخرى سياسية دنيوية وموجب ايرادهما عليك التنبيه لك والايقاظ والنصح والارشاد وذلك ان اخاك الذي كان ملكا على الانجليز من قبلك كان عرف لنا من الحق ما عرف وتقرر عنده من لدنا ما لهذا الدين الشريف على غيره من الشفوف والشرف فكان من اجل ذلك يطلب منا المهادنة على طنجة ، فبعث لمقامنا العلي بالله من اصحابه وخدامه المرة الاولى والثانية من بعث (1) انافة بمحلنا وتنويها بشرف مكاننا ، وكانت المواصلة بين الملوك والمراسلة مسنة ومشروعة وان اختلف اللسان وتباينت الاديان ، فجازيناه على فعله وكافيناه على شغله ووجهنا له من خدامنا الباشادور ، وصل اليه وقدم عليه ، كما شاهدته ورايته . ففرح بسفيرنا واكرمه اكراما كثيرا وسر به وبمقدمه سرورا كبيرا ورجع من عنده مغبوطا مسرورا فلم نزل نراعي له ذلك ووفينا له فى جميع ما كنا عملنا معه فى طنجة . ولم نرد البال الى شيء مما كان يعمله بها حين اراد الرحيل عنها وكان ينقل خزائنها ومدافعها ، وسكانها واهل جوارها من المسلمين يرون ذلك وينهونه الينا ويقصون ما يشاهدون علينا وما القينا اليه فى ذلك البال ولا التفتنا اليه بحال من الاحوال وما ذلك الا مكافاة له على صنيعه مع سفيرنا ووفاء بالقول الذي كان طلبه منا . ووددنا ان لو كان اخوك بقي حيا الى ان يشاهد صنع الله الذي

---

1) يعني الكولونيل كريك وكان ذلك سنة 1681 .

صنعه لنا في فتح العرائش من يد الصبنيول ، وبرى
محاصرة سبتة اليوم وما كان اهلها يصرفونه عليها من
الاموال وما كان يلزمهم في مؤنتها من ملايين الريال
لتحقق وفاءنا له وغضنا الطرف عنه وعلم ان القول
والعهد الذي اعطيناه لم ننقض شيئا منه . فالصواب
الذي كان من اخيك والحق الذي كان يعرفه لنا هو
سبب الكتب اليك مكافاة على صنيعه وهو الذي اوجب
مكاتبتك بهذه المراسلة لنعرض عليك فيها الامرين
المذكورين اول الكتاب . فأما الدينية منهما ففيهما خير
الدنيا والآخرة لما فيها من رشادك ونصحك ان وفقك
الله تعالى وذلك ان تعلم ان الله سبحانه جل جلاله
وتقدست صفاته واسماؤه انما خلق هذا الخلق
ليعبدوه ويوحدوه ولا يشركوا به شيئا قال الله سبحانه
« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما اريد منهم من
رزق وما اريد ان يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة
المتين » . وهذه العبادة التي اوجب الله على خلقه لابد
لها من وسائط يبلغون عن الله لخلقه ، ما امرهم به .
ومن رحمته بخلقه ورافته بهم ان جعل لهم وسائط
بينهم وبينه من جنسهم ارسلهم اليهم من انفسهم
واختارهم من انفسهم ، فبعث لهم رسلا يبلغونهم عن
الله ما جاءوا به من عنده ، فآمن بهم من اراد الله
سعادته ، وكفر به من كتب شقاوته . وختمهم بخاتم
انبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيئين
وسيد المرسلين وجعل دينه خير الاديان وشريعته
افضل الشرائع ، وملته خير الملل . ولقد بشر به
وبمبعثه عيسى كما بشر بعيسى موسى بن عمران على
نبينا وعليهما وعلى جميع الانبياء الصلاة والسلام .
ونبينا عليه السلام وان كان آخر الانبياء بعثا فهو اولهم
خلقا . ومما يجب اعتقاده ان الانبياء كلهم يجب الايمان
بهم فلا نفرق بين احد منهم وان المسيح بن مريم على
نبينا وعليه الصلاة والسلام هو احد الرسل الذين
جاءوا عن الله ، من غير ادعاء مما تدعون ولا اطراء مما
تطرون . قال الله تعالى في حق امه الصديقة : « ومريم
ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا
وصدقت بكلمات ربها وكتابه وكانت من القانتين » ،
وقال تعالى في حقه « ان مثل عيسى عند الله كمثل
آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » وقال تعالى :
« انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها
الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة
انتهوا خيرا لكم انما الله اله واحد سبحانه ان يكون له
ولد ، له ما في السموات وما في الارض ، وكفى بالله
وكيلا لن يستنكف المسيح ان يكون عبد الله ، ولا
الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر
فسيحشرهم اليه جميعا » ، ومن المعتقد ان المسيح
رفعه الله اليه وان اليهود لعنهم الله ما قتلوه وما
صلبوه ولكن شبه لهم ، وانه ينزل بين يدي الساعة
فيجد المهدي من هذه الامة من ولد فاطمة ابنة النبي
صلى الله عليه وسلم يقاتل الدجال ويجده قد اقيمت
عليه الصلاة فيقول له تقدم يا نبي الله ، او يا روح الله،
فيقول له عليه السلام عليك اقيمت فيصلي خلف رجل
من امة نبينا صلى الله عليه وسلم ويحكم بشريعته
ويقتل الدجال فينكره النصارى ويقتلهم ويقتل اليهود
حتى يكلمه الحجر ، ويقول يا نبي الله هذا يهودي
ورائي فاقتله . وقد اخبرنا بهذا كله نبينا صلى الله
عليه وسلم ، بقوله والذي نفس محمد بيده ليوشكن ان
ينزل فيكم المسيح بن مريم حكما مقسطا فيكسر
الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال
حتى لا يقبله احد ، ولا يقبل الا الاسلام . وهو معدود
في اصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم . وقد عرف هذا
جماعة من اعلام النصارى وملوكهم الذين هداهم الله
ومن عليهم باتباعه كالنجاشي ملك الحبشة حتى
عد من الصحابة وصلى عليه نبينا صلى الله عليه وسلم
يوم مات ، وهو بأرض الحبشة . وهو احد من خاطبه
النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعاه الى الاسلام ، كما
خاطب قيصر ملك الروم جد هذا الملك الذي لجأت
اليوم اليه ، وانت مقيم لديه . ولقد كتب اليه يدعوه
الى الاسلام فلما قرا كتابه ودعاه وكان عنده من العلم
المكنون ما عنده ، سأل من حضره من العرب عن صفاته
واحواله وسيرته وما يدعو اليه وما يأمر به وما ينهى
عنه ، فقال انه المنتظر الذي بشر به عيسى وسيملك
في اتباعه فضجوا وحاصوا حيصة الحمر الوحشية
موضع قدمي هاتين . وشاور أرباب دولته واهل ملته
فساعفهم وساعدهم ، بخلا بملكه . وحين بلغ خبره
نبينا صلى الله عليه وسلم قال ضن اللئيم بملكه .
فلقد رسخت في قلبه معرفة هذا الدين وفضله على
سائر الاديان لكنه لم يسمح بملكه . وبكل حال من
الاحوال فهذا الدين الحنيفي هو الذي اختاره الله دينا
وارتضى له نبيا امينا وجعله افضل الاديان ، قال الله
سبحانه في محكم القرآن : « ان الدين عند الله الاسلام »
وقال تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه
وهو في الآخرة من الخاسرين » . فمن امعن النظر
واستعمل الفكر ووزن الاديان بميزان الحق والعقل عرف
ان دين الاسلام هو الدين وان غيره كله لعب وعبث ،
من لدن بعث الله نبينا الذي ختم به الانبياء ، وتقرر
لديه انها كلها باطلة واهلها للنار . ولقد وقع اختيار
الاديان ، وايهم افضل لبعض عقلاء النصارى وقد نظر

فيما عليه المسلمون ، وفيما عليه النصارى ، وفيما عليه اليهود ، فاراد ان يختبرهم من جهة المعقول فاتى نصرانيا وقال له اي الاديان افضل ، دين النصارى او دين اليهود او دين المسلمين ؟ فقال له النصراني دين النصارى افضل فقال له واي الدينين افضل : دين اليهود او دين المسلمين ؟ فقال له النصراني دين المسلمين . فاتى اليهودي وقال له اي الاديان افضل دين المسلمين او دين النصارى او دين اليهود ؟ فقال له دين اليهود ، فقال له وايهما احسن ادين النصارى ام دين المسلمين ؟ فقال له دين المسلمين . فاتى المسلم وقال له اي الاديان افضل ؟ فقال له دين المسلمين ، فقال له واي الدينين افضل : ادين اليهود او دين النصارى ؟ فقال له لا خير فيهما معا ، فالدين القويم هو دين المسلمين . فعرف هذا النصراني المذكور بعقله ان الدين هو دين الاسلام وان ما سواه محض ضلال وان اليهود والنصارى ليسوا على شيء . وقد وقع معنى هذا في كتابنا ، قال الله تعالى : « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب » . وها نحن قد املينا عليك نبذة من الآي القرآنية والاحاديث النبوية والدلائل المعقولية المطبقة على افضلية الدين القويم . وغيره كله انما هو في سواء الجحيم وانت ان خممت(1) مع راسك وفكرت في نفسك واخترت الدار الآخرة على الدنيا ودخول الجنة على النار فانت عرفت سبيلهما فاتبع هذا الدين الحنيفي وانطق بالشهادتين فان من قال لا اله الا الله محمد رسول الله دخل الجنة ولو قالها مرة في عمره . ويدخلها بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم ، فان له في اهل الكبائر والجرائم والذين نفذ الوعيد فيهم شفاعة عظمى ، خصه بها ربه في الموقف العظيم . ووالله ان انت اعتقدت هذا الاعتقاد ووفقك الله اليه وعملت ما عمله قيصر من اعتقاده بقلبه وتيقنه به في نفسه حتى تحمد ذلك حالا ومئالا ان شاء الله . فهذه المسالة الدينية التي نصحناك بها ، والمسالة الدنوية هي اذا انت احببت الابقاء على دين الكفر فدين قومك الانجليز اخف وايسر عليك من عبادة الصليب ومتابعة الذين يجعلون لله الولد وينزهون عنه رهبانهم . واي شيء رايت في تغريبك عن وطنك وبعدك عن ولدك وخروجك عن ملة ابيك وجدك وتدينك بدين غير قومك ؟ وان كان الجميع على ضلال فدينكم انتم معشر « الربكى » ايسر من اولئك المتوغلين في الكفر . وحتى امراتك الفرنسية التي كانت تحوزك على التعبد بدينها ، ها انت الآن افترقت معها . فعلى ماذا انت باق في جوار الفرنسيس ، تارك ملتك وادع ملك ابيك واخيك لغيرك راض « بالافلامك » يتملك على جنسك وانت بالحياة . فوالله ما احببنا لداركم ولا لمملكتكم يتولى رياستها « الفلامك » او غيره . فالغ عنك ما تقدم بينك وبين قومك فان الصواب معهم في الانكار عليك بسبب الدين الذي اختلفت معهم فيه ، واعتذر وعاودهم وراجعهم . ووالله لولا انا اناس عرب لا معرفة لنا بالبحر او كان عندنا من يحسن معرفته او نستوثق به في الجيش نطلقه في يده ، حتى تكاتب الانجليز ونبعث لك من الجيش ما تدخل به عليهم وتتولى به ملكك . ولكن مسالة واحدة نعرفك اياها فحاول حتى تنتصل من بلاد الفرنسيس واقصد لشبونة بلاد البرتغال . وها زوجة اخيك البرتغالية اليوم هنالك ، ولقد كان لها عند اهل ديوانكم وجه وكلام . ومن هنالك تقرب المسافة بينك وبين قومك وتسهل عليك مناولة الكلام معهم ؛ لكن بحيث لا يكون للافرنسيس بك شعور . واما اذا عرفوا منك ذلك فلا يتركونك ولا يطلقونك لمسالتين ؛ احداهما لا يريدونك تترك دينهم وترجع الى دين قومك والثانية يخافون انك اذا راجعت قومك ربما تعاديهم وتحاربهم ، ولاسيما حيث عرفتهم وعرفت غرة بلادهم، والملوك دائما تحذر من مثل هذا . وقد نصحناك واريناك ما يليق بك في دينك ودنياك ، ووالله ما نكره لك الهداية والرشاد . وقد بلغنا انك تروم الوصول الى روما ؛ فاياك وان تحدث نفسك بشيء من ذلك فانك اذا دخلتها تحتل بها ، ولا تطمع في الخروج منها ، ولا في ملك بعدها ابدا . فعلى كل حال ان انت راجعت قومك ودينك نجدد ما كان بيننا وبين اخيك . ووالله ما زال خديمنا الذي كان عنده يذكر لنا من صوابه وخيره ما اوجب مكاتبتنا لك بنصحنا اياك . وقد احببنا ان تكون المودة والمراسلة بيننا وبينك ، فننتفع بها على كل حال ان شاء الله والسلام على من اتبع الهدى ، وكتب في النصف من شعبان المبارك عام تسعة ومائة والف .

ولما توفي المولى اسماعيل ، وكان ملك انجلترا آنذاك ، هو جورج الاول ، سارع فوجه سفارة له الى المغرب ليقوموا بفروض التعزية ، والتهنئة لمولاي احمد الذهبي ، وليسعوا في فك اسر بعض الانجليز، وليوطدوا العلاقة التي كانت بين انجلترا والمغرب على عهد الملك الراحل . وكان القائم على هذه السفارة القبطان « روسل » وبرفقته القبطان « بويط ويت » (2) . ولما علم المولى احمد الذهبي بهذه السفارة التي كان

---

1) يريد « خممت » اي فكرت ، وهو استعمال عامتنا

2) لما عاد هذا من سفارته الف كتابا سماه « تاريخ انقلاب دول المغرب بعد وفاة المولى اسماعيل » .

اصحابها قد وصلوا الى طنجة كتب الى السفير ما ملخصه :

وبعد فقد اخبرنا الباشا احمد بن علي بن عبد الله الريفي انكم وصلتهم الى جبل طارق ومعكم صاحب القائد المذكور (بوقلي التطواني) الذي كان فى عاصمة مملكتكم (سفيرا للمولى اسماعيل) واخبرنا بما تأملون منا من تجديد العهود التي كانت بين والدنا رحمه الله وبين دولتكم ، وعليه فاقدم لدينا صحبة الباشا احمد ابن علي وها مكاتب الايصاء عليك بالطريق حتى تصل لدينا مصونا من كل مروع انت ومن معك من الاصحاب

ثم فترت العلاقة الانجليزية المغربية بعد وفاة المولى احمد الذهبي وبقيت كذلك الى ان كان المولى محمد بن عبد الله فاستؤنفت هذه العلاقة بين الدولتين وتولى سفارة المغرب بانجلترا الرئيس العربي المستيري الرباطي . كما كان بالمغرب على ذلك العهد تجار انجليز خصهم ببعض الامتيازات . وكانت الدولة تلجأ الى الانجليز فى اصلاح اسطولها ، بالرغم من ان هذا الاسطول كان وجوده لا يسر انجلترا فى حال من الاحوال ، حيث ان المولى محمد بن عبد الله كان يساعد به تركيا التي كانت فى حرب مع انجلترا وروسيا . ولكن بالرغم من هذا كله فقد كانت هنالك علاقة طيبة بين الدولتين .

ولما تولى ابنه مولاي سليمان اشتدت هذه العلاقة على عهد جورج الرابع وعقدت بين الدولتين معاهدة تحتوي على احد واربعين بندا ولعله من جراء ذلك ، وقف المولى سليمان موقفه المعارض لسياسة نابليون ، واستيلائه على اسبانيا ، فلم يعترف باخيه ملكا عليها ، وان كان فى مقابل هذا الاعتراف استرجاع لسبتة ومليلية ، واستمرت هذه المعاهدة معمولا بها من خلفه ، ابن اخيه المولى عبد الرحمن ، فلم يغير من بنودها الا السابع والثامن وذلك فيما يتعلق بالفصل فى الخصومات التي تقع بين المغاربة والانجليز . ولقد راجت بين المولى عبد الرحمن وجورج الرابع مكاتبات من بينها هذا الكتاب الذي وجهه المولى عبد الرحمن اليه وهو :

الحمد لله وحده

الملك الكبير العلي الخبير المنفرد بالملك الحقيقي والتدبير ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

من امير المؤمنين المتوكل على رب العالمين عبد الرحمن بن امير المؤمنين هشام بن امير المؤمنين محمد ابن امير المؤمنين عبد الله بن امير المؤمنين اسماعيل الشريف الحسني العلوي امير المغرب ايد الله امره واطال فى عز الخلافة عمره وايد نصره واسعد زمانه وعصره لعظيم الروم وزعيم الدولة التي مبرتها شهيرة وسيرتها فى الملة النصرانية أحسن سيرة ذات الشان الكبير والمحل الخطير الملحوظ من جانب الاسلام بمزيد الاهمام ورعي الذمام ومنجد ملة النصارى سياسة واستبصارا وكبيرهم الذي طلع فى افق التدبير نهارا وقابل اغراض ملته بالشكر سرا وجهارا فانشق من روض سياسته ازهارا والرئيس الذي هو الوساطة فى عقد قوم عيسى وعاقلهم اميرا ووليسا الامير جورج الرابع القائم سلطانا ، بامر الملك الحق وخالق الخلق على مملكته بريطانيا اما بعد :

حمدا لله الذي بيده الامر كله وليس فى الوجود الا فعله فانه وصلنا كتابكم وانهى لحضرتنا العلية بالله خطابكم الذي املى وكتب بديوان مدينة لوندرة بتاريخ 21 من شهر مايو من عام 1827 مسيحية الموافق 15 من ذي القعدة الحرام 1242 من الهجرة النبوية المترجم على يد الوزير « كوردتيس » فقراناه وفهمنا لفظه ومعناه وعرفنا ما انتم عليه من كمال العناية بعلي جنابنا وجميل الرعاية لعزة بابنا حتى ان اشارتنا لديكم مقبولة واغراضنا على كاهل المبرة محمولة واسباب رعاية من انضاف الينا موصولة كل ذلك طلبا لدوام العشرة والمبرة وحصول الالفة بين الدولتين والمسرة ومن قديم وجنسكم يجل جانب الاسلام على بعد داره ويبادر فى خدمتنا غاية ابتداره وغاية مقداره حتى اجتذب القلوب وارم لدينا غاية المطلوب وحصل ما اشرتم اليه من قضية الذمي ابن كذا انه احد يهود ذمتنا ومن المتوسلين بخدمتنا وقد توسل الينا فى قدومه عليكم وتخلية سبيله ليتوجه اليكم فاجبناه من حيث انه تردد لبلادكم غير ما مرة وحصل لكم بهطول الالفة والعشرة وحدث عنكم بنيل كامل المبرة ولم نتعرض فيما بيده من كتبنا لابطال حق او تحقيق باطل ولا نرضى ان يكون فيما يجب بطريق الحق اللد المماطل بل هو كغيره فى شانه كله وامره ياخذ ما اليه ويؤدي ما عليه لان هذا امر اجتمعت عليه الملل باسرها وعليه مدار كنه امرها لا يمتري فيه عاقل ولا يقبل بخلافه نقل ناقل والخروج عنه خرق للاجماع وقبل تمجه الطباع والاسماع واما ما استظهر به الذمي المذكور منا وزعمه من كونه

« باشدورا » او « قنصوا » نائبا عنا فهو ، ان صح ، امر يتوقف على رضاكم وحكم لا يتم الا بقضاكم فكما انتم لا تستنيبون لدينا ولا توجهون قنصوا الينا الا من ترتضيه وتتوفر فيه شروط الكمال تقتضيه فكذلك انتم لا تتم نيابة احد من قبلنا لديكم الا بقبول حالــه واستحسان انتحاله ، والا فلا . بهذا تحصل الالفة بين القلوب وتدوم المبرة التي هي ملاك الامن المطلوب بين الدولتين ان شاء الله تعالى . انتهى وبه صدر امرنا الشريف بالحضرة العلية مكناسة الزيتون الاسماعيلية بتاريخ 28 من ذي الحجة الحرام متم 1242 من الهجرة النبوية القمرية الموافق من الشمسية المسيحية 7 يوليوز سنة 1827 .

لما فقد الانجليز طنجة ، عزموا على الاستيلاء على « جبل طارق » ولم تطل المدة بهم كثيرا حتى اتيحت لهم الفرصة فى تلك الحرب الاوربية التي كان لويس الرابع عشر قد اثارها ، فهاهم الآن يتصرفون في « قادس » التي كانوا قد استولوا عليها ، ثم لم يحجموا عن ان يتوجهوا الى جبل طارق ويضربون الحصار حوله فيسقط في يدهم للمرة الاولى سنة 1705 . ولكن ذلك الاحتلال لم يستقر لهم بل بقي مضطربا يتجاذب حبله الاسبان من ناحية والانجليز ما ناحية اخرى . وظل الجبل كذلك حتى كان ذلك الحصار الذي ضرب عليه من البر والبحر واستمر من سنة 1579 الى سنة 1783 حيث عقدت معاهدة صلح بين الاسبان والانجليز فاستمرت بذلك سيادة الانجليز على الجبل خلال هذه الاحداث الاخيرة . ثم توجهت الانظار من جديد الى المغرب فالاسبان يريدون ان يضعوا ايديهم على الشواطىء المغربية ــ زيادة على سبتة ومليلية ــ والانجليز يريد ان يحول دون ذلك فيحسن علاقته مع المغرب ويوطدها . وقد راينا مولاي محمد بن عبد الله يسعفهم في توطيد هذه العلاقة ويمكن تجارهم من بعض الامتيازات التي تقدمت الاشارة اليها . وتركب اسبانيا راسها وتحاول ان تحتك بالمغرب بعد ما انهزم في حربه ضد الفرنسيين على الحدود الجزائرية فتستعمل بعض الفرص لتنفذ برنامجها الجهنمي وتاتي هذه الفرصة في اواخر العقد السادس من القرن التاسع عشر فتستغل بعض الاسباب التافهة التي كانت من قرصان الريف واغارتهم على سفن الاسبان ــ كما يقولون ــ ومن بعض الاحداث التي حصلت من اهل انجلترة على حدود سبتة .

وبذلك تقوم قومتها وتبعث بالاحتجاجات والتهديدات الى المغرب وبالاستنكار الى عواصم اوربا التي كانت منها ((لندن)) بواسطة ممثل بريطانيا ((المستر بوشنام)) ووزير خارجية اسبانيا . وكانت مخابرات التزمت فيها اسبانيا لانجلترا بسلامة المضيق فكان عليها ان تتفاهم معها بعد في شان الاغارة على المغرب وتفهمها ان هذه الاغارة لا تمس من قريب او بعيد سلامة المضيق على حين كانت تخدر اعصاب نواب المغرب في طنجة وتتظاهر بالاحتجاج الذي يشوبه كثير من العنف والشدة في اللهجة . ولكن نائب المغرب في طنجة السيد محمد (فتحا) الخطيب كان يدرك هذا كله وهو على اتصال وثيق بقنصل انجلترا في طنجة ((المستر جان درماندهاي)) فلم ينطل عليه ما تستره اسبانيا في طيات احتجاجاتها ، ولهذا فقد كان يعمل ما وسعه العمل للوقوف دون هذا العدوان المبيت وكان يدحض تلك البيانات التي كانت اسبانيا تصدرها الى برلمانات اوربا تشرح فيها وجهة نظرها ــ بامضاء ((كالديرون كوباطيس)) ببيانات اخرى يقدمها الى نواب الدول . ولم تدرك حكومة المغرب كنه هذا التنكب وعدته لينا من جانب النائب المغربي بطنجة ، فارسلت نائبا آخر من الرباط هو الحاج محمد الزبدي . ثم لما كان المولى عبد الرحمن قد توفي وتولى ابنه المولى محمد ، كانت اسبانيا تسحب قنصلها من طنجة بعد ما صفت حسابها مع الانجليز . وبعد ما راجت بين المغرب من ناحية واسبانيا وانجلترا من ناحية اخرى مكاتبات عديدة ، اعلنت اسبانيا الحرب على المغرب . وكانت تريد ان تعوض به ما تراه سيفقد وشيكا من مستعمراتها في الشرق على تلك الحروب التي كانت تدور رحاها بينها وبين امريكا في جزر الفلبين .

وعلى كل حال ، فقد ابتدات الحرب واستمرت في طريقها على حدود سبتة في البر وانتهت الى وادي مرتين في البحر مع مساعدة بعض الاساطيل الفرنسية التي استشر بقائها بانتصارها على المغرب في الحروب الجزائرية . وضربت الاساطيل الاسبانية موانىء العرائش واصيلا وطنجة (التي كانت تريد السيطرة عليها ولكن انجلترا حذرتها من ذلك وهددتها تهديدا صارما لانها تعتبر الاستيلاء عليها ماسا بسلامة المضيق) ثم تقدم الاكتساح الاسباني الى ان دق ابواب تطوان ففر اهلها واحتلت المدينة . وكان الخطيب في هذا كله على اتصال وثيق بقنصل انجلترا الذي اقام قنصليته ببعض المداشر بعد ما هاجر نواب الدول من طنجة التي كانت وحدها المقر الدبلوماسي لهذه الدول . لقد بقي الخطيب على اتصال بهذا القنصل ، اما متطوعا بخدماته الوطنية واما لانه كانت له صفة رسمية في اتصاله بنواب

الدول الاجنبية . ومهما يكن فانه رحمه الله ما فتىء يعمل لصالح البلاد ، وما انقطع عن الاتصال بنـــواب الدول وعلى راسها انجلترا التي كان يستوحي مـــن قنصلها ما ينبغي ان يقوم به في هذه الازمة العويصة . ولهذا كان يطلع النائب الانجليزي على تطورات الموقف وكان هذا سريعا ما يبعث بتقاريره الى جبل طارق الذي كان حاكمه يبعث بها الى ((لندن)) . ويجتهد هـــذا بنفسه للاطلاع على الحقائق فيعبر المضيق الى سبتة ليدرك مدى القوة الحربية المستعدة هنالك للتوجه الى خوض المعارك بالمغرب . وكان هذا القنصل نفسه كثيرا ما يوعز ببعض الخطط الحربية التي يجب على المغرب ان يتخذها ، فمن تلك ما نجده في وثيقة للخطيب بعث بها الى مولاي العباس يقول فيها :

((ان قنصل انجلترا قال له اذا ظهر لسيدنا ان يوجه خمسة من اهل الفحص لينزلوا ببرج المنار فعل)) وكان يشير ، الى جانب تحصين برج طنجة ، باتلاف الطرق التي كانت بين تطوان وطنجة حيث كان الاسبان قد توجهوا اليها ،فاستهدفوا لتلك المذبحة العظيمة التي اجراها فيهم اهل وادراس .

بعد ما استمرت الحرب بين المغرب واسبانياسنة كاملة وكانت الكفة الاسبانية راجحة فيها اوعز الخطيب والنائب الانجليزي الى مولاي العباس بايفاد وفد يطلب الصلح فبلغ هذا الوفد يوم 11 فبراير سنة 1860 ، في هذا الصدد . ولكن القائد الاسباني تصلف وقال الامر الآن ليس بيدنا ولابد من الكتابة الى ملكة اسبانيـــا ، وهكذا انتظر الرد منها فورد الجواب يوم 17 فبراير يحمل شروطا عديدة فسلمه القائد الاسباني الى المولى العباس واعطاه مهلة ثمانية ايام ، فما كان من هذا الا ان بعث بذلك الى الخطيب الذي سلمه الى النائـــب الانجليزي للاطلاع عليه فبعثه هذا الى وزارة الخارجية بواسطة ((الطلغراف)) من باخرة انجليزية ووعـــد الخطيب بان يوم الاربعاء او الخميس (وهو يوم انتهاء الاجل المضروب) سيكون جواب الحكومة الانجليزية . ولاجل التمكن من ذلك وما يكون من الحكومة المغربية في هذا الموقف اشار الخطيب على مولاي العباس بان يطلب مهلة اخرى بسبعة ايام .

ولما لاحظ القنصل الانجليزي ان فرنسا تساعد اسبانيا حتى ببوارجها الحربية فاوضها ان لا تتدخل في الموضوع ووعدها بان يشركها مع انجلترا في مسالة عقد الصلح مع اسبانيا . وفي يوم 27 من هذا الشهر كان حاكم جبل طارق بسبتة يتفقد الاحوال الحربية . وفي 4 مارس كتب الخطيب الى مولاي العباس يخبـــره بوصول باخرة من جبل طارق حاملة رسالة الى النائب الانجليزي بمضمون الصحف الاسبانية المدريدية بان اسبانيا يمكن ان تغادر تطوان مقابل ((وادي نـــون)) لصيد الاسماك . ولكن النائب الانجليزي لما استشاره الخطيب في القضية قال له ان الاسبان لا يوثق بهم ، كما كان نائب امريكا فيما قبل قال انهم لا عهد لهم ولا ميثاق . وفي يوم 19 منه كتب الخطيب الى مـــولاي العباس يخبره بان انجلترا وامريكا رجعتا عن فكرتهما وانهما تريان عقد الصلح اولا ولكنهما تشيران علـــى المغرب بان يحصن بلاده في وجوه الاسبان . وفي يوم 23 منه ورد على الخطيب كتاب من النائب الانجليزي يلح في عقد الصلح ويعلم ان دولته تراه لازما لا مفر منه وان الاستمرار في هذه الحرب لا خير فيه سواء انتصر المغرب او انهزم . وهكذا عقد الصلح بيـــن المغـــرب واسبانيا على شروط قاسية مسطرة في كتب التاريخ مثل ((الاستقصا)) وغيره .

ولكن بقيت هناك مشكلة اليهود بتطوان الذين كانوا قد مالأوا الاسبان وانضووا تحت لوائهم على حين ان المسلمين هاجروا بلادهم وتشتت شملهم في كـــل جهات المغرب ولهذا فقد احتاط هؤلاء لانفسهـــــم واتصلوا ببني جنسهم خارج البلاد فوردت على الخطيب في يوم 18 غشت رسالة من النائب الانجليزي توصي بيهود تطوان خيرا وتنبه الخطيب الى ان اليهـــود في اوربا لهم مكانتهم العظيمة لدرجة ان من بيـــن وزراء فرنسا وزيرين يهوديين ، فبناء على هذا يجب على المغرب ان يعاملهم معاملة حسنة حتى لا يتعرض الى خوض حروب اخرى من اجلهم .

توفي المولى محمد بن عبد الرحمن وخلفه ابنـــه المولى الحسن فبايع الله على ان يقف حياته خدمة بلاده وان يستمر في كفاحه الذي عرف عنه ايام والده ، فظل مناضلا في سبيل رقي البلاد حتى لفظ النفـــس الاخير رحمه الله .

لقد استهل مولاي الحسن معاركه الدبلوماسية بان وجه سفراءه الى مختلف العواصم الاوروبية واصحب كل سفير بهدايا فاخرة الى الملوك والرؤساء واموال طائلة توزع على العاملين في الحكومات وعلى المؤسسات الخيرية بالبلاد الاروبية وابتدا بالدول التي اسرع ممثلوها بتهنئته بالملك وعلى راس هذه انجلترا . وكان الغرض من هذه السفارات هو مفاتحة هذه الدول في شان الغاء الامتيازات الاجنبية التي كانت قد فرضت على البلاد ففاتح في ذلك انجلترا وامريكا وغيرهما بل حاول ان يستميل حتى البابا ليون الثالث عشر حيث



السلطان المقدس المولى الحسن الاول

بعث بسفرائه اليه يهنئونه بعيده الخمسيني وارفق بهم رسالة رقيقة قلما نعثر على نظيرها في ذلك الوقت. فكانت النتيجة بعد مفاوضات كتابية وشفوية ان عقد مؤتمر مدريد حول القضية كان فيمن حضره من ممثلي الدول الثلاث عشرة انجلترا وامريكا وكان الذي يمثل المغرب فيها السيد محمد بركاش معضدا بمستشاره السيد عبد الكريم بريشة التطواني . فكانت انجلترا في ذلك تمسك العصى من الوسط فلم تظهر عليها ميول لا الى الالغاء ولا الى الاقرار . على حين كانت اسبانيا تقف بجانب المغرب ، وكانت فرنسا وايطاليا معارضتين في هذا الالغاء أشد المعارضة ، وكان اليهود قد بعثوا الى مدريد بمن يفسد على الممثل السلطاني خططه في المؤتمر وعلى كل فقد انتهى المؤتمر من اعماله في 8 يوليه سنة 1880 ولما اطلع مولاي الحسن على بنود التوصيات الثمانية عشر بعث الى نائبه السيد محمد بركاش يقول له : **الخير في الواقع .**

ولقد احس مولاي الحسن احساسا قويا بوجوب الاستعانة باروبا استعانة علمية وفنية فبعث بعثات عديدة اليها وكان ممن بعث الى انجلترا محمد الجباص والزبير السكيرج وادريس عبد الواحد الشاوي . ولما اتموا دراستهم ـ بعد ثلاث سنوات قضوها في مدرسة ((شاطم)) يتلقون متنوع العلوم في صف ضباط الانجليز ـ مثلوا بين يدي الملكة فكتوريا ثم توجهوا الى بلادهم عام 1296 هجرية . كما استقدم من انجلترا بعض المهندسين الانجليز مثل ((المستر جوهن كلارحي)) المهندس الميكانيكي بلندن ، وذلك لتركيب الآلات اللازمة لصنع السكر . فعقد عقد بتاريخ 8 اكتوبر سنة 1862 يحتوي على مواد خمسة ، مذكورة بنصها الانجليزي والعربي في كتاب ((الاتحاف)) ، ولقد امضاها عن الجانب المغربي السيد محمد الدكالي الرباطي . أما سفارته الى الملكة ((فيكتوريا)) فقد كان ممن قام بها الحاج محمد الزبدي الرباطي ومعه أمين الصاير السيد ناصر غنام الرباطي والسيد ادريس الجعايدي السلاوي كاتبا له ، وعدد من قواد الارحى ، فتوجهوا اولا الى فرنسا فبلجيكا . ولما قضى الزبدي سفارته بهذه البلاد رافقه وزير خارجيتها والترجمان مشيعين له ، فركب باخرة خاصة الى ((لندن)) فلما نزل بها وجد في استقباله وزير الخارجية وابن سفير انجلترا بطنجة والجنرال حاكم الناحية ، فأدت له الفرقة العسكرية التحية وعزفت عليه الموسيقى ، النشيد الملكي : كما كان في استقباله عدد كثير من وجهاء الدولة وبعد يومين عينت الملكة ((فيكتوريا)) وقت استقباله فكتب اليه وزير الخارجية بما يأتي :

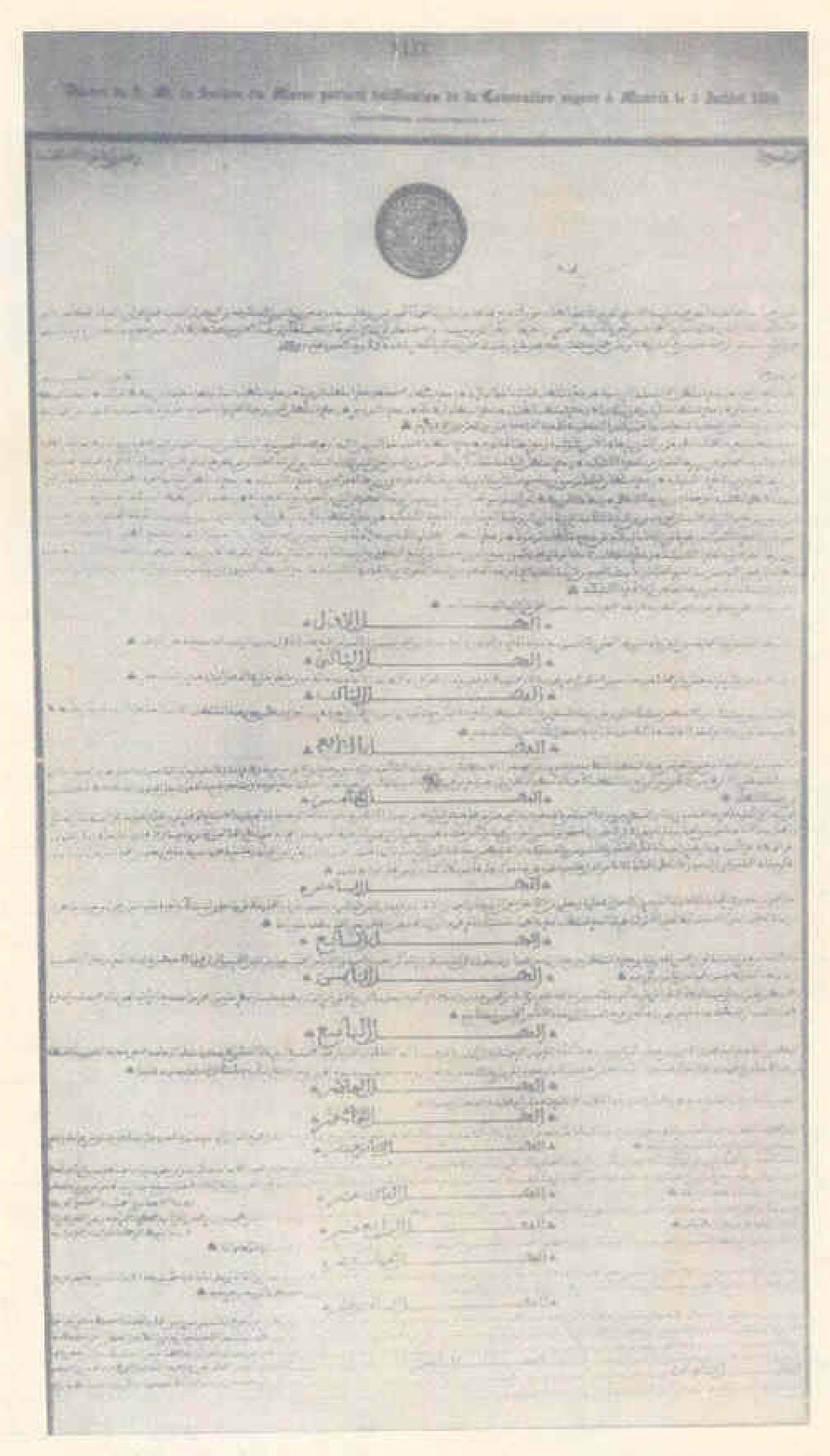
يقدم اللورد ((دربي)) احتراماته الى السيد الحاج محمد الزبدي ويخبر سعادته بان جلالة الملكة تقابله في ((اسبون)) يوم الخميس المقبل 27 من الشهر الجاري وقبل ان يغتنم اللورد دربي فرصة ترك سعادتكم فان له الشرف بانه سوف يخبركم باوقات القطار الذي يغادر ((لندن)) قبل موعد المقابلة المعينة . الامضاء ـ دائرة الاعمال الخارجية 25 يليه ـ 1876 .

ولما حظي السفير الزبدي باستقبالها بالغت في الحفاوة به واكرام سفارته ، ثم كتب الزبدي لوزير الخارجية بقائمة الهدايا التي امر بتقديمها للملكة ((فيكتوريا)) فرد عليه الوزير بما يأتي :

سيدي السفير : لي الشرف بان اعلم سعادتكم بتسلم مذكرتكم المؤرخة بـ 28 من الماضي والتي تحتوي على قائمة الهدايا المقدمة من جلالة سلطان المغرب الى الملكة ، وأتشرف ايضا باعلامكم باني لما اتمكن الى الآن من عرض ذلك على جلالتها ، ارجو ان تتقبلوا فائق احترامي يا سيدي السفير ـ الامضاء : مطيع سعادتكم وخادمكم المخلص لورد دربي .

ثم تبرع السفير بست مائة لبرة لتوزع على المشافي كما هو مثبت بالتوصيل الذي بعثه اليه نائب كاتب الدولة بوزارة الخارجية والشكر الذي ارسله اللورد دربي وهما :

توصلت من سعادة السفير بـ 600 لبرة بوزع على المستشفيات . بالنيابة عن كاتب الدولة بوزارة الخارجية لجلالة الملكة . فاتح شهر غشت سنة 1876.



نــص الوثيقة الرسمية الماخوذة من الاصل لمؤتمر مدريد المنعقد عــام
1888 م برئاسة النائب السلطاني السيد محمد بركاش

الوزارة الخارجية الانجليزية 3 غشت 1876 :

سعادة السفير ... اخبر سعادتكم باني تشرفت بكتابكم المؤرخ بالثاني من الشهر الحالي معلما فيه انكم قد وجهتم على يد الكاتب الثاني بسفارتكم ما قدره 600 لبرة تصرف على العميان الفقراء الذين يعالجون بالمستشفيات المذكورة بكتابكم كما اتشرف بان اعبر لكم عما حصل لي من السرور بتبليغ ذلك الانعام الى مختلف المشافي وفق مرغوبكم .

وانا ايها السفير خديمكم المتواضع . الامضاء ((دربي)) .

ثم بعد المداولة مع وزير الخارجية سلم له هذا كتابا بما ياتي :

الوزارة الخارجية — عاصمة انجلترا — 8 غشت سنة 1876 .

سعادة السفير :

ان حكومة جلالة ملكة انجلترا قد احلت محل الاعتبار رسالتكم المؤرخة بـ 8 الحالي فيما يخص حماية الحكومات الاجنبية لجملة المغاربة القائمين بوظائف السمسرة او النيابة لدى التجار الاجانب . وردا على رسالتهم المشار اليها اشعر سعادتكم بان حكومة جلالة الملكة ليست لها رغبة في بسط هذه الحماية على المغاربة الا بمقتضى نصوص الفصل الثالث من الاتفاقية المبرمة بين بريطانيا العظمى والمغرب في تاريخ 9 دجنبر سنة 1856 وبمقتضى الفصل الرابع من الاتفاق التجاري والبحري الصادر في نفس التاريخ المذكور .

وليس في رغبة حكومة جلالة ملكة انجلترا تغيير الاتفاقات المبرمة طبقا لهذا الفصل الاخير وذلك ليسهل على التجار الانجليز القيام باعمالهم داخل الايالة المغربية ومما تعتقده الحكومة ايضا ان سفير جلالة ملكة انجلترا في المغرب لم يقدم قط على ايثار السماسرة او النواب التجار في الداخل .

فالحكومة والحالة هذه لا تستطيع ان تبخس حق التجار الانجليز في شيء من الامتيازات التجارية التي منحت لسواهم من التجار الاجانب .

وبالرغم من هذا كله فاذا وفقت الحكومة المغربية الى ان تعقد مع اية دولة اتفاقا يكون افضل لها من الاول فان حكومة جلالة ملكة انجلترا تعيره اعتبارا خاصا حتى تتوصل حسب الامكان الى تلبية رغبات جلالة ملك المغرب . واني انتهز هذه الفرصة لاعبر لسعادتكم عما حصل لجلالة الملكة ولحكومتها راجيا من سعادتكم ان تتقبلوا فائق الاحترام . (الامضاء)

وبعد هذا ودع السفير الملكة وطلب من وزير الخارجية صدور اذن الى سفير انجلترا بطنجة يتمكن به من تتميم المسائل التي حصلت فيها المفاوضات هناك ثم توجه الى فرنسا وطلب نفس الطلب من رئيس جمهوريتها كما فعل مع ايطاليا .

اما من ناحية الملكة ((فيكتوريا)) فقد بعثت سفراء من جملتهم (المستر شارل وان سميث) وهذه رسالة مولاي الحسن الى الملكة (فيكتوريا) ردا على تلك السفارة :

وهي بعد البسملة والافتتاح : الى المحبة المعظمة المحترمة المفخمة الوارثة الرياسة عن الاباء والاجداد السائر بها المثل في الاغوار والانجاد سلطانة دولة ((انكرنت بريطن)) والنبرير الهند المعظمة السلطانة ((فكطورية)) العزيزة البهية المنعوتة بالذكاء والنباهة والالمعية . اما بعد حمد الاله المبدىء المعيد الفعال لما يريد فموجب تحرير هذه السطور لجنابكم المشكور الاعلام باننا لا زلنا معكم على المحبة المشيد بناؤها على اوثق اساس والمودة التي نمت منها في ارض الصفاء الاغراس والصداقة الممتازة التي لا تنقضي مدتها والعهود الموثوقة العرى التي لا تبلى على مر الايام والليالي جدتها ولا نزال على ذلك بحول رب العالمين اقتداء باسلافنا الاكرمين وبان ((المنيسطر شارل اوان اسميد)) وفد على حضرتنا الشريفة فحمل على كاهل المبرة والاكرام وعومل بازيد مما يعامل به سفراء الدول العظام من الاعتناء والاعتبار والاحترام رعيا لكونه من قبلكم ووروده من رفيع حضرتكم فقابل ذلك بما لا تحبونه له ولا ترضونه فغضضنا الطرف عنه تجملا مراعاة لكم وقابلناه بجميل المبرة اعتناء واعتبارا لجنابكم ولا شك انه يتحقق لكم ذلك من غيرنا كما يتحقق لكم امره كذلك ونطلب الله ان يوفقنا لما فيه رضاه ودمتم في هناء وعافية على اكمل الاوصاف لا حظين لاجل المحبة والمودة بعين الانصاف وختم في 20 من ذي الحجة عام 1260 .

كما اوفدت على مولاي الحسن خليفة حاكم جبل طارق سفيرا مصحوبا بفيل هدية منها اليه فبعث اليها برسالة شكر . وقد الفت مؤلفات في هذا الفيل من جملتها ((رسالة النفائس الابريزية في هدية الفيل الوافد من فخامة الحضرة الانجليزية)) لعبد الواحد بن المواز . ((والسراج الوهاج والكوكب المنير من سنا صاحب

التاج مولانا الحسن الامير)) لمحمد بن علي الدكالي . ((ورسالة الدرر السنية فى الهدية الفيلية الواردة من فخيم الحضرة الانجليزية)) للطاهر بن احمد البلغيثي، ومقامة لخليل الخالدي وهذه رسالة البلغيثي منقولة من اصلها [1] .

الحمد لله وحـــده

ولا حول ولا قوة الا بالله .

(رسالة الدرر السنية ، فى الهدية الفيلية ، الواردة من فخيم الحضرة الانجليزية)

لما كان بين الدولتين الفخيمتين المعظمتين ، دولة المغرب ودولة كران بريطان من الوداد ، ما قدم وتأكد فى سائر الازمنة وطال بميمنته النجاد ، وتتابعت افراده وفرائد مزاياه ، واتسقت آثاره فكان مسندا كاشفا عن محياه ، يستدعي بمقتضيات نفحات ازهاره الاستنشاق ويمتطي بصحة روائده صهوة الوفاق، حتى طلعت شموسه واقماره بين الرعايا والاجناس ، وغارت منه الدواعي كما غارت عين لحظات المناوي فى سائر الانفاس ، وكان سيدنا ومولانا السلطان بن السلطان امير المؤمنين ابن امير المؤمنين ، ابن امير المؤمنين ، ابن امير المؤمنين ، ابن امير المؤمنين ، ابن امير المؤمنين ، ابن امير المؤمنين ، الذي بهر بسياسته فى العيان ، ما اغنى عن الدليل والبرهان يتيمة عقد الملوك الحسنية ، ومؤسس الضخامة المغربية السنية ، المالك للقلوب بدمائث الاخلاق واحكام الرسن، سيدنا ومولانا الحسن ، ممن له مزيد اعتناء بالدولة المذكورة تبعا لسلفه ، والده وجده ، آخذا من ذلك اوفر نصيب بساعد جده ، ولا سيما هذه السلطنة التي لها التقدم بقدم المحبة ، الفاخرة المعظمة بين سائر اجناس اروبة ، الشهيرة المعتبرة القدر والشان ، عين الدولة ومدبرة اوامرها فى احكام واتقان ، شمس الضحى فيكتوريا الامبراطورة ذات الشمائل ، والضخامة المزية بالاوائل .

اعظم بها من دولة ما نالها
ملك ولو كسرى انو شروان
هي دولة النجليز ذي القدر الذي
يسمو ببهجته على كيوان
هي دولة عظمى سمت وتبخترت
وربت بنجدتها على الاقران
سنعت مئاثر لم تكن فى غيرها
جرت ذيول الفخر والتبهان
قد اشرقت شمس السعادة عندها
بولاية الغراء ذات الشان
سلطانة ملكت ملوك اسرة
بسياسة وبشاشة وسنان
بلغت بحسن سياسة كل المنى
والطاعة العظمى مع الاذعان
وسمت بوصف نباهة كل السوى
وكذا الذكاء وغاية العرفان
دامت لها بدوام دهر دولة
وتنعمت بمسرة وتهان
آل انكترا بجمعكم لكم الهنى
السعد اتحفكم بعز ثان

فدعاها داعي المحبة الى انتخاب هدية لمولانا السلطان ، لم تتقدم من مثلها فى هذه الازمان فوجهت فيلا وهو لعظيم السلطنة من احسن فال ، ولعظيم القدر بين المهدي والمهدى له مطيل الاذيال ، ناهيك به من فيل ذي خرطوم طويل ، وذنب مستطيل وهام كبير، وناب عظيم حاد غزير ، وقوائم غلاظ وظهر عريض بسيط ، وبطن ممتلىء وصوت غطيط ، الى غير ذلك من الاوصاف الدالة على القدرة الباهرة ، واسرار الربوبية القاهرة ، فقدمه سفيرها لدى الباب الشريفة، والسدة العالية المنيفة ، فصادف وروده ، من ثغر طنجة ذات البهاء والبهجة ، نهوض الركاب السعيد من ثغر الرباط ، والجلالة المولوية فى سرور ونشاط ، وذلك فى اوائل صفر الخير عام تسعة وثلاثمائة والف هجرية ، الموافق لسنة احدى وتسعين وثمان مائة مسيحية ، فالحق بالموكب السعيد ذي النور الضاوي بسيدي علال الجراوي ، قاصدا بلاد زمور ، ولواء النصر منشور ، وبعد وروده ، واستراحة وفوده ، امر ايده الله من حفته محلته السعيدة ، ذات الخبرات العتيدة من الوزراء والكتاب ، والاعيان والقواد وكل ملازم لشريف الاعتاب ، بالحضور تجاه السياج ، ذي النور اللامع الوهاج ، بعد ان عمر المشور ، وادبرت به قلعة العسكر ، على صفة مخصوصة ، بصفوف مرصوصة وكيفية عجيبة فى دواوين الحرب منصوصة، تذهل بمرءاها العجيب ، لب كل اريب ، مصحوبة بالموسيقى الغريبة الاشكال العديمة المثال ، ذات الالحان المطربة ، والنغمات المعجبة ، تنعش بسماعها القلوب ،

[1] قد اهداني صديقي الفاضل السيد محمد الداود الرسالة التي انتسخها من اصلها الموجود بالمتحف ى ، الموظف سابقا بالاذاعة البريطانية نسخة هذه البريطاني .

ويهتز لها من ليس بطروب ، وبزاوياها الاربع صواعق مدبرة ، وقطع نار مصورة ، لاتبقي ولا تذر ، ولا يثبت لها شجر ولا حجر ، وبسط تلك القلعة جياد مسومة، لها زئير كالاسود ، يذوب بمرءاها قلب الشانئ الحسود ؛ فمن ازرق اكتسب زرقته السماء ، واشهب ناصع كدكاء ، وادهم حالك قان ، واحمر كالياقوت والمرجان ، واشقر غارت منه شمس الاصيل ، وابلق كالغزالة عند التطفيل ، واصفر ناقع ، يغنيك في المجامع ، وحباري كالبرق الساطع ، وعليها اسلحة بالذهب الابريز مكللة ، وبرفيع القماش مجللة، واصحاب الرماح ، المعجمة رؤوس اهل البغي لدى النزال والكفاح ، وابطال ذوو المكاحل المذهبات ، موطدة نفوسهم على الثبات ، حين الوثبات ، ناهيك به من موكب لبس كمثله موكب ، يثلج صدر الحبيب فرحا وسرورا، وازدهاء وحبورا ، فاق بترتيبه العجيب ميادين كسرى انو شروان ، واني له مثل ذلك الايوان ، وبعد ان عمر المشور وتم فيه المراد ، ولزم كل مركزه من اهل ذلك الناد ، وجلس ايد الله نصره وادام فخره ، على منصة ملكه ، وسط سياجه المعبر عنه بالسيوان ، البديع الشكل والالوان ، وحيا الكل جلالته السنية ، بالتحية المرفية ، ودعا لهم بالاعانة وصلاح الحال ، في ذلك المجال ، وارعدت الطبول والابواق ، وصدح قمري الموسيقية بنغمة المائة والعشاق ، امر باشخاص ذلك السفير بباب ايوانه ، مصحوبا بفيله واعوانه ، فورد السفير والفيل على صفته العجيبة ، وهيئته الغريبة ، يتمشى مشي الخيلاء ، ويلمح الحاضرين لمحة النبلاء ، يقلب خرطومه كيف شاء ، تارة في الارض وتارة في السماء ، وعليه محمله المكلل ، الرفيع الشكل والعمل ، منوطة به استار من الديباج الاحمر ، البهية المنظر ، وبتلك الاستار جلاجل ، وبقوائمه الاربع خلاخل، يحدث لها عند مشيه دوي ، يسلي كل قلب شجي ، حتى دخل الموكب العجيب ، في ذلك المنظر الغريب ، متبخترا كانه ربوة عالية ، قاصدا تحية الجلالة السامية ، فلما وصل لباب السيوان ، وعاينته الطلعة البهية اوضح عيان ، حيا تلك السيادة بخرطومه كانه من نوع الانسان ؛ ثم تقدم السفير المذكور ، وادى التهنئة بوجه مشكور ، واحضر للفيل ما يقتات ، فصار ياخذه بخرطومه اخذ حاذق مستاذنا غير مفتات ، واحضر من الماء عدة اوعية فشرب جلها واغتسل بالبقية بعد ان انتزع عنه سواسه ما عليه من الحلل ، وصار ياخذ الماء بخرطومه ويتتبع اعضاءه اولا فاول ، حتى استوفى جميع بدنه واكمل ، وردت له تلك الحلل ، ورجع متادبا ورا ، رجوع القهقرا ، مشيرا براسه تحية الوداع ، مصغ باذنيه من سائسه الى الاستماع ، فسبحان من ابدع من مخلوقاته ما شاء ، وصرفها على مقتضى ارادته كيف شاء ، وعند تمام المعاينة ووداع السفير ، اعلن جميع من حضر بما يجب الثناء لمولانا الامير ، وارعدت الطبول والابواق ولحنت المزامير ، وقعقعت المدافع بصوت وهدير ، وعند مشاهدة تلك الاحوال ، انشد لسان المقال :

قرط سماعك مصغيا لمعان
متلذذا بطرائف الالحان
واصغ لما يبدي السماع مجاوبا
بترنم الاوتار والعيدان
في محفل حفت به اولوا النهى
وذوو المراتب والعلا والشان
اذ قد دعاهم للحضور مؤيد
تاج الملوك يتيمة العقيان
فبدت من الصنع الجميل محاسن
وراوا غريب الشكل بالعيان
فيلا عجيبا في نهاية خلقه
صنعا لمولى العز والسلطان
فبقوا حيارى في بديع صنيعه
اوصافه جلت عن التبيان
هام حكتها القدر في اعظامها
ناب عظيم لا ينثني لتوان
خرطومه افعى تقلب كيفما
يبغي وتخطف مهجة الانسان
اذناه مثل البسط في اسدالها
عيناه مثل شرارة النيران
ظهر بسيط والقوائم جملة
تحكي بناء متقن البنيان
بطن عريض ممتلي في جرمه
ذيل طويل مشبه الثعبان
لما بدى متبخترا في مشيه
كالربوة العظمى من البلدان
متجللا بجلائل تسمو على
نوع القماش من احمر الالوان
مترنما بصليل ما تلقي الـ
ـيه جلاجل وخلاخل السيقان
وتوسط الجم الغفير بموكب
يسلي عن الاوطان والاخدان
وجد الليوث صفوفهم منظومة
ترمي بكل مهند وبمان

وكذا العساكر صورت بصفوفها
وبحربها المعقول فى الاذهان

لما راى البدر المنير تجاهه
ادى السلام بغاية التبيان

فجثا واوما للسلام محركا
خرطومه بتادب وتوان

وكذا السفير لما تقدم لابسا
رسم النظام من ابدع الالوان

حيا الامام تحية عرفية
وكذا السواس وسائر الاعوان

ابدى من الشكر الجميل ما حملت
ـه الدولة الكبراء ذات الشان

رعدت طبول الانس عند وداعه
وكذا المزامر افصحت بتهان

والرعد يخرج من بطون مدافع
والبرق يلمع والحبيب يدان

اعظم به من موكب بل مشهد
خلدت مآثره مدى الازمان

فياله من مشهد ، قد اجتمع فيه ما لم يتفق لاحد، ويا له من موكب حفيل ، لم يتقدم مثله لقبل ، وياله من معرض فخيم ، انبا عن نبا عظيم ، وناهيك بتحفة غريبة ، واطروفة عجيبة ، سبقت من دولة معتبرة حبيبة ، لكلك لم يسمع بمثله عصر ، وحدث عما شئت من المحاسن ولا فخر ، فلا غرو انها من فخيم المآثر، التي تخلد فى بطون الدفاتر ، ويتلو حديث مجدها الاول والآخر ، ويفتخر بها هذا المغرب على باقي بسيطة الخضراء ، حيث كان ذكر الفيل به كالعنقاء ، فنسال الله العظيم المنة والشان ، ان يديم لمولانا سطوة النصر وعزة السلطان ، وتاييد الدولة ، وقوة الصولة ، ويخلد الملك فى عقبه الى يوم الدين ، بجاه سيد المرسلين، انتهت من انشاء خديم الحضرة الشريفة ، وكاتب اوامرها السامية المنيفة ، طالب رضى سيده السني، الطاهر بن احمد البلغيثي العلوي الحسني ، بامر شريف ، واقتراح منيف ، بمشاهدة وزيره ، ومنفذ اوامر تدبيره ، الفقيه العلامة ، المستغني ببديع شمائله عن التعريف والعلامة ، صدر الوزارة بالحضرة السامية وبابها الساجي ، السيد محمد بن احمد الصنهاجي، ابقى الله رعاية مولانا تحمي ذماره وتعم شعاره ودثاره.

ومن مقامة خليل الخالدي ، هذا الفصل الجميل، الذي نقله الينا صاحب الاتحاف :

« ذو جسم جسيم ، وشكل وسيم ، ظريف بهي، نبيل شهي ، من اعظم الحيوانات وابهر المصنوعات، منظره بديع ، وهيكله رفيع ، طويل الخرطوم ، واسع الحلقوم ، مبسوط الاذنين ، حديد العينين ، طويل الانياب ، اسنانه تبلغ ثلاثمائة سن فى الاستيعاب كانه طود علاه سحاب يحسبه الناظر اليه ربوة تمشي على ساق ، او سحابة اظلمت الآفاق ، يهرول فى مشيته ، ويسارع فى خطوته ، كثيف فى المراى ، خفيف فى الوطئا ، لو فاجا عنترة وسليكا، لعجزا عن الاقدام وهلكا ، ليس فى سيره انزعاج ولا اضطراب ، تحسبه جامدا وهو يمر مر السحاب ، تفزع منه الطيور ، وتتقي صدمته النسور ، وخرطومه يتقلب تقلب الافعى ، يتلقف به الملتقم حين يدعى ، ويسير به الى الجهات الست ، ويقلع به الصخور والاشجار قطع البت ، ظهره عريض بسيط ، وصوته رقيق غطيط ، غليظ الجثة المرتقبة ، قصير الجيد منقبض الرقبة ، وعيناه كاكسير زحل ، اذ لم يمتز فيها بياض من كحل ، وقوائمه الاربع ، يداه ورجلاه اجمع ، كاجسام نخل باسقة ، او سواري متناسقة ، يخاله من لايعرفه عند رؤيته ، أن الارض انقلبت بهرولته او زلزلت زلزالها ، او ان الله بذلك اوحى لها ، ابصر من هدهد، واسمع من قنفد » .

وكان يمتطي هذا الفيل « رجل هندي يروضه ويلقنه ، وظل هذا الهندي مقيما بالمغرب » فقد اخبرني الصديق السيد محمد الداودي ، انه كان يراه يتردد على القنصلية الانجليزية بفاس ، حينما كان موظفا بالبريد الانجليزي فيها .

ولما توفي المولى الحسن وتولى ابنه عبا العزيز كانت هناك علاقة بين المغرب وبين انجلترا على عهد ملكها (ادوارد السابع) وكان راس « طرفاية » فى ذلك الحين تحت حوزة الانجليز الذين بنوا فيه مرسى تجاريا وحصنوه بعدات حربية واقاموا فيه شركة تسمى North West Africa فاراد المولى عبد العزيز ـ وعلى راس حكومته الداهية الوزير الصدر احمد بن موسى ـ ان يسترد هذه الميناء من الانجليز فحدثت فى هذا الشان مفاوضات بين المغرب وانجلترا وذلك بواسطة وزير خارجية المغرب السيد محمد بن محمد غريط وممثل انجلترا بطنجة المستر « ارنيسط ماسن ساطو » وكانت طرفاية هذه المعروفة الآن « كابو خوبي » قد حاول الاسبانيون فيما قبل ان يضعوا ايديهم عليها فى عهد مولاي عبد الرحمن ثم فى عهد ابنه مولاي محمد وذلك بتواطئهم اولا مع الحائن

المغربي بيروك الودوني التكني لم مع اولاده فاسترعت اهمية هذا الراس انظار الانجليز وتجارهم فتوجهوا اليه وبنوا فيه ذلك المرسى الهام ولكن المغاربة ظلوا – كما هو الآن – ينظرون الى اقتطاع هذه الناحية من ارضهم نظرات فيها كثير من السخط والغضب لكرامة بلادهم ، وشاركهم فى ذلك ولاة النواحي المجاورة فكانوا يضايقون هؤلاء الانجليز الغاصبين كما كانوا يقفون فى وجه الاسبان الرامين الى فرض سلطانهم على هذه الناحية من نواحي المغرب الصميمة ... يتجلى ذلك فى الكتاب الذي كان قد بعثه المولى محمد ابن عبد الرحمن الى اخيه المولى العباس بتاريخ 1278 . ومهما يكن فان الانجليز فيما بعد استطاعوا ان يضعوا ايديهم على طرفاية وان يقيموا فيها بناياتهم وتحصيناتهم افتياتا على الدولة الشرعية للبلاد فبقيت هذه المسألة شجى فى حلق الدولة الى ان كان هذا التاريخ فكانت المفاوضة بين المغرب والانجليز نثبت هاتين الوثيقتين تعليقا عليها : اولها من وزير خارجية المغرب الى ممثل انجلترا يعلمه فيها بقبول مولاي عبد العزيز لدفع التعويض المالي لهم ، والثانية يعلمه فيها بقبول الشروط الخمسة من لدن صاحب الجلالة ، والى القارىء هاتين الوثيقتين :

الحمد لله :

لمحل العاقل الناصح الساعي فى الخير بين الدولتين المحبتين ، منيسطر دولة « كريت ابريطن » وانبرير الهند ، الفخيمة الكبير (فلان) بعد مزيد السلام فقد انهينا لحضرة سيدنا العالية بالله ما تطلبه الكبانية الانجليزية من اداء خمسين الف ابرة فى الخسارة الواقعة لها فى تعاطيها التجارة بالطرفاية بسبب تعرض ولاة المخزن لها فى تجارتها ووقوع التعطيل لها فامرتني الحضرة الشريفة نجيبك بانها قبلت اداء الخمسين الف ابرة المذكورة للكبانية قبل ذلك مقسطة على خمس سنين ، بحيث تدفع للكبانية خمس العدد المذكور كل سنة وهو عشرة الاف ابره وتبقى قصبة نزول الكبانية بالطرفاية موقوفة كما كانت قبل وختم فى 10 رجب عام 130. محمد بن محمد غريط لطف الله به .

ولما لم تقبل الشركة هذا العرض بتلك الكيفية حصلت فى ذلك مداولات وتعديلات وانتهت بتلك الشروط الخمسة وبهذه الكيفية فى دفع التعويض التي تسفر عنه هذه الرسالة الثانية وهي : وبعد فقد أطلعت شريف علم مولانا نصره الله بالشروط الخمسة المرقومة اعلاه الواقع الاتفاق بيننا وبينك عليها فى شان شراء حضرته الشريفة زينة المحل المذكور اعلاه فسلمها ايده الله وامضاها كما سلم ايضا شراء تلك الزينة لحضرته العالية بالله من الكبانية المذكورة اعلاه بالخمسين الف ابرة نصفها معجلا ونصفها عند حيازة المخزن للمحل المذكور .

وذلك بعد مضي ستة اشهر اولها شهر شوال وآخرها ربيع الاول ؛ وامرني نصره الله بالكتابة اليك بهذا وبان المخزن له ان يوجه للمحل المذكور من الآن قبل ان يحوزه ، اناسا من قبله . وحيث يريد توجيههم يعلمك لتمكنهم من كتابك لمن هناك من الانجليزيين بقبولهم ؛ وختم فى 16 من رمضان عام 1312 (الامضاء) .

وهكذا حصل الاتفاق على دفع تعويض قدره خمسون الف لبرة بعد ما كانت الشركة تطلب عشرة الاف لبرة فقط ، وقد تاخر الوفد المغربي المشار اليه الى طرفاية حتى فاتح عام 1313 حيث وصل الى طرفاية يوم 10 محرم فوجد باخرة انجليزية فى انتظاره حاملة سائر ما كان للانجليز بهذا المرسى من قوة حربية وعتاد كما اتتهم سفينة « السائدة » وعلى ظهرها وجوه الانجليز الذين كانوا بهذه الناحية اصحاب السلطة والشان فسلموا المرسى الى اصحابه وكان عبارة عن بناية عظيمة داخل البحر محمولة على الاهرية على شكل فندق بطابقين فى اسفله هريان عظيمان لخزن البارود والخرطوش وعلى سطح البناية ركبت ستة مدافع كما كانت بالمرسى قصبة مربعة بها دور ثلاث احداها كبيرة معدة لسكنى رئيس المرسى والثانية صغيرة كان يقيم بها الخائن البشير ابن بيروك الودوني والثالثة تعسكر فيها الحامية الانجليزية على هيئة قشلات من طابق واحد . ووسط القصبة كان يقيم فى خيامهم بعض ضعاف القلوب من العرب المعروفين باسم الافيكات . ولم يترك الانجليز بذلك المرسى الا بعض المدافع والبارود والخرطوش ، ومركبا كبيرا وبعض المؤن مما استغنوا عنه ، اما الشروط السالفة الذكر فكان منها ان يتعهد المغرب بان لايمكن هذه الناحية من دولة اجنبية الا بعد موافقة انجلترا وان تظل الميناء مفتوحة لتجار الانجليز وان تمنح الدولة من اراد ان يقيم بالميناء بقصد التجارة مكانا يقيم فيه بالكراء اقامة يمكن ان تستغرق عشرين سنة ثم يصير ذلك المكان ملكا للدولة . ولما توفى « اب احمد » اختل نظام الدولة وقامت الثورات وانتشرت الحمايات الاجنبية فى المغرب فاستفحل امرها مما جعل المولى عبد العزيز يحاول علاج هذا الداء العضال فبعث

بسفرائه الى عواصم الدول الاروبية ليضع حدا لهذا التدخل المزري بسيادة الدولة فكان من جملة هذه الدول دولة انجلترا التي بعث اليها سفيرا وزير حربيته السيد المهدي بن العربي المنبهي يرافقه مستشاره السيد عبد الرحمن بركاش وكاتبه السيد محمد بوستة ومترجمه السيد الزبير السكيرج التطواني المذكور . فقام هؤلاء بلندن نحو شهر استطاعوا فيه ان يعقدوا معاهدة مع مملكة انجلترا تحتوي على اربعة بنود مذيلة – على عادة الانجليز – ببروتوكول سري تلتزم فيه الدولة بالعمل على مقتضاه ... وكانت هذه البنود في ظاهرها تحتوي على مسائل اصلاحية مثل ان تتولى الشركة الانجليزية بناء القناطر واصلاح ما عطب منها وتشييد المنارات بالموانيء ، كما كان منها بعض المصالح التجارية مثل وسق الحبوب والبطاطة والخضر من مراسي المغرب، واهمها مرسى طنجة .

وفي سنة 1321 زار ملك انجلترا « ادوارد » السابع جبل طارق فأرسل مولاي عبد العزيز الى جبل طارق وفدا مغربيا ينوب عنه في مقابلته وتهنئته بسلامة القدوم ، فقام بذلك باشا فاس القائد عبد الرحمن بن عبد الصادق الريفي . وكانت المقابلة عشية يوم قدومه بقصر حاكم جبل طارق . وما علم « غليوم » امبراطور المانيا بهذه المقابلة التي كان يراقبها كما كان يراقب غيرها من اتصال المغرب بدول اروبا ، حتى اتى بنفسه الى طنجة عام 1323 وصرح فيها بتلك التصريحات الخطيرة التي حملها الاثير الى عواصم اروبا ولكنها ذهبت مع الريح ، كما ذهب غيرها من التصريحات النارية او الكلمات المعسولة .

وبهذا فقد رأينا ان سياسة انجلترا الخارجية كانت تقتضي ان تكون على علاقة طيبة بالمغرب وانه بالرغم من طرد المولى اسماعيل لها من طنجة فقد ظلت على صلة طيبة معه وكانت مصالحها التجارية بالخصوص تفرض عليها أن تساعد المغرب مساعدة ديبلوماسية وهو الغني بماله الثري بخيراته القوي بجنوده .

نعم : كل ذلك كان ولكننا ما وجدنا المغرب ينهزم امام فرنسا في موقعة اسلي تحت قيادة الامير محمد بن عبد الرحمن وما وجدناه كذلك يطلب الصلح من اسبانيا في حرب تطوان وعلى عهد هذا الملك الذي كان محمد بن عبد الرحمن نفسه وما وجدناه يقع في تلك الازمة المالية الخطيرة حتى لاحظنا بعض الفتور في هذه العلاقة وذلك يتجلى من جانب انجلترا في مؤتمر مدريد الذي كانت غاية مولاي الحسن منه ان تلغى الحمايات والامتيازات الاجنبية التي كانت قد فرضت على البلاد وكانت اول شيء فكر فيه مولاي الحسن. وان كان الانجليز انفسهم يقولون انهم وقفوا في هذا المؤتمر بجانب المغرب وان فرنسا تتهم انجلترا بانها واسبانيا كانتا أوعزتا به ، وذلك بعد انهزام فرنسا في حرب بروسيا سنة 1870 . ولكن هذه اقوال الانجليز والفرنسيين . اما الحقيقة التي تطلعنا عليها الوثائق والمستندات التي نشرنا بعضها فهي ان انجلترا كانت تمسك العصى من الوسط – كما قلت – وان اسبانيا حقيقة كانت تساند المغرب في ذلك المؤتمر وكان ممثل المغرب يستشيرها في بعض الاحيان .

وقد انتهينا الى زيارة الملك ادوارد السابع لجبل طارق وزيارة غليوم الثاني لطنجة وتتخلل الزيارتين سنتان كاملتان ، فما حدث في هاتين السنتين ؟

حدث فيهما حدث جلل ذلك انه ما مرت على زيارة ادوارد السابع لجبل طارق ومقابلته مع ممثل المغرب سنة واحدة ، حتى وجدنا انجلترا تتخلى نهائيا عن مساعدة المغرب الديبلوماسية . ففي سنة 1904 كان الاتفاق السري بينها وبين فرنسا على ان تتخلى عن المغرب وان تطلق يد فرنسا فيه مقابل ان تتخلى هذه عما لها من مصالح في مصر استعمارية .

والى القاريء الكريم نص هذا الاتفاق الذي انعقد بين وزيري خارجية الدولتين المسيو دلكاسه واللورد لنسدون :

1 – تعلن حكومة صاحب الجلالة البريطانية انها لاتنوي تعديل حالة مصر السياسية وتعلن الحكومة الفرنسية من جانبها انها لا تتدخل في عمل انجلترا بمصر لا بطلب تحديد اجل الاحتلال البريطاني ولا باية طريقة اخرى وتوافق على مشروع الموسوع الخديوي الملحق بهذه التسوية والمنطوي على الضمانات الضرورية لانقاذ مصالح جملة اسهم الدين المصري بشرط ان لايدخل عليه بعد وضعه موضع التطبيق اي تعديل بدون موافقة الدول الموقعة على اتفاق لندن سنة 1885 ومن المتفق عليه ان الادارة العامة للآثار القديمة في مصر تظل في المستقبل كما كانت في الماضي موكولة الى عالم فرنسي وتظل المدارس الفرنسية في مصر متمتعة بنفس الحرية التي كانت لها في الماضي .

2 – تعلن الحكومة الفرنسية انها لاتنوي ادخال تعديل على حالة المغرب الاقصى السياسية وتعترف حكومة صاحب الجلالة البريطانية من جهتها بانه يعود

الى فرنسا بصفتها دولة مجاورة للمغرب حق الاشراف الواسع انطاق على اقرار الهدوء والسكينة فى هذه البلاد ومساعدتها فى جميع الاصلاحات الادارية والاقتصادية والمالية والعسكرية التي هي فى حاجة اليها وتعلن انها لاتتدخل فى عمل فرنسا من هذه الناحية بشرط ان لايمس هذا العمل ما لها من حقوق فى المغرب الاقصى وهي الحقوق التي نالتها بموجب المعاهدات والاتفاقات والتقاليد بما فى ذلك حق النقل البحري بين الثغور المغربية وهو الحق الذي منح للبواخر الانجليزية فى سنة 1901 (معاهدة المنبهي) .

3 ـ تعلن حكومة صاحب الجلالة البريطانية من جهتها انها تحترم ما لفرنسا من حقوق فى مصر نالتها بموجب المعاهدات والاتفاقات والتقاليد بما فى ذلك حق النقل البحري الممنوح للبواخر الفرنسية بين الثغور المصرية .

4 ـ تعلن الحكومتان المتقدمتان رعاية لمبدا حرية التجارة سواء فى مصر ام فى المغرب الاقصى بانهما لاتوافقان على ادخال اي تعديل يتنافى مع عدم المساواة فى الحقوق الجمركية او الرسوم بما فى ذلك تعريفة النقل فى سكك الحديد وتتمتع تجارة كل امة من الامتين سواء مع مصر او مع المغرب الاقصى بنفس المعاملة التي تعامل بها المؤسسات الفرنسية والانجليزية فى افريقية ويعقد اتفاق بين الحكومتين لتنظيم شروط هذا النقل وتحديد نطاقه وان هذا التعهد المشترك يعتبر لمدة 30 سنة واذا لم يعلن نقضه قبل انتهاء هذه المدة بسنة واحدة على الاقل فانه يجدد لمدة خمس سنوات ، وعلى كل حال فان كلا من الحكومة الجمهورية الفرنسية في المغرب الاقصى والحكومة البريطانية فى مصر تحتفظ لنفسها بالاشراف على امتيازات الطرق وسكك الحديد والمراقىء فتعطى بشروط تصون مصالح الدولة العامة فى هذه المشروعات الكبرى .

5 ـ تعلن حكومة صاحب الجلالة البريطانية انها ستبذل نفوذها لكيلا تكون حالة الموظفين الفرنسيين المستخدمين فى الحكومة المصرية دون حالة الموظفين الانجليز بل يعاملون بنفس المعاملة الحسنة التي يعامل بها هؤلاء وحكومة الجمهورية الفرنسية من جهتها لا تعارض فى تطبيق مثل هذه الشروط على الموظفين الانجليز الذين هم فى خدمة الحكومة المغربية فى الوقت الحاضر .

6 ـ رغبة فى ضمان حرية المرور بقنال السويس تعلن الحكومة البريطانية انها توافق على الشروط الواردة فى معاهدة 29 اكتوبر 1888 وعلى وضعها موضع التطبيق وحيث ان حرية المرور ضمنت على هذا المنوال يعلن تطبيق الجملة الاخيرة من الفقرة الاولى والفقرة الثانية من المادة الثامنة من هذه المعاهدة .

7 ـ رغبة فى ضمان حرية المرور بمضيق جبل طارق فان الحكومتين المتعاقدتين تنشئان حصونا واستحكامات عسكرية فى اجزاء الساحل المغربي من مليلية والمرتفعات على الضفة الشمالية لنهر سبوء وعلى كل فلا يطبق هذا التعهد على النقط التي يحتلها الاسبان الآن فى الضفة المغربية للبحر المتوسط .

8 ـ ان الحكومتين المتعاقدتين الشاعرتين بشعور الصداقة الخالصة نحو اسبانيا تنظران بنظر الاعتبار الى مصالحها المنبعثة عن وضعها الجغرافي وعن ممتلكتها الترابية فى الساحل المغربي على البحر المتوسط وتبلغ الحكومة البريطانية الاتفاق الذي قد يعقد فى هذا الشان بين فرنسا واسبانيا وان الحكومتين المتعاقدتين تتوسلان بوسائلهما الدبلوماسية لتنفيذ الشروط الواردة فى هذه التصريحات على المغرب الاقصى ومصر . باريز 8 ابريل سنة 1904 .

وهكذا حلت فرنسا محل المغرب فى علاقته مع انجلترا وكان الامر قد انتهى كما انتهى فى مصر وكان سيادة البلاد كانت قد خرجت من يد اصحابها وكان الدولة لم يبق لها كيان فى الوجود حتى تفاوض غيرها فيما هو من اختصاصها .

اجل ان المسالة الجوهرية فى الموضوع ان الدولة كانت فى موقفها المالي تشبه فى كثير من الوجوه ماكانت عليه مصر من ذلك الموقف الذي اتى بالاحتلال الانجليزي فانجلترا تدرك تمام الادراك هذه النتائج الضرورية لتلك المقدمات الخطيرة ولهذا فالمغرب من الناحية الشكلية كان دولة مستقلة اما من الناحية الواقعية فكان دولة قد اشترتها الشركات الفرنسية باموالها السخية وكان مدينا لها بتلك الديون ذات الفوائد الباهضة ولا شك ، كما كانت مصر قبيل الاحتلال الانجليزي بتلك الحال سواء بسواء ومن قرا كتاب « تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني » فانه يفهم تمام الفهم ، ولا يستغرب مطلقا ، موقف انجلترا آنذاك من المغرب وما اقدمت عليه من هذه المقايضة مع فرنسا والمثل يقول « النصارى ماشي غشام » .

اذن فما هي الاسباب التي بها تخلت انجلترا عن المغرب لفرنسا ؟ اسباب هذا التخلي كثيرة وليست

سببا واحدا كما يذكر المؤرخون ، وهو « اتركي لي مصر اترك لك المغرب » . حقيقة ان النتيجة هكذا كانت وان الاسباب تجمعت اخيرا في ذلك السبب الاخير ، ولكن لننظر الى الاسباب البعيدة ولنكن في انظارنا بعيدين حتى ندرك الآفاق الانجليزية البعيدة النظر ، فنجد ان هذه العلاقة كانت لابد ان تعثر من ذات نفسها ثم لفظ النفس الاخير في النهاية ...

كانت الحروب الاروبية اولا واخيرا مما يجعل انجلترا تتشبث بصداقة المغرب حتى تأمن خطر هذا الشاطيء — على الاقل — . ولقد وجدنا هذه الخطة تستغل حتى في الحرب العالمية الاخيرة — كما هو معلوم — . وكان مما زاد انجلترا تشبثا بصداقة المغرب ما كانت عليه في حصار جبل طارق ، وكان المغرب يحسب له الف حساب . اما الآن فليس هناك حرب اروبية وانما هناك حرب انجلترا مع «البوير»، وهي حرب ذاقت انجلترا المر فيها واستنزفت خزينة دولتها ، كما اضعفت سياستها الداخلية . وما تنتهي هذه الحرب في اوائل القرن العشرين ، حتى تريد انجلترا ان تلم شعثها وان تصفي حسابها وتقلل من مشاكلها وذلك ما وجدناه تتخذه كذلك عند نهاية هذه الحرب العالمية الاخيرة .

ثم ان اتجاه انجلترا كان الآن بكليته نحو الشرق حيث الهند بذهبه وثرائه الواسع . وكان هذا الاتجاه نفسه باديء ذي بدء يفرض عليها ان تكون علاقة صداقة متينة مع المغرب لسلامة جبل طارق ، ولكن الآن قد خلص والحمد لله جبل طارق لها وعقدت معاهدة صلح بينها وبين اسبانيا مكنت انجلترا في جبلها فتمكنت منه هذه تمام التمكن فيما بعد ، فصارت صداقة المغرب من هذه الناحية بالخصوص ليست جوهرية ، خصوصا وان هذا المغرب قد برهن على ضعفه في حربين متواليين ، وانه ما استطاع ان يستفيد حتى من تلك البعثات التي كان من بينها من درس في مدارسها الحربية . كما مني هذا المغرب بعجز فاضح فادح في خزينة دولته ، مما جعل المصلحة التجارية ايضا قليلة الجدوى للانجليز .

صحيح ان اتجاه انجلترا الى الشرق كان قديما وان نشاط هذه الدولة حول ما كان يسمى « المسالة الشرقية » كان مرموقا من باقي الدول مثل روسيا وفرنسا . ولكن الآن الوضع غير الوضع ، فاتجاه انجلترا الى الشرق صار اتجاه الرجل الى بيته ، ولم يبق كما كان اتجاه المحارب الى ميدان القتال ...

لقد انتصرت انجلترا على الباب العالي كما انتصرت على فرنسا في المسالة الشرقية ثم حطمت اسطول نابليون على الشواطيء المصرية في معركة « ابرقير » ، فدفعت الخطر الفرنسي عن الشرق لتعود هي اليه بعد حين ، فتدفع عن مصر شبح الباب العالي، ثم تزيح عن مصر سيادة ابناء محمد علي الذي كانت بالامس القريب تساعده ضد فرنسا ثم تركيا ، لقد قبضت انجلترا على مصر قبضة قوية ولكن حتى الآن ما زالت فرنسا تحاول ان تفرق اصابعها في هذه القبضة وما زالت تنازعها مصالحها في مصر وكانت انجلترا لا تهتم بذلك اول الامر ، اما الآن فهي على ما هي عليه، فلا بد ان تخلص حسابها مع فرنسا وليكن ذلك بطريقة انجليزية ماهرة ، اذن لتضايق فرنسا في مستعمراتها بالشمال الافريقي ولتضايقها كذلك في سياستها مع المغرب ، تضايقها بهذه المعاهدات التي كانت عبارة عن مجاملات ، او ان كنت عربيا قحا فقل فيها ذلك المثل العربي « اسمع جعجعة ولا ارى طحنا » وكانت آخر المعاهدات تلك التي حملها الى المغرب وزير حربيته السيد المنبهي — فاغتاظت منها فرنسا ومن ذيولها — ثم برجلين انجليزين تبعث بهما الى بلاط مولاي عبد العزيز فهذا يعلم الجيش المغربي ويمرنه على الاساليب العسكرية (الشكلية) وهو Sir MacLean وآخر وهو Walter Harris وكان داهية من دواهي السياسة ومراسل لجريدة « التيمس » فهذان الرجلان كانت انجلترا تعرقل بهما مصالح فرنسا في البلاط العزيزي كما كانت تعرقل بهما مصالح اسبانيا كذلك لتصل الى تلك المساومة ثم ذلك الاتفاق السالف الذكر . ومن عجيب الصدف ان يكون «هاريس» هذا يحمل اسمين كان المغرب يعرفهما في رجال الانجليز الذين كانوا به على اتصال وهما ووتراستون وجون هاريسون .

والنتيجة التي تصل اليهما الدولتان هي مصر لانجلترا والمغرب لفرنسا ، كما تقدم ولا بد ان المولى عبد العزيز قدعلم بهذا الاتفاق ولو انه حتى الآن ما زال يسامر هذين الانجليزيين . ولابد ان المانيا كانت بالمرصاد ولهذا وجدنا غليومها الثاني يؤم طنجة بعد سنة من هذا الاتفاق ويصرح تصريحه الخطير .

طويت صفحة المولى عبد العزيز ونشرت صفحة المولى عبد الحفيظ واذا بكل شيء قد تم بين الدول الطامعة ، تم كل شيء بين فرنسا واسبانيا وايطاليا وانجلترا ولم يبق هناك الا المانيا التي كانت ابتدات مساومتها كذلك مع فرنسا في نفس السنة التي زار

فيها غليوم طنجة ، اذن فلابد ان ترضى هذه بنصيب من مستعمرة « الكونغو » ولا بد ان يكون لها من الامتيازات بافريقيا السوداء ما لغيرها من باقي الدول ، وهكذا يكون اتفاق بين فرنسا والمانيا سنة 1911 وتهدأ العاصفة بينهما وتنطلق البارجة Panthe: الى شاطيء اكادير ولكن انجلترا تظل من جديد محاولة ان تقف في وجه المطامع الالمانية بافريقية ومدافعة عن ميثاق الجزيرة الذي خنقت فيه الدولة المغربية لاول مرة سنة 1906 وكانت انجلترا من جملة الدول التي شاركت فيه .

فلنرجع الى المولى عبد الحفيظ فنراه ما بويع سنة 1907 حتى كتب الى معتمدي الدول الاوروبية بطنجة ومنهم معتمد انجلترا بما يلي :

انه نظرا الى التقصير الذي بدا من السلطان ومخزنه في فاس فقد ارتأت الرعية كما يفرضه عليها الشرع وتقضي به السنة المحمدية ان تنادي بي سلطانا على جميع المغرب الاقصى الامر الذي ارجو من السفراء ابلاغه الى دولهم لقضاء جميع علاقاتها مع حكومتي وحدها .

ثم طلب من الدول ان تظل على الحياد في النضال الدائر بينه وبين اخيه حتى اذا استقام الامر لاحدهما عمل على اصلاح البلاد وانهاء المسائل الدولية الخاصة والمختلطة .

وعلى الاثر ارسل وفدا لزيارة عواصم الدول الاوروبية التي كان على راسها انجلترا سعيا للاعتراف به وما وصل الوفد الى (Plymouth) يوم 11 اكتوبر سنة 1907 ثم سافر الى لندن حتى اعلنت وزارة الخارجية البريطانية انها غير مستعدة لاستقباله لعدم وجود صفة شرعية له . وكيف يكون ذلك وقد سبق من انجلترا ما سبق من الاتفاق مع فرنسا ؟

ثم عاود هذه المحاولة مرة اخرى سنة 1909 ولكنه لم يفلح فيها ، فأرسل الى معتمدي الدول الآنفة الذكر البلاغ الآتي :

انني اخاطبكم الآن باسم الشعب المغربي الذي يتالم بما حل ببيوته من الخراب والافات وما اصاب اهله وذويه من الرزايا والنكبات فهو يتالم لان ما مني به لاينطبق على قواعد العدل في العالم كله ولا على المعاهدات الدولية المعروفة وهو لم يعامل الاوروبيين بالعسف والجور ولا فسح لدولة من الدول مجالا للتعرض لشؤوننا .

فانا اوجه انظاركم الان الى هذه الضربة الهائلة التي يشكو الشعب المغربي منها معولا في انصافه على ما اشتهر عنكم من حرية الضمير واحترامكم للحقيقة ولعمري لا ادري كيف يسعكم السكوت عما حدث في هذه البلاد ولا يزال يحدث حتى الآن فان ابناء قومكم استوطنوا بين ظهرانينا وشاركونا في تجارة بلادنا فصادقناهم ومددنا ايدينا الى مصافحتهم لاعتقادنا انهم لايقصدون اغتصاب اراضينا وقد عاملناهم على موجب ما تقضي به معاهدة مدريد الحاوية لشروط سكناهم في المغرب ولم نجحف بشيء من حقوقهم .

قد سمعتم بما شاع من المناداة بالجهاد وانا اقول لكم ان الغرض من هذه المناداة لم يكن الا لتسكين ما جاش في نفوس المغاربة من السخط على الاجانب لانهم اغتصبوا ارضنا واحتلوا بلادنا وحاولوا ازالة ما نحترمه من تقاليدنا وعاداتنا على ان جل ما اشتهيه هو اعادة الراحة لشعبي وحملهم على اجتناب الفتن والحروب ان مقصد الجنود الذين يحتلون الدار البيضاء بدعوى نشر السلام وحماية الاجانب هو مقصدي وغايتهم هو منتهى املي لان الواجب يقضي علي باعادة مياه السكينة الى مجاريها في انحاء المغرب كله وبعبارة اخرى انني مسؤول بحماية المسلمين والاجانب معا والذود عن املاكهم والدفاع عن ارواحهم فانا لا اطلب الا ان يجري العدل في مجراه فتومر تلك الجنود بالجلاء عن الدار البيضاء وتغادرها لاصحابها الشرعيين الذين توارثوها عن الاباء والاجداد . فاذا جلوا عنها فلا يخشى من حدوث فتنة او نشوب حرب على الاطلاق واذا اصروا على البقاء فيها فأؤكد لكم ان السلام ضرب من المستحيل .

وقد راقبتم مجرى الاحوال مدة ستة اشهر فهل قابلتم في اثنائها بين الدار البيضاء وغيرها من المدن التي لم يتعرض الاوروبيون لها ولا احتلوا ارضها ؟ اولم تروا ان الاجانب والوطنيين في هذه المدن على سلام ووئام بخلاف ما ترونهم عليه في الدار البيضاء وجوارها فالشعب المغربي لايروقه ذلك الاحتلال ولا يرضى بتلك المعاملة وكل عاقل في الامة الفرنسية مدرك هذه الحقيقة ولكنه لا يستطيع معالجة هذا الداء .

اما الفرنسيون الذين يتهموننا باننا نكره الاوروبيين فاقوالهم زور وبهتان لان اعمالنا تشهد باننا لسنا كما

يقول هؤلاء المرجفون الذين يلفقون احاديث ويذيعون اشاعات لا تخرج عن الوساوس والاوهام .

فانا اسألكم الآن سؤالا واؤمل ان تجيبوني عليه جوابا صريحا وهو اي قانون دولي مختلط يخول التدخل بالسلاح بين الامة المغربية وسلطانها الذي خلعته عن العرش ؟ هذا هو سؤالي ولا شك ان جوابكم عليه سيكون مقرونا بالنظر الدقيق في معنى العدل واصوله ...

هذا البلاغ الذي بعث به مولاي عبد الحفيظ الى ممثلي الدول كان يشير الى تلك الاضطرابات التي وقعت في الدار البيضاء ويحمل الدول الاروبية نتائجها

ذلك انه في سنة 1907 وهي السنة التي بويع فيها المولى عبد الحفيظ لاول مرة كانت قد رست بميناء الدار البيضاء بارجة فرنسية حاملة لبعض الفرق الحربية بدعوى حراسة القنصلية الفرنسية ، ولكن هذه الفرقة ما نزلت الى الشاطىء حتى صارت توجه افواه بنادقها الى السكان ثم عززتها بارجة اخرى اتت بجنود انزلتهم الى المدينة فصاروا يقتلون كل من يجدون في طريقهم واحتلوا الدور والسطوح ولم يقفوا عند حماية القنصلية الفرنسية كما يزعمون وانما قاموا بحماية قنصليات اخرى وعلى راس هذه القنصلية الانجليزية بالطبع ... ولم تكتف البارجتان بذلك بل صارتا تقذفان بحممها الى المدينة الوادعة فتدمران الدور وتفتكان بالسكان .

ثم تم الاتفاق بين ممثلي الدول وعلى راسها فرنسا وانجلترا بان يتجاهلوا هذا الانقلاب حتى تنفذ المطالب الاروبية من جانب السلطان وهي مطالب تمثل في شخص فرنسا . ولكن المانيا خالفت فيما بعد وامرت معتمدها في طنجة « الهر فاسل » بان يسافر الى فاس ويحمل اعتراف المانيا بالمولى عبد الحفيظ .

واخيرا اذعن السلطان الى شروط فرنسا فوفدت عليه وفود الدول الاروبية ومنها انجلترا فكان يستقبلها في قصره استقبالا حسنا بعدما كانت فرنسا تقوم بحماية قنصلية انجلترا وغيرها في الدار البيضاء بتلك الحملة الوحشية التي سلف ذكرها .

وقد علمنا انه من سنة 1905 الى سنة 1911 والمفاوضات بين فرنسا والمانيا تبرم حول المغرب واخيرا كان الاتفاق الذي يحتوي على 9 فصول تنازلت فرنسا بموجبه لالمانيا عن قسم من الكونغو فوافقت على ذلك ــ مع تردد ــ انجلترا بعد ايطاليا وروسيا وذلك كله مقابل الاعتراف لفرنسا بكامل الحقوق في المغرب وعدم منازعتها في شيء منه كما حصل ذلك من انجلترا سنة 1904 .

ولما تم عقد معاهدة الحماية سنة 1912 ابلغت فرنسا الدول التي كانت قد اشتركت في مؤتمر الجزيرة بذلك فاسرعت انجلترا الى المصادقة وتاخرت اميركا حتى سنة 1917 من جراء التحالف مع فرنسا في الحرب العظمى .

وبعد فيهمنا ان نبحث عن علاقة الانجليز مع المغرب انذاك ، وطبعا ان هذه العلاقة كانت قد ماتت موتتها الاولى والاخيرة في ذلك الاتفاق الانجليزي الفرنسي سنة 1904 وانه من العبث ان نتعب انفسنا بعد ذلك في البحث عن هذه العلاقة اللهم الا ما كان من تلك البلاغات التي كان يوجهها المولى عبد الحفيظ الى ممثلي الدول بطنجة ومنهم ممثل انجلترا والا ما كان من ذينك الوفدين اللذين توجها الى لندن والا ما كان من تلك المقابلات الباردة او الفاترة في قصر السلطان، تلك المقابلات التي كانت عبارة عن عيادة محتضر ينتظر ان يلفظ نفسه الاخير في الفينة بعد الفينة فاذا ما مس نبضه الخائر مس ليعلم به الدقائق والثواني المحسوبة له ، ولا امل بل لا رغبة في شفائه حتى يعالج .

اما ذانك الانجليزيان اللذان كانا من ندماء المولى عبد العزيز فان احدهما وهو « هاريز » ظل بالمغرب حتى بعد تمزيق سيادته وفرض الحماية الاجنبية عليه فلقد اختار الاقامة بطنجة وصار يداعب هذه الدولة وتلك وهو متمتع بنفوذ يخشى شره حتى ممثلو دولته في المغرب ثم هو يلعب بورقته مع اسبانيا في الحرب الريفية . ولعله كان عاملا مهما في تلك المساعدة الحربية الانجليزية كما يقال . لهذا نجده يسعى سعيا حثيثا الى « كستيخو » ليقوم بفروض التهنئة لملك اسبانيا الفونس الثالث عشر الذي زار المغرب بعد انتصار حملاته التي وجهها على الريف والجبال .

هنا نجد « هاريز » يحظى بتلك المقابلة الطويلة ويخرج من حضرة الملك وينقلب مسرورا وهو يحمل بيده اليمنى حقا ذهبيا لايعلم ما في داخله الا الله واصحابه . وكان هذا الحق عصى سحرية حيث ارضت هاريس على حين ان كان يشعر ببعض السخط فخاصم من اجل هذه الهدية من كان معه من الاصدقاء رفيقا حين داعبه بما يسخط الاسبان . وكان «هاريز» هذا يكتب كل شيء عن المغرب وقصوره ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ...

اذن فقد انتهى – كما سلف – دور العلاقة بين انجلترا والمغرب في سنة 1904 كدولتين مستقلتين ووضعت مقاليد البلاد فيما بعد بيد فرنسا التي تواطأت انجلترا معها في ذلك وبيد اسبانيا التي حاولت انجلترا في الحرب الريفية أن تساعدها – كما يقال – ببعض الاساطيل خوفا من ان تطول الحرب ويتعرض جبل طارق الى ما يمس بسلامته .

وفي العقد الثالث من القرن العشرين يكون الاتفاق بينها وبين فرنسا واسبانيا في باريس لتوزيع كراسي الحكم بطنجة ومناصب القضاء الاجنبي بها فيكون من الانجليز خليفة للمندوب المغربي كما يكون من بينهم ثلاثة قضاة في المحكمة المختلطة .

وهكذا وجدنا انجلترا اتخذت المغرب وراءها ظهريا مقابل مصالح عملية واقعية تستفيد منها . ومن درس عقلية الانجليز فانه لايستغرب هذا من ساستهم فالانجليز واقعيون قبل كل شيء وفي كل شيء .

واقعيون في سياستهم يستفيدون من اناس حالما تكون الحال تسمح بهذه الاستفادة ويخاصمونهم حالما تكون الحال تقتضي هذه المخاصمة .

نراهم يخاصمون الباب العالي حينما كانت فرنسا بجانبه تؤيده ثم يصافحون الباب العالي ويساعدون قواده لاخراج الفرنسيين من مصر ثم يعضدون أولئك القواد وقد استبدوا بمصر وكانوا ضد الباب العالي ثم يحتلون مصر كما يحتلون السودان . ويخاصمون المهدي ويحاربونه حربا لا هوادة فيها ثم لا يلبثون أن يصادقوا هذه العائلة ويستغلوها ضد الوحدة مع مصر ويوعزون بقيام الثورة العربية ويصادقون الملك حسينا ولكنهم فيما بعد يصادقون خصومه ويلقون به في بارجة حربية حيث يجد منفاه بمالطة .

وتاتي الحرب العالمية الاخيرة ولا يكونون في اولها على اتصال صديق بروسيا وما تقع هذه في حرب مع المانيا حتى يخطب في البرلمان رئيس وزرائهم ويعبر عن السياسة الانجليزية تعبيرا صادقا بقوله : « انني لا اتاخر عن وضع يدي بيد الشيطان اذا ما كانت هناك مصلحة » . وينتصرون وينتصر معهم « الشيطان » ولكنهم يخاصمونه فيما بعد ويصادقون عدوهم المشترك .

ويساعدون على انشاء الجامعة العربية ثم يخاصمونها ويكونون على اتفاق مع العرب في ان يخلفوهم اخيرا في فلسطين ولكنهم لايخرجون من فلسطين حتى يدربوا اليهود وحتى يتركوا في فلسطين ذخيرة حربية حارب بها اليهود العرب بدعوى انهم استغنوا عنها فتركوها . ويقفون في مجلس الامن اولا بجانب العرب ولكنهم لم يلبثوا حتى اعترفوا باسرائيل واخذوا بيدها .

وفي هذا الحرب نفسها وقد كانوا على صداقة تقليدية مع البرتغال تجدهم يضعون بالرغم من كل ذلك ايديهم على مستعمراتها بالشرق لان المصلحة اقتضت ذلك ولو غضب الاصدقاء ، وملأوا الدنيا احتجاجا . وقبل ما كان ضلعهم مع الجمهوريين في الثورة الاسبانية ، ولكن ذلك لايمنع في الحين أن تكون لهم علاقة تجارية مع « الثوار » وان يشحنوا الحديد من « بلباو » وقد وقعت في ايديهم ، اي هؤلاء الثوار . . .

كما كانوا من قبل في شبه حرب مع الاسبان ومع هذا فلا يمنعهم ذلك من التفاوض معهم في مسالة غارة هؤلاء على الدولة المغربية التي كانوا بواسطة ممثلهم بطنجة يبدون النصح لها .

وهكذا قل في مئات المواقف السياسية الانجليزية والاتها فانك لن تجد فيها الا المصلحة تلمع لهم فلا يحجمون عن الاستفادة منها ولو ضربوا بالمثل العليا عرض الحائط فالانجليز هؤلاء هم الذين اعتنقوا المذهب « الميكافيلي » الايطالي وهم الذين اتبعوا حرفيا مبدا « الغاية تبرر الواسطة » بل هم الذين اخضعوا تفكيرهم الفلسفي للواقع فعملوا في الفلسفة بالمذهب التجريبي وكانوا سادة فيه ومقررين لاصوله . وهم في الحقيقة الذين خلقوا المذهب الجديد الذي تبناه في الفلسفة

وليم جمس (William James) الاميركي : مذهب الذرائع « البراكماتزم » . ولو ان صاحبه يقول انه اسسه (على قواعد قديمة واشتات متفرقة) ، ولكننا نلاحظ فلاسفة الانجليز وعلى راسهم (Spencer) قد عملوا على تاسيس هذا المذهب . بل انهم حتى في عقيدتهم المسيحية حاولوا ان يكونوا واقعيين فكانوا حماة المذهب « البرتستنتي » وعنهم شاع في اميركا الشمالية .

فالانجليز في مصالحهم وما تفرض عليهم الحياة الصارمة يتركون القلب جانبا ولا يعرفون من الحب الا ما تمشى مع المصلحة ومنهم سمعنا تلك الكلمة التي تقول : « الحب داء العقل» «Love is sikness of mind»

تطوان : محمد بن تاويت



منذ تاسست هذه الدولة الكريمة المجتدة وهي سائرة سيرها الطبيعي المطرد على الخطة التي رسمها لها مؤسسوها .. وبطبيعة الحال فان هذه الصفحة التي اكتبها في الموضوع تكون مقصورة على **الملوك الثلاثة الامجاد الذين تشرفت بخدمتهم ومجالستهم : مولاي يوسف ونجله محمد الخامس الذي ترك الناس حيارى في التمييز بين هذين اللغزين :** هل شمس وجوده وهي طالعة ، اشد ضياء ام شفقها بعد غروبها الذي بقي يتلالا غرة ومجدا لا تبليهما الايام ، **ثم الحفيد صاحب الجلالة الملك الحالي الحسن الثاني الذي اصدق ما يدعو له به الداعي ان يحفظه للوطن وان يحفظ لسانه للاسلام .**

1) الملك الاول مولانا يوسف :

ساقتني فاتحة الالطاف الى المثول بين يديه في عام 1921 فكان اول ما سمعته منه قدس الله روحه : قيل لي انك تحفظ القرآن ، فاجبت : نعم ، فاني من بلاد هي مهد الزاوية التجانية الذائعة الصيت ، والزاوية في عموم القطر الجزائري لا تعقل بدون قرآن، فهش في وجهي وابتسم ابتسامة خفيفة ، وبعد ان القى علي بعض الاسئلة في القرآن قال لي ما لفظه باللغة الدارجة : (الله فين كنت انت ديالنا واحنا ديالك) .

فبقيت من ذلك التاريخ ادخل لديه بصفة مترجم صحبة خليفة المستشار المسيو « مرشا » الذي اختارني للترجمة عنه لانه كان بصدد ترجمة الرسائل المخزنية ويتوقف علي دائما .

مما لفت نظري بوجه خاص اثناء مزاولة الاشغال انه رحمه الله جعل رائده العام في علاقته مع القوم تغليب جانب الملاطفة واللين كانه يصب كمية من النار على خمرهم ليكسر من حدتها يظهر ذلك من الابتسامات اللطاف التي تلوح منه من حين لاخر هذه حاله ما دامت الامور جارية جريها العادي حتى اذا مست بما هو من كيان الاسلام كالقضاء ورجاله ورجال العلم او واحد من كبار العمال ، فهناك نرى منه وجها غير الذي عهدناه

واستمرت الحال هكذا بين زعزع ورخاء وشدة ورخاء، الى عام 25 وحرب الريف اذ ذاك قائمة على ساق في هذه الحادثة تجلى للعيان طابع الوراثة في جلالته في كمال استدارته وشرح الحال باختصار :

ان الاقامة العامة على انتهاز الفرصة للدخول في حرب الريف لتقتطع لنفسها طرفا مما يسمى منطقة الشمال فقالت للخطابي : انت في حرب مع اسبانيا ومن المحتمل ان يستطير شررها للمنطقة المجاورة لذلك نطلب منك ان تساعدنا على انشاء بعض التحصينات على ضفة ورغة الموالية لكم تكون كغطاء لنا ، فامتنع الخطابي من قبول هذا الاقتراح ورد عليه بعبارات كانها شرح للمثل العربي : « العبد ان اطعمته الذراع طمع في الكراع » . قرات في احدى الرسائل التي ترجمتها وفي الاثناء انهزم الجنرال الاسباني سلفستر ودخلت فرنسا للحرب كان الظن عند رجال الاقامة العامة ان الحرب تخمد نارها على فور اشهار الحرب من طرف فرنسا وغاب عنهم قول القائل :

يا من يحدث ان الحرب قد خمدت
نيرانها لا تصدق كل مبتدع
فما المدافع في الدنيا بساكتة
ما دام في كل نفس قائد الطمع

وفعلا اتسعت دائرة الحرب واشتد اوارها واصبحت طلائع جيش الخطابي تقترب من ضواحي فاس وانقطع طريق القطار بين المغرب والجزائر في ناحية تازة يشهد لصدق هذا وصحته في الجملة ان احد كبار ضباط الفرنسيين قال للاخ السيد المعمري وكنا في مكتب واحد بقرب مكتب المستشار مارك : « لا ندري انحن نحارب في الريف رجالا امثالنا ام نحارب العفاريت **بهذا اللفظ** عندما نعتقد اننا هزمناهم ونتهيا للسير الى الامام اذا بالبنادق تتكلم من ورائنا وعن يميننا وشمالنا من وراء كل اكمة ،

ساعد على ذلك طبيعة البلاد الجبلية ، بينما الحرب تدور رحاها بين الشعاب والجبال رات فرنسا ان الموقف موقف جد فاوفدت مندوبا عنها في شخصية الجنرال بيتان وهو لا زال اذ ذاك لم يصل لرتبة مشير .

توقعا لوصوله اعتزمت الاقامة العامة على تدبير خطة احتياط لتغطية خيبتها وبيان ذلك ان المستشار كلفني بمرافقة نائبه المسيو مارشا والذهاب الى جلالة السلطان لنلتمس منه ان لا يحرك المسائل السياسية مع مبعوث الدولة بيتان وليقتصر ان سئل عن شيء من هذا القبيل على الجواب بان له ادارات خصوصية في هذا الشأن .

وفعلا ذهبت انا ونائب المستشار ودخلنا لقبة الاقتبال ، فشرحت القضية لجلالة السلطان وبينت له ما تلتمسه منه الاقامة العامة وهو ان لا يحرك مسالة سياسية مع مبعوث باريز . **ماذا كان الجواب ؟ .**

التفت الي وقال لي : **قل للمسيو مارشا هذا موش كلام ،** غاية ما يمكن لي ان اساعد عليه هو ان لا نبدا انا الاول بالكلام في السياسة ، ولكن اذا سألني عن شيء من هذا القبيل التروغ ليس من شان الملوك لابد ان اجيبه بما عندي ــ . امام هذا الجواب المسكت لم يسع خليفة المستشار الا قبوله ، ثم بادر الى الهاتف لاعلام الاقامة فسلمته هي ايضا ونزلت على حكم الواقع، وفي المساء رجعنا للميعاد المعين لمبعوث باريز فاجتمعنا به امام الملك فاخذ من حيثه يسأل بوجه عام عن العلائق بين الجالية الفرنسية واهل البلاد ومصارفة المراقبين وغيرهم من الولاة للسكان فاجابه الجناب العالي بان الامور لا باس بها في الجملة ثم فتح (بيتان) الكلام الذي جاء لاجله فقال : ان التقارير التي ترد على حكومة باريز في قضية حرب الريف غير مقنعة لذلك اوفدتني لاستقي الحقيقة من المنبع من جلالة السلطان، فاجاب رحمه الله على البديهة بما لفظه : « ابن عبد الكريم احنا فتشنا فيه حاول المفاهمة مع الاقامة مرارا، وارسل نوابا عنه حاملين لرسائل ، ولكن ادارة الاستعلامات لم تقتبلهم ، وتردهم على اعقابهم على لسان القبطان شستوني هذا الذي في علمي ، وهذا الذي اتيقنه ، ثم زاد يقول : **« ان سياسة فرنسا لا تعجبني جاءت على خلاف ما كنت اظن ...** كان في نيتي ان المغرب بلاد خصبة ، فيها الانهار والمياه كثيرة وانتم معشر الفرنسيين لكم خبرة بالفلاحة ، وعندكم الالات العصرية ما ليس عندنا كان في الظن ان تصرفوا عنايتكم الى الارض الموات ، وباما اكثر البور عندنا فاذا بالادارة تعمد الى الاراضي التي طوعها اهلها منذ زمان يحرثونها ابا عن جد فتنتزعها من الاهالي وتدفعها للمعمرين ، فكيف يحبكم اهل البلاد واكثر من هذا بلغني ان اراضي في دكالة وعبدة بها قبور اجداد اهلها انتزعت منهم » . فالتفت الي بيتان وقال لي : قدم تشكراتي مع احترامي لجلالة السلطان على هذه الثقة التي منحني ، وقابلني بها ، واكد لجلالته اني سأكون ترجمانه الامين لدى حكومتي ، وقل له : ان ما اخبرني به هو الذي اعتقده انا منذ زمان لان الغالب من المعمرين هم شتات من حوض البحر المتوسط من اسبانيين ويونانيين ومالطيين وايطاليين لا يبالون بسمعة فرنسا ارتفعت او انخفضت الذي يهمهم ويشغل بالهم هو تعمير جيوبهم وملفاتهم جميعا عندنا بباريز وحتى المعمرين الفرنسيين فيهم وفيهم ، على هذا الحوار تفرق الجمع وطلب بيتان الخروج وودع جلالة الملك ، اليس في الجواب الذي اجيبت به الاقامة العامة في البداية واجيب به بيتان في النهاية ما يتلمح فيه المؤرخ ميزة الملك وصدق لهجته .

انتقل الصولجان من بعده الى نجله الابر محمد الخامس الذي سبق لي في هذا المقال ان لقبته **طالوت وآية ملكه** ميل شمس الاستعمار الى جهة الغروب هذا أصدق تعريف يسجله التاريخ .

لاحت لي بوادر يوم كنت استاذا له ، وان نفحة من العناية عينته للوراثة وشرح الحال باختصار : اني تشرفت بمرافقة الموكب الملكي عام 1926 الى عاصمة الجنوب مراكش ، العام الذي زوج فيه الملك السالف الذكر انجاله الامراء ومن بينهم سيدي محمد خرجنا من الرباط في منتصف الليل في سيارة الحاجب فركب الحاجب الى جانب السائق وركبت انا مع الاميرين مولاي الحسن سيدي بابا وسيدي محمد في وسط السيارة ، عندما جاوزنا الصخيرات التفت الي الحاجب وقال لي : طريق مراكش طويل والليل طويل اسمعونا شيئا من القرآن ، فافتتحنا القراءة من سورة آل عمران الى ان وصلنا الى آخر سورة النساء فلاحظت في سيدي محمد دوام التيقظ عند الوصول للايات المتشابهة كانه لا يرضى ان تلوح علامة ضعف في حفظه تلكم كانت حاله طول التلاوة ، ويشبه هذا ما كنت شاهدته منه اثناء الدروس ، فكان من معه من الامراء تظهر منهم المجازفة والمبالغة في وصف الاشياء ورواية الاخبار وكان دائما يرد الاشياء الى نصابها ، فتبين لي انها غريزة فيه ، وقلت في نفسي : في ظل هذا النجل يجد الملك مقيله وبعد جلوسه على العرش وعقد البيعة له في فاس ولسان حال المستشار النائب على الاقامة يقول اغمض عيني

على القذى معناه ان استاذ الملك لسيدي محمد كان قذى في عينيه، **«وربك يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة »** ، اقول بعد جلوسه على العرش باعوام قلائل عهد الي اعطاء دروس للاهل داخل القصر بعد ان افضى الي بهذا السر : « الفقيه عندي كلام نقوله لك على سبيل السر » الحبل اخذ يضطرب مع القوم ، احس من نفسي اني من عدوة وهم من عدوة اخرى والاتفاق معهم ان لم يكن مستحيلا فهو بعيد وصعب ، وكلما وقع سوء تفاهم بيني وبينهم يتغير الجو في القصر تستولي الحيرة والهم على الاهل فاطلب منك ان تقرا معهم ما فيه تقوية لايمانهم وثقتهم في الله بالعربية او الفرنسية تلتمس ذلك من كتب السيرة وكتب التاريخ الفرنسية ، الزمان في تطور والاحوال الى تبديل وستجد فيهم من يعاونك ويسهل عليك الامر لان فيهم من يحفظ الكثير من القرآن .

فشرعت في العمل وكان سبقني في هذه المهمة المرحوم السيد اقصبي بصفة مدرس في العبادات ومن ذلك الحين وانا ارى منه من حين لاخر ما ينم على شيء وقر في صدره وهو اشتغال باله بالاسلام ومصيره من ذلك انه جاءني يوما في اثناء الدرس عام 1948 وقال لي : « الفقيه الفرنسيون يعملون عملهم في الجزائر يخدمون مصلحتهم ونحن ايضا نخدم مصلحتنا عندكم في الجزائر جمعية العلماء تقاوم على قدر جهدها وحالها ، **ثم ناولني غشاء يحتوي على تبرع جزيل وطلب مني تبليغه للجمعية اعانة لها وهذا التبرع تكرر منه مرارا فيما بعد** ، ثم زودني قدس الله روحه وبدل سيآته حسنات بورقة حمراء على اني من حاشية القصر كنت اسافر بها مجانا في القطار ويرحم الله القائل : « من كان في عمل الله كان الله في عمله » فكنت كلما اخرجتها في محطة وجدة لرجال الامن والديوانة صحبة الجواز عجلوا الاشارة الي بالمرور من غير تفتيش لما يلوح على الورقة من الهيبة .

ومن غريب الاتفاق انني يوم سافرت في الموكب الملكي مع الجناب العالي بالله مولاي الحسن كان الذي صلى بنا الجمعة الاولى هو السيد عبد اللطيف القنطري امام جامع كتشاوة الذي كانت الحكومة حولته كنيسة ثم انقلبت موجة الزمان ورده الاستقلال جامعا كما كان وهذا الامام هو الذي كان يدفع الي التوصيلات عند قبض التبرعات في مركز الجمعية وبحضور مديرها المرحوم السيد العربي التبسي ، هنا محل لذكر نكتة لها قيمتها بعد تمام الصلاة ، قمت الى الامام وقدمته لجلالة الملك ، وقلت مولاي هذا الذي صلى بنا هو الذي كان يدفع الي التوصيل عند قبض التبرعات ها نحن اليوم ادخلنا تلك التبرعات للمحافظة الالهية في محراب اعظم المساجد والظن في الله ان يبدل سبحانه السيآت حسنات اليس في هذا اقوى دليل على ان الغائب العزيز كان يشغل باله مستقبل الاسلام ومصيره وهذا في وقت لا ذكر فيه للاستقلال وابعد شيء تصور امكانه في الجزائر ولكن الملوك نظرتهم على نسبة مسؤوليتهم ينظرون الى النهايات ، والنهايات هي بيد الله ، « واليه يرجع الامر كله » « الا الى الله تصير الامور » ان الخالق اعطى للمخلوق البدايات واستأثر بالنهايات .

وصلت الان بك ايها القارىء الكريم الى ميقات حجة الاستقلال ، وشرح الحال على قدر ما يسع المقام: في عام 1951 ظنت الاقامة العامة ان عهد الحماية نضجت ثماره وحان قطافها معناه في نظرها ان الجالية الفرنسية يحق لها ان تقاسم اهل الوطن في الجنسية المغربية وانه من الحط من قدرهم ان يعتبروا اجانب ويهون قلب الوضعية كون الاقامة على راسها مشير له هيبته ونفوذه برسم منهاج لهذه الغاية وقدم لملك البلاد فاجتمع المجلس الوزاري تلو المجلس ووقع الاخذ والرد في امر المنهاج الملك قدس الله روحه برفض بتاتا لكل ما من شانه ان يدخل تغييرا جوهريا يمس بكيان المملكة المغربية بصفتها دولة لها شخصيتها الرسمية كبقية دول العالم الامر الذي لم تساعد عليه الاقامة وحيث وصل الامر الى هذا الحد ، بيتت ما بيتت في شان الملك ظنا منها ان العراك يبقى يدور بين المقيم والملك لا يخرج عن هذه الدائرة ، ظهرت هذه النية وهذا التبييت فيما سياتي قريبا فالهم الملك ان البت في هذا الخلاف هو في ان يوقع جميع الوزراء على التقرير الذي يجاب به المقيم وكذلك كان فدفع التقرير بعد التوقيع عليه للسيد المعمري الواسطة الرسمية بين القصر والاقامة وبعد مضي ما يزيد على الساعتين سمعنا مولى الوضوء يقول بصوت جهوري : سي المعمري جاء فنهض النجل المعد للوراثة بسرعة وبمجرد ما التقت العين مع العين ولى مدبرا وهو يقول لجلالة والده : « المعمري رآه جاء يبكي ، هذا الامر يهمنا قبل كل احد واكثر من كل احد اطلب الذهاب الى المقيم لاعرف ما هنالك وانا ما نعرفش نبكي » فاجابه الوالد : الله يوفقك .

فمد من حينه يده الى الهاتف وطلب مدير الديوان المدني بالاقامة المسيو « فين » وقال له هذا مولاي الحسن ، اريد الملاقاة مع المقيم فلا يتركني انتظر فاجاب المدير : هو في انتظاركم ، فتوجه بسرعة للموعد وبقينا في انتظار رجوعه .

هنا وجب فتح فسحة بين قوسين لتلخيص مذاكرة مع جلالة الملك هي روح هذا الموقف الخطير وهي : لما كنا في انتظار سي المعمري سألني الملك : اش ظهر لك يا الفقيه في هذه القضية ؟ فكان جوابي : مولاي ان لله سننا في خلقه في الامم وفي الافراد وهي الابتلاء لعل ساعة الابتلاء دقت على المغرب وعلى ملكه فقاطعني قدس الله روحه بقوله : « كانك يا الفقيه كاشفت على سر من اسراري » . ثم امر احد الخدام بان ياتيه بكناش عين له موضعه ، فجاء بالكناش ففتحه رحمة الله عليه وهو يناجيني : من اليوم الذي اخذ الحبل يضطرب مع القوم الهمت جمع بعض من الآيات التي تثبت قدمي وتزيدني رباطة جاش وناولني الكناش فاخذت اقرا البعض من الايات وهي : « ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ » ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » « الم احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا ويعلم الصابرين » « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم » الخ . . من الايات المحكمات التي مؤداها ان السنن الالهية في البشر تدور على الابتلاء .

فتيقنت عند ذلك ان ممثل الاسلام في العراك القائم مصحوب بالعناية الالهية .

فنطق بعض الحاضرين : هذا يقوله لسان القوة ونحن لا قوة لنا ، هل عندنا ما عند الخصم من طائرات واساطيل ومدافع وو . . فرد عليه جلالته بنوع من الامتعاض : المغرب وصل ليدي وله شخصيته بين الدول لا ارهن مستقبله ؛ اي بأس ان اجيب القوم: بيني وبينكم صك الحماية انا لا ادخل عليه تغييرا وانتم كذلك لا تدخلون عليه تغييرا والحكم للمستقبل . فلم اتمالك وقلت للملك : صلتي بكم وبوالدكم المنعم وكوني مدرسا بالقصر يخولني الحق في الكلام للرد على ما سمعت من الملاحظات : فقال لي : قل ما بدا لك انت واحد من اهل الدار . فقلت للحاضرين : الملك بين ميثاقين : ميثاق بينه وبين الله بنص قوله عز من قائل : **« واذكروا نعمة الله عليكم ، وميثاقه الذي واثقكم به ، اذ قلتم : سمعنا واطعنا »** معناه اذا قلنا سمعنا واطعنا فقد ارتضينا الاسلام دينا وبذلك انعقد الميثاق بيننا وبينه سبحانه ، والميثاق الثاني البيعة التي في عنقه بيعة العلماء والشرفاء بحكم قوله تعالى : **« يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود »** ؛ والبيعة عقد واذا كان الشعب اليوم رعيته فعدا خصومه، القول الفصل هو في قوله سبحانه : **«فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك»** برىء ذمتك ولا عليك « **عسى الله ان يكف باس الذين كفروا ، والله اشد باسا واشد تنكيلا** » ، فقاطعني جلالة الملك وقال لي : هكذا يكون ، وعليه التقى الله ، على هذا انفض المجلس ، ولما طال بي الانتظار لرجوع النجل استاذنت في الذهاب وقلت للجانب العالي : مولاي : **من صرف الكيد عن يوسف يصرفه عن ابن يوسف** ، فقال : آمين **احسنت احسنت** .

وما دمنا في سورة يوسف كان فرحي عظيما اذ جاءتني البشرى في صباح الغد 21 فبراير 1951 النجل اطال الله عمره نجح في وساطته وان الاقامة العامة رضخت لقبول الجواب بعد ان رأته موقعا عليه من طرف جميع الوزراء وفي ذلك اليوم نفسه نشر البروتكول .

ثم خبا مصباح المقيم ونبت الربيع على اسمه لكن مع بقاء الجمر تحت الرماد الى **ان انبعث اشقاها الجنرال كيوم** فاستانف الكرة اخذا بالثار للشرق العسكري في النكبة التي نكبها في شخص سلفه ودبر امر ابعاد الملك لجزيرة مدغشقر وما درى **ان الهجرة ستاتي بالفتح** وهكذا **يدبر المدبر والقضاء يضحك** .

الملك الثالث النجل الاسعد :

تاريخه لا يزال في حكم المقدمة ، حسب الشعب للثقة به والاطمئنان كل الاطمئنان اولا لما جاء عنوانا لهذه المقدمة ، وهو قوله : **انا ما نعرفش نبكي** . وقوله لمدير الديوان المدني بالاقامة : اريد الملاقاة معالمقيم **ولكن لا يتركني انتظر . كلتا اللهجتين من خصائص الملوك** .

مشاريع تنجز واوراش تفتح في كل ما يتوقف عليه بناء المجتمع في الحسيات والمعنويات على السواء وكيفما كان الحال فان المسؤولية عظيمة حكم الزمان بان رقمها القياسي جاء على نسبة الرقم القياسي للشهرة الذي تركها والده المنعم غاية ما الهمت الدعاء به اليه هو ان يحفظه سبحانه للوطن وان يحفظ لسانه للاسلام وبهذا الكتاب المسطور اؤدي زكاة نصاب ما عندي من اخبار هذه الدولة المجيدة ولعل فيما قمت به من خدمتها يوم جلل الخطب القصر ما يشهد لي يوم تشهد الارض على كل احد بما عمل على ظهرها ويرحم الله ابن دقيق العيد قاضي قضاة مصر في عصره الذي يقول : **ما حكمت حكما حتى هيات جوابي عليه يوم الوقوف بين يدي الله** .

الرباط ـ ابو العباس احمد التيجاني



لما نضجت البشرية ، وحصفت بما مر بها من تجارب طويلة ، وما انزل عليها من رسالات هادية ، وانست السماء منها النضج والتوفيق والرشد ، بعث الله اليها خاتم النبيئين سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم وبيده هبة ربانية خالدة ، منحها المولى سبحانه لعباده ، ووهبها لخلقه لعلهم يرشدون ..

فكانت تلك الهبة الخالدة كتاب الله الذي كان آخر الكتب التي انزلت على الرسل عليهم السلام ، والذي كان حدثا عظيما فذا في تاريخ البشرية والانسانية ، ونقطة تحول وانبعاث الى حياة جديدة راضية مطمئنة يعتمد فيها الناس على انفسهم في هدي ما انزل اليهم من ربهم ..

والقرآن كما يقول تاج الدين ابن السبكي هو اللفظ المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للاعجاز بسورة منه ، المتعبد بتلاوته ..

ولقد وعد الله سبحانه بحفظه ، وتكفل برعايته وصونه فقال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » .

وهذا وعد متحقق لاشك فيه ، وهو منسحب على جميع العصور ..

وقد واجه المسلمون الاولون في صدر الاسلام وفجر حياته ، وفي مقدمتهم اجلة الصحابة ، مشاكل متعددة ، واحداثا متنوعة لانماط الحياة المتجددة ، بعد وفاة النبي عليه السلام الذي كان مرجعهم اذا اعضل بهم امر وملاذهم اذا استغلقت عليهم وجوه الراي والصواب .

ولكن النبي عليه السلام – والحمد لله – ترك اصحابه على المحجة البيضاء ، كما خلف لهم تراثا غاليا ثمينا عزيزا فيه المرتع الخصب للعقول النيرة الراجحة ، والقلوب المومنة الواعية .

ونستطيع ان ندرك – من خلال الاحداث الخطيرة التي نجمت بعد وفاته صلى الله عليه وسلم – الطريقة التي انتهجها الصحابة ، والاسلوب الحكيم الذي اختاروه للتوصل الى الحلول الناجعة لتلك المشاكل، ومدى اهتمامهم واعتمادهم على النصوص القرآنية والسنة النبوية ...

ومن ابرز تلك المشاكل التي واجهت الصحابة في الصدر الاول للاسلام ، جمعهم لكتاب الله في **مصحف** يضم بين دفتيه آيات الله ...

فقد كان القرآن مكتوبا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي وقت نزوله ، الى ان التحق بالرفيق الاعلى وهو على هذه الكتابة غير مجموع في مصحف .

ونسوق بين يدي نجوى القارئ الكريم حديث زيد بن ثابت الذي رواه البخاري في صحيحه والذي يصور لنا الدور الهام الذي قام به اجلة الصحابة في جمع المصحف بعد وفاة الرسول ، وقد اجمعت الروايات على صحة هذا الحديث ..

فقد جزع اهل المدينة لمن استشهد من المسلمين باليمامة ، وكان عددهم مائتين والفا ، فيهم تسعة وثلاثون من كبار الصحابة ، وحفاظ القرآن ، ولا تزال امام المسلمين غزوات اخرى ، يخشى ان تذهب بحفاظ آخرين ، فاهتم عمر بهذا الامر ايما اهتمام ، واستقر به الراي ، ان ذهب الى ابي بكر ، وهو بمجلسه في

المسجد ، فقال له : « ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، واني اخشى ، أن يستحر القتل بالقرآن في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن الا ان تجمعوه ، واني لارى ان تجمع القرآن . »

فقال ابو بكر : « كيف افعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

عند ذلك دار حديث بين الرجلين ، لم يورد المؤرخون تفصيله . واقتنع بعد هذا الحوار براي عمر . فارسل الى زيد بن ثابت، وقال له: «ان عمر اتاني،فقال: ان القتل استحر يوم اليمامة بالناس واني اخشى أن يستحر بالقراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، الا ان تجمعوه ، واني لارى ان تجمع القرآن ، قال ابو بكر ، فقلت لعمر ، كيف افعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : « هو والله خير » فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدري ، ورايت الذي راى عمر . قال زيد ، وعنده عمر جالس لا يتكلم ، فقال لي أبو بكر : « انك شاب عاقل لا نتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله ، فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان اثقل علي مما امرني به من جمع القرآن، قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ؟ فقال ابو بكر : « هو والله خير » ، فلم ازل اراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر ابي بكر وعمر ، فقمت وتتبعت القرآن اجمعه من الرقاع والاكتاف والعسب واللخاف والاضلاع ، وقطع الاديم وصدور الرجال حتى وجدت آيتين مع خزيمة الانصاري لم اجدهما مع غيره : **« لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فان تولوا ، فقل حسبي الله لا الاه الا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم . »** فلما نسخنا الصحف من المصاحف ، فقدت آية من سورة الاحزاب كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم اجدها مع احد الا مع خزيمة الانصاري الذي جعل الرسول شهادته بشهادة رجلين : **« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر »** فالحقتها في سورتها ، فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند ابى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر ....

اخرج بن ابي داود من طريق الحسن أن عمر سأل عن آية كتاب الله . فقيل : كانت مع فلان ، قتل يوم اليمامة . فقال : انا لله . وامر بجمع القرآن ، فكان اول من جمعه في المصحف ، اي اشار بجمعه .

وقيل ان اول من جمعه في مصحف ، سالم مولى ابى حذيفة ، اقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه فجمعه .

والحقيقة ان اول من امر بجمعه ابو بكر الصديق رضي الله عنه .

ولذلك قال علي كرم الله وجهه : «اعظم الناس في المصاحف اجرا ، ابو بكر رحمة الله على ابي بكر ، هو اول من جمع كتاب الله » .

واخرج ابن ابي داود من طريق يحيى ابن عبد الرحمان ابن حاطب قال : « قدم عمر ، فقال : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن فليأت به ..

وكانوا يكتبونه في الصحف والالواح والعسب ، وكان زيد بن ثابت لا يقبل من احد شيئا حتى يشهد شهيدان . وهذا يدل على أن زيدا كان لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوبا حتى يشهد به من تلقاه سماعا مع كون زيد كان يحفظ ، فكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط .

ـ كيف سمي مصحفا ؟ ـ

ثم ائتمروا ما يسمونه ؟ فقال بعضهم : سموه **السفر** . قال : ذلك تسمية اليهود ، فكرهوه ، فقال : رايت مثله بالحبشة يسمى **بالمصحف** فاجتمع رايهم على ان يسموه **المصحف** .

وفي موطا ابن وهب عن مالك عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله ابن عمر قال : جمع ابو بكر القرآن في قراطيس . وكان سأل زيد ابن ثابت في ذلك فابى ، فاستعان عليه بعمر .

وقد اختلف في عدة المصاحف التي ارسل بها عثمان الى الافاق ؟ والمشهور انها خمسة ...

وقد مضى عهده صلى الله عليه وسلم والقرآن مكتوب على رسم خاص وكتابة خاصة لم يحدث فيها تغيير ولا تبديل ، وقد كتبت بها مصاحف عثمان ، ووزعت على الامصار ، لتكون اماما للمسلمين ، واقر

الصحابة عمل عثمان رضي الله عنه ، ولم يخالفه احد فيما فعل ، واستمر المصحف مكتوبا بهذا الرسم في عهد بقية الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والائمة المجتهدين في عصورهم المختلفة ، ولم ينقل عن احد من هؤلاء جميعا انه راى تغيير هجاء المصحف

عما رسم به اولا الى تلك القواعد التي حدثت في عهد ازدهار التاليف في البصرة والكوفة ، بل ظل مصطلح القرآن قائما مستقلا بنصه بعيدا عن التاثر بتلك القواعد .

كما كان المصحف الذي كتب في عهد عثمان غير منقوط ، اذ ان اول من وضع نقط الاعجام في العربية ، نصر بن عاصم الليثي مستعينا باستاذه يحيى بن يعمر العدواني بناء على رغبة الحجاج بن يوسف الثقفي ، فادخل هذا النقط الى المصحف الشريف ، وتغير بذلك عن هيئته يوم وضع في عهد عثمان للمرة الاولى .

والمصحف العثماني لم تذكر به اسماء السور .. كما انه كان غير مشكول ، اذ ان أول من وضع الشكل في العربية هو ابو الاسود الدؤلي بامر من زياد ابن ابيه في عهد معاوية ، وذلك ما كان بعد كتابة المصحف ، فادخل هذا الشكل الى المصحف بعد قليل من اختراعه . وتغير بذلك للمرة الثانية عن هيئته يوم وضع في عهد عثمان .

وقد تعرض ابو زيد عبد الرحمن ابن خلدون في مقدمته الرائعة للعصر الذي كتب فيه المصحف القرآني فقال :

« وكان الخط العربي لاول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة . ولا الى متوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش ، وبعدهم عن الصنائع ، وانظر ما وقع من اجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مستحكمة في الاجادة ، فخالف الكثير من رسمهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند اهلها ، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب الرسول «ص» من بعده ، المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتفى لهذا العهد خط ولي تبركا ، ويتبع رسمه صوابا وخطأ ؛ واين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه ؟ فاتبع ذلك ، ونبه العلماء بالرسم على مواضعه ولا تلتفتن في ذلك الى ما يزعمه بعض المغفلين من انهم كانوا محكمين لصناعة الخط » .

ويعتبر عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة من ابرز المصادر ، وادقها وصفا لمصحف عثمان بن عفان .

وقد تحدث الشريف الادريسي عن مصحف موجود بمسجد قرطبة فيه اوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذي خطه بيمينه رضي الله عنه ، وفيه نقط من دمه .

وذكر ابن بشكوال انه نقل من قرطبة ايام عبد المومن بن علي وبامره ، واكد ابن مرزوق انه مصحف عثمان بن عفان باطباق اهل الاندلس .

وقد كان من خبر نقل المصحف العثماني من قرطبة الى مراكش بعد ان كان اولا بمسجد دمشق ما ذكره ابن رشيد في رحلته عن ابن زكرياء يحيى ابن احمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي عن كتاب جده الوزير ابي بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل المذكور قال : وصل الى عبد المومن ابناه السيدان : ابو سعيد ، وابو يعقوب من الاندلس ، وفي صحبتهما مصحف عثمان بن عفان ، فتلقى وصوله بالاجلال والاعظام ، وقد تمنى عبد المومن في اعماق نفسه أن لو كان يملك هذا المصحف لكنه كان لا يفصح بذلك ، لكن الذي حدث ان اهل قرطبة قرروا بعد أن يتقدموا به هدية لعبد المومن .. وهكذا جمع الخليفة الصناع والمتقنين من سائر بلاد المغرب والاندلس من المهندسين والصواغين والنظامين ، والجلائين والنقاشين والزواقين والمرصعين والنجارين والرسامين المجلدين وعرفاء البنائين ... وصنع له اغشية بعضها من السندس ، وبعضها من الذهب والفضة ،وحلاه بانواع اليواقيت واصناف الاحجار الغريبة النوع ، وقد حمله لاول مرة لزيارة قبر ابن تومرت سنة 553هـ ، وقد استمر عند الموحدين الى ايام المعتضد بالله : علي ابن ادريس ابن يعقوب المنصور حين توجه لتلمسان سنة 645 حيث قتل ، ثم عثر بنو عبد الواد على المصحف ، وملكه ابو الحسن المريني الى أن كانت حادثة البحر سنة 750 فضاع في جملة ما ضاع من فوائد ...

ــ عناية المسلمين بالمصاحف ــ

هذا وقد كان للملوك المسلمين ، في المشرق والمغرب ، اهتمام بالغ ، وعناية خاصة **بالمصاحف القرآنية** ، فكانوا يتهادونها كانفس ما يقدم في الهدايا في السفارات والزيارات ..

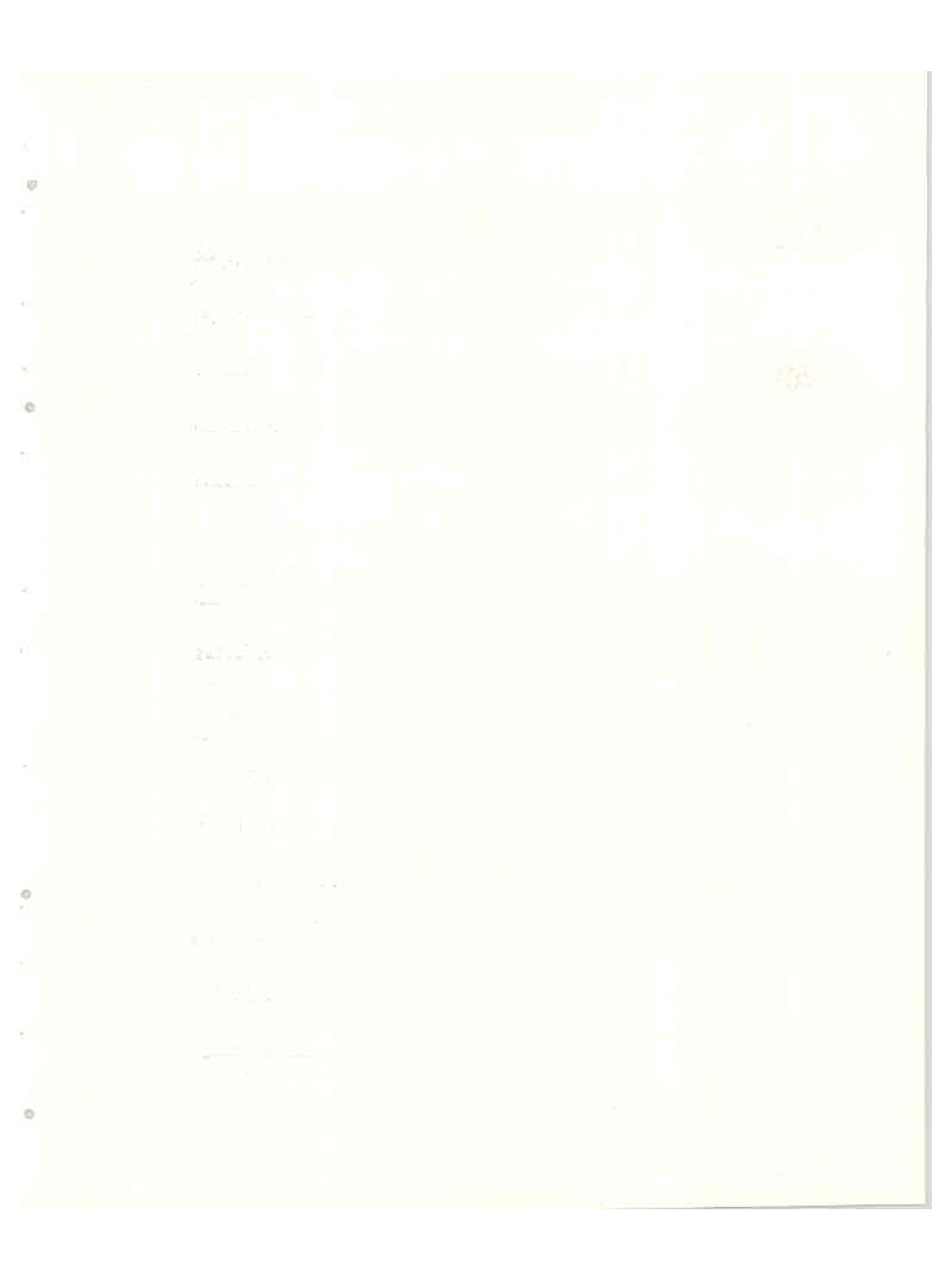
بل ان الملوك المسلمين لفرط عنايتهم ، بكتاب الله كانوا ينتسخونها بايديهم طلبا للاجر والمثوبة ، وعناية منهم بالكتاب المقدس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا زالت بعض المصاحف موجودة الى عصرنا الحاضر تشهد للعناية الفائقة التي كان الملوك المسلمون يولونها لكتاب الله تعالى مصداقا للاية الكريمة : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .




(١) سورة الفاتحة
مكية وهي سبع آيات نزلت بعد
المدثر
بسم الله الرحمن الرحيم ١ الحمد لله رب
العلمين ٢ الرحمن الرحيم ٣ ملك يوم
الدين ٤ إياك نعبد وإياك نستعين ٥
اهدنا الصرط المستقيم ٦ صرط
الذين أنعمت عليهم غير المغضوب
عليهم ولا الضالين ٧



بسم الله الرحمن الرحيم الم ذلك الكتب
لا ريب فيه هدى للمتقين
الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة
ومما رزقنهم ينفقون والذين
يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك
وبالآخرة هم يوقنون



والمؤمنون كل ءامن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا
نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا
وإليك المصير (285) لا يكلف الله نفسا إلا وسعها
لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا
إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما
حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة
لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا
فانصرنا على القوم الكافرين (286)

(3) سورة آل عمران مدنية
وءاياتها 200 نزلت بعد الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم الم (1) الله لا إله إلا هو
الحي القيوم (2) نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما
بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل (3) من قبل هدى للناس
وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب
شديد والله عزيز ذو انتقام (4) إن الله لا يخفى عليه

شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (5) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ
فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
(6) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ
هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ
وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ
آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ
(7) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ
لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (9) إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (10) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ
وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (11) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ
وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (12) قَدْ كَانَ لَكُمْ

ذكر صاحب المعجب ان ابن تومرت كان قد نسخ بيده مصحفا ، وان هذا المصحف كان دون مصحف عثمان في الجرم محلى بفضة مموهة بالذهب .

وهذا **مصحف شريف بخط الامير ابي حفص عمر المرتضى الموحدي** الذي توجد اجزاء منه بدار الاثار بمدرسة الاوداية بالرباط ، واجزاء اخرى بخزانة كلية ابن يوسف بمدينة مراكش .

ابيات بينات بخط المرتضى الموحدي

ومصحف آخر للمنصور السعدي يوجد حاليا بمكتبة الاسكوريال قرب مدريد باسبانيا .

وقد بلغ من اهتمام الملوك والمغاربة **بكتابة المصاحف** واهدائها للملوك والرؤساء في اقطار اخرى قصد ربط العلاقات الودية بين البلدين مبلغا كبيرا ، ودرجة عالية ..

فهذا عصر ابي الحسن المريني الذي بلغت فيه العلاقات بين المغرب والمشرق اقصى حد في الود والصفاء يشهد بصدق ما نقول :

ففي عهد ابي الحسن هذا وقعت عدة سفارات ومكاتبات مع كثير من بلاد الشرق ، اي بين ابي الحسن المريني ومعاصريه من ملوك مصر وما والاها .

حتى ان التاريخ يحدثنا بأن في عهد هذا السلطان وحده وقعت تسع سفارات ...

ففي السفارة الاولى التي وقعت سنة 738 حجت الاميرة المرينية حظية والد ابي الحسن ضمن وفد طارت له شهرة فائقة بالمغرب والمشرق ..

وكانت قصة تسيير هذا الركب ان ابا الحسن لما فتح تلمسان ، وارتفعت العوائق عن طريق الحاج ، اجمع على كتابة **نسخة من المصحف الكريم بخط يده لتكون وقفا خالصا منه على المسجد النبوي المعظم** ، فانتسخها بخطه لهذه الغاية وجمع الوارقين لتذهيبها وتنميقها والقراء لضبطها وتهذيبها حتى اكتمل شأنها ، ثم صنع لها اوعية متعددة متنوعة ، فائقة الصنعة ، كما ذكر ابن خلدون ، وكانت محل والدة ابي الحسن ومربيته الحرة « مريم » اقتضت منه الوعد بالحج عندما يملك تلمسان، فلما فتحها اراد ان ينجز لها وعده .

وكان هذا الركب موضوع حفاوة كبيرة بين المشرق والمغرب ، وقد بالغ ابو الحسن المريني في رسالته للملك الناصر في التوصية بالحجيج حتى يسهل طريقه في ذهابه وايابه مع الرغبة في **ايصال المصحف الكريم للمسجد النبوي المعظم** .

ومما جاء في هذه الرسالة التي وجهها ابو الحسن للملك الناصر :

« ... ومعظم قصدنا من هذه الوجهة ايصال المصحف العزيز الذي خططناه بيدنا ، وجعلناه ذخيرة يومنا لغدنا الى المسجد سيدنا ومولانا ، وعصمة ديننا ودنيانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطيبة زادها الله تشريفا ... » .

« ثم انتسخ السلطان ابو الحسن بيده نسخة اخرى من المصحف الكريم على القانون الاول ووقفها على القراء بالمدينة المنورة ، وبعث بها من تخيره لذلك العهد من اهل دولته سنة اربعين وسبعمائة ، وقد جمع الوارقين لتنميقها وتذهيبها ، والقراء لضبطها وتهذيبها ، وتعديد اوعيتها وتصنيعها على غرار ما فعل بالمصحف الاول .

يقول المقري في نفح الطيب :

كان السلطان ابو الحسن المريني قد كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطه وارسلها الى المساجد الثلاثة التي تشد اليها الرحال ... »

وبعث السلطان ابو الحسن مع ركب 746 بثالث المصاحف الكريمة التي خطها بيده الى حرم بيت المقدس الشريف حيث وقفه على القراء هناك كما جهز

مع المصاحف الثلاثة عشرة آلاف دينار اشترى بها املاكا بالشام ووقفت على القراء والخزانة للمصاحف المذكورة ...

وافاد المقري بان هذا المصحف الشامي بقي قائما ببيت المقدس الى القرن الحادي عشر حيث رآه هناك ، ولا يزال موجودا الى هذا العصر ..

وقد ذكر ابن خلدون انه كان للسلطان ابي الحسن مذهب في ولاية ملوك الشرق والكلف بالمعاهد الشريفة تقبله من سلفه وضاعفه لديه متين ديانته الى ان يقول :

« واجمع السلطان على كتب نسخة عتيقة من المصحف الكريم بخط يده ليوقفها بالحرم الشريف قربة الى اله تعالى ، وابتغاء للمثوبة ، فانتسخها وجمع الوراقين لمعاناة تذهيبها وتنميقها ، والقراء لضبطها وتهذيبها ، حتى اكتمل شانها ، وصنع لها وعاء مؤلفا من خشب الابنوس والعاج والصندل ، فائق الصنعة وغشي بصفائح الذهب ونظم الجوهر والياقوت ، من فوقها غلاف الحرير والديباج ، واغشية الكتان ، واخرج من خزائنه اموالا عينها لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفا على القراء فيها ، وارسلها لمكانها صحبة وفد كبير ...

... ثم انتسخ السلطان نسخة اخرى من المصحف الكريم على القانون الاول ، ووقفها على القراء بالمدينة وبعث بها من تخيره لذلك العهد من اهل دولته .

ومما تذكره المصادر التاريخية ان اهم مكتبة عرفت في العصر المريني هي مكتبة ابي عنان المريني الذي يعد اول من فكر في وضع انظمة مكتبية تسهل على القارىء البحث ، من جملة ذلك انه سلك منهجا جديدا في ترتيب هذه المكتبة اذ فصل المصاحف القرآنية وخصص لها مكتبة قرب المحراب والمنبر ، ووضع الاخرى وهي الخاصة بالكتب في آخر المسجد ، وجعل لها بابين احدهما خارج المسجد ، ثم اصدر مرسوما يقضي بتحبيس كتبها ، ثم اضاف اليها الشحنة التي ارسلها الملك « دون سانش » المذكور الى ابي يوسف عبد الحق المريني وذلك في سنة 684هـ وما يزال لحد الان نص المرسوم منقوشة بالجبس على باب المكتبة القديمة بجامعة القرويين .

* * *

وفي العصر العلوي نرى ان من مظاهر التواصل الدبلوماسي بين المغرب والمشرق ما داب عليه الملوك العلويون من مهاداة امراء مكة ، وربط وثيق الصلة باهلها ، وكان مما يهدى الى امراء مكة : المصاحف الثمينة والنفائس المادية المختلفة .

وفي عهدهم ايضا كانت عناية الملوك بنسخ المصاحف القرآنية جد فائقة .

فهذا مصحف شريف باسم مولاي علي ابن السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي توجد نسخة منه في دار الكتب المصرية بخط مغربي انيق .

واول مصحف شريف طبع على هذا العهد بالمغرب كان سنة 1296 هـ .

وقد طبع بمطبعة الحاج الطيب الازرق ، وهو من منشورات ابناء الازرق .

المأثرة الخالدة « مصحف الحسن الثاني »

وتلبية للرغبة الملكية السامية في اصدار مصحف كريم يحمل اسم الجلالة الشريفة وجهت وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية عنايتها لانجاز هذا المشروع الذي تعكف عليه لجنة من الخبراء والفنيين الذين انتدبتهم الوزارة لذلك حتى يبرز هذا المصحف في حلة انيقة تليق بكتاب الله .

وحمل هذا المصحف الشريف اسم « مصحف الحسن الثاني » ليضيف مأثرة جليلة الى المآثر الخالدة التي لمولانا امير المؤمنين ، وحامي حمى الملة والدين .

وقد شرع معالي وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية فضيلة الاستاذ الحاج احمد بركاش في اعداد العدة لتنفيذ الامر الشريف ، والرغبة المولوية السامية ، واستدعى بعض موظفي وزارته، وعقد معهم عدة اجتماعات متوالية لدراسة وترتيب الخطوات الاولى ، وتنفيذ المراحل التالية التي يجب اتخاذها للقيام بهذا المشروع العظيم ..

وبعد البحث المتواصل ، والاستقراء الدؤوب تم الحصول على عدة مصاحف ، واستقراء الراي على مخطوط ممتاز ضمن ذخائر الاحباس الموجودة بالخزانة العامة بالرباط .

ولقد بذلت جهود جبارة للاضطلاع بهذا العبء الذي اعترضته عدة عقبات كان سيادة الوزير يتغلب عليها بالارادة الحكيمة والعزم الصارم والصدر الرحيب .

وسوف يتم انجاز « مصحف الحسن الثاني » قريبا باذن الله ، وسينعم المسلمون في مشارق الارض ومغاربها بالتملي والنظر الى آيات الله البينات .

الرباط — محمد بنعبد الله

العرش العلوي في مواكب الامجاد

للشاعر: المدني الحمراوي

هكذا يخلد الهوى والوفاء ... بين عرش وأمة والولاء

وحدة أحكمت عراها قرون ... وولاء قد باركته السماء

أظهر الله فيهما معجزات ... تتوالى فما لهن انقضاء

فاستمع يا زمان قصة مجد ... عنهما تنحني له العظماء

انها قولة من الاطلس الحـ ... ـر تنادت بوقعها الارجاء :

نحن شعب ألقت على الارض نورا ... وجمالا أيامه الغراء

حيرت موكب القرون فكانت ... لعلانا في جوه أصداء

تتحدى امجادنا قسوة الدهـ ... ـر ولا نسلم الحمى اذ نساء

انما المجد ظلنا منذ كانت ... أرضنا هذه وهذى السماء

يومنا في الزمان عطر ونور ... وجلال وهيبة وبهاء

سلسل المجد فخرنا فتوالى ... وتوالى له السنا والبقاء

هذه ألسن التواريخ تحكى ... عن علانا ما يرتضيه الثناء :

كل نصر تعجب الدهر منه ... كل فضل كأنه أنواء

كل مجد ورفعة واعتزاز ... كل ذكر له صدى واعتلاء

موكب سارت العدالة فيه ... والمعالي وسار فيه الوفاء

ورعته العقول بالفكر حتى ... أمرعت في جنابه النعماء

وتدلت عليه من دوحة الفـ ... ـن غصون أريجة خضراء

أسكر الكون عطره فتهادى ... خلفه يستحثه الاغراء

ربط الشرق بالمغارب حتى ... لم تحل أبحر ولا صحراء

عرشنا صخرة تدك الرواسي ... له كالشمس صولة وازدهاء

شيد الله ركنه منذ قامت ... شرعة في ديارنا بيضاء

وعلى الحق والعدالة أرسى ... أصله فاستمر ذاك البناء

اين من عرشنا عروش تهاوى ... وهو الطود لامسته السماء ؟
فى جذور القرون أمسى عريقا ... وعلى الشمس سقفه واللواء
ان يكن للعروش جند فهذا ... جنده أمة له شماء
وملوك مقدسون اذا ما ... ذكروا قيل هكذا الاولياء
علويون عرشهم فى قلوب ... هم عليها أئمة أوصياء
عطروا مغرب العروبة مجدا ... له فى كل موطن ايحاء
وبنوا دولة الخلافة بالعلـ ... ـم وبالعدل اذ هم الشرفاء
وأحاطوا حمى البلاد بسور ... من جهاد فما عليه اعتداء
سل بمكناس عنهمو كل شبر ... وبفاس كذلك الصحراء
وبمراكش التى انعشوها ... سل ثغورا لهم عليها لواء
طهروها من الدخيل وكانت ... قبلهم بالصليب ـ دهرا ـ تساء
ها هنا بالرباط تم لهم فتـ ... ـح ونصر وثورة غلباء
ليس يحصي مآثرا خلدوها ... ـ فى قديم وحاضر ـ احصاء
عرفت أرضنا لهم كل فضل ... وأقرت بأنهم زعماء
ورثوا المجد ما جدا عن مجيد ... لم تشنهم خيانة او رياء
جاهدوا للبلاد والدين حتى ... حقوق الله فيهما ما يشاء
لم يناموا عن الجهاد ولا ما ... لوا الى راحة فهم أنضاء
عرفتهم خيولهم وسيوف ... لازموها كأنها سيماء
ان يكن للملوك لهو وقصف ... فمناهم مصالح وبناء
واذا كانت العروش لقوم ... نعمة فهى عندهم أعباء
واذا كانت العروش افتخارا ... فهى فيهم عبادة وعناء
شهد الله والتواريخ حقا ... أنهم مصلحون بل صلحاء
قام بالله ملكهم فتمادى ... شامخا لا تصده الاهواء
اين من هذه العقيدة رأى ... وشعار يمجه النزهاء ؟
أين من مبدأ الشريعة والحـ ... ـق ضلال وفتنة عمياء ؟
أين من هذه الامامة فوضى ... كشف الحس أنها اغواء ؟
يا بلادى تمسكى بتقاليـ ... ـد فخار و لايخنك الذكاء
أنت فى عزة وشورى فماذا ... بعد هاتين يطلب الرشداء ؟
يا بنى الاطلس المجيد اجيبوا ... داعى الحق انكم نبلاء
واعيدوا مواقفا كان فيها ... لعلانا على النجوم استواء

كان فيها للعرش والشعب شأن ... واحد لا تهده الارزاء

* * *

أيها الدهر حي من ملا الار ... ض فخارا فعاله الوضاء
حي من شن حملة العز حتى ... هزم الظلم عزمه الفراء
حسن صاحب العهود وأسنى ... قبس ما لنوره اطفاء
هو للعرش والامامة نجم ... علوى عليه رف السناء
هو للعلم باعث وهو بالعلـ ... ـم خبير يجله العلماء
وبدار الحديث توج سعيا ... فيه للدين والهدى ارضاء
سس الحكم كيف يبغيه شعب ... له بالعرش عزة واحتماء
وله فى ظلاله وثبات ... تتوالى فما لها اعياء
لك يا أوحد الملوك على الشعـ ... ـب أياد مخلدات وضاء
كل قلب بعيد عرشك أضحى ... خافقا بالهوى له غلواء
فتقبل هتاف شعب توالى ... لك منه الاعجاب والاطراء
ليس يدرى بما يجازيك الا ... بقلوب لها عليك انطواء
عش لشعب يراى ذخرا ونورا ... له فى الله ثم فيك الرجاء

الرباط – المدنى الحمراوي

المطبعة الحفيظية

اسس السلطان المولى عبد الحفيظ العلوي مطبعة حجرية ، وجعل مركزها فى نفس مكان المطبعة الحجرية الاولى اي برتقة جزاء « برقوقة » فى فاس الادريسية ، والغالب انه جهزها تجهيزا جديدا ، حيث كان قد مضى على انشاء المطبعة الاولى ما يزيد على الاربعين عاما ، وكان المشرف عليها هو ابو العباس احمد بن محمد الشامي المتوفى سنة 1364 هـ 1939 م وقد استمر نشاطها اعوام 27 – 28 – 1329 هـ .

مخطوط مغربي من القرن السابع عشر الميلادي يدعو لتحرير المناطق المغتصبة

للأستاذ محمد ابراهيم الكتاني

عرف المغرب فى القرنين التاسع والعاشر للهجرة الخامس عشر والسادس عشر للميلاد اعتداءات فظيعة على شواطئه من قبل البرتغال والاسبان ، حيث وقع احتلال سبتة وطنجة وقصر المجاز واصيلا وانفا (الدار البيضاء) والجديدة والعرائش واكادير وآسفي وازمور ومليلية والمهدية .

وقد هب فقهاء المغرب وخطباؤه ووعاظه وشعراؤه وادباؤه لدعوة المغاربة لتحرير المناطق المغتصبة ، واجلاء العدو المعتدي ، وقد تم على عهد الدولة السعدية تحرير اكادير وآسفي وازمور وقصر المجاز وآنفا . ولكن مليلية وسبتة وطنجة واصيلا والعرائش والمهدية والجديدة بقيت اسيرة فى ايدي الاعداء ، وذلك ما جعل حملة الاقلام يواصلون دعوتهم لتحريرها .

ونتحدث اليوم عن مخطوط الفه عالم من علماء الاسرة العلوية المجيدة : هو ابو محمد عبد الهادي ابن عبد الله بن علي بن طاهر الحسني السجلماسي ، نزيل المدينة المنورة ، المتوفى بها سنة ست وخمسين والف للهجرة ، ست واربعين وستمائة والف للميلاد .

واسم الكتاب (فلك السعادة ، الدائر بفضل الجهاد والشهادة) تناول فيه الحرب واحكامها وادابها فذكر من يقاتل معه ، ومن يحارب — بفتح الراء — وذم التخلف ، واحكام المهادنة ومرتبة الجهاد من الدين ، والمطالبة بالتيقظ فى الحرب ، وذم الفرار ، وفضل القيام فى الصف وفضل انغماس العدد القليل فى الكثير ، وحكم المبارزة ، وفضائل الجهاد والمجاهدين المختلفة وترجيح غزو البحر وشهادته ، ووجوب النفقة فى سبيل الله ، وتجهيز الغازي ، واعانة المجاهد واثم من خانه ، واعتداد العدة من خيل ونحوها ، وفضل الرمى ، وفضل الحراسة وفضل الشهيد والشهادة ، وبعض حكايات المجاهدين والشهداء ، واحكام الغنائم ، وتحريم الغلول ، واحكام الجزية ووجوب فك الاسارى ...

سبب تاليف الكتاب

ذكر المؤلف فى خطبة الكتاب : انه كان ربما ذكر بعض احاديث الجهاد ترغيبا للناس فيه ، فسمع منه بعضها من كان يتقلب فى البلاد ، ويحض الناس على الجهاد فاستدعى منه وضع موضوع فى ذلك .

(المختصر) ؟

وذكر المؤلف فى اول الكتاب انه : شرع فى تصنيف ازمع على تسميته — ان بدا للطلاب ، واستهل لمريده صارخا بالباب : (فلك السعادة ..) فصرف عن ذلك بوائق الزمان ، وطوارق الحدثان مما يكل عن وصفه القلم ، ويذهل الالباب من العرب والعجم .

ثم (اختصر) فى هذه الاوراق من ذلك ما تيسر ، وجمع فيها ما يحرك عزم من استبصر . مؤملا العودة الى اتمام « الكتاب الاول » وفق ما أمل ، والا فاسم « هذا المختصر » كما ذكر .

ولكنه عاد فى آخر الكتاب ، فذكر عن بعض المسائل انه اوكلها الى كتابه (المختصر) اعان الله على اكماله بفضله ؛ قائلا : فان ما فى هذه الاوراق (عجالة) كتبناها ونحن على جناح سفر وايدى الحوادث تقبض على (كذا) استيفاء الوطر ، ولاسيما اوطان استنشقت نسيم كرب كربلا ، وازمان قضت بتصدير الاوغاد والسفلا ، وحط اهل المكانة ، وقيلا «كذا» ذوي الديانة ، وايام بعافية الاخيار مطلت ، وليالي لاثواب الشرور سدلت ، والى الله الضراعة فى ابقاء عارفة الاسلام والامتنان للتسليم مما تجري به الاحكام.

وقال عند كلامه على الجزية : وبقية مسائل الجزية موكولة الى كتابنا (المختصر) اعان الله على اتمامه بمنه .

فبينما نجده فى الاول يسمى هذه الاوراق (بالمختصر) اذا بنا نجده يعود فيسمى (التصنيف) الذي عزم على تاليفه اولا ولم يتيسر له اتمامه (بالمختصر) !

متى الف الكتاب ؟

لا نستطيع تحديد تاريخ تاليف الكتاب لان المؤلف لم يشر الى ذلك ، واذا كنا قد عرفنا سنة وفاته بالمدينة المنورة ، فان مترجميه لم يذكروا سنة هجرته ــ فيما وقفنا عليه الان ــ فنعرف بالتقريب وقت تاليفه ، ولعله قد الفه قبل مبايعة اهل سجلماسة للمولى محمد بن الشريف التي كانت بداية الدولة العلوية ــ سنة خمسين والف للهجرة ، اربعين وستمائة والف للميلاد .

مؤلف الكتاب

وقد ترجم اليفرني فى (صفوة من انتشر) للمؤلف ، فحلاه بالفقيه العلامة ، وقال : انه كان من اهل العلم والدين ، اخذ عن ابيه وعن سيدي العربي الفاسي .

وهو مؤلف كتاب (فلك السعادة ، الدائر بفضل الجهاد والشهادة) .

ثم ذكر تاريخ وفاته بالمدينة المنورة حسبما قدمناه (ص 130) وحلاه القادري فى « الدر السني » بالسيد العالم العامل ، الولي الصالح الكامل (ص 55)

وحلاه الفاسي فى « مرآة المحاسن » بالعالم المتفنن المصنف الاستاذ ، وذكر ان بينه وبينه الفة بليغة (ص 186) وترجمة الفضيلي فى « الدرر البهية » فذكر انه كان اماما عالما عاملا ، وانه حج مرارا (ج 1 ص 265 ــ 267) .

مؤلفاته

وسمى الفضيلي من مؤلفاته :

1) شرح الشاطبية .
2) ونظم ابن السبكي .
3) وشرحه .
4) ونظم التلخيص .
5) وشرحه .
6) والفية فى السير .
7) والفية فى الاصطلاح .
8) والفية فى النحو .
9) وحاشية على المرادي .
10) ومناسك .
11) والدعوة الناجحة .
12) وفلك السعادة . فى الشهادة (كذا) .
13) ونسب مؤلفنا لنفسه فى كتابه (فلك السعادة) هذا :
14) تنبيه مريد الطريقة ، وسلوك سبيل الحقيقة وقال : اعان الله على اتمامه بمنه .

وقد سبق أنه كان شرع فى تصنيف موسع فى موضوع (فلك السعادة) ونحن لا ندري ما اذا كان قد اتمه ام لا ؟

المؤلف من خلال كتابه

ويبدو المؤلف من خلال كتابه هذا فقيها محدثا واعظا ، مطلعا على كتب التفسير والحديث وشروحه ومعرفة بمخرجيه ، والسير والوعظ والتذكير والفقه والاصول والتاريخ واللغة ، ــ ويتجلى ذلك بوضوح فى هذه القائمة الطويلة بالمصادر التي ينقل عنها ، والتي سنتحدث عنها بعد ــ فهو يورد فيما يتناوله من موضوعات الايات القرآنية الواردة فى الموضوع ، ويعقب عليها بما ورد فى تفسيرها من آثار وما قاله فيها المفسرون ، ثم يورد الاحاديث النبوية منسوبة الى مخرجيها ، مع بيان مرتبتها ــ غالبا ــ من صحة او حسن مثلا ، ويأتي بما قاله علماء فقه الحديث ، وينقل نصوص الفقهاء ، واختلافاتهم وحججهم ، وما ورد فى كتب الوعظ والرقائق ، ضاربا الامثال بحوادث السيرة النبوية وغزوات الصحابة وفتوحاتهم ومواقف ابطال الاسلام فى الاستماتة فى الدفاع والنضال ، وهو الى جانب ذلك ذو شخصية ورأى ، حيث يستدل ويستنبط احيانا من بعض النصوص التي يوردها ، ثم هو واعظ مؤثر ، يفيض انشاؤه بحرارة الايمان القوي العميق بوجوب الكفاح المستميت لطرد المحتل الغاصب ، وتطهير الارض المغربية الطاهرة من رجسه وعدوانه ، وتخنقه الغصة بمرارة الاهانة البالغة التي تعفر جبين كل مغربي من جراء وجود العدو الغاشم فوق قطعة من ارض الوطن المقدسة .

وهو يتفنن في اثارة نخوة المغاربة وتهييج حماستهم لكي يندفعوا لغسل هذا العار الشنيع عنهم ، وارجاع الاجزاء المغتصبة الى حظيرة الوطن الغالي .

فهو **تارة** يشوق الى الجنة ونعيمها المقيم .
واخرى يحذر من النار وعذابها الاليم .

وثالثة يستنكر ما حل ببعض اجزاء الوطن من احتلال ، وما اصاب المواطنين من تعذيب ونكال ، فيقول : « **والان قد نزلوا بساحات** ، وهتكوا استارا وحرمات ، **واخذوا معاقل وحصونا** وسبوا قبائل وبطونا » ويقول : « وقد استعبد الكفار الان كثيرا من المسلمين ، واسترقوا طوائف من المؤمنين ، حتى تجد في موضع واحد المئين » ويقول : « ام كيف تبقى في العيون قطرة من المدامع ؟ بعد تشييد البيع وتخريب الصوامع ! ام كيف لا يتضمخ الانسان بالاحزان؟ على محاريب كانت تعمر بالقرآن ، صارت لنواقيس الرهبان ! ام كيف يريد الحياة كرام ؟ بعد اخذ حصون الاسلام ! ام كيف يلذ قرار ؟ بعد اخذ سواحل البحار ! ام كيف يصحو عن الاسى عاقل ! بعد اخذ المراسي والمعاقل !! ام كيف يهنأ عيش الانسان ؟ بعد استرقاق حرائر النسوان ! ام كيف تبقى الروح في الابدان ؟ وقد استبدلت دار الايمان ، ببيع الصلبان ! وكنائس الاوثان ! فانا لله وانا اليه راجعون !

واربعة يندد ببعض الاوهام الباطلة التي يتعلل بها بعض المدعين للصلاح من اصحاب النفوس الضعيفة ويعقب بابطالها بالحجة والبرهان فيقول : « ام تقولون ؟ : **نحن اشتغلنا بجهاد انفسنا** ، والاولاد فيوقعكم الشيطان في حبائله (مع) من صاد ، وتصيرون عراض الاقفية طوال الحواجب ، **حيث لا تشعرون ان النفير ناشىء عن جهاد النفس الواجب** ، وتخافون ان يشملكم الوعيد ، الوارد فيمن قال : ليس هذا بزمان جهاد من سفيه بليد .»

ويورد في مكان آخر قصة الامام عبد الله بن المبارك رضي الله عنه حيث ارسل من طرسوس الى الفضيل بن عياض بمكة يقول له :

يا عابد الحرمين ! لو ابصرتنا
لعلمت انك في العبادة تلعب !
من كان يخضب خده بدموعه
فنحورنا بدمائنا تتخضب !
او كان يتعب خيله في باطل
فخيولنا يوم الكريهة تتعب !
ريح العبير لكم ، ونحن عبيرنا
وهج السنابك والغبار الاطيب !

ولقد اتانا من مقال نبينا
قول صحيح صادق لا يكذب
لا يلتقي غبار خيل الله في
انف امرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا :
ليس الشهيد بميت ، لا يكذب

فلما قراها الفضيل ذرفت عيناه ثم قال : صدق عبد الله ، كما نقل عن شيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه حكايته اجماع فقهاء المسلمين على ان المرابطة في الثغور افضل من التعبد في مكة والمدينة !

وخامسا يثير النخوة الوطنية فيقول : « **ام كيف يتردد من يريد حماية الاوطان ؟** » وهي عبارة عميقة المعنى بعيدة الدلالة ، فهي حجة صريحة — ان كان الامر يحتاج الى حجة ، على ان **الوطنية المغربية** موجودة في نفوس المغاربة وعقولهم والسنتهم منذ احقاب متطاولة وانها كانت في القرن السابع عشر كما هي في القرن العشرين ، شعور انساني يتجاوب مع شعورهم الديني الاسلامي ولا يتعارض او يتجافى معه وكفى في هذا الباب هذه الثورة العارمة التي تجتاح نفس ، مؤلفنا السجلماسي من اجل احتلال شواطىء المغرب وطنه الذي لا فرق في شعوره نحوه بين اي جزء من اجزائه وبين الجزء الاخر !

وسادسة : يبين ان الامر قد تجاوز هذه الاعتبارات كلها فاصبح الامر أمر دفاع عن النفس فيقول : « اما الان فقد افضى الامر الى مدافعة الانسان عن حريمه وذريته ، فتشتد عزيمته وتتاكد فريضته » ويقول : «ام كيف يتوانى مناجل عن نفسه ونميته ؟ .. ام كيف يقصر من يسعى لنفسه واهله في الامان ؟ »

وسادسة يضيق صدره ، وتتوتر اعصابه ، وتهيج غيرته فيسب المتقاعدين ، ويلعن المتخاذلين ، ويعيرهم بأنهم لا دين لهم ولا مروءة ولا كرامة ولا نخوة بل ولا انسانية اصلا ! بل هم اهون حتى من الجماد ، فيقول : « هيهات ، ذهبت الغيرة من النفوس ! وماتت القلوب التي عليها مدار الاسوس ! فلم نكن ببررة نجاهد احتسابا ونية ! ولا بفجرة نغزو عصبية ! ولا ذوي انفة لا نرضى بما فعلوا ، ولا اصحاب عدل نجازيهم بما عملوا ! » ويقول : يا من هو في غباوة من لا يدري يمينا من شمال ، يا من لا اسم له ان عد العقال ، يا من هو اعجز من طائر في شبك ، يا من هو اذل ممن وقع في الشرك ! .. انما انتم حين

تتلى عليكم آيات القرآن ، وتتردد عليكم بينات الفرقان .

كماء ترقرق فوق الصفا
اذا انقطع الماء جف الحجر

لم تبلغوا درجة الاناسي ، بل لم تصلوا الى مرتبة الجبال الرواسي .

ويقول « يا هما سكنت تحت البهموت ، يا عزائم مالت الى حضيض الخنوت ، يا قلوبا نزلت محلة الاموات ! يا نفوسا باحثة عن المثلاث ؟

يا اقسى من صم الجمادات ! يا من ظن انه من جنس الحيوانات ! .. يا من يلين الصخر ولا يلين ! يا من عنده من اللدد كمين ! لله درك ان علمت من اي الفرق انت ! وعلى اي دين كنت ! فان ادعيت انك من جملة المسلمين ، فلم لم تمثل ما في الكتاب ؟ ولكن بعدت عليهم الشقة ... فهذا هو عين النفاق ، والتمرد والشقاق ! ... وان ادعيتم خلاف هذا وانكم على جادة المسلمين ، فأتوا برهانكم ان كنتم صادقين !.. » ويقول : « وانت يا جبان ! يا مشبها صورة الانسان ! يا من ظن بعدم اعتباره آدميا ! وقاد الوهم الى انه ليس عربيا ! جسرت بافعالك الذميمة ، وطباعك اللئيمة ، وجبنك المستهجن ، وخوفك القبيح من امر مستيون ، على اهل الايمان ، واعان ذلك عبدة الاوثان ، لانه هو الذي تركهم يفسدون ، وودعهم يعبثون ! ما غاظك رؤيتهم في كل واد يهيمون ولا جراك : فقاتلوا ائمة الكفر ، انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون .. اثل الله من امثالك في الوجود ! وابعد عنا شبحك يا كنود ! وابدل الابصار راحة من تعب رؤيتك ، وشفى القلوب من تألمها بعلتك ، وتقى الاذان من سماع اخبارك ، وافرغ الفم من نقل اسمك وخطابك ، بوجاهة الشجعان ، ونذر كماة الطعان . »

والمؤلف يعقب بفصول طويلة من هذا النوع بعد فراغه من ايراد النصوص التي تدمنا الكلام عليها . وفيما اوردناه من هذه الفصول من مقتطفات ما يكفي لاعطاء صورة عن اسلوب المؤلف وروحه ولهجته فلا نطيل بايراد اكثر مما اوردناه .

مصادر الكتاب

ينقل المؤلف في كتابه عن حوالي ثلاثين ومائة مصدر ، منها نحو الستين من كتب الحديث ، ونحو التسعة من كتب التفسير ، ونحو الخمسة عشر من كتب الفقه ، ونحو السبعة من كتب الجهاد ، واكتفى في نحو العشرين كتابا بتسمية مؤلفيها من غير تعيين الكتاب المنقول عنه ، كما انه لم ينسب نحو خمسة كتب لمؤلفيها .

ويوجد من بين مصادر بعض الكتب الغريبة ، ومن بينها (كتاب الفروسية المحمدية) لشمس الدين ابن قيم الجوزية رحمه الله ، ولا ذكر له في كشف الظنون وذيله هداية العارفين . وذكره بروكلمان في الذيل (ج 2—127) وسماه (كتاب الفروسية المحمدية بفنون القتال ، من الرمي والنضال ، والمسابقة وانواع السلاح) .

ومن بينها (كتاب الاجتهاد في فضائل الجهاد) للسلطان نور الدين محمد المعروف بالشهيد ولا ذكر له في كشف الظنون وانما الذي فيه (الاجتهاد في طلب الجهاد) رسالة للحافظ ابن كثير كتبها للامير منجك لما حاصر الفرنج قلعة اياس (1—10) .

وذكر بروكلمان هذا الاخير ايضا في تاريخ الادب العربي (2—49) وفي الذيل (2—49) وقال انه يسمى بالاجتهاد في طلب الجهاد ، وبالاجتهاد في (فضل الجهاد) ايضا .

تقدير المغاربة لكتاب (فلك السعادة)

عرف المغاربة لكتاب (فلك السعادة) قيمته ، فانتشرت نسخه بينهم وعرف مؤلفه به كما رأينا عند اليفرني في ترجمته لمؤلفه في (الصفوة) .

وتوجد منه نسخة بمكتبة جامع القرويين بفاس ، وقد اشار اليها بروكلمان في ذيله لتاريخه للادب العربي (ج 2 ص 897) كما توجد منه عدة نسخ بمكتبات القصور الملكية ، وفي مكتبات بعض الافراد ، كما ملكت منه الخزانة العامة — بعد الاستقلال — نسخة ملونة مجدولة بخط لا بأس به ، وان كانت مملوءة تصحيفا وتحريفا ! وهي تحمل رقم 2552 د وتقع في مائتي ورقة .

واصبحت له مكانته في ادب الكفاح الوطني بالمغرب بحيث لا تكاد تجد كتابا الف بعده في هذا الموضوع لا ينقل عنه ، او يشير اليه . مثل كتاب (كشف الغمة ، في ان حرب النظام واجب على هذه الامة) لابي عبد الله محمد بن عبد القادر الكردودي رحمه الله . وكتاب (الدواهي المدهية ، للفرق المحمية) لشيخ الجماعة بالديار المغربية الامام جعفر بن ادريس الكتاني رحمه الله . وكتاب (نصيحة اهل الاسلام) لولده الامام محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله . وغيرها .

تحرير المناطق المغتصبة

رأينا فيما نقلناه عن المؤلف في خطبة الكتاب ، انه قد كان هناك من يتجول في انحاء المغرب داعيا المغاربة لتحرير المناطق التي كانت ما تزال مغتصبة من البلاد ، وان المؤلف من جهته كان يثير الموضوع في دروسه ومواعظه ، فطلب منه ذلك (الداعية) — الذي لم يسمه لنا — ان يؤلف في الموضوع .

وكان غير المؤلف — كما قدمنا — قد كتبوا في الموضوع قبل المؤلف كما كتب غيره في عصره ومن بعده ، فكان الفكر العام المغربي مهتما اهتماما شديدا بتحرير مناطقه المغتصبة .

ولكن الفوضى الضاربة اطنابها في المغرب ، وانشغال ملوك الطوائف المنتزين في كل مكان بقتال بعضهم البعض ، ترك المغتصبين آمنين فيما اغتصبوه من بلاد المغرب ، فلم يتيسر العمل الجدي لتحرير المناطق المغتصبة الا على يد بطل الاسلام الخالد ، موحد المغرب وجامع كلمته ، الملك اسماعيل العظيم رحمه الله ، الذي حرر في العشرة الاخيرة من القرن الحادي عشر الهجري ، العشرة التاسعة من القرن السابع عشر الميلادي — وذلك بعد وفاة المؤلف بما يقرب من اربعين سنة — كلا من المهدية وطنجة والعرائش واصيلا ، وحاول تحرير سبتة فلم يتم له ذلك .

ثم حرر حفيده العالم محمد بن عبد الله رحمه الله مدينة الجديدة سنة 1182هـ — 1769 م ، وحاول تحرير سبتة ومليلية فلم ينجح هو ايضا في محاولته.
كما لم تتم محاولة كل من المولى اليزيد والمولى سليمان رحم الله جميعهم .

واجبنا الوطني نحو تحرير سبتة ومليلية .

وان بقاء سبتة ومليلية في يد الاجنبي الى الان ، يكون سبة خزي وعار في جبين كل مغربي منذ احتلالهما الى الان !

وان السباب الذي وجهه المؤلف رحمه الله الى المتقاعسين عن اداء واجبهم الوطني في تحرير المناطق المغتصبة ما يزال موجها الى الاجيال المتعاقبة منذ ذلك الحين !

واذا كان كلب الاستعمار وطغيانه قد حال من قبل دون تحريرهما فان نجاح الامم التي كانت واقعة تحت نير الاستعمار في القضاء عليه ويقظة الضمير العالمي للعمل على تحرير البشرية جمعاء من عار الاستعمار وخزيه ، يوجب على الجيل الذي كان له شرف تحرير المغرب من رجس الحماية ان يعمل بجد لتحرير سبتة ومليلية وبقية المناطق المغتصبة من المغرب ، خصوصا وقد وجدت اليوم وسائل فعالة اخرى للتحرير ليس من الضروري أن تكون الوسائل الحربية القديمة .

وتلك خير هدية نستطيع تقديمها لارواح حملة الاقلام من المغاربة الذين ما فتئوا يؤدون واجبهم خير قيام ، وذلك بعملهم على توعية المواطنين وتعريفهم بواجبهم الوطني وتجنيد الفكر العام لقضية التحرير الوطني .

ولارواح شهدائنا وابطالنا الميامين ، الذين ضحوا بحياتهم الغالية ومصالحهم الذاتية ، في سبيل تحرير المغرب وتمتع المغاربة بنعمة الحرية والاستقلال .

واجبنا نحو مؤلفنا الهمام

واما مؤلف كتاب (فلك السعادة) فيجب علينا أن نحيي ذكراه وذلك بالتعريف به ، وتسمية المدارس والمؤسسات العسكرية باسمه ، وطبع كتابه القيم ، حتى تعرف الاجيال الحاضرة والصاعدة فضل سلفها الصالح في الدفاع عن كيان الوطن .

رحم الله عبد الهادي بن عبد الله بن علي بن طاهر الحسني ، ورضي عنه وارضاه ، وجزاه جزاء يكافىء ايمانه القوي ، وغيرته وحميته وتقبل عمله الصالح ، ووفق امته لتحقيق رغبته ، والاستجابة لندائه ، والاعتراف له بالجميل الذي اسداه لها عند ما قام بتبليغ ما علمه الله من علم ، حتى لا يقال عنها انها امة عاقة ، تنكر الجميل ، ولا تعرف للمضحين في سبيلها حقهم عليها ! وان كانوا هم في غنى عن ذلك بما لهم عند الله من نعيم مقيم .

الرباط — محمد ابراهيم الكتاني



1 ـ وضـع القصبـة الحالـي

موقعها شرقي هذه المدينة ، وتحتل مساحة شاسعة يحيط بها سور اسماعيلي ، وهو يبتدىء يمنة المواجه « لباب منصور العلج » من « ساحة الهديم » ثم يذهب مع جدار « جامع الانوار » ، حيث يمتد خارج المدينة حتى باب « حي بني محمد » ، ويمر وراء هذا الحي ثم « بحي الزيتون » ، وهنا تنفتح ثلاث ابواب ، ءاخرها الباب المعروف « بباب القزدير » ، ومنه يذهب هذا السور حتى الباب الخارجي « لقصبة هدراش » ، الذي يمتد منه خلف « حي سيدي عمرو الحصيني » الى « باب الحجر » ، وهذا هو الباب الرئيسي للقصبة في العصر الاسماعيلي ، وكان يسمى «باب العلوج» (1) ومن هنا يصير للقصبة سوران اثنان: يمتد اولهما من هذا الباب ويسير مع « ممر الدريبة » ، ثم ينعطف الى « فسحة عودة » محاديا « شارع دار السمن » ، حتى ينتهي حيث ابتدا عند « باب منصور العلج » من جهة اليسار .

اما السور الثاني فيمر باسفل «شارع روى مزين»(2) في مقابلة المدينة الجديدة وطرف من « بستان الجبول » ، الى ان ينعطف صاعدا مع عقبة « الزبادي » حتى الباب الموالي « لشارع دار السمن » الذي ازيل اخيرا ، وقد كانت بداية هذا السور تتصل « بباب ابي العمائر » .

ومن الجدير بالذكر ان السلطان المولى عبد اللـه ـ في دولته الاولى ـ زاد في علو هذه الاسوار الاسماعلية ، وبنى في كل ركن من اركان القصبة « بستيونا » (3) .

وقد صار « باب منصور العلج » هو المدخل الرئيسي لهذه القصبة ، وهو من بناء المولى اسماعيل ، ثم جدده وزخرفه ابنه المولى عبد الله عام 1144 هـ (4) 1731 ـ 1732 م ، وبداخله كان مقر محكمة باشا المدينة في الدكة المواجهة للداخل ، عادة استمرت حتى نهاية الدولة العزيزية عام 1325 هـ ـ 19 07 م .

---

1) هذه التسمية وردت في « مختصر مدد التايد ، في ترتيب المحفوظات والتقاييد » ، لمحمد بن احمد الجنان الفاسي ، مخطوط .

2) كان به اصطبل صغير للسلطان اسماعيل ، يودع فيه ما يهدى له من الخيول وما اليها ، «العز والصولة» ج 1 ص 164 ـ 147 ، اما مزيل ـ باللام ـ المضاف له الاروى ، فقد كان لقبا لعائلة فاسية من قدماء سكانها ، ثم اختفى ذكرها بعد عام 1139 هـ ، « زهرة الآس ، في بيوتات اهل فاس » ، خ،ع،ك 1281 ـ ج 1 ص 121 ، ويوجد في قبيلة زيان فرقة تدعى ءايت مزيل ، وفي « اتحاف اعلام الناس » ج 1 ص 146 : ان مزيل هذا وصيف اسماعيلي كان قيما على اروى خصوصية هناك .

3) « تاريخ الضعيف » في حوادث عام 1150 هـ ، مخطوطة خاصة ، اما البستيون فهو كلمة اسبانية بمعنى الحصن . « Bastion »

4) انظر « اتحاف اعلام الناس » ج 1 ص 190 ـ 191 .

فاذا تخطى الزائر هذا الباب ، فسيقابله موضع باب هدم وشيكا ، وكان يعرف « بباب فيلالة » ، حتى اذا انحرف يسارا فسيجد نفسه في « فسحة عودة »، وهي ساحة فيحاء تحتفظ بطللين اسماعيليين يكتنفان الجامع هناك ، حيث يوجد عن ميمنته أسوار « قصر الستينية » (5) ، وعن ميسرته بقايا « قصر النصر » (6) .

اما هذا الجامع فمؤسسه الاول : هو ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني ، الذي بناه ضمن «القصبة المرينية» في شوال 679 هـ (7) — 1281م ، وقد اشتهرت تسميته بجامع عودة : « مسعودة الوزكيتية والدة المنصور السعدي » ، ولا يبعد ان هذه الاضافة تلوح الى تجديدات قامت بها الاميرة السعدية في هذا الجامع، الذي يطبع هيكل بنائه الداخلي بطابع سعدي ، وما في كلام البعض (8) من نسبة بنائه للسلطان اسماعيل: يتعين حمله على تجديد ادخله على هذا الجامع ، ومما يدل لهذا : الكتابة المنقوشة اعلى احد بابيه ، حيث انها انما تنسب لهذا السلطان انشاء الباب خاصة .

ومن ملحقات هذه الفسحة بقايا جامع الانوار، الذي صار — من وقت غير قريب — مركزا لمدرسة ابتدائية عصرية ، وهذا هو الذي يسميه الزياني — في « الترجمان » — « بالمسجد الاخضر » ، ويذكر ان له بابا مفتوحا الى داخل المدينة ، وهذا الباب اهم اثر بقي من هذا الجامع ، وهو واقع بمنة المواجه « لباب منصور العلج » من ساحة الهديم ، وكان الذي جمله وزخرفه هو السلطان المولى عبد الله ، عام 1146 هـ — 1733 — 1734 م (9) .

وحسب «زهر البستان» (10) : فقد كان هذا الجامع محمولا على اساطين رخامية كثيرة ، ويشتمل على « صحن » مربع الشكل ، رحب المتسع ، تتوسطه « قبة » قائمة على اعمدة من الرخام مختلفة الاشكال، بزواياها الاربع شبابيك خشبية امسكت بصفائح مذهبة الاركان ، أرضها مفروشة بالرخام ، وخشب سقفها ملون ومنقوش نقشا جميلا ، وفي داخلها وضعت بيلة رخام فريدة ، وقد وازى هذه القبة «بير» احدق به اربع بيلات صغار منقورات في ارض رخامية قائمة على دائرة مرتفعة ، والى جانب كل بيلة يوجد حوض يمتلىء منها ، وكان ازاء هذا الصحن — في الركن الذي يلتقي فيه الربع الشرقي مع الربع القبلي — « منار » يرقى فيه بدون مدارج ، وقد انهد هذا الاثر في زلزال عام 1169 هـ — 1755 م (11) ، ولم يبق منه — الآن — سوى بابه واسواره .

وفي قبلة هذا الجامع كان مقر « المكتبة الاسماعيلية» العظيمة ، في دار على حدة تعرف «بدويرة الكتب » ، التي كان بابها — المغلق منذ زمن — يقع يمنة الداخل من « باب فيلالة » المار الذكر ، وقد تحدث عن هذه الدار ومحتوياتها نفس المصدر الآنف الذكر وقال:

« ومن محاسن هذا الجامع — الاخذ من الاحسان والصنع الجميل بالمجامع — ان اسند اليه بربعه القبلي من حيث اتصاله بالربع الشرقي : خزانة الكتب ، مشتملة على قبتين ، مصونة حلقتها بشباك من حديد، قائمة على أربعة قوائم من الرخام ، وبها من الكتب العلمية الوف عديدة ، فيها من كل فن ما يحصل به رغبة القاصدين من العلماء الاعلام : من جميع هذه الايالة الشريفة ، والمملكة الباهرة المنيفة » .

وقال عنها في « درة السلوك » (12) : « وبازاء هذا المسجد « دار الكتب » ، التي لم يعهد قبلها ولا

---

(5) وصفه في المصدر الاخير ج 1 ص 124 — 125 .
(6) نفس المصدر ج 1 ص 127 — 128 .
(7) جاء في « الذخيرة السنية » ص 188 ، في صدد اعمال يعقوب المريني عام 679 هـ : وفي نصف شوال منه امر ببناء قصبة مكناسة ، وقصرها وجامعها وبني ذلك كله في شوال المذكور ، وانظر روض القرطاس ، ط . ف ، عام 1305 هـ — ص 232 ، وقد انكشف — اخيرا — بعض اثار هذه القصبة المرينية اثناء حفير وقع في صيف عام 1960 م ، بين موقع ادارة الاحباس ، والمحكمة الاقليمية .
(8) هو مؤلف « درة السلوك » ، والزياني في « الترجمان » و « البستان » ومن قلده .
(9) انظر « اتحاف اعلام الناس » ج 1 ص 189 — 190
(10) اسمه الكامل : « زهر البستان في نسب اخوال مولانا زيدان » ، لمحمد العياشي ، مخطوط .
(11) « نشر المثاني » ج 2 ص 267
(12) اسمها الكامل : « درة السلوك وريحانة العلماء والملوك » ، تأليف الامير عبد السلام بن السلطان محمد الثالث ، مخطوطة خاصة .

بعدها خزانة تشاكلها ، جمع فيها من التصانيف الغريبة والدفاتر العجيبة الوف عديدة ؛ وكان يدخلها ــ كل يوم ــ علماء الحضرة بقصد المطالعة والوقوف على تصحيحها ؛ ومباشرة سقيمها من عليلها (كذا) » .

كذلك جاء ذكرها في « نفحات الشباب » (13) حيث يشتكي الامير محمد العالم بن السلطان اسماعيل من قلة القراء بهذه المكتبة ، التي ذكرها ــ ايضا ــ كل من « سنا المهتدي » (14) و « روضة التعريف » (15) .

وقد كان الامين عليها هو الوزير ابو عبد الله بن احمد بن الحسن بن احمد اليحمدي (16) ؛ ثم صار امينا عليها ــ قيد حياته ــ ولده ابو عبد الله محمد ؛ من عام 1118 الى عام 1164 هـ (17) ؛ واخيرا : فان السلطان محمد الثالث سبل هذه المكتبة على العموم ، حيث اوقف ــ على سائر مساجد المغرب ــ كتبها التي يزيد عددها على 12 000 مجلد ، وذلك في عام 1175 هـ ــ 1761 ــ 1762 م (18) .

بقي ان نذكر انه يوجد بفسحة عودة ــ ايضا ــ « مسجد صغير » على ميمنة الداخل لباب الستينية ، وهو من بناء السلطان محمد الثالث (19) ، ويسمى ــ الآن ــ « بجامع الستينية » .

* * *

فاذا انهى الزائر الوقوف على معالم هذه الفسحة ، فليعد الى مدخل « باب فيلالة » وليسر منه « لحي مولاي اسماعيل » ، الذي يجد فيه اربعة آثار مهمة الاول : « بقايا قصر اسماعيلي » قديم يواجه الداخل من هذا الباب ، وهو ــ بدون شك ــ من قصور الدار الكبرى (20) الآتية الذكر .

الثاني : « الضريح » الذي يرقد فيه المولى اسماعيل ، مع سلطانين من ذريته ، وهما : ابنه المولى احمد الذهبي ، باني هذا الاثر الذي اعيد اصلاحه بعد الاستقلال ، ثم المولى عبد الرحمن بن هشام (21) . وعن يمنة مدخل هذا الضريح توجد بقايا « مسجد الرخام » (22) ، الذي كان متعبدا خاصا للسلطان اسماعيل ، ثم في الموضع الذي كان يعرف بصحن البير توجد بناية قديمة عن يمين الداخل ، وفيها يقع « مشهد ابي زيد عبد الرحمن المجذوب » (23) ، الذي يجاوره من الجهة الشرقية ــ « مشهد ابي موسى عمران بن موسى الجاناتي » (24) .

ومن الجدير بالذكر : ان مدخل هذا الضريح انما كان من الخوخة المقابلة لباب القبة التي يدفن فيها المولى اسماعيل ، بينما كان الباب الحالي لهذا الضريح مدخلا لمسجد الرخام الآنف الذكر .

الثالث : « المطبق الاسماعيلي » الواقع بمنة هذا الحي ، وهو يمتد تحت الارض في مساحة شاسعة

---

13) مجهولة المؤلف ، « المعسول » ج 18 ص 300 ، بمناسبة ورود نصها كاملا بهذا المصدر .
14) اسمه الكامل : « سنا المهتدي ، الى مفاخر الوزير ابي العباس اليحمدي » لابي الحسن علي بن احمد بن قاسم المصباحي الخمسي
15) اسمها الكامل : « روضة التعريف بمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف » لمحمد الصغير اليفرني . ط . المطبعة الملكية بالرباط ، عام 1382 هـ ــ 192 م ص 68 ــ 69
16) « اتحاف اعلام الناس » حيث توجد ترجمته ج 4 ص 106 ــ 117 ، مع « الاعلام ، بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام » ج 5 ص 28 ــ 30 ؛ وفي هذا المصدر الثاني التبس والد اليحمدي بابنه ، فجعل تاريخ وفاة الوالد للابن ، وهو سهو واضح .
17) « الاعلام » الآنف الذكر حيث وردت ترجمته ج 5 ص 62 .
18) « الترجمان » للزياني ، ومن قلده ، وفي « البستان » يجعل ذلك عام 1176 هـ .
19) « الترجمان » الذي سمى هذا المسجد بمدرسة الشاوية
20) « اتحاف اعلام الناس » ج 1 ص 137 .
21) نفس المصدر ج 1 ص 184 ــ 189 ؛ حيث يوجد وصف هذه البناية ، مع تاريخ الحاج عبد الكريم بن موسى الريفي ؛ مخطوطة خاصة .
22) وصفه في « اتحاف اعلام الناس » ج 1 ص 128 ــ 129 .
23) من مراجع ترجمته : « اتحاف اعلام الناس » ج 5 ص 276 ــ 278 .
24) من مراجع ترجمته : المصدر الاخير ج 5 ص 503 .

مهولة ، محمولة على اقواس تتخلل اوائلها نوافذ سقفية الاضاءة ، ومدخله الاول لايزال مجهولا ، وانما ينزل اليه — الآن — من نقب في سطحه بمقربة من « قبة الخياطين » (25) ، وهذا المطبق هو الذي يسميه الزياني في « الترجمان » بـ « الدهليز » ، ويسمى في اللسان الدارج بـ « حبس قارة » .

الرابع : « جنان البحراوية » ، او « عرصة البحراوي » حسب تسمية البعض ، وهو يتصل بقصر المدرسة ءاني الذكر ، ويشتمل على « هري » اسماعيلي كبير .

* * *

ومن هذا الحي الاسماعيلي يصعد الزائر في نجد صغير ، ليواجه في نهايته « باب الرايس » (26) ، الذي يقع عن ميمنة بقايا القصر المعروف بـ « اروى الجزارة » ، ثم يوجد على مقربة من هذا الباب — يسارا — « حي سيدي النجار » ، وفي مدخله يواجه الزائر باب فخم يشخص الباب الرئيسي لاطلال القصور الاسماعيلية المعروفة بـ « الدار الكبيرة » ، ويتوج اعلاه بكتابة فيها تاريخ الفراغ من بناء الدار ، الذي هو عام 1090 هـ — 1679 — 1680 م ، في قطعة شعرية رباعية (27) .

وحسب الوضع الحالي لبقايا هذه الدار : فهي تتكون من القصور الواقعة في حي سيدي النجار ، وهذه لا تزال جهات منها تحمل اسماءها القديمة ، امثال « زنقة قصر مولاي زيدان » ، و « زنقة قصر الشعشاع » ، و « زنقة قصر الكشاشي » ، و « زنقة سوارت الكعبة » ، وتتخلل هذه القصور وتكتنفها ازقة مستطيلة مقبوة السقوف ، التي تتخللها نوافذ للاضاءة ، كما أن « قصر النصر » و « قصر الستينية » وما جاورهما معدودون ضمن هذه الدار ، ومدخل الستينية الموجود — الآن — في حي عودة : حادث بعد العصر الاسماعيلي .

وهكذا يتبين ان هذه الدار الكبرى تمتد من قصر الستينية بحي عودة ، وتنعطف يسار الحي الاسماعلي وحي سيدي النجار ، ثم تنعطف وتذهب موازية ممر الدريبة ، حتى قصر النصر المجاور للستينية .

وهذه الدار هي التي ذكرها الزياني في الترجمان وقال : « ثم اسس الدار الكبرى بجوار ضريح الشيخ المجذوب »

* * *

يعود الزائر من الدار الكبرى الى «باب الرايس»، حتى اذا خرج منه يجد امامه ممرا مستطيلا يسمى « اسراك » ، وهي كلمة بربرية استعملت منذ اواسط العهد المريني للدلالة على الرحبة العظمى التي يدخل منها الى محل الملك (28) ، ويشتمل هذا الممر على قصرين اسماعيليين هما الوحيدان اللذان لايزالان معدان لسكنى الحرم الملكي .

فعلى مقربة من باب الرايس يمينا : يوجد باب القصر الاول الذي يحمل اسم : « قصر المدرسة »، وفيما يظهر فقد جاءت هذه التسمية من وجود مدرسة بداخله ، وفي اواخر هذا الممر يقع باب القصر الثاني الذي يسمى « قصر المحنشة » ، وهذا باب حديث من عمل السلطان الحسن الاول عام 1305 هـ — 1887 — 1888 م ، فاذا انعطفت من هذا الممر — يمينا — فستجد الباب الثاني والاصلي لهذا القصر، الذي يقابله الباب الداخلي لقصبة هدراش ، كما يجاوره — من جهة اليمين — بويبة صغيرة تسمى باب الناعورة ، وعلى مقربة منها يقع مدخل حديقة غناء : هي « جنان ابن حليمة » ، من انشاء السلطان محمد الثالث .

هذا ويذكر الزياني في «بغية الناظر والسامع» (29) ان السلطان المولى سليمان بنى مسجدا بقصر المحنشة على شكل مساجد الاستانة ، اما وجه اضافة هذا

25) نفس « المصدر » ج 1 ص 135 — 136 .
26) نفس « المصدر » ايضا ، ج 1 ص 136 .
27) انظر هذا المصدر ، ايضا ج 1 ص 124 و 132 — 135 .
28) « المسند الصحيح الحسن » لابن مرزوق ، خ . ع ، ق 111 — الباب السابع الفصل الاول .
29) اسمه الكامل « بغية الناظر والسامع ، والهيكل الجامع ، لما في التواريخ الجوامع » ، شرح فيه ارجوزته : « الفية السلوك ، في وفيات الملوك » ، مخطوطة المكتبة الملكية بالرباط ، رقم 3667 .

القصر المحنشة : فيبدو أن هذا اتى من وجود جهاز مائي به يسمى بـ « المحنشة » ، وقد جاء شرح حقيقة هذا الجهاز في « رحلة » عبد الباسط بن خليل المطلي (30) ، لدى حديثه عن حديقة بتونس يقال لها راس الطابية ، حيث قدم صفته هكذا :

« ... وبه شيء يقال له المحنشة برسم جريان الماء ، فيه نقر في حجر كالرخام ، يدخل الماء اليه من جهة ، ثم يجول فيه جولانا غريبا ، في أوضاع محفورة نقرا في هذه البلاطة ، على هيئة دائرة واسعة متداخلة النقور ، بديعة الصفات ، تسر الناظر ، وتشرح الخاطر ، وهي من النوادر ، يجول فيها الماء كأنه حنش ، ويتعاكس الجولان عدة معاكسات غريبة الهيئات » .

والغالب انه كان بهذه الجهة القصر الذي يشتمل على « القبة الخضراء » ، وقد كانت شهيرة الذكر في العصر الاسماعيلي ، ولا يبعد ان يكون موضعها بنفس قصبة هدراش التي يطلق على مسجدها اسم « جامع لال خضرا » ، وقد تغنى بهذه القبة الخضراء بعض الشعراء ، فقال ـ على لسانها ـ الشاعر الجزائري سعيد التلمساني المنداسي من قصيدة (31) :

انا الخضراء في قصر التهاني
نجومي زاهرات لا تحول

انا مأوى السرور مقر انس
وللاشراف في ظلي مقيل

تبسم اذ دعاني الثغر سعدي
تبسم من يهيم به خليل

طربت لما حواه الشكل مني
على كل البناء بعضي يصول

كفى بالعز في الايام فخرا
تعاطتني المسرة والقبول

ثم قال في تاريخ بنائها :

لتسع بعد الف ثم عشر
الى سبعين ابدعني الكفيل

والغالب ان هذه القصيدة كانت مرقومة على هذه القبة ، وقال شاعر آخر من قطعة (32) ذكر فيها هذه القبة ومسجد الانوار :

اذا افتخرت مراكش ببديعها
ففي القبة الخضرا تضيق الاقاول

وان ذكرت مصر بجامع ازهر
ففي الجامع الخضرا بدور كوامل

* * *

ويؤدي « باب الناعورة » السالف الذكر ، الى ساحة فسيحة تشتمل على عدة آثار ، فعن ميمنة هذا الباب : توجد القصبة المعروفة بـ « باب مراح » ، في جوار قصر المحنشة ، وقد كانت معدة لسكنى الوصفان : لكل وصيف دار يسكنها بعائلته ، ثم ابتنى بها السلطان محمد الثالث مسجدا ومنارة .

ويبدو ان اصل تسمية هذه : « قصبة باب مراح » ، باعتبار ان ما وراءها ـ لجهة ـ الغرب ، كان مراحا للماشية ، بمعنى مكان اجتماعها وصيانتها ، وهذا هو مدلول المراح ـ بتخفيف الراء ـ في الدارجة المغربية ، ويرشح هذا انه كان يقع بمقربة من هذه القصبة قصر يسمى « دار البقر » .

فاذا خرج الزائر من هذه القصبة واتجه الى جهة اليمين : فستقابله « بناية » يعلو بابها نوافذ مظلمة ومستطيلة ، وتمتد نحو الجنوب في طول يزيد على 77 مترا ، وهي اثر اسماعيلي كان يشتمل على عدة آبار عميقة ، عليها دواليب لنقل الماء منها وصبه في المجاري المؤدية الى صهريج السواني الآتي الذكر (33) ، والغالب ان هذه الدواليب هي منشأ تسمية الباب السابق الذكر بباب الناعورة .

وجنوب هذه البناية تتصل بها « اطلال هري » كان مخزنا اسماعيليا للزرع ، وهو يشتمل على 345 اسطوانة ، طوله ينيف على 180 مترا ، وعرضه لايقل عن 69 مترا (34) ، وفي هذا الهري والبناية المتصلة

---

(30) نشر معهد الدراسات الشرقية في كلية الاداب بالجزائر ، سنة 1936 ـ ص 20 ـ 21 .
(31) وردت في بعض المجاميع .
(32) واردة في « روضة التعريف » لليفرني ـ ص 51 .
(33) « اتحاف اعلام الناس » ج 1 ص 137 ـ 138 .
(34) « المصدر الاخير » ج 1 ص 137 .

بـه . يقول الزياني في الترجمان ، في صدد المنشئات الاسماعيلية بهذه القصبـة :

« وجعل بها هريا للزرع معبو القناليط ، يسع زرع المغرب كله ، وجعل بجواره سواقي للماء في غاية العمق مقبوة ، وفوقها صقالة للمدافع (35) .

وقبالة هذين الاثرين ـ غربا ـ توجد بركة الماء العظيمة ، وهي تسمى « صهريج السواني » بسبب ان ماءها كان ياتيها من الآبار ذات الدواليب ، التي يطلق عليها ـ في الاستعمال العربي ـ سواني ، وهذا باعتبار القديم ، واما الآن فماؤها ماخوذ من شرب المدينة ، مساحتها تزيد على 300 مترا طولا ، وعلى 140 مترا عرضا (36) ، وفي هذا الاثر يقول الزياني في الترجمان : « وجعل داخل القصبة بركة عظيمة تسير فيها الفلائك للفرجة » .

وفي غرب هذه البركة توجد بقايا حديقة منحدرة عن الارض ، وقد كانت تسمى بـ « الاترنجية » ، وهي تمتد الى قرب باب ابن القاري الداخلي ، حيث توجد هناك اطلال قصر اسماعيلي يعرف بـ « بين القبب » (37) .

❊ ❊ ❊

فاذا اتم الزائر طوافه على هذه الناحية ، فليرجع الى جهة « بناية الآبار الدولبية » ، وليخرج من البويبة المجاورة لها الى « حي الزيتون » ، ولينعطف يمينا ويسير حيث يكون عن ميمنته مدخل « هري الـزرع الاسماعيلي » الآنف الذكر ، وعن ميسرته يوجد فسيح « اكدال » الذي انشاه السلطان محمد الثالث ، ووراء هذا الفسيح تقع الدار التي بناها نفس السلطان لسكناه ، واطلق عليها اسم « الدار البيضاء » ، مقر الاكاديمية العسكرية اليوم ، وقد الحق بها مؤسسها جنات غناء بجوارها ، منها « جنان باب القزدير » ، و « جنانا اسوفيظ » وغيرها ، وفي مقابلة هذه الدار ـ من الجانب الآخر ـ بنى نفس المؤسس « جامع الازهر » ، المعروف اليوم بـ « جامع الاروى » (38) .

وهذه الاروى هي الاسم الحالي لهذه الضفة التي بني بها الجامع ، ويلوح هذا الاسم الى « الاصطبل الاسماعيلي » (39) الذي كان قائما في هذه الجهة ، وقد وصفه الزياني في « الترجمان » وقال :

« وجعل بها ـ القصبة ـ اصطبلا لخيله وبغاله ، وطوله ثلاثة اميال ، مسقف الدائرة بالبرشلة ، على سواري واقواس هائلة ، كل فرس مربوط في قوس ، وبين الفرس والفرس عشرون شبرا . . . ومع كل فرس سائس ونصراني من الاسرى لخدمته ، وشق هذا الاصطبل ساقية الماء مقبوة الظاهر ، وامام كل فرس فرجة غير مقبوة لشربه ، وفي وسط هذا الاصطبل هري محفور تحت الارض ـ وعلوه فوقها نحو القامتين ، مقبو ، وله مضاو من اعلاه يفرغ منها الشعير المعد لعلف الخيل ، يحمل شعير المغرب كله ـ من مشرق الاصطبل الى مغربه ، وفيه قبب لوضع سروج الخيل على اشكال مختلفة » .

هذا كلام الزياني في وصف الاصطبل ، الذي اندثر ولم يبق منه سوى بعض اطلاله ، ومنها مخزن الشعير الذي سقطت بعض سقوفه ، وامتد الباقي منه ـ في « حي الاروى ـ على شكل اخدود مستطيل يرشدنا لطول هذا الاصطبل ، كذلك لايزال في هذه الجهة زنقة تحمل اسم قبة السروج ، ويؤدي اليها باب يقابل الباب الشمالي لمستودع السلاح الاتي الذكر .

ثم يقول الزياني في نفس المصدر : « ويجاور هذا الاصطبل بستان فيه ـ من شجر الزيتون وانواع الاشجار ـ نحو الميلين عرضا ، ونحو الفرسخ طولا » .
وهذا البستان هو الذي صار ـ الآن ـ « حي الزيتون » ، بعدما كان يعرف بـ «المشتهى» (40) ، وبهذا الاسم الاخير تغنى به بعض الشعراء بالشعر الفصيح

35) عبارة « البستان الظريف » : « وفوقها صقالة مربعة عليها مدافع ترمي لكل ناحية » .
36) انظر « اتحاف اعلام الناس » ج 1 ص 138 .
37) انظر « المصدر الاخير » ، ج 1 ص 136 .
38) نفس المصدر ، ج 1 ص 191 ـ 194 .
39) يسميه في « روضة التعريف » ص 62 : « قصر الخيل » .
40) انظر « البستان الظريف)) في ترجمة محمد الثالث عام 1189 هـ

والمحون (41) ، ويلاحظ ان الدار البيضاء وملحقاتها: اقامها السلطان محمد الثالث في معظم أرض هـــذا البستـــان .

واخيرا : فان من ملحقات الاصطبل الاسماعيلي: « مستودع السلاح » ، الذي توجد بقاياه خلف هـــذا الاصطبل من جهة السور ، وتبعد عن جامـــع الاروى بنحو 300 متر ، وهو بناء شاهق ، في أسفلـــه عـــدة اهرية : منها « هري سبع قبب » ، وهذا يحتوي على نفس العدد من القبب التي تتوسطها كبراها ، وكـــان بطرف هذا البناء باب يصعد منه في مطلع بدون مدارج، ويؤدي الى الصرح المحمول عليه في حجم مماثل طـولا وعرضا ، والـــذي يعرف باســـم « المنصـــور)) ، تسمية له باسم المباشر لبنائه، وقد اشتمل على عشرين قبة ، اصطفت خمس منها في كل جهة ، وتوسطتهـــا كبراها ، ارتفاع الاعلى والاسفل من هذا الهيكل يزيـــد على 100 متر ، وعرضهما ـ معـــا ـ 70 متـــرا (42) ، وقد وصف الزياني في « الترجمان » هذا الطلل ، وقال لدى حديثه عن الاصطبل الاسماعيلي :

وفيه ((هري)) مقبو ، محمول على اساطيـــن ضخام الاجرام ، يقال : انه كان يوضع فيه سلاح ركاب الخيل ، وضوؤه من شبابيك في جوانبه الاربع ، كـــل شباك يزيد وزنه على قنطار من حديد ، وفوق هـــذا الهري قصر يقال له « المنصور » ، لايقصر ارتفاعه عن مائة ذراع : خمسون في الاسفل ، وخمسون في الاعلى، فيه عشرون قبة ، كل قبة في صدرها شرجم ، وعليـــه شباك من حديد ، يشرف منهم اهل القصر على بسائط مكناسة كلها : من الجبل الى الجبل ، وكـــل قبتـــه بالبراشيل المقرمدة ، وفيه اربع قبب مـــن العشريـــن: سعة كـــل واحـــدة منهـــن سبعـــون شبـــرا : تربيعة ، وباقي العدد سعة اربعين شبرا : تربيعة » .

وفي غرب هذا الاصطبل يوجد «حي بني محمد» في مساحة مترامية الاطراف ، والغالب ان هذه الناحية وبعضها هي التي ذكرها المستر ويندوس « دجوهن » الانجليزي في كتابـــه « رحلـــة الـــى مكنـــاس » ،
WINDUS (John) - in his book: «A Journey to Mequinez»
وقد جاء فيها في هذا الصدد :

« ... وقد اطلعنا على جنان مـــزروع بالقصـــة لخيل القصر ، يحيط بذلك الجنان مباحان من جانبيه، امام كل مباح شبـــاك من خشب منقـــوش ، يصعـــد للمباحين المذكورين بدرج مزلجة » .

2 ـ وصف القصبة في العصر الاسماعيلي

لقد وقع وصـف هيئة هذه القلعة ابان العصـــر الاسماعيلي ، من طرف عـــدد مـــن الكتاب : مغاربـــة واجانب ، وهؤلاء تمتاز كتاباتهم بالاستيعاب والدقة ، كما تغنى بمحاسنها حتى بعض شعـــراء الملحـــون ، وسنستعرض هنا هذه الارتسامات الاجنبية ثم المحلية فيمـــا يلـــي :

أ ـ ويندوس « دجوهن » ـ في كتابه : « رحلـــة الى مكناس ، مقر الملك الحالي لفاس ومراكش (43) »، بمناسبة سفارة امير البحر مستر كومودور ستيوارت، التي بعثها ملك انكلترا : « جـــورج الاول » ، لافتـــداء الاسرى الانجليـــز » في سنـــة 1721 م ـ 1133 هـ ،
WINDUS (John) - «A Journey to Mequinez», the residence of the present Emperor of Fezand Morocco, on the occasion of commodore Stewarts Embassy thither for the redemption of the British captives in the year 1721.

وقد ابتدا المؤلف زيارة هذه القلعة يوم الخميس 6 يوليوز سنة 1721 م الموافق 11 رمضان عام 1133هـ، ونقتبس من هذه الرحلة الوصف التالي :

وفي يوم الخميس سادس الشهـــر ، صـــدر لنا الاذن بملاقاة السلطان بواسطة بعض قواده ورد علينـــا بمحل نزولنا ، في لفيف من الحرس ياتون بنا للبســـاط الملوكي ، فتوجه السفير بمن في معيته ممن جاء معـــه يقدم موكبه رجلان من الحرس في بزتهم الرسمية ، ثـــم الموسيقات تصدح بنغماتها ، ثم السفيـــر وحاشيتـــه محدقة به ، ثم من جاء في رفقته من الحشم ، وفي ءاخر الموكب اسرى الانجليز راجلين ، وقد كان صدر الامـــر السلطاني بان لايقرب احـــد من السفير وحاشيته ابـــا كان ، ما عدا الباشا ومن هو مكلف بطرفه .

ولما وصلنا لباب منصور ترجل السفير وسائر من كان بمعيته من الركبان ، ودخلنا فمررنا على ثـــلاث أو اربع براحات ، ثم جلسنا على دكان بالحجر ، وبعـــد ذلك اعلمنا بخروج السلطان من بيته ، ثم دخلنا الـــى بيت متسع وجدنا به السلطان نفســـه على راسه مظل.

---

(41) سيـرد بعض هذا اثناء موضـــوع : « وصـــف القصبة في العصر الاسماعيلي » .
(42) انظر « اتحاف اعلام الناس » ج 1 ص 142 ـ 143 .
(43) ترجمات مقتبســات هذه الرحلة مأخوذة مـــن « المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف » لابن زيـــدان ـ الباب 18 ، الفصـــل الســـادس .

... وبعد ذلك قدم علينا ابن عطار (44) من قبل السلطان ليطلعنا على القصور السلطانية ، فذهب بنا الى براح مستطيل تحيط به مباحات محمولة على اعمدة من الرخام غير منقوشة ، وعلى تلك الاعمدة اقواس مزينة بالجبص المنقوش المثل للزهور على الكيفية العربية ، وابواب قبب هذا القصر وسراجيبها متسعة يتخللها الهواء ، وارضه وجدرانه مفروشة بالزليج المختلف الالوان ، يبلغ ارتفاع زليج الجدران عن الارض مترا ونصفا ، فاكتسب بذلك منظرا بهيجا ترتاح له الارواح ، وبهذا القصر سكنى الاميرة عائشة احدى حظايا الامير .

ومن هذا القصر ذهب بنا لمحل ءاخر : طوله ربع ميل انجليزي وعرضه ثلاثون قدما ، وبهذا المحل هري به عدد كثير من الاسلحة في اغشيتها ، وثلاثة صفوف من المرافع محمولة عليها السروج ، وفي بيت خاص ابواب العرائش وهي من حديد ، كان اخذها مولاي اسماعيل من الاصبان ، مع عدد من المصنوعات الحديدية المختلفة : منها الاسياف الرومية .

ومن هذا الهري ذهبنا لمحل ءاخر به بناء عظيم واسع يحيط به مباح ، وفي هذا المحل امراتان من نساء السلطان وهما مالكتا القبة الخضراء (45) ، ثم مررنا بازقة مستطيلة مفروشة بالزليج ، ومنها دخلنا روضا كبيرا تحيط به عدة اشجار من السرو ، وذلك الروض منحدر عن الارض بنحو عشرين مترا ، يفصل هذا الجنان جدار طوله نصف ميل تقريبا ، يسمى ذلك الجدار الاطرنجية (46) ، سعته نحو خمسة امتار ، وفوق ذلك الجدار سرائر لدالية العنب وغيره ، وعليه عربة يركبها الملك ويجرها به النساء والخصيان .

ثم مررنا في ابنية اخرى منها المربع والمستطيل ، فرأينا مرة بعد اخرى النصارى باعلى الجدران مشتغلين بركز الواح البناء بمراكز العمود الثقيلة ويغنون ، وطال تفحصنا في القصور مدة ، ثم رجعنا الى السلطان فوجدناه راكبا امام قبة بها عدد من السلاح والرماح وغير ذلك .

... وفي سابع الشهر المذكور وجه لنا السلطان للاستطلاع على قصوره مرة اخرى ، فقدم معنا قائد ، وكان وصولنا الى القصور عند الساعة التاسعة صباحا ، فدخلنا – اولا – بيوتا متسعة مملوءة عملة : رجالا وصبيانا ، يشتغلون في صنعة السروج وسرائر المكاحل واجوبة السكاكين وغير ذلك ، فلما راوا السفير ازدادوا نشاطا واقبالا على اشغالهم بكل اهتمام ، وتمادوا في صنائعهم المغربية ، واظهروا من قوتهم ومهارتهم في ذلك ما اوجب اعجاب السفير بهم .

ثم مررنا بابنية شاهقة غير مزخرفة ، على ابوابها حرس خصيان العبيد ، لايبيحون المرور الا لمن له الاذن السلطاني في الذهاب معنا ، ثم اطلعنا على جنان مزروع بالفصة لخيل القصر ، يحيط بذلك الجنان مباحان من جانبيه ، امام كل مباح شباك من خشب منقوش ، يصعد للمباحين المذكورين بدرج مزلجة ، وبعد مرورنا بهذا المحل وصلنا احسن موضع رأينا : وهو قصر بوسط هذا المحل به روض فيه من شجر السرو وغيره كل يانع ، وسواري هذين المباحين كلها من رخام ، قيل انها من عمل الرومان حملت من وليلي لمكناس ، والاقواس المحمولة على هذه السواري وابواب المحال التي احتوى عليها جميعها مزخرف بالنقش البديع .

وفي هذا المحل جاءتنا من بعض حظايا الملك عدة فواكه من تمر وزبيب وبطيخ ولوز وتين وغير ذلك من الحلويات المغربية المتنوعة ، واعتذرت عن الاطعمة بكون رمضان لا يكون الطبخ فيه في ذلك الوقت ، فسررنا بتلك الفواكه والحلويات ، وقد كان لحقنا العطش من طول المشي ، ثم جلسنا في احد المباحات وناولتنا بعض اماء القصر ، وكلهن سود اللون لابسات للحلي : الدماليج والقرط ، متوشحات الصدور بالعقود والسلاسل الذهبية وغير ذلك من الحلي المغربي وسمعنا ان نساء الملك كن ينظرننا الينا ونحن لا نراهم « كذا » .

وبعد فراغنا من الاكل اطلعنا على بناء جيد ، يحيط به مباح مزلج ، بوسطه براح به خصص وصهاريج من الرخام مرتفعة يتخللها سواقي ، وبهذا البناء هري للامتعة ، وبيوت للمال : « خزائن وبيوت الاموال » ، وتحت اقواس هذا المباح ابواب : لكل باب دفتان ، تفتح تلك الابواب عن بيوت مربعة غير مرتفعة ، وفي بعض تلك البيوت عدد كبير من المكاحل مختلفة الانواع ، معلقة على نظام بديع يستلفت الانظار ، وببعضها عدد كثير من الرماح المتنوعة : منها رمح من رماح السودان له اربع حرب براسه ، وقبضته من

---

44) من اليهود .

45) هي التي سبق الحديث عنها في الموضوع الاول

46) بهذا يتضح وجه تسمية حديقة الاترنجية السالفة الذكر .

العود الثمين ، اخذ هذا الرمح من امراء السودان ، وشواقير حربية متعددة ، وشواشي الحديد ، ومكاحل متسعة الافواه ، جعابها من النحاس ، وغير ذلك من الاسلحة ، وليست هذه الاسلحة من صناعة البلد ، فيمكن ان تكون اخذت من النصارى الذين ماتوا في حرب (دون سي باستيان) ، ويمكن ان تكون اخذت في فتح المدن التي اخذها المسلمون من الاسبان والبرتغال، ثم مررنا ببعض البيوت مغلقة يوجد بها الذهب والفضة وغير ذلك من النفائس الثمينة ، وبها — ايضا — اموال السلطان ، ومتولي حراسة ذلك احد الخصيان يسمى: مرجان الطير ، ثم وصلنا ءاخر تلك البيوت ، فاذا به عدد كثير من السيوف على غاية ما يكون من الترتيب والتحسين بها بعض سيوف النصارى ، وبالجملة فقد شاهدنا بهذه الخزائن من الاسلحة ما لم يكن يخطر لنا وجوده عند ذلك السلطان ، قبل ذلك ببال .

وبعد ان طفنا على المحال المذكورة ذهبنا الى محل كان معدا لسكنى بعض حظايا السلطان ، به عدة سرر مجتمعات تحمل نحو العشرين نسمة ، وشاهدنا بهذا المحل ايضا حمامات وقببا بديعة الحسن والجمال ، ثم مررنا بعد ذلك ببناءات اخرى يشتمل اكثرها على براح مستطيل ومباحات تحتها بيوت غالبها ارضية ، وابواب تلك الابنية على شكل وقياس واحد ، غير ان بعضها مموه بالذهب منقوشة احسن نقش ، ولكونها مغلقة لم ندر ما بداخلها ، ورأينا ببعض الاقبية خصة تتفرع منها جداول للماء حسنة ، ومررنا — ايضا — على بيت به كتب الرسول الدينية ، ثم مررنا بقبب عظيمة سقفها ملون بلون السماء ، به تزويق مثل النجوم وسطه كدارة الشمس ، وكل ذلك من الذهب ، وذلك مما يبرهن على المهارة في تلك الصنعة الحسنة ، وتلك القبب بعضها معد لخزن ما ياتي للسلطان من هدايا النصارى التي شاهدنا منها كروسات سبع او ثمان ، والبعض الآخر معد للنفائس والذخائر من الاسلحة وغيرها ، وباحدى تلك القبب ثرية البلار التي قدمها — هدية — سفير الملك جورج الذي جئنا في معيته ، وعند انصرافنا من القصر اطلعنا على بناء ضخم عالي الجدران غير مزخرف ، اعده السلطان لقبره ، وقيل انه بداخله سلسلة ممتدة من السقف الى الارض يعلق بها تابوته ، ثم ذهبنا مرة اخرى لزيارة قسم آخر من القصر ، فمررنا على مساحة متسعة تفصلها طريق ضيقة شاهدنا بها عددا كثيرا من الفيران تحفر الارض تجري من ناحية الى اخرى تغطي الارض كثرة ، اذا دنونا منهم هربوا ، ثم اذا جزنا عادوا لما كانوا عليه ، وفي انتهاء هذا المحل وجدنا واديا به اشجار الرمان والتفاح (47)، وقد بنى السلطان فوق الوادي قنطرة يكتنفها حائطان لتسهيل المرور ، ومن هذا الطريق يمر السلطان الى اصطبله .

ودائرة هذا القصر نحو اربعة اميال مربعة تقريبا، وليس بقربه كدية يشرف عليه منها ، وهو مبني باللوح من غير آجور ، بخلاف الاقواس والسواري فبناؤها بالحجر والاجور ، ومن شدة اتقان ذلك البناء صار كانه حجرة واحدة ، يتجلى لرائيه بغاية الضخامة جداره الموالي للمارة ، طوله ميل تقريبا ، وعرضه خمسة وعشرون قدما .

وبداخل القصر براحات مستطيلة ، تدور بها مباحات على الوصف المار وهي مزلجة ، وبوسط بعض تلك البراحات بساتين منخفضة عن الارض بها شجر السرو في رونقه بهي يسر الناظرين ، ويوجد — ايضا — بالقصر عدد من القبب ، والقبة بناء مربع لها جدار غير منقوش ، ما عدا ابواب القبب فانها مزخرفة بالنقش ، ومباحاتها على ستة اقواس ، وداخل القبة متسع مزلج الارض والجدارات ، ارتفاع زليجها نحو القامة ، وسقوفها مقبوة ومزخرفة مموهة بالذهب من اعجب صنع واتقنه ، وسطح القبب مقرمدة بالقرمود الاخضر مربع الشكل متسع من اسفل ضيق الاعلى ، قيل ان ثلاثين الف نفر وعشرة آلاف بغل كانت تشتغل — كل يوم — ببناء ذلك القصر ، وذلك مقبول ان اعتبرنا ان ذلك كله من عجين الجير والتراب فقط ، وان كل جدار يستوجب خدمته كثيرة ، والبناء كله لائق وموافق لطبع البلادات الحارة ، بيوته كلها سفلي ، وجداراتها متسعة ضخمة ، ولذلك تكون البيوت باردة مع شدة الحرارة.

... وقد حفر بمخزن البر والبارود والاسلحة وكذلك الفضة — تحت الارض — خزاين متسعة .

ب — الاسير مويط (ج) الفرنسي — في كتابه : « تاريخ غزوات المولى الرشيد المعروف بملك تافيلالت ، والمولى اسماعيل اخيه وخلفه الحاكم الان على المغرب » (48) .

Histoire des conquêtes de Moulay Archy, connu sous le nom de roi de Tafilet, et de Moulay Ismaël ou Semein, son frère et successeur à présent régnant. Tous deux rois de Fès, du Maroc et de Tafilet, de Sus.

---

47) هذا هو بستان المشتهى .

48) ترجمة تتف هذا المصدر ماخوذة من « اتحاف اعلام الناس » ج 1 ص 144 — 145 ، مع « النزع اللطيف » : الباب والفصل السالفي الذكر .

وهو يصف هذه القصبة قبل اكتمالها بين عام 1677 م 1087 — 1088 هـ ؛ وعام 1681 م / 1091 — 1092 هـ ، وفي هذا الصدد يقول :

« ... القصبة في الجنوب الشرقي للمدينة ، وان ابتداء بنائها كان عام اربعة وسبعين وستمائة والف وطولها اكثر من عرضها ، كما ان عرضها من الجانب الجنوبي الغربي اقل من عرضها من الجانب الجنوبي الشرقي ، ولها ثلاثة أبواب : اعظمها الذي بالجانب الجنوبي الشرقي ويسمى باب الخلاء (49) ، اي المفضي لخارج المدينة ، على جانبيه برجان عظيمان عاليان مربعان ، اعلى كل واحد منهما ثلاث شرافات على هيئة نور السوسان ، بنتهما للاسارى عام سبعة وسبعين وستمائة والف مسيحي ، وهذا الباب يقابل المقبرة ، والباب الثاني يسمى باب الحجر لبنائه بالحجر المنحوت وهو المقابل ، لروي مزيل ، والثالث يسمى باب المدينة وهو المقابل لها (50) .

ثم هذه القصبة لها ثلاثة اسوار من جهة الشمال الشرقي ، عرض اولها : ستة اشبار وعلى طرفيه برجان مربعان ذوا شرافات ؛ وعرض السور الثاني ثلاثون شبرا ، وبين هذين السورين فسيح مربع يسمى روى مزيل ، والثلاثون شبرا التي في عرض الحائط الثاني لم تستمر في عرض الحائط كله ، بل اسقط البناءون منها حتى صار البارز منه عشرة اشبار ، بني طرفيه جداران صغيران عرضهما ثلاثة اشبار ، وعلوهما قامة ، وبينهما داخل الجدار المذكور يطوف على القصبة العبيد الساكنون بالابراج من غير ان ينظر اليهم احد لا من داخل القصبة ولا من خارجها، واما السور الثالث فهو سور قصر الحريم وهو أعلى من الاولين ، وبه كوات وفرج ، وعليه يطوف عبيد الدار المخصيون ، وليس على القصبة من الجهة الاخرى الا سور واحد : عرضه عشرة اشبار ، وله ابراج متينة شاهقة مربعة ، من جملتها معقلان : احدهما في جانب القصبة الشرقي ، والاخر في جانبها الغربي .

وفي الجانب الجنوبي من هذه القصبة قصبة صغيرة بنيت في سنة ثمانين وستمائة والف مسيحية ، تسمى الاوداية (51) ، عرض اسوارها ستة اشبار ، ولها ابراج مربعة بشرافاتها ، تفصل ما بين القصبتين مقبرة ، قال : وللقصبة الاسماعيلية منظر رائق من بعيد ، قال : وتتصل بها مدينة مكناس من الجهة الشمالية الغربية . قال وفي عام احد وثمانين وستمائة والف اشترى مولاي اسماعيل الجنات المجاورة للجنان الذي انشاه على هياة اكدال بمراكش (52) ، وكان قصده ان يجعل دائرته ثلاثة كيلو متر ، وقد اكمل عمله في شهر واحد ، واستخدم فيه — في ابان المطر الغزير — الاسارى والعبيد والقواد والاشراف وغيرهم ، كما خدم فيه بنفسه ، وكذا خدم بنفسه في بناء قصوره .

ج — الامير عبد السلام بن السلطان العلوي محمد الثالث — في كتابه : « درة السلوك ، وريحانة العلماء والملوك » ، لدى حديثه عن اعمال السلطان المولى اسماعيل :

« وقد اتخذ القصور الهائلة بقاعدة ملكه : « مكناسة الزيتون » ، والمباني العجيبة التي لم يسبق اليها ، فاتخذ بها ما يزيد على ثلاثين قصرا، كلها واسعة الفناء ، محكمة البناء ، قائمة على قواعد المرمر الملون ، مسقفة بالخشب المتقن الصنعة ، المهندس الشكل ، وقد اجرى لها المياه العذبة ، واتخذت فيها البرك العجيبة ، وفرشت صحونها بالزليج المتقن الصنعة ... وكتبت في حنايا القباب قصائد من الشعر رائقة ، من انشاء كتاب الحضرة ، وهذه القصور كلها متصلة بعضها ببعض ، قد حف بجوانبها بساتين في غاية ما يكون من الهندسة وحسن الغراسة ، قد سطر على اطرافها اللرنج والسرو ، فجاءت في غاية ما يكون من الاتقان ، وضخامة الابهة وعظيم الشان » .

د — ابو القاسم الزياني ، وقد سبق لهذه الرسالة ان استعرضت طائفة من ارتساماته عن عدة آثار بهذه القصبة ، ونضيف هنا ارتسامات اخرى لهذا المؤرخ ، حيث يذكر في « الترجمان المعرب » : انه تتخلل قصور هذه القلعة غراسات وصهاريج وبرك : على اشكال وكيفيات لا يحيط بها الوصف ، كما يذكر في كتابه الاخر : « البستان الظريف » : انه تتخلل هذه القصور

---

49) هو نفس باب الرايس انظر « اتحاف اعلام الناس » ج 1 ص 145 .

50) قال في « اتحاف اعلام الناس » ج 1 ص 146 : « هو المعروف بباب منصور العلج ، وكلام هذا الاسير نص في كون اصل هذا الباب للمولى اسماعيل ، فولده المولى عبد الله انما نمقه » .

51) يوافق هذا التاريخ من الهجري عامي 1090 — 1091 وهو يقارب التاريخ الذي نزل فيه جيش الوداية بالرباط كما سيذكر ، وهكذا يتبين ان المقصود — هنا — هو مدينة الرباط .

52) بستان حمرية .

– ايضا – مماشي مستطيلة متسعة ؛ وابواب عظيمة فاصلة بين كل ناحية والاخرى ؛ ورحاب عظيمة مربعة لعمارة المشور فى كل جانب ، ويتحدث « نفس المصدر الاخير » عن ابواب هذه القلعة كما يلي :

وجعل « السلطان اسماعيل » لهذه القصبة ابوابا عديدة فى غاية السعة والارتفاع ؛ مقبوة ؛ وفوق كل باب منها برج عظيم ، عليه من المدافع النحاسية العظيمة الاجرام . والمهارز الحربية العظيمة الاشكال : ما يقضي منه العجب » .

وقد كان الزياني واقعيا فى « البستان الظريف » لما لم يحدد عدد هذه الابواب ، علـى خلافـه فى « الترجمان » ، حيث حددها بعشرين بابا ، فوقع فى مخالفة الواقع فى عدد ابواب هذه القصبة .

هـ – ابو عثمان سعيد التلمساني المنداسي (53) ، من قصيدة مطولة بالشعر الملحون فى مدح «مكناس» (54) فى العصر الاسماعيلي ، وقد تناثر فى قطع منها وصف مباني هذه القصبة وحدائقها ، بما فى ذلـك بستـان « المشتهى » ، وهكذا يقول فى هذا الصدد :

حجة لرض البالغا مكناس اليـوم
شاهدها فالعصر : تشييد بناهـا

حط هياكل ناصع بشغل محكـوم
فوق احدايق بو عمايـر رساهـ

واطرح سر بديع فالباطـن مكتـوم
يشرق مثل الشمس فالعين سناهـا

بالبشرى والسعد ممزوج هواهـا

خليني فغربنا من كل عـــروس
«وجه عروس » ازكى لعرايس واشهاها

واتركني مما اشتهات كل نفـوس
لعين من « المشتهى » الحسن ادعاها

تحسب الراحا على مكناس حبوس
ما ينزل ضيق لحواطـر مغناهـا

حكمتها فكوثر ماها واهواها

*

راحت روحي عشيرها زهرة مكناس
تهدي نشر الزهر للـبدر ارجاهـا

تظهر قصبتها اجديرا من لغـراس
فحفظ الله حين تسطع بضياهـا

زند ابيض من قصر اعصر مقيـاس
فكنوز منبت على الرسـغ دماهـا

فلك الملك اليوم يجري بهواها

زينة قطر الغرب مكناس البيضـا
ضحت للمنصور تفـر ثناياهـا

مدت قصبتها نازهـا مـن فضـا
بعمايمها خضرا فجـو اسماهـا

صانعها بحكام عدل قضـا ومضـا
لو تاهت عن كـل بهجـا وتاهـا

سلطان الغرب هوات واهواها

طابت نسمة دار مولانـا المنصـور
مثل الروض الغض فواح اشداهـا

واردها مبرور والصادر مسـرور
منزل فضل ، صباحها مثل امساهـا

للركبان بساطها دائـم منشـور
ما شكر : من كل وجها من جاهـا

فلما البارد شربت الناس هواها

ظاهرها بحدايق النعمـان فريـح
والباطن ورد البـاتـن حلاهـا

---

53) شاعر فى الفصيح والملحون ، وقد تحدث عنه – كثيرا – محمد العربي المشرفـي فى « الحسـام المشرفي » ؛ خ . ع ؛ ضمن مجموع يحمل رقمك 2276 ؛ حيث يذكر ان له ديوانا ضخما فى الملحون من الشعر ؛ وله ترجمة عند بروكلمان فى « الملحق » ج 2 ص 676 ، وتوجد طائفة من اشعاره الملحونة ضمن مجموع ، خ . ع ك 1644 .

54) وردت هذه القصيدة فى نسختين : احداهما آخر مجموع خ . ع ، ج 26 ، والثانية فى كناشة عبد الله الشرقي بالمكتبة الملكية بالرباط ، رقم 5958 .

لبست ثوب اخضر من الريحان بهيج
واخر : زنجي تسحب طول مداهـــا

ولها بالزنـــد ساحتهـــا تبريـــح
منهم ــ قط ــ ازمانها مـــا عراهـــا

يسر سير لخمر فلجسم هواها

نور ارياض « المشتهى » مزق لكمام
هام بوجه لعروس يبغـــي ملقاهـــا

حتى شاهد حسنها من غير التـــام
غض الطرف حيا ، وصد وخلاهـــا

ما زالت بعد النوى تجمـــع ليـــام
وتريح قلوب النوى بعـــد اعناهـــا

تهوى النفس عيان من لا يهواها

*

غنني بالمشتهـــى لا زلـــت نديـــم
من « لعباب » الطالا للغرب الواهـــا

واذكر لي تلك الديار بصوت رخيـــم
وامنازهها الخضرا وحلاوة ماهـــا

صرحها لا تكني ، عظمهـــا تعظيـــم
راحت روحي ، ذكرها فيه انزاهـــا

مكناس ، حمدا الحلى قلبي يهواها

واخيرا يختم هذه القصيدة بتاريخ نظمها ويقول :

خرجت فى فتح عام تسع فى تفخيم
بعد الالـــف والثمانيـــن اهواهـــا

و ــ الامير زيدان بن السلطان المولى اسماعيل ، من قصيدة « شعبية » يتشوق فيها لمكناس (55) عام 1104 هـ / 1692 ــ 1693 م :

امن در انشوف الدار وباب الرخام
وباب لعلـــوج ومشـــور يفـــوت

والمنزه لفريج الباهي نعـــم لمقـــام
والمشور الكبير السامي المنعـــوت

تاتيه كل يوم السادات اولاد سام
واولاد حام وابن يافت اجفـــوت

عروبـــــي

هل يا حسرا ننظر « القـــب الخضرا »
وشوف « المشتهى » ومنزل راس التـــاج
يظهر لـــك بوعمايـــر امليـــح النظـــرا
فرش بنواور بساط مـــن الديبـــاج ..

3 ــ التغييرات التي طرات علـــى القصبـــة بعد العصـــر الاسماعيلـــي :

يسجل الزياني : « الترجمان » فى صدد عظمـــة مباني هذه القصبة ما يلي :

« ومن حين مات اسماعيل ــ رحمه الله ــ والملوك من اولاده يخربون تلك القصور ، ويبنون بانقاضها : من خشب ، ورخام ، وزليج ، ولبن ، وقرمود ، ومعدن . الى وقتنا هذا ، وبنيت من انقاضها مساجد . ومدارس ورباطات ، فى كل بلد ، وما اكملوا نصفها : هذه نحو المائة سنة » ، وبعد الزياني يقول مؤلف « اتحاف اعلام الناس » (56) بعد نقل نحو هذا : قلت : « ولا زالت يد التخريب عاملة الى الحين الحالي فى تلك الحصـــون والاسوار الهائلة » .

وفى دولة السلطان محمد الثالث أحدث فى هذه القلعة مباني وبساتين جديدة ، فى كل حي الزيتون وحي الاروى ، حسبما تقدم الالمام به ، ثم اباح جهات منها للسكنى ، فاسكن بني عمومته فى « الدار الكبرى » ، بعد ما خربها وازال منها كل ما له قيمة (57) ، كمـــا اسكن الفا من الودايـــا والمغافـــرة فى الاصطبـــل الاسماعيلي (58) : « حي الاروي » ، ثم تتابعت السكنى

(55) وردت فى كناشة عبد الله الشرقي الآنفة الذكر .
(56) ج 1 ص 179 .
(57) « اتحاف أعلام الناس » ج 1 ص 204 ــ 205 .
(58) « البستان الظريف » ، قال فى « اتحاف اعلام الناس » ج 3 ص 161 : « ولا يزال عقب هؤلاء الودايا ــ الى اليوم ــ باروى المذكور » .

في سائر جهات هذه القصبة ، ولم يبق خاصا بالحرم الملكي سوى قصري المدرسة والمحنشة ، وهكذا تتبين التقلبات التي طرات على هذه القلعة ، حتى آلت الى وضعها الحالي .

هذا : ويظهر ان مما دعا السلطان محمد الثالث لاباحة السكنى بهذه القصبة ، انه كان له راي خاص بشان هذه المباني ، حيث ينقل عنه الزياني في « البستان » .

« ... فرحم الله مولانا امير المومنين الذي قال : وددت ان جدنا اسماعيل بنى تلك البساتين العادية . والاسوار الجافية الهائلة التي بقلعة مكناسة في ثغور المسلمين ، لعمت جميعها ، وكانت نكاية في نحر العدو ، وحصنا حصينا للمسلمين » .

2 _ ملحقات القصبة

كان لهذه القصبة ملحقات تقع في كل من شماليها وجنوبيها ، فمن شمالها الشرقي كان يوجد :

ا _ **المرس الاسماعيلي :** اسفل باب الحجر ، وقد كان مخزنا للحبوب التي تجبى من الجهات المجاورة ، ولا يزال بابه قائما في مواجهة مدخل حديقة الحبول ، حيث يعرف بـ « باب المرس » ، وفي هذه الجهة كان يوجد معملان للبارود : احدهما لصنعه ، والآخر لتصفية ملحه (59) .

ب _ **بستان حمرية** ، الذي يقع وراء هذا المرس _ بعيدا عنه _ الى جهة الشمال ، وقد كان بمثابة اكدال اسماعيلي ، وهو الذي ورد ذكره _ سابقا _ عند الاسر مويت (ج) الفرنسي ، في كتابه « تاريخ غزوات المولى الرشيد والمولى اسماعيل ... » ، وقد قال في هذا الصدد :

« وفي عام احد وثمانين وستمائة والف (1091 _ 1092 هـ) اشترى مولاي اسماعيل الجنات المجاورة للجنان الذي انشاه على هيئة اكدال بمراكش ، وكان قصده أن يجعل دائرته ثلاثة كيلو متر ، وقد اكمل عمله في شهر واحد ، استخدم فيه في ابان المطر الغزير _ الاسارى والعبيد والقواد والاشراف وغيرهم ، كما خدم فيه بنفسه » .

ويقدم الزياني في « البستان الظريف » تفصيلات عن غراسة هذا البستان وتقلباته ويقول :

« ... فقد كان عنده « المولى اسماعيل » بجنان حمرية مائة الف شجرة من الزيتون ، حبسه على الحرمين الشريفين ، ومرت عليه هذه العصور والفتن والفترة والناس يحطبون منه ، ولما بويع سيدي محمد _ رحمه الله _ احياه واجرى له الماء ، وامر باحصاء ما بقي من عوده ، فوجدوا به ستين الف شجرة من الزيتون ، وكان _ رحمه الله _ يوجه ثمن غلته كل سنة للحرمين الشريفين ، ولا زال ولده سلطاننا مولاي سليمان على سنته » ، وحسب « الدر المنتخب المستحسن » (60) فان عادة بعث ثمن هذه الغلة للحرمين الشريفين ، استمرت طيلة ايام السلاطين : المولى عبد الرحمن ثم محمد الرابع والحسن الاول (61) .

ومما يجدر ذكره : ان السلطان اسماعيل احاط هذا البستان بسور مده الى جهات اخرى بناحية مكناس ، قال في «الدر المنتخب المستحسن » في ترجمة المولى اسماعيل .

« وفي عام تسعة بعد ذلك : « يعني بعد مائة والف هـ » امر السلطان بتقويم جنات تاورا ، فقومت واخذها بالقيم من الملاك ، وقطع اشجارها وجمع الحطبة في قصبة الاعواد خارج المدينة ، « وادار عليها السور هناك » ، وجاز السور « تانوت » باسرها ، الى « عين معزا » ، و « حمرية » ، و « ورزيغة » ، و « وجه عروس » .

ولا تزال قطع من هذا السور قائمة حتى الآن ، حيث تناثرت في تانوت ، ووجه عروس ، وقصبة الاعواد ، وحمرية ، وهذه الاخيرة تشاهد بقايا اسوارها امام نزل المحيط الاطلسي ، وقبالة باب المحطة المركزية للسكة الحديدية ، وخلف الجامع الجديد هناك ، وفي

---

59) اتحاف اعلام الناس ج 1 ص 50 _ 51
60) مخطوطة السفير خير الدين الزركلي ، والاسم الكامل « الدر المنتخب المستحسن ، في بعض مئاثر امير المومنين مولانا الحسن » ، تاليف ابي العباس احمد بن محمد بن حمدون ابن الحاج السلمي المرداسي .
61) عدل السلطان محمد الثالث ذلك التحبيس الاسماعيلي ، حيث ابقى نصف الحبس للحرمين الشريفين : ثلثيه للمدينة المنورة ، والثلث الباقي لمكة المكرمة بينما اوقف النصف الاخر على المسجد الاعظم بمكناس وما الحقه به ، انظر « اتحاف اعلام الناس » ج 1 ص 174 .

طريق حي البرج الداهبة وراء هذا الجامع ، وفي طريق فاس ، كما ان باب « حمرية » – من جهة المدينة – لايزال موضعه يحمل اسم « باب القرمود » ، على مقربة من الملعب البلدي لكرة القدم .

واخيرا : فان ارض بستان حمرية : اسست بها المدينة الجديدة بمكناس ، وانتقلت ملكيتها – بمعاوضة مع الاحباس الى ادارة الاملاك المخزنية .

ج – **مدينة الرياض العنبري** ؛ وهي واقعة في الجنوب الغربي للقصبة ، وقد كان موضعها يعرف بالرياض ، وبه انزل السلطان اسماعيل «جيش الودايا» وندبهم لبناء الدور به عام 1087 هـ – 1676 – 1677 م (62) ، وفي عام 1099 هـ – 1687 – 1688م امر نفس السلطان ببناء «مدينة الرياض العنبري»(63)، التي يحتفظ « البستان الظريف » بوصفها في الفقرة التالية :

« وكانت مدينة الرياض زينة مكناس وبهجتها، وبها ءاثار اهل دولة اسماعيل : كل من كان له وظيف بخدمته بنى داره بها ، وتنافس العمال والقواد في بناء القصور والدور ، فقد كان بدار علي وبني اربعة وعشرون حلقة يجمعها باب واحد ، وكانت دار عبد الله الروسي واولاده كذلك اعظم منها : كانها حومة ، وامثالهما من القواد ، وخلدوا بها ءاثارا عظيمة ، وبنى كل عامل مسجدا في حومته ، وبوسطها المسجد الاعظم الاسماعيلي ، ومدرسته ، وحمامه ، وخانه ، واسواقه الموقوفة عليه ، وكانت تنفق فيها البضائع التي لاتنفق بغيرها »

هكذا يصف الزياني هذه المدينة التي لم تعمر طويلا ، حيث امر السلطان عبد الله بن اسماعيل بهدمها ، ابتداء من فجر يوم 27 شوال عام 1143 هـ – 1731 م ، ثم استمر التخريب فيها عشرة أيام ، صارت بعدها كومة من تراب (64) ، ولم يبق الآن من اطلالها سوى بابها الغربي ، مع بعض السور المتصل به الى جهة « حي سيدي سعيد » ، ولا يزال هذا الباب ينم عما كان وراءه من المدينة المندثرة ، حيث يبدو قوسه عاليا ، يتوجه نقش شعري من ثلاثة ابيات: فيها اسم بانيه وتاريخ بنائه : عام 1098 هـ (65) . اما موضع هذه المدينة فقد اصبح – الان – حيا عامرا ، وصار يحمل – من جديد – اسم « الرياض » .

وقد كان من ملحقات مدينة الرياض « وجه عروس » ، – وهو اسم للناحية الواقعة في غربها – حيث منازل فرقة من الجيش البخاري (66) ؛ كما كان هناك بعض دكاكين ودار لبعض الكبراء ، وفي هذا الصدد جاء في وثيقة حبسية (67) الفقرة التالية :

« ... وجميع الحانوتين المتصلتين بالقنت المواجه لداخل الرياض من بابه الاكبر : « باب ثلاثة فحول » ، اسفل دار الباشا منصور الرامي » .

وهكذا يتبين انه كان لمدينة الرياض العنبري ربض فسيح في غربها ، بين بابها الداخلي وبابها الاكبر: وهو « باب ثلاثة فحول » ، الذي لاتزال بقاياه تحمل نفس الاسم ، بمقربة من باب ضريح المولى عبد الله بن احمد .

واخيرا : فان الضعيف في « تاريخه » : يتحدث عن الخراب الذي استولى على « وجه عروس » ونواحيه عام 1150 هـ – 1738 – 1739 م ، ضمن جهات اخرى بمكناس ، وهو يقول في هذا الصدد :

« وفي هذه السنة استولى الخراب على مدينة مكناسة ؛ وخرب منها « وجه عروس » بأسره . وكان به من المساجد خمسة وسبعين مسجدا ... وكذلك وقع الخراب بتانوت ، وبني احمد ، وسيدي علي مكراز، وخرب الكثير من قصبة هدراش ، وبريمة ، والرياض ولم يبق الا نفر يسير ، وكذلك المدينة واطرافها ، وقصبة الاعواد » .

الرباط : محمد المنوني

---

62) « البستان الظريف » في العام المشار له .

63) هكذا في « تاريخ الضعيف » وسيتبين ان هذا التاريخ متقدم بعام عن تاريخ بناء باب هذه المدينة، كما ان ما تقدم عن « تاريخ مويط » يفيد ان تاسيس مدينة الرياض كان بين عامي 1090 – 1091هـ

64) « البستان الظريف » ، مع اتحاف اعلام الناس ج 1 ص 157 .

65) « اتحاف اعلام الناس » ج 1 ص 164 .

66) « الترجمان المعرب » ، مع « البستان الظريف »

67) يوجد نص هذه الوثيقة في « اتحاف اعلام الناس » ج 1 ص 149 – 155 .

ملاحظة : الموافقة بين التاريخين الجهري والمسيحي ماخوذة من :
Tables de concordances des ères chrétienne, éthégi-rienne, Troisième édition - Editions techniques Nord-Africaines.

الزياني واكنسوس

مفارقات ومقارنات بين مؤرخي الدولة العلوية

للأستاذ عبد القادر زمامة

عندما الف المستشرق ليفي بروفنصال كتابه القيم : « مؤرخو الشرفاء » كان يهدف الى ابراز معالم الشخصيات المغربية التي عكفت على تدوين تاريخ المغرب على عهد الدولتين : السعدية ، والعلوية ..

وتفصلنا عن تاريخ طبع هذا الكتاب (1) حقبة غير قصيرة من الزمن . جد فيها من المعلومات ، وظهر اثناءها من المخطوطات التي كانت تعتبر ضائعة : ما يوضح بعض المبهمات . ويصوب بعض الاخطاء ، ويكشف بعض الاسرار ... !

ومن غير المعقول ان نكلف مؤلف كتاب : « مؤرخو الشرفاء » بشيء زائد عما اختاره لكتابه ، من جمع المعلومات المبعثرة عن مؤرخين سجلوا حقبة طويلة من تاريخ بلادهم .. وكاد الناس ينسونهم لولا آثارهم التي ضمنوها بعض عناصر تراجمهم الشخصية ...!

فان مجرد كتابة ترجمة صحيحة لواحد من هؤلاء المؤرخين يعد فى حد ذاته عملا شائكا تكتنفه صعوبات مادية واخرى ادبية !

فالصعوبات المادية تاتي من قلة المصادر اولا ... ومن ندرة النسخ الخطية لآثار هؤلاء المؤرخين ثانيا ...

اما الصعوبات الادبية فهي هذه المغالطات ! وهذه التناقضات ! وهذه الاحقاد ! التي يتركها فى ذاكرة الزمان واجياله كل مؤرخ صريح حاول تسجيل احداث عصره فى سائر الميادين ...! ولم يسعه ما وسع غيره من معاصريه .. من السكوت ! والاغضاء ... !

وحديثنا اليوم يتناول مفارقات ومقارنات بين مؤرخي الدولة العلوية : ابى القاسم الزياني ... وابى عبد الله اكنسوس ...

فكلاهما تولى كتابة الدولة ووزارتها ..
وكلاهما الف لها تاريخا حافلا مطولا ...

وكلاهما نال الشهرة والصولة ، ثم الخمول والعزلة ..

وكلاهما اسهم فى الحياة السياسية والادبية على عهدها ..

وقد عرف كل منهما الاخر معرفة عميقة أيام الشدة والرخاء ..

وقبل ان ندخل فى هذه المفارقات وهذه المقارنات يجدر بنا ان نرسم اطارا تاريخيا لمعالم ترجمتيهما لنتصور فارق السن ، والظروف ، والشخصية ، والمذهبية ، والمزاج .

فعندما ولد ابو عبد الله اكنسوس سنة 1211هـ بقبيلة : ــ اداوكنسوس ــ من اسرة ينتسب افرادها الى جعفر بن ابي طالب : كان ابو القاسم الزياني فى العقد السابع من عمره يتخطى السنة الرابعة والستين. وقد ولد بمدينة فاس سنة 1147هـ ووجد فى كناشة جده الشيخ : علي بن ابراهيم ــ امام المولى اسماعيل : وشيخ اليوسي ــ ان اسرته تنتسب الى حام بن نوح .. !!!

وكان ابو القاسم الزياني فى هذه الاعوام الطويلة يقطع المراحل ويتخطى الصعاب ويستقبل النكبات ويودعها بصبر وذكاء وشجاعة تثير الاعجاب ..

(1) طبع هذا الكتاب سنة 1922م

وقد قام برحلاته الثلاث :

الاولى : سنة 1169هـ رفقة اسرته بقصد الحج والهجرة الى المدينة المنورة فرارا من الفتن التي خيمت على المغرب بعد موت المولى اسماعيل ..

الثانية : سنة 1200هـ رفقة السفير العثماني بقصد السفارة لدى الخليفة العثماني بالقسطنطينية .. وقد ارسله المولى محمد بن عبد الله في مهمة رسمية تتعلق بقضايا الشغب في الحدود الجزائرية .. وقضية السفير العثماني الذي صرح في الموضوع تصريحات مغلوطة احدثت بلبلة في الجو السياسي اذ ذاك ..! وكان السفير ابن عثمان المكناسي .. ما يزال في مهمته الرسمية بالقسطنطينية .. حينما وصل اليها الزياني (2)

الثالثة : سنة 1206 هـ حينما نكب في المغرب الشرقي بعد ما عينه المولى سليمان واليا هناك .. فعزم على الرحلة في اقطار الشرق والابتعاد عن الجو السياسي الى حين ...!!

ثم عاد الى المغرب لا ليتعزل عن العمل السياسي ولكن ليصبح وزير الدولة في بلاط المولى سليمان .. بعد ان مات ابن عثمان .. ويظل في هذا المنصب السامي يصرف شؤون الدولة ويقبض على زمامها من سنة 1213 هـ الى سنة 1224هـ في ظل المولى سليمان الذي جعل من بلاطه هيئة علمية تضم سائر عناصر المعرفة المعروفة اذ ذاك ..

والزياني وان لم يبلغ شاو اقطاب عصره الذين يكونون قائمة طويلة متنوعة الاختصاصات في سائر العلوم الدينية والادبية .. فان ذكاءه الشخصي وخبرته الفائقة ، وشعوره بالمكانة التي يتبوؤها لدى بلاط المولى سليمان ، كانت تدفعه الى مزيد من الاطلاع والاتصال بالعلماء والطلبة النبغاء ليساير البيئة العلمية التي يعيش بين اقطابها .. وفي طليعتهم المولى سليمان نفسه..

ونحن سلفا نعلم ان المدة التي قضاها ابو القاسم الزياني في طلب العلم بالقرويين كانت قصيرة لا تكفي لاستكمال عناصر الثقافة التي كانت اذ ذاك .. فقد هجر الدراسة سنة 1169هـ وسنه 22 سنة .. ومنذ ذلك الحين وهو يخوض غمرات الحياة في الرحلات والمناصب والنكبات ..!

اما المؤرخ ابو عبد الله اكنسوس فاننا نجده يشد راحلته الى فاس سنة 1229هـ لطلب العلم بالقرويين وهو لا يتجاوز الثامنة عشرة من عمره .. وفي حلقات الدروس بها .. تعرف على طالب شاب، هو ابو عبد الله ابن ادريس الكاتب الشاعر الذي اصبح فيما بعد وزيرا في دولة المولى عبد الرحمان .

وقد الف بين الطالبين الشابين اتحاد في الهدف ، وتقارب في الطبع ، وصفاء في الود ، جعلت منهما نجمين متالقين في سماء الادب عموما ، والشعر خصوصا .. طيلة حقبة طويلة من الزمن .

وفي مدينة فاس سمع اكنسوس الحديث عن ابي القاسم الزياني وعرفه شخصيا بواسطة صديقه بن ادريس ..

وقصة اتصال ابن ادريس بابي القاسم الزياني سجلها الزياني نفسه باسلوبه المعهود في آخر كتابه: «الروضة السليمانية» وبسذاجة تثير الاستغراب ...!!
وختمها بهذه العبارة .. « وهؤلاء الثلاثة هم الذين ظهروا في دولة امير المؤمنين .. بعد حمدون ابن الحاج والحوات .. هذا ابن ادريس والبازغي واكنسوس (3) يعني ينظم الشعر .

فمن هذا النص نعلم ان اكنسوس كان متصلا بالزياني ومعروفا عنده منذ ايام دراسته في القرويين مع ابن ادريس ..

وكان الزياني اذ ذاك قد اعفاه المولى سليمان من الوزارة لكبر سنه ، فتفرغ للكتابة والتدوين واتمام مؤلفاته التي بدا العمل فيها منذ سنة1202هـ .. والزياني في هذه الحقبة كان محتاجا لامثال ابن ادريس واكنسوس لمساعدته في انتساخ كتبه ومراجعة نصوصها وتقويم ما يكون قد اخطا فيه من لغة او نحو او عروض ...!!

وتتميما لهذه النقطة نقول : ان ابا القاسم الزياني كان يكتب مؤلفاته في « الزاوية العسوية » المعروفة الان بحي سيدي مغيث ... وكان يسكن الدار الكائنة في الدرب المقابل لهذه الزاوية بانحراف .. اما ابن ادريس فانه كان يساعد والده في المكتب المعروف هناك على قيد خطوات من دار الزياني ، والزاوية العسوية ، فالاتصال كان متينا .. وان تخللته جفوة عابرة .. سجلها الزياني .

---

2) انظر المؤرخ مولاي عبد الرحمان بن زيدان في كتابه (اعلام الناس) ج4 ص 162، وكذلك ج3 ص305 وانظر ايضا ما كتبه الزياني عن هذه الرحلة في الترجمانة الكبرى (مخطوطة) .
3) الروضة السليمانية لابي القاسم الزياني ، مخطوطة .

واشتهر اكنسوس مع رفيقه بأدبهما وشعرهما ونثرهما .. كما اشتهرا باتصالهما بالوزير المتقاعد الذي كان على اتصال دائم بالمولى سليمان يقدم اليه مؤلفاته .. وقصائده .. ويشير عليه بآرائه في القضايا النازلة .. كما انه يزكي من شاء تزكيته من « طلبة » الوقت الصالحين لوظائف الدولة ... !

لهذا نجد اكنسوس يلتحق ببلاط المولى سليمان كاتبا قديرا وهو ما يزال في ريعان شبابه .. ويظهر ان سمته واستقامته نال بها ثقة المولى سليمان وتقديره فعامله معاملة «وزير» لا معاملة مطلق كاتب من كتاب البلاط .. وذلك في وقت كان المغرب فيه على ابواب مشاكل عويصة الحل ضربت اطنابها هنا وهناك ... لاسيما بعد المحنة الكبرى في حوادث زيان ... !! وما اعقبها من قيام الفتن التي ادت الى قيام مولاي ابراهيم .. ثم اخيه السعيد ابني المولى اليزيد (4) ..

وكان اكنسوس اذ ذاك يسكن مدينة فاس .. وقد شاهد كل هاته الحوادث وسجلها بقلمه في كتابه « الجيش العرمرم » وحينما جاءه كتاب المولى سليمان على يد نجله مولاي الطيب خرج من فاس رغم الحصار الشديد ورغم السجن الذي عاناه من طرف رجال الشعب الذين كانوا يرون فيه وفي الزياني شيعة المولى سليمان المخلصين لعرشه .. والتحق اكنسوس بالمولى سليمان على ابواب مدينة القصر ... حيث كلفه بعدة مهمات سياسية دقيقة .. في عدة جهات من المغرب ..

الى هنا و كل من الزياني واكنسوس يرى في الاخر رجلا محترما ادى لدولته خدمات جليلة ولم يحد عن جادة الحق والصواب .. وسننتقل فيما بعد ما سجله اكنسوس عن موقف الزياني ايام محنة زيان ... وما اعقبها ...

والتحق المولى سليمان بربه سنة 1238هـ وبويع المولى عبد الرحمن بن هشام فأخر اكنسوس عن الوزارة ... وقدم الاديب ابن ادريس .. وبذلك انتهى دور اكنسوس في اعمال الدولة .. وفارق مدينة فاس التي استوطنها مدة طويلة .. الى مدينة مراكش .. حيث عاش هناك عيشة عالم ناسك مقدر عند الخواص والعوام .. ولما بلغ السبعين من عمره الف كتابه في عهد دولة المولى محمد بن عبد الرحمان وباشارة من وزيره الطيب بن اليمني بوعشرين .. وسماه « الجيش العرمرم الخماسي » وهو أوفى تاريخ للدولة العلوية الشريفة لحد الان ... واعتمد فيه على المؤرخ ابي القاسم الزياني .. لكنه انتقده انتقادات مرة بلغت احيانا حد الهجو .. وعباراته في هذا الموضوع معروفة في تاريخ الجيش المطبوع على الحجر بفاس سنة 1336هـ فلا حاجة تدعو الى اثباتها ..

لكننا سنثبت هنا عكسها وهي تلك التي كتبها اكنسوس في مقدمة شرحه لقصيدة ابي القاسم الزياني في موضوع : استعطاف المولى عبد الرحمن بن هشام — رحمه الله — ليرد (الفتوى) الى ما كانت عليه قبل امره سنة 1288هـ بقطعها .. لعدة اعتبارات ...

يقول ابو عبد الله اكنسوس في ترجمة ابي القاسم الزياني :

« هو ابو القاسم بن احمد الزياني ، نسبة الى القبيل المعلوم .. بيته بيت علم ، وصلاح ، ودين ، من قديم الزمان ، ونسبه يرفعه الى زيان جد القبيلة المذكورة . كما ذكر ذلك في كتابه المسمى « بالترجمانة الكبرى . الجامعة لاخبار المعمور برا وبحرا » وغيره من تآليفه . وهو الان — ابقاه الله — بحالة تحسد الكواكب مكانها . وتقبل مباسم الزهر اركانها . قد ناهز التسعين سنة بتقديم التاء ، ولا زال مع ذلك قائما باعباء الاوامر السلطانية ، حافظا لاسرارها التي لا يشم رائحتها سواه ...

« وقد تربى في حجر الدولة المحمدية مبرورا ، والتحف فيها غنى واسما وجاها ضخما وسرورا ، ثم انتقل به الزمان الى الدولة السليمانية ، انتقال البدر الى اسعد ابراجه ، حتى انفصل ظل ذلك الملك السني وهو في جميع احواله فص خاتمه ، ودرة تاجه ، فجاءت هذه الدولة الرحمانية التي انشرت جميع الفضائل بحي ربعها بعد اقوائه ، ونشرت بساط الملك بعد انطوائه ، فالبسته جاها جديدا ، ومدت باعه الكامل في بسيط فضلها الوافر الطويل فتناول مديدا ، ولمعنى زائدتها شهادته الدول ، وتنافست في تقريبه الملوك الاواخر والاول ، فان له رأيا مضمون الاصابة تضيء به الليالي الحوالك ، وهمة تانف ان تتعلق بغير تدبير الممالك ، مع تفنن في علوم عديدة ، انفرد بجلها وهي الاكيدة .

« واما علم التاريخ واحوال الامم السالفة مطلقا ، واحوال الدول الماضية من لدن آدم ، وانساب العرب

---

4) انظر التفاصيل في الجيش العرمرم لاكنسوس ج 1 ص 206 وما بعدها .

والعجم مع تشعبها وايام الجاهلية والاسلام ، ومعرفة الامصار والبلدان ، وخواص الاحجار والمعادن والنبات وغرائب البر والبحر فهو في جميع ذلك بحر زاخر التيار لا يعلم ساحله . ولولا وجوده اليوم لم تدر ابوابه ومداخله ، فهو الحجة الباهرة ، والاية الظاهرة ، ولم يدرك بكثرة الرواية ، ولكن بثاقب فهم وصدق فطنة ودراية ، وخدمته لاهل الفضل وملاقاته اهل السر الرباني وارباب العناية ..

« فقد اخبرني ذات يوم انه لقي في حجته الثانية بالحرم المكي رجلا كاملا من اهل الهند واخبره بامور غيبية وقع له جميعها من بعد ، وبشره بدوام الرتبة العليا .. واوصاه بالمسلمين ، وحذره من ظلم احد من الناس ودعا له بخير ...

« وقد حاز رضى والديه ، وكبرا عنده في ظلال البرور وحج بهما الحجة الاولى ، وذلك سبب خيره العميم ..

« ومن علم حاله الحسن ، وسمته الخارق للعادة وخالطه حتى تحقق جميل نيته لعباد الله .. ونفعه لضعفاء وبغضه للمتجبرين واهل الاهواء والفسوق خاصة ، ومضادته لاهل الفجور والعصبية بالغين ما بلغوا غير متخوف منهم ولا مبال بهم مع كونه غريبا مفردا ، قضى من ذلك العجب ، وتيقن ان ذلك لا ينال الا بالله ، وانه لا يبلغ بحيلة ....!!

« واعظم شاهد على ما ذكرنا ما اشتهر عند الناس مما وقع له مع الامير مولاي اليزيد ، وحكاية ذلك مشهورة حتى قال بعضهم لما خفي عنه ان الله تعالى يحمي اولياءه من كيد الكائدين ... : لكونه عارفا بالسحر والسيميا و«المختطرات !!» وقائل ذلك غافل عن الحق وما علم أن الصدق والامانة ورضى الوالدين يبلغ بهما اعلى الدرجات وان ذلك من اعظم اسباب السعادة التي اذا حرست عيونها الفتن نام في ظل الامان غير خائف من شيء ...

« وكفاه صدقا مع الله ومع الناس ان اهل فاس لما اجمعوا على الخروج على سلطان الاسلام والعدل والرحمة مولانا سليمان اكرم الله مثواه ، وذلك في غرة ست وثلاثين ومائتين والف بايعوا مولاي ابراهيم بن مولاي اليزيد .. راودوه وحاولوا متابعته لهم في امرهم بكل حيلة فاعياهم امره ، وحلف الا يخرج على البيعة الشرعية السليمانية فلما ايسوا منه صرفوا اعنه عزمهم الى اذايته فبلغوا الغاية في ذلك واخرجوه عن جميع ما يملك ظاهرا وباطنا وتنوعوا النكال عليه حتى احرقوا ثيابه ومنعوه من الفراش وقصروا اكله على ما يسد الرمق مرة في اليوم ، ولباسه على ما يستر العورة فقط ، وهو ظاهر على امره » .

هكذا كان اكنسوس يتحدث عن ابي القاسم الزياني صدر دولة المولى عبد الرحمن ...

اما في اواخر دولة المولى محمد بن عبد الرحمن فقد تحدث عنه باسلوب آخر تجول في تاريخ الجيش العرمرم ... كما اشرنا الى ذلك سلفا ..

والغريب المستغرب ان ابا عبد الله اكنسوس لا يجد مناسبة لانتقاد ابي القاسم الزياني الا استغلها وحشر فيها خليطا من المتناقضات والمفارقات الغريبة .. كموقف الزياني من « الحركة الوهابية » وجواب الشيخ حمدون بن الحاج لصاحبها عن امر المولى سليمان .. فقد خلط في انتقاداته بين قضايا — مذهبية — واخرى شخصية ... نعرف اسرارها ...!

وتتميما لهذه النقطة نقول :

ان المؤرخ ابا عبد الله اكنسوس كان منتسبا الى الطريقة التيجانية .. بينما كان الزياني ينتقد هذه الطريقة وله كلام شهير سجله بقلمه في امامها ايام ورد على المولى سليمان وحظي عنده حظوة بالغة .. وساعده على بناء زاويته الشهيرة بفاس في الدرب المعروف اذ ذاك بدرب اللمتونيين بالدرداس ...

وشيء آخر في المفارقات بين الزياني واكنسوس وهو اننا نجد الزياني كان يقضي ساعات من يومه في الزاوية العيسوية بحي سيدي مغيث .. ويكتب هناك بعض مؤلفاته ... بل اننا في ميدان البحث عن الزياني نجده يحبس احباسا مهمة من املاكه ... على هذه الزاوية بالذات !!

وقد عاش اكنسوس بعد الزياني 45 سنة وسجل هذه الحقبة بقلمه السيال .. وبذلك كان كتابه « الجيش العرمرم » اوفى تاريخ للدولة العلوية .. يتداوله الناس ..

بينما يقف تاريخ الزياني « الترجمان المعرب » في سنة 1228هـ وتقف الرحلة « الترجمانة الكبرى » سنة 1233هـ وكذلك الشأن في الروضة السليمانية ..

وليس معنى هذا ان الزياني اوقف نشاطه ايام المولى عبد الرحمن .. التي عاش في ظلها احدى عشرة سنة ... بل اننا نجده في هذه الحقبة يؤلف تاريخا لدولة المولى عبد الرحمن .. كما يكتب عدة رسائل ..

ومقامات .. ويخوض عدة غمرات بقلمه ولسانه ... وآثاره في هذه الحقبة بالذات علم بعضها ... وجهل ... واخفي ... واتلف ... الكثير منها ...

اما اتصالاته بالدول فيسجله اكنسوس في النص السابق بقوله :

ولا زال مع ذلك قائما باعباء الاوامر السلطانية .. حافظا لاسرارها التي لا يشم رائحتها سواه »

وبالاطلاع على آثار كل من الزياني واكنسوس نجد عدة مفارقات في المزاج والمذهبية والثقافة ايضا فبينما نجد الزياني يكتب باسلوب يعلو وينزل ... ويصيب ويخطيء ويلحن ويعرب .. لان قصده هو تسجيل ما يريده باية صفة كانت .. نجد اكنسوس يكتب باسلوب ادبي متين اللغة صحيح التعبير منتظم التفكير ..

ومات الزياني سنة 1249 هـ بعد ما تخطى القرن بسنتين فاستراح واراح بعدما شقي بالناس وشقوا به .. ولقي من النكبات والمصادرات ما هو معروف ...

وكانت وفاته بداره التي كان يسكنها ايام التجائه الى الحرم الادريسي .. ولها بابان احدهما في الفخارين والاخر في عقبة الملاحين داخل الحرم الادريسي ...

اما داره بحي سيدي مغيث فقد آل امرها الى السيد الصالح بناني المترجم في السلوة .

ولم يخلف عقبا من الذكور سوى حفيده محمد ابن نجله الحسن الذي كان يدعى «بالقائد» ونحن الان لا نعلم عقبا لهذا الحفيد ...

فاس ـــ عبد القادر زمامة



مواقف خالـــدة

مسرحية شعرية في أربعة فصول

للشاعر علال بن الهاشمي الفيلالي

هذه ملحمة من الشعر البطولي وهي تصور المواقف الخالدة للعرش العلوي المجيد من سنة 1953 الى سنة 1961 .

وقد كتبها الاستاذ علال بن الهاشمي الفيلالي فى لوحات فنية تجمع بين حسن التصوير ، وجمال التعبير .

وبمناسبة عيد العرش السعيد نقتطف منها ثلاث لوحات :

اللـوحـة الاولـى

« 1 »

(علال يتعبد الله فى منزله يتحادث مع زوجته)

عـــلال	ايـن خبـات خنجـري	
الزوجـة	ولمـاذا	هل بها وحدهـا تطيـق الفـداء
عـــلال	احضريها فى الحين ..	
الزوجـة	انت ضعيف	
عـــلال		لست اخشى من نارهـم حمـراء
	داخل المشور المغضوب سيبـدو	خائن الشعـب ذاهبـا للصـلاة
	سوف اقضي عليه بالخنجر الـوا	هي ، فيهوي فى النار رجس الحياة
	لا تخوني بـلادك اليـوم	
الزوجـة	انـي	فى سبيل المليـك ابـذل روحـي
عـــلال	هاتهـا ..	
الزوجـة	انتظر (تخرج)	انتظـار
عـــلال	ساغمض جفنـي	وبموت الـولا اداوي جروحـي
	سوف امضي لهم وحيدا ، ولكـن	فى جيـوش الآمـال والايمـان
الزوجـة	هاكها ... تغسل الجريمـة عـن	شعبي ، وتبدي شهامة الاوطـان
عـــلال	هي تحتـاج للمسـن ..	
الزوجـة	سـآتـي	بمسـن
عـــلال		فاسرعي مـا استطعـت
	رب ان المليك فى غربـة النفـي	وجهش النحيـب فى كـل بيـت
	نصبوا عرشهـم لاخبـث خلـق	وعقاب « العميل » اخبث مـوت
	ابـد الخائنـون ظلـم قرننـا	من عذاب ، ومحنـة ، واعتـداء
	سجنوا او نفوا ، حـرام عليهـم	كبـت حـب فى قلبنـا وولاء
الزوجـة	هاك ما تبتغـي مسنـا سنينـا	
عـــلال	اسمعي ...	خير ما راقنـي ابنـاء النسـاء
الزوجـة	ها انـا	

علال — علمت بانني ... ذاهب اقطف الردى من قريب

ثورة الاطلس الغضوب ، تفدي ... روحه عودة المليك الحبيب

فاحفظي العهد ، واستظلي بحب ... المليكي ، ولقنيه بنيي

حدثيه عني ، وقولي اليه ... فليعش صادق الهوى وطنيا

انني لا اعود ، لكن روحي ... تلهم الجيل أن يعيش أبيا

كيف اسخو بدفء ظلك ، لولا ... واجب هون المصاب علي

الزوجة — كم مرار جربت انك مهما ... تعتزم ، لن اطيق بالدمع منعك

كيف تغدو الحياة بعدك ..

علال — صفوا ... ونعيما ، فكفكفي الآن دمعك

فوداعا لكم ..

الزوجة — وداعا (يخرج)

الزوجة (وحدها) — اراه ... فرحا ، تفره بفيض ابتسامة

سوف امضي باثره .. هو يمشي ... رافعا راسه تجاه السيارة

اودع الخنجر السنين بمينا ... واختبى مصحفا ، ويرنو امامه

سار كالصبح للمساء يجلي ... عن حمانا سواده وظلامه

هللي يا بلاد ، رافقك النصـ ... ـر ، والقي لك الزمان زمامه



صراع بين الشهيد علال بن عبد الله وبين جلاد استعماري يوم افتتح البطل علال صفحة الكفاح المسلح

« ساحة المشور »

« 2 »

علال: الجواسيس والجنود احاطوا ... بالسبيل الذي سأسلك منه
غير اني اغامر الآن ـ يا رب ... تولاني ... (ينطلق ويسمع المنبه)
جندي: ابعدوا الناس عنه
علال: ها انا قد وصلت اختار ركنا ... صالحا للاجهاز حينا عليه
هو ذاك الذي امامي .. (ينطلق)
جندي: توقف
علال: ها انا (مع نفسه) هذا ما قصدت اليه
الجندي: اي شيء تقول ؟
علال: ما قلت شيئا ... قل متى موكب الصلاة سيخرج
الجندي: بعد حين يبدو المليك يحيي ... شعبه من هنا .. امامي سيدرج
علال (مع نفسه) رب هذي الجموع تجهل قصدي ... بعد لاي في الشرق والغرب يعرف
رب ان البلاد في ليل ظلم ... اي مظلوم ضائع الحق ينصف
يفرح الخائنون ان افل البدر ... وعمت بلادهم ظلماء
هل يموت الضمير ، او تحكم النفـ ... ـس ، ام الناس فيهم اللؤماء
فحرام عليهم ان يعيشوا ... بيننا ، نحن ثورة ومضاء
ما يريد الشجاع بالعيش فيه ... ذلة ، فالحياة شيء هراء
لست اقوى ان ابصر الظلم ... في الارض ، وفي النفس عزة قعساء

(يسمع محرك السيارة)

الزوجة: انني يا علال حولك ..
علال: سيري ... ابعدي عني ..
الزوجة: لم يطعني فؤادي
علال: اي شيء تريبن سيري بعيدا ... من هنا ...
الزوجة: لا تخف فاني سامضي
علال: ان تكوني هنا .. ومت .. تضحين ... حياتي ، والشر للشر يفضي
ارجعي ..
الزوجة: ها انا وداعا ..
علال: وداعا ... ظهر الخصم .. اتيتا يا يدي
فهجوما (يهجم قائلا :)
الله اكبر ، خذها ... ضربة من يدي ...
ابن عرفة: اغار علي

« تسمع طلقات نارية »

صوت: اضربوه ..
صوت: احملوا المليك من الارض
صوت: جروح به ..
صوت: فهيا احملوه
صوت: جرح الضابط الفرنسي فاهوى
صوت: ادركوا من اغار استنطقوه
علال (في حشرجة) الله اكبر في سبيل مليكنا ... فيه الحياة ..
صوت: اظنه قد ماتا
صوت: قد مات ...

(يسمع صفير سيارة الاسعاف)

صوت	بدا الفداء ...	
صوت		من البداية يعرف

اللوحة الثانية

اثر عودة صاحب الجلالة محمد الخامس رضي الله عنه ، حجت للمشور السعيد جماهير الشعب من انحاء المملكة المغربية ، وتجمعت امام القصر الملكي العامر ، حيث القى جلالته خطابه التاريخي الذي اعلن فيه ابتداء عهد الحرية والاستقلال ، وانتهاء عهد الحماية والحجر .

والحوار هنا يدور بين مواطنين شهدا هذا المهرجان العظيم .

الاول	الالوف الظماى تهرول للقصر	
الثاني		فاسرع .. كل المواكب تشدو
الاول		
الثاني	ساحة المشور السعيد تموج الآن	بشعب قد جاء للقصر يعدو
	من بلاد بعيدة ..	
الاول	اترانا	من زحام نضطر ان نتوقف
الثاني	لا تقف ها هنا بعيدا ، وحاول	نقرب المليك قد تشرف
الاول	لا فتات تسمو الوفود ، ورايا	ت ، وزي الشباب لماع رائق
الثاني	وهنا قد تساوت الناس في القد	ر ، غني ، فمعسر جنب سائق
		(هتافات تصفيقات)
الاول	انظر الآن .. فالمليك تجلى	
الثاني		وسمو الامير بدر منير
الاول	يا له تسطع المهابة منه	
الثاني		يهتف الشعب
الاول		والمليك يشير

(خطاب صاحب الجلالة بهذه المناسبة)

الاول	اعلن العرش اصبح الشعب حرا	فلنا من حكومة وجنود
الثاني	انظر الشعب يعضه قبل البعـ	ـض ابتهاجا بكسر تلك القيود
الاول	ابتسامات امة من جديد	سوف تحيي فخار تلك العهود
الثاني	صاح .. ان الوفود تدخل للقصـ	ـر ، فهيا نمثل امام المفدى
	ـر بنا واتئد ..	
الاول	نظام عجيب	
الثاني		نظم الشعب نفسه مستعدا
	انه ــ يا اخي ــ يعانقه الشعب فير	ضى عنهم ، ويلهم رشدا
الاول	يا مليكي .. فتحت قلبي لنور	منك ، فاعطف لعل قلبي يهدا

اللوحة الثالثة

« بيعة ولي العهد »

مهرجانات امة قد توالت فرحا بانتصارها وعلاها
ثم قال المليك : (لا يفلح الشعـ ـب اذا باستقلاله قد تباهى
ليس الا وسيلة لبناء) كلمة كان فى القلوب صداها
الشباب الشباب ، اخلص للعر ش ، ووفى عهوده ورعاها

الاب	هكذا تعظم الملوك وتسمو	سوف يروي الزمان معجز فعله
الابن	يومنا يا ابي يوافق ذكرى	مولد لابنه الامير المجد
	ساحة المشور السعيد رحاب	ان فيها له الولاية تعقد
الاب	عارف ما تقول ...	
الابن	ان جموعا	من شباب البلاد تاتي لتشهد
	وانا من كشافة الحي ، اني	سوف امضي مع الرفاق جميعا
الاب	سوف امضي وحدي	
الابن	وددت لو اني	سرت فى ظلك الحنون تبيعا
	انني يا ابي اريد ذهابا	معك اليوم ...
الاب		قم تفضل وهيا

(يخرجان)

الاب	ساحة المشور السعيد اراها	من زحام تموج بحرا عتيا
الابن	يا ابي ابصر المواكب تصطـ	ـف تباعا ، وقد اتتنا سويا
الاب	قطعت فى استعراضها سبلا شتـ	ـى ، وآبت الى هنا بعد ذاك
الابن	والمقاصير والخيام كثير	شكلها ، وزعت هنا وهناك
الابن	انظر الآن ..	
الاب	مادح وخطيب	
الابن		ان هذا مذيع الانباء
	سفراء الشعوب فى الخيمة الاخـ	ـرى ، حواليها ظلة الوزراء
	ارايت الابواق فى كل ركن	نصبت كي تضج بالاصداء
الاب	اوزير التهذيب ذاك تجلى	
الابن		انه يستعد للالقاء

الرباط : علال بن الهاشمي الفيلالي

أبو النصر المولى إسماعيل قدس الله روحه

للأستاذ عبد الله الجراري

بايع المغاربة بعد وفاة المولى رشيد ــ صنوه ابا النصر المولى اسماعيل الذي كان خليفته في فاس ، اذ نشأ نشأة العزة والكرامة والتربية الصحيحة الحسنة ــ التي كان ملوك المغرب ورؤساؤه يربون عليها ابناءهم ــ في القصور والمعاهد الخاصة . ذلك ما نشأ عليه ابو النصر ، فكون منه عبقريا نادرا صلب العقيدة ، متوفر النشاط ــ حريصا على مباشرة شؤون الدولة بنفسه بعد استشارة علماء الامة وذوي الخبرة من كتابها وساستها واعيانها ، وهذا ما يحفزنا في وضوح لتبرئته مما كان يرمى به من سفك الدماء والتذرع بقوة الشدة والبطش ، والذي يدرس في عمق البيئة التي كان يعيش فيها ، والوسط الصعب الذي كان يسوسه ــ يستطيع ان يتلمس العذر للبطل الاسماعيلي في الخطة التي رسمها لنفسه ، والاهداف التي كان يسير عليها في دولته .

انشاؤه جيش العبيد :

ادرك المولى اسماعيل ما كان من تألب الجنود البربرية على من تقدمه من الملوك ــ فأراد ان يقضي على هذه الظاهرة السيئة ــ فاندفع لتكوين جيش بالمغرب لا علاقة له بالقبائل المغربية بحيث يستطيع الاطمئنان اليه فيما يقرر تحقيقه من مشاريع مختلفة ، وساعده على تحقيق الفكرة ــ اطلاعه على سجلات جند العبيد الذين اتى بهم المنصور السعدي من السودان .

وسرعان ما أمر بجمع ما بقي منهم ــ مضيفا اليهم عددا جديدا استقدمه بنفسه من السودان ، واصبح الجيش المغربي وقتئذ يتوفر على 150 000 جندي .

وكان الشيء الاول الذي لفت اهتمامه الكبير هو تربية هؤلاء العبيد ــ فأمر قدس الله روحه ان يلقن الذكور منهم مختلف الصناعات حتى اذا بلغوا سن الخدمة العسكرية ــ ادوا يمين الاخلاص في صحيح البخاري على انهم لا يعملون الا لمصلحة البلاد العليا التي يسعى اليها الملك البطل . فعرفوا منذ ذلك الحين بجيش البواخر .

فعندما احضر كتاب الصحيح (صحيح البخاري) قال لهم : انا وانتم عبيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعه المجموع في هذا الكتاب ــ فما امر به نفعله وما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل فعاهدوه على ذلك .

وكذلك كان ــ فتنظيمه لجيش البخاري كان سببا قويا في نجاح كل العمليات العسكرية التي نظمها في الداخل والخارج ــ فوثوقه من هذه القوة واطمئنانه الى اخلاص رجالها جعله يوجه عنايته لاخماد عدة فتن اثارتها بعض القبائل العربية والبربرية في جنوب الاطلس وناحية المغرب الشرقي .

ولرغبته الملحة في اقرار الامن بالرقعة المغربية ــ أمر ببناء عدة حصون وقلاع في ملتقى الطرق الاستراتيجية وبجوار القبائل المطبوعة على التمرد والعصيان فاسس نحو 76 حصنا حربيا ، كما أقام في كل منها حامية من الجنود للاشراف على حركات القبائل المتمردة .

جيش الوداية :

لم يكن اعتماد المولى اسماعيل على جيش العبيد وحده ــ بل اتخذ جيشا مكونا من قبائل المغرب التي كانت مخلصة له ــ وكان يتكون من ثلاث فرق :

1) فرقة اهل سوس
2) فرقــة المغافــرة
3) فرقة الوداية

ولاهمية الفرقة الاخيرة وكثرة ثقته بها ــ سمى الجيش بجيش الوداية . وكانت ام العاهل الاسماعيلي رحمة الله عليه من بنات المغافرة من الودابة ــ لهـذه الظاهرة الطيبة كان هذا الجيش محترما جدا عنـد دولتنا العلوية المنيفة لان فيه اخواله الاباة .

وكان من جيوشه ــ جيش الريف العتيد الذي كان يحبه حبا جما حتى انه جرد جميع القبائل مـن السلاح ما عدا اهل الريف فقد تركهم وسلاحهـم ، وجعلهم جنوده المخلصين ، واستطاع فى هذه الاثناء ان يطرد الاوربيين من شواطىء المغرب .

اعادة الصحراء وبلاد السودان الى حكمه :

من مظاهر قوته انه اعاد الصحراء الكبرى وبلاد السودان الى حكمه فكانت حكومته ممتدة جنوبا الـى ما وراء نهر النيجر ، وامتدت شرقـا الى بسكـرة فى الجزائر .

اجلاء الاوربيين عن الشواطىء :

من قوة ــ البطل الاسماعيلي قدس الله روحه ــ انه استطاع ان يطرد الاوربيين من شواطىء المغـرب التي كانوا يحتلونها لما ضعف المغرب آخر عصر بني مرين والعصر الثاني من عصري السعديين ــ ففـي سنة 1092 هـ فتح المعمورة (المهدية) عنوة ــ وفي سنة 1095 هـ ارغم الانجليز على الخروج من طنجة بعد ان خربوها وهدموا اسوارها وابراجها ، ثم فتح العرائش سنة 1101 هـ . وفى سنة 1102 هـ فتح مدينة اصيلا ثم تقدم بعد هذه الانتصارات الظافرة الى حصار مدينة سبتة فى عشرين الف مقاتل وحاصرها حصارا عظيما .

نعم يعود الفضل فى جل هذه الفتوحات الـى الجيش الريفي الذي كان تحت قيادة القائد الشهير علي ابن عبد الله البطىء الذي مات فى حصار سبتة .

وعي المغاربـة الابـاة :

قد كان المغاربة يلبسون النعال السود حدادا على ما فقدوه من المدن المغربية ــ الى ان انتصرت راية ابي النصر ورفرفت اعلامها فى أجواء العزة والكرامة علـى الامة النصرانية واجلائها على اغلب مدن المغرب هناك استبشروا خيرا وخلعوا النعال السود مستبدليتهـا بالنعال الصفر . وتدل هذه الظاهرة الطيبة على الشعور النبيل الذي كان يسود المغاربة والاحساس الواعي الذي كان يغمرهم سراء وضراء .

عاصمـة ابي النصر العلوي :

علمنا ان المولى رشيد رحمه الله مؤسس الدولة على الحقيقة كان اتخذ قاعدة ملكه وعاصمته ــ مراكش البهجة الحلوة ــ وعندما تولى اخوه وخليفته الملك ــ جعل عاصمته مكناس ــ وقد اشبع الكلام عليها المؤرخ الكبير ابو القاسم الزياني ، قال : اما مبانيـه بقلعـة مكناسة ، وقصوره ومساجده ومدارسه ، وبساتينه فشيء فوق المعهود بحيث تعجز عنه الدول القديمـة والحديثة ــ من الفرس والروم واليونان والعـرب والترك ، فلا يلحق ضخامة مصانعه ما شيده الاكاسرة بالمدائن ، والفراعنة بمصر ، ولا ملوك الروم برومـة والقسطنطينية ، ولا اليونان بانطاكية والاسكندرية ــ ولا ملوك الاسلام ودوله العظام كبني امية بدمشق ، وبني العباس ببغداد ، والعبيديين بافريقيـة



ابو النصر المولى اسماعيل

ومصـــر ، والمرابطيـــن والموحـــديـن وبنـــي مرين والسعديين بالمغرب ، وما بديع المنصور بقصره من قصوره ، ولا بستان المسرة باحد من بساتينه — فقد كان عنده بجنان الحمرية — مائة الف قعدة من شجر الزيتون .

ثم يقول : ولقد شاهدت الكثير من آثار الـــدول فما رايت اثرا اعظم من آثاره ولا بناء اضخم من بنائه ، ولا اكثر عددا من قصوره .

البركة العظيمة والهري :

وقد جعل بقصبته العظيمة بالعاصمة المكناسيـــة — بركة عظيمة تسير فيها الفلك والزوارق المختلفة — للنزهة والانبساط ، وجعل بها هريا لاختزان الطعام من قمح وغيره مقبوا ، يسع زرع اهل المغرب ، وجعـــل جواره سواقي للماء في غاية العمق مقبوا عليها ، وجعل في اعلاها برجا مستديرا لشكل لوضع المدافع الموجهة الى كل جهة واسس بها اسطبلا عظيما لربط خيلـــه وبغاله مسيرة فرسخ في مثله مسقف الجوانب علـــى اساطين واقواس عظيمة في كل قوس ربط فرس وبيـــن الفرس والفرس عشرون شبرا — يقال انه كان مربوطا بها اثنى عشر الف فرس ، ومع كل فرس سائـــس وخادم . وفي هذا الاسطبل ساقية ماء دائرة مقبـــوة الظهر امام كل فرس منها ثقب لشربه ، وفي وســـط الاسطبل قباب معدة لوضع سروج الخيل على اشكال مختلفـــة .

ابو النصر وملك فرنسا — لويس الرابع عشر :

كان هذا العاهل العظيم معاصرا للويس الرابـــع عشر الذي يعد من اعظم ملوك فرنسا ، وكان له به شبه في قوته وعظمة ملكه الشيء الذي كون بين الملكيـــن القويين صداقة كبيرة ، وكان كل واحد منهما يريد ان تكون بين بلاده وبلاد الآخر صداقة تربـــط الامتيـــن العظيمتين برباط التعاون على قدم المساواة ففي سنة 1092 هـ الموافق 1681 م ارسل المولى اسماعيل الى فرنسا وفدا للمخابرة مع لويس الرابع عشر في مسائل تهم الدولتين . هنا يقول البعض من المؤرخيـــن : (ان السلطان اوصى رئيس الوفد ان يفاتح ملك فرنسا في امر اقترانه باحدى اميرات العائلة الملوكية الفرنسويـــة وهي الاميرة « دي كونتي » تأييدا لروابط المحبة الا ان هذا الوفد لم يصادف نجاحا .

وقد تعرض للقضية المؤرخ المرحوم ابن زيـــدان العلوي في تاريخه — الاتحاف — فلا اطيل بجلبها .

طلب الاسرى وكتب المساجد :

من اعمال البطل المولى اسماعيل نور الله ضريحه — انه بعث بعد التنبيه — سفيره الغساني الى اوربا ليطلب الاسرى وكتب المساجد — اما الاسرى فساعدوا على ارجاعها ، واما الكتب فكان القيم عليها راهبا يدعى (ميخائل القصري) من الشام فامتنع من تسليمهـــا باتفاق مع الملك « كارلوس الرابع » ومن بين تلك الكتب « مصحف كريم بخط المنصور السعدي » رجل دولة الاشراف السعديين . كتبه بمحلول العنبر — ومـــاء الورد — كما صرح بذلك في آخر المصحف . وكـــان « ليبي بروفانسال » طبع الورقة الاخيرة والاولـــى وبالاخيرة ما ذكر .

وفاة هذا البطل الافريقي العظيم :

عاش المولى اسماعيل حقبة طويلة لم يعش مثلها من ملوك الارض عدا — الناصر الفاطمي — فلقد مات سنة 1139 هـ وتولى الملك سنة 1082 هـ فظل ملكا 57 سنة كانت من احسن ايام المغاربة وله رحمة الله عليه من الآثار الخالدة ما يعجز القلم عن استيعابه في هـــذه العجالة المتقاربة الفقر .

الرباط — عبد الله الجراري

* * *

محمد الرابع

مخطط تصميم الإصلاح

للأستاذ حسن السائح

عند ما تحدث ابن خلدون في الفصل الرابع عشر من المقدمة عن اعمار الدولة الطبيعية التي تشبه اعمار الافراد ، ذكر « ان عمر الدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد الى سن الوقوف ثم الى سن الرجوع ، ولهذا يجري على ألسنة الناس في المشهور ان عمر الدولة مائة سنة ، فلهذا يجب اعتباره قانونا يصحح عدد الاباء في عمود النسب ، وقد شرح ابن خلدون نظريته على اساس العصبية باربعة اجيال ، ثم تنقرض في الجيل الرابع كما ينقرض الحسب في الجيل الرابع(1) » وفي الفصل السادس والاربعين عند ما تحدث عن « ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع ، ذكر بان الهرم سواء في الافراد او الدول من الامراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ، ورغم انه قد ينتبه كثير من اهل الدول ممن لهم يقظة في السياسة فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم ، ويظن انه ممكن الارتفاع فياخذ نفسه بتلافي الدولة واصلاح مزاجها عن ذلك الهرم ، ولكن ليس كذلك ، فانها امور طبيعية للدولة لان العوائد طبيعة اخرى (2) » . وقد تنبه المفكر ابن الازرق في كتابه (بدائع السلك) الى عدم اطراد نظرية ابن خلدون مبينا ان اشتراط الاربعة في الانساب انما هو في الغالب، والا فقد يندثر النسب من دون ذلك ويتلاشى ، وقد يتصل الى الخامس والسادس الا انه في انحطاط وذهاب ، قال واعتبار الاربعة من قبل انهم بان ومباشر ومقلد وهادم هو اقل ما يمكن (3)

ولكن التاريخ المغربي لم يلبث ان تطور فتجاوز مرحلته الفجة الى مرحلة وعي وضرورة استمرار الاستقرار ، واصبحت نظرية ابن خلدون غير صحيحة في تقدير اعمار الدول ، ويرجع ذلك الى ان استمرار الايديولوجيات يستلزم تجديدها وتطورها حتى لا تبقى جامدة فيسرع الانقراض الى حماتها .

وتساءل عن اسباب التغيير الذي لحق المجتمع المغربي فتغيرت تبعا له نظرية ابن خلدون ، اذ من الملاحظ انها لم تعد متماسكة سواء بالنسبة للدولة المرينية التي عاصرها ابن خلدون ولم يدرك نهايتها ، او بالنسبة للدولة السعدية التي عاجلها الفناء او للدولة العلوية فيما بعد التي ظلت صامدة قويةمستمرة الحيوية والنشاط .

فالدولة العلوية ظهرت قوية بعد سنة 1660 بعد ان اعلنت حركتها الاصلاحية ، وتعاقبت عليها الاعصار وهي تزداد قوة وهيبة ، ويرجع ذلك للاعتماد على (عامل العدل) الذي يصون الامة ، وتجنب (عامل الظلم) الذي يعاجلها لان الظلم داء الامم وءافتها ، واذا كان في وسع الدول ان تتجنب الظلم والطغيان ، وتحافظ على المثل الاعلى فلن يصيبها الوهن ، وقد يعتبر ابن خلدون هذا شذوذا ، ولكنه يمكن وقوعه ، فالاغراق في نظرية بيلوجية الدولة وعدم اعطائها مرفلوجية معنوية كان سببا في عدم اطراد نظرية ابن خلدون ، والملاحظ في

---

1) المقدمة ص 306 طبعة دار الكتاب اللبنانية .

2) المقدمة ص 528 نفس الطبعة

3) ص 14 مخطوط ابن الازرق ، تحقيق الحسن السائح .

تاريخ العلويين ان ملوكهم لم يكونوا يركنون الى الراحة ، فقد كانوا جذوة عمل وكفاح ، كما لم يكونوا يعتمدون على غيرهم بقدر ما كانوا يعتمدون على انفسهم في تسيير الدولة والحفظ على مقوماتها ، كما انهم التزموا لتعاليم الاسلام ، وحرصوا على ان يرتبطوا بالشعب ارتباطا ملتحما ، فلم يفهموا من الملكية حكما تشريعيا بقدر ما فهموا قيادة « ومسؤولية » ولم تلههم طبيعة الحكم عن العمل العلمي والوعي الثقافي ، فكان معظمهم من اساطين رجال الفكر ، كما كانوا يقضون فترة من اوقاتهم في الاطلاع على كتب السياسة الشرعية التي كانوا يستفيدون منها . ولست اشك انهم كانوا يتدارسون كتب ابن خلدون وابن الازرق والطرطوشي وغير ذلك من الكتب الفلسفية والسياسية والاجتماعية التي تعمر نسخ منها خزانة القصر الملكي ، ويذكر المؤرخ مولاي عبد الرحمان ابن زيدان في كتاب « العز والصولة » : ان المولى اسماعيل كان بعد صلاة العشاء يقبل على مطالعة كتب السير والسياسة الشرعية وتقلبات الدول ونوامسها واسباب ارتقائها وانحطاطها(1) ولم يشر مع الاسف الى الكتب المتدارسة حتى نتعرف على مناهج الدراسة التثقيفية التي تكون منها رجال فكر وعمل، كما كانوا يحرصون في تعليم ابنائهم ومواخذتهم بالشدة والزامهم بمتانة الاخلاق ، ويذكر صاحب « العز والصولة » في (فصل نظام تعليم الابناء (2)) كيف كان يحرص الملك على تعليم اولاده ويبحث عن سير الدراسة ونشاط الاساتذة .

واذا فجدية العمل واتساع الفكر ووعي المسؤولية والتزام المبدا وفعالية التنظيم والتطلع الى التطور الدائم ، كل ذلك كان سببا لاستمرار الدولة وتوطيد اركانها ، وثقة الشعب بها .

وساحاول ان اتخذ من الملك العظيم محمد الرابع مثلا لندرس فيه معالم التجديد لهذه الدولة ، ولعلي لست مبالغا اذا قلت ان هذا الملك عرف بلاده حق المعرفة وعرف العالم في عصره ، ثم اخذ على نفسه وضع مشروع لتطوير البلاد في اطار شخصيتها ، وتخطيط تصميم لتستمر عليه في حقبة طويلة لينقذها من الازمة التي وقعت فيها افريقيا والعالم الاسلامي ، ولم يكن في وسعه ان يوقف تيارا عنيفا جبارا تجمع منذ عدة قرون ، وفي مختلف الدول الحانقة على الاسلام ثم اندفع عنيفا قويا على المغرب ، ولكنه صمد بعبقريته ليرد هذا التيار الجارف . كما لم تكن طبيعة العمل تقتضي الطفرة والعجالة ، وانما تستوجب الاناة والتربص والصبر ، وقد وفق الى ذلك !

لقد كان محمد الرابع متطلعا للقيادة منذ صباه ، ولذلك فقد اهتم والده بتكوينه السياسي منذ حداثته ، وكان يفوض اليه امر تسيير الدولة ثقة بمقدرته وكفاءته ، بل قد عينه والده قائد الحملة ضد الفرنسيين الذين تحرشوا على حدود المغرب ليروعوا البلاد في خطة هجوم مثلث بالصويرة وطنجة واسلي فلم يستطع التغلب عليهم لاسباب سياسية . يخطيء كثير من المؤرخين في تحليل سبب انهزامه، وينساقون مع العواطف والاهواء في سرد احداث معركة يقودها شاب يافع بجيش عتيق التنظيم امام جيش يتوفر على امكانيات حديثة ، وتساعده الاجواء السياسية للوصول الى هدفه ...

ولم يكد ينعى المولى عبد الرحمن حتى اتفقت الامة على بيعة ولده محمد الرابع سنة 1276 ... الذي وجد نفسه امام امواج متلاطمة من المشاكل . فقد تحرش الاسبان من جديد على الحدود في الشمال فواجهه من جديد معركة انكى من معركة (اسلي) واحتل الاسبان مدينة تطوان سنة 1276 .

واثر الانهزام العسكري تأثيرا واضحا على هيبة المغرب ، فتسابقت الدول الجشعة على استغلال خيراته وتدخل الانجليز والفرنسيون والاسبان في الشؤون الداخلية ، وطالب اليهود المغاربة بتوجيه الرأسمالي الانجليزي (روشايل) بامتيازات خاصة .

وكان هذا كافيا ان يجعل الملك محمد الرابع في حاجة ماسة الى اصلاح جهاز الدولة وادخال تعديلات على شكلها ، لذلك احدث وزارة الشكايات (اي العدل) وتولاها الفقيه الصفيوي . اما وزارة الخارجية فقد كانت معروفة من لدن العصر الاسماعيلي ولكنها نظمت من جديد وكانت تسمى وزارة البحر والامور البرانية

1) « العز والصولة » ص 75 .

2) « العز والصولة » ص 45 .

بينما كان وزير المالية معروفا بامين الامناء ، ونظمت الحربية التي يسمى وزيرها بالعلاف ثم اطلق عليه الميلالاي اي الامير (الالاي) . اما منصب رئيس الحكومة فقد انشيء في عهد الملك الحسن الاول وتولاه لاول مرة الحاج المعطي الجامعي

وتصدى الملك لمواجهة المشكل العسكري بعد هزيمة (اسلي) و (تطوان) ، ولا شك ان الاحداث والوقائع هي التي تهز خلايا الفكر ، فمعركة (اسلي) الفرنسية ومعركة تطوان الاسبانية لفتت نظر الحكام والمصلحين الى ان الاصلاح الداخلي يجب ان يحمى بجيش يواجه تحرشات الاعداء ، ولكن الجيش المغربي في وضعه الذي كان عليه ، لم يكن في وسعه ان يجابه الخصم الذي تطور اسلوبه منذ عهد نابليون ، وقد كان الركود العسكري لا يناسب التطور السياسي لذي برهن عليه المغاربة

والمهم ان التطور العسكري كان ضروريا بعد تجربة معركة اسلي وتطوان ، حيث هب كثير من الكتاب يشرحون سبب الهزيمة ويرون انه يكمن في سوء التنظيم ولا صلة له بضعف عقيدة الامة ، ولا ارادة الجيش المعنوية ولا خبرة قادته المسيرين له بل ان المغرب كان يملك المدافع الجرارة الثقيلة والعتاد الوافر ، ومع ذلك فقد انهزم في بلاده ، والقائد اردنيل العامل تحت قيادة (ايزابيلا) الثانية اظهر في معركة تطوان تفوقا عسكريا من الوجهة التاكتيكية ، فانهزم المغاربة امامه ، وكان انهزامهم كما يقول الناصري « انهم لم يقاتلوا على ترتيب مخصوص وهيئة منظمة وانما كانوا يقاتلون وهم متفرقون ايدي سبا ، فاذا حان المساء تفرقوا الى محالهم في غير وقت معلوم وعلى غير تعبئة » .

وقد كانت معركة تطوان (ناقوس الخطر) الداعي الى تنظيم الجيش المغربي في عهد المولى محمد بن عبد الرحمن حتى ان الناصري يقول عنها : « هي التي ازالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب ، واستطال الناصري فيها (1) » .

ولذلك فلما انتهت المعركة بالصلح على حساب المغرب ، هب الملك سيدي محمد بن الرحمن لتنظيم الجيش حيث تأكد له ان هزيمة (اسلي) و (تطوان) انما ترجع لضعف التنظيم المغربي وتفوق الغرب على المغرب عسكريا .

ولا شك ان الملك سيدي محمد بن عبد الرحمن اطلع على انظمة الجيش الغربي والتركي ، ويلخص الناصري عن مؤلف « المصباح الساري » طريقة تنظيم جيش العثمانيين ، وهو الذي يقتبس منه تنظيم الجيش المغربي حيث يتضمن مشروع اجبار الخدمة العسكرية كما كان النظام الذي ذكره الناصري يقتضي وضع ديوان للجيش ، والدعوة الاجبارية للتجنيد : «حيث يجب ان يقضي كل مواطن خمس سنوات في الجيش ، ثم يسرح بعد هذه المدة ويعوض بغيره ، الا ان احتيج اليه ، ومن استوفى المدة العسكرية بقي معدودا في صنف الرديف سبع سنين اخرى ، ومعنى الرديف انهم كانوا عدة للدولة متى احتاجت اليهم في نازلة عظيمة ، فاذا مضت سبع سنين فهو حر ، ولا يكلف بحرب الا ان يرغب فيها واذن فجملة الخدمة العسكرية بين اصلية ورديفية اثنتا عشرة سنة »

ويشترط في المسجل بالجند ان يكون في سن العشرين الى خمس وعشرين ، فمن زاد او نقص فلا تقبله الدولة ، وعلى راس كل خمس سنوات تجري القرعة ويجتمع كل من هو في ذلك السن من اهل الناحية مثل مراكش واعمالها ، وفاس واعمالها ، والعدوتي الخ ... في يوم معلوم ، فيحضر نائب السلطان والقاضي والشهود ، ويكتب بطائق بعدد رؤوس الحاضرين ، فاذا اجتمع مائة ، ـ والمراد استخدام خمس ـ تجرى القرعة في البطائق ، ومن اخطأته القرعة يسرح الى حال سبيله ، لكنه اذا جاوز سن العسكرية وهو خمس وعشرين سنة يصبح في صنف الرديف الى سبع سنين)

ثم تكلم الناصري عن البرنامج التربوي الذي يلقن للجيش يعلم امر دينه ، والتربية الاخلاقية وسيرة الابطال ، وسيرة الانبياء ، ويلزمون بالنظافة والمروءة وترك الدخان ، والموبقات ، ثم يعلم بعد ذلك الدروس الحربية بلغة عربية لا عجمية)

1) الناصري . الاستقصا ج 9 طبعة دار الكتاب .

ولست في حاجة الى سرد ما ذكره الناصري عن تنظيم الجيش ، ولا ما ذكره مؤلف كشف الغمة عن وجوب الحرب النظامية ، وانما اؤكد ان هزيمة تطوان كانت اشد من خطر (اسلي) فقد كان الاسبانيون يرومون الحاقها باسبانيا ، كما وقع لغرناطة المسلمة ، ولذلك حولوا ضريح سيدي البقال الى كنيسة ، وحولت باقي المساجد الى مخازن وماوي للجيش ، بل حولت المدينة نفسها على وفق التعمير الاسباني ، ثم اخذ الاسبان يتصلون منها بالقبائل المجاورة لاثارة الشغب والفتنة حسب الاسلوب الاستعماري المتبع

ولكن الانجليز والفرنسيين فوتوا هذه الفرصة على الاسبان ، فاقنعوهم بالخروج منها واشترطت اسبانيا فداءها بالعملة الصعبة بدلا من المواد الخام والحبوب التي كان الانجليز يستوردونها لانفسهم ، وقرض المغرب ما يفدي به عاصمة الشمال ، حتى يقع في الافلاس المالي الذي يساعد دائما الدول الاستعمارية على التدخل في البلاد

وبعد انتهاء فرنسا عن حرب سنة 1870 وسيطرتها على الجزائر سنة 1871 ، توجه تفكير الفرنسيين الى ابراز هيبتهم في البلاد المغربية ، وقد كان القنصل (تيو) (Tissot) منتدبا لهذه المهمة ومتعاونا مع السلطة الفرنسية في الجزائر ، وفي تقريره المهم الذي وجهه الى وزير خارجية فرنسا (رموزا) (Remersa) وصف لمهمته الشاقة في المغرب ، وما كان يشعر به الملك من وخز هزيمة (اسلي) كما يعطي صورة لشخصية الملك ونفسه ومقدرته ، ومتاعبه خصوصا بعد مرض التسمم الذي اضعف قواه ، زيادة على ارهاقه لنفسه بدراسة العلوم او بالاخص المتعلقة بالمدفعية التي ادرك فيها شاوا عاليا . ولقد واجه الملك تدخلا اجنبيا خطيرا ، فقد صدرت بالجديدة صحيفة بالفرنسية تكشف للغربيين عن خيرات المغرب لاثارة التنافس والتهالك على البلاد البكر ، وبلغ اوجه يوم اقترح المهندس مسلمان مشروع احداث سكة حديدية تربط بين الصويرة ومراكش .

وافتضحت مؤامرة الفرنسيين في ضواحي وزان وورديغة واستغلالهم للمتعوذين من ادعياء الطرقية للتسرب الى وجدان الامة زيادة على البعثات التبشيرية والطبية والعلمية التي تعمل لحساب المستعمرين ، وتجاوز التجار الاجانب جلب البضائع من المواشي الى داخل الاسواق النائية ، وشجعوا مرهفي الوطنية على الانضواء تحت حمايتهم ، فاستوردوا الصوف الى بلادهم بطريقة لا تخضع لمراقبة الدولة ، وبذلك اخروا الاقتصاد العام وعرضوا ارباب الحرف للفقر المدقع بسبب الكساد

وحاولت السلطة التضيق على المحميين ومراقبتهم ولكن القناصل كانوا يتدخلون ويمدونهم بالعون المادي والادبي ، والامتياز في المحاكم حتى يتفوقوا اقتصاديا ومعنويا على منافسيهم

ويتجاوز التجار الغربيون ما رخص لهم من جلب الصوف ، بل اشتروا الماشية ووضعوها تحت حماية مواطنين لجز صوفها ، وبعثها الى عواصم الغرب ، وبذلك اصبح كثير من الفرنسيين ملاكا للماشية وبالاخص في قبيلة اولاد حريز

وكانت نتيجة التدخل الاجنبي ان تصدير الصوف والحبوب لم يصحبه تحسن في الميزانية العامة ، وبقيت الاثمان في انخفاض والمعاملات التجارية تفقد قيمتها ، وتنمرت كثير من الدول للمغرب فطالبت الدانمارك من حكومة المغرب ان تسقط عنها ما تدفعه للمغرب .

وازاء هذا الوضع الاقتصادي المؤلم سعى الملك الى تحسين العملة على اساس رفع قيمة الأوقية وترويج عملة الذهب والفضة ، والضغط على العملة الاجنبية التي كانت منافسا خطيرا لعملة البلاد في الخارج بل وفي الداخل ايضا ، فسك الدرهم الشرعي ، وحمل الناس على التعامل به وحده ، وحث على تشجيع البضاعة المغربية ، فشارك المغرب لاول مرة في معرض باريس العالمي ... ولم يكن في وسع اي مشروع انذاك ان ينقذ البلاد من الازمة على اساس وطني ، واذ كان المؤرخون الاجانب يرون ان محاولة تحسين الاقتصاد كانت فاشلة ، فهم ينظرون اليها من زاوية اجنبية محضة.

وعلى الصعيد السياسي ، دشن الملك فكرة استغلال التنافس الاستعماري والقاء المتنافسين الى الصراع فيما

---

1) مهمات ديبلوماسية فرنسية بفاس (فرنسواشارل روكس) ص 42 .

بينهم ، ليتمكن من فرصة زمنية فيصلح داخل البلاد ثقافيا واقتصاديا واداريا

ومن حسن الحظ ان اوربا كانت تعاني صراعا مريرا بين (بسمارك) و (نابليون) الثالث و (القيصر) والانجليز والاسبان ، سواء في مجال القارة السوداء او في مجال السيطرة على البحار ... فاستغل الملك هذا الصراع لينقذ البلاد ، وعرض عليه الانجليز مساندته لرد عدوان الاسبان على تطوان بشرط التضييق على نشاط القنصل الالماني (ويبر) بينما كان الملك يرى في بسمارك خصما عنيدا للفرنسيين ، ويعلم انه يمد (ويبر) بدلا من (فون كلش) بالعون ليزعج الفرنسيين بل اعانت تقارير (وانفرن) على ابراز نشاط بيع الفرنسيين والاسبانيين للاسلحة بالمغرب لاغراء المفسدين

واضطر الملك ان يبعث الى فرنسا سفارة سنة 1282 برئاسة القائد العسكري محمد الترقي ، وعامل سلا محمد السلاوي ليتدخلوا لدى الحكومة الفرنسية لتضع حدا لعمل من يمثلون فرنسا في المغرب من التجار .

واهتم الملك بتطوير الفكر المغربي وتنويره ، فعين جماعة من العلماء وعلى راسهم البريبري للسهر على طبع الاثار العلمية ، وطبع الكتاب المغربي ليتوجه القضاة والعلماء على كتب مغربية ، وبعث الى ملك مصر (الخديوي سعيد) جماعة من الطلاب لدراسة الرياضيات والطب ، وفعلا توجهت بعثة الى مصر ، منها محمد العلمي وشهبون والاودي وابن كيران

وفي كتاب « المفاخر العلمية والدور السنية في الدولة الحسنية العلوية » لعبد السلام اللجائي ان الفقيه العلامة الطيب الروداني لما حج ورجع من سوس اهدى للملك سيدي محمد الرابع (المطبعة) وقدم له شيخا كبيرا عارفا بكيفية الطبع فقبل الملك منه الهدية واكرم الشيخ واجرى عليه النفقة واعطاه ما يحتاج اليه ممن يخدمه .

وهذه المطبعة التي اصبحت واقعا ، كانت امنية تمناها السفير ادريس بن الوزير ابن ادريس الذي رحل الى باريس سنة 1276 هـ 1860 م وتمنى (بوجود سيدنا مولانا امير المومنين ان يكمل محاسن مغربنا بمثل هذه المطبعة ، ويجعل في ميزان حسناته هذه المنفعة)

واخذت المطبعة تودي عملها كمؤسسة حكومية تسمى (بالمطبعة السعيدة) او (المطبعة المحمدية) يتعاون على نفقاتها الخزينة العامة والاحباس ، حيث طبعت « الشمائل » و « مختصر ميارة » و « حلى المعاصم » لابن سودة

ثم حاول الملك المصلح محمد الرابع ان يؤسس مطبعة بالحروف السلكية بدلا من المطبعة الحجرية وحالت موته دون تحقيق هذا المشروع الضخم ، وفي كتاب « المعيار » فتاوي عن جواز طبع الكتب ، وعن اول مطبعة في الاسلام مما يدل على المغرب تاخر في حركة الطبع عن بعض العواصم (1)

اما الاصلاح الداخلي فقد اهتم الملك باختيار العمال للبلاد لاقامة العدل والسهر على الامن ، واسس معامل كثيرة منها معمل للسكر بمراكش ، وشيد عدة ابراج على الشواطيء لتشغيل العاطلين وخلق رواج اقتصادي ، واصلح نظام الري في البادية باقامة خزانات للمياه وجسور على الاودية ، وكلف القنصلية الالمانية باستدعاء مهندس لبناء جسر حديدي يربط بين البيضاء والرباط

ووجه ولي عهده الحسن الاول الى جنوب المغرب لتنظيم شؤونه واقرار الامن به سنة 1280 و سنة 1282 برفقة المسفيوي وابن عزوز والوزير ابن داني (2) ، كما قضى على فتنة الجيلالي الروكي وفتنة بعض قبائل الرحمنة (3)

---

1) معيار الوزاني ج 11 ص 336 .

2) انظر تفاصيل ذلك في كتاب تاريخ ابن زيدان ص 117 وكتاب ايليغ قديما وحديثا للمختار السوسي ص 279

3) انظر الجيش العرمرم لاكنسوس

والحقيقة ان الاصلاحات اخذت توتـي اكلها في وقت مبكر ، فلم يودع الملك محمد الرابع الحياة حتى شاهد جلاء الاسبان عن تطوان ، وتحسن العملة المغربية وازدهار الاقتصاد الوطني ، ورغم ان الخبراء الماليين الاجانب رأوا في الاصلاح المغربي للاقتصاد مشروعا خياليا ، فقد اعترفوا بتغير الحالة حيث اصبحت العملة المغربية محترمة في الداخل والخارج وبذلك تحسنت القدرة الشرائية

وشيدت في البـلاد جسـور وحصون ، وجـددت جوامع وقصور ، وعاد كثيـر من الطـلاب الى المغرب فاقام العلمي مصحة بفاس كما وضـع شهبـون والاودي خرائط للبلاد

على ان اعظم ما ترك للمغرب بعد وفاته هو ولده الحسن الاول ، ذلك الملك العبقري الذي تتمنـى ان تخصص له دراسة وافية

الرباط : حسن السائح

« ... وانني أعاهد الله واعاهدكم على ان اضطلع بمسؤولياتي ، وأؤدي واجبي طبق مبادىء الاسلام ، وقيمه السامية ، وتقاليدنا القومية العريقـة ، ومقتضيات مصلحة الوطن العليا ، كما أعاهد الله وأعاهدكـم ، على أن ادافع عن حوزة الوطـن واستقلاله وسيادته ، واحرص على وحدته واعلاء شانه بين الدول .

وسأسعى كل السعي ، لأحذو حذو جلالـة والدي المرحوم ، في خدمة الشعب ورعاية حقوق ابنائه وحرياتهم ومصالحهم ، والمحافظـة على المكـاسب القوميـة ، والعمل لتنميتها ، وبذل كل الجهـود ، لتحقيـق تقـدم الامـة وتمهيـد سبـل النهـوض ، والسعـادة والرخـاء أمـامهـا . »

من النداء الاول الذي وجهه جلالـة الحسـن الثانـي ـ أيـده الله ـ الى الشعب المغـربـي (3 مارس 1961)



تعتبر الفترة العصية التي سبقت تاسيس الدولة العلوية من اخطر الفترات التاريخية لبلادنا ، سواء لطول مدتها ـ نحو 68 سنة ـ او للمضاعفات السيئة التي توالت فيها وعاني منها المواطنون الأمرين ، وتفككت اوصال البلاد اكثر من اي وقت مضى حتى كادت الوحدة الوطنية تصبح اثرا بعد عين . وبالرغم مما لهذه الفترة من الأهمية التاريخية ، سواء من الناحية السياسية او الاجتماعية ، فان احدا لم يتصد لدراستها بما يجب من الاستقراء والتعليل والاستيعاب ، شان ما هو واقع في تاريخ بلادنا كله للاسف . ونحن اذا بحثنا فيما كتب الكتاب الذين عاشوا في ذلك العهد عنه لم نجد سوى لمحات خاطفة وردت عرضا في بعض كتبهم ، (كالاصليت) لأحمد بن ابي محلي و (مرءاة المحاسن) للعربي الفاسي ، و (والمحاضرات) للحسن اليوسى ، و (مباحث الانوار) لاحمد الولالي ... وفي الاجيال التالية سجل المؤرخون بعض احداث فترة ما قبل العلويين بطرق متباينة لا تعدو في الغالب سرد الاحداث السياسية ، والاشارة الى الحوادث الطبيعية دون اي تعليل او ربط وتسم كلها بطابع الاختصار المخل ، كأن هولاء المؤرخين لم يكونوا يرون قمينا بالاطناب في الحديث غير الدول المزدهرة والعصور النيرة ، اما الفترات المظلمة ، ولو طالت وقاسى الناس منها الاهوال فلا احسن من غض الطرف عنها لتصبح نسيا منسيا . وكأنهم لم يدركوا ان فهم التاريخ لا يتم بدونها وان تعليل الاحداث السابقة واللاحقة يتوقف عليها . هكذا نجد طائفة من اخبار عهد ما قبل العلويين عند المؤلف المجهول في (تاريخ الدولة السعدية التكمادرتية) ومحمد الافراني في (نزهة الحادي) ، وعبد القاهر املاق في (الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد) . وحتى ابو القاسم الزياني ومحمد اكنسوس المتخصصان في كتابة تاريخ الدولة العلوية ، لم يوليا الفترة التي سبقتها ما تستحق من اهتمام . فلم يكتب عنها الزياني سوى بضع صفحات في (البستان الظريف) ، وذيل (الترجمان المعرب) و (بغية الناظر والسامع) . ولم يفعل اكثر من ذلك اكنسوس في (الجيش العرمرم الخماسي) ولعل اجمع واحسن ما كتب في الموضوع ما اتى به احمد الناصري في (الاستقصا) حيث نجد الجزء السادس ـ من طبعة الدار البيضاء ـ كله في موضوعنا . وحاول المختار السوسي ان يسلط بعض الاضواء على امارة ايليغ الجنوبية في (ايليغ قديما وحديثا) ، كما حاولت التعريف بامارة الدلائيين في الاطلس والسهول الغربية في (الزاوية الدلائية) . وتكدس الوثائق المغربية ـ الاوربية لهذه الفترة في المجموعة الضخمة (وثائق غير منشورة) التي ابتدأ اصدارها الكونت هنري دو كاستر منذ 62 سنة ، واعني منها سلسلات فرنسا وانجلترا والبلاد الواطئة . وينتظر صدور وثائق عهد ما قبل العلويين في سلسلتي اسبانيا والبرتغال . اذ وصل الجزء الاخير من سلسلة اسبانيا ، وهو السادس والعشرون الذي صدر سنة 1961 ، الى معركة الملوك الثلاثة .

واذا كنا لا نزعم لانفسنا حق البحث في موضوع متسع الجوانب كهذا ، في لمحة موجزة كمقالنا ، فلا اقل

من ان نقف وقفة تأمل هادئة تلمس فيها الخطوط الرئيسية والقسمات البارزة عسى ان نثير بذلك اهتمام الباحثين من طلابنا المتحمسين للكشف عن مكنون ماضي بلادهم، سواء في الميادين التاريخية او الاجتماعية.

* * *

ان تسلسل الاحداث يدعونا الى تقسيم الفترة التي سبقت تأسيس الدولة العلوية الى ثلاث مراحل. تمتد اولاها من وفاة احمد المنصور الذهبي (1012 / 1603) الى موت ابنه زيدان (1037 / 1627). وفيها انهد صرح السعديين دفعة واحدة « كجلمود صخر حطه السيل من عل ». فقد باتت دولة الزيدانيين في قمة مجدها محصنة الاركان، شامخة البنيان، مزهوة ببطلها المنصور الذي تمكن من القضاء على فتنة ولي العهد المامون في مهدها، كما قضى قبل على كل بادرة من ذلك النوع، فتفقد احوال البلاد الرافلة في حلل الامن والاستقرار والازدهار، وهو على اتصال مستمر مع اليليزابيت ملكة انجلترا يضعان الترتيبات الاخيرة للقيام بعمل مشترك من اجل احتلال بلاد الهند، بعد ان كون داخل القارة الافريقية امبراطورية عظيمة انتشرت في حوضي النيجر والسنگال وامتدت من المحيط الاطلسي حتى بلاد النوبة في التخوم المصرية. باتت الدولة السعدية في هذه القمة، واصبحت في الحضيض تبكي منصورها صريع الوباء في ظاهر فاس، وتندب حظها العاثر لتطاحن ابنائه على الملك من بعده، دون ان يعملوا الفكر والروية لا لصالح البلاد ولا لصالح اسرتهم التي ما كانت لتظل في الحكم وهم متنافرون متشاكسون. ويابى الله الا ان تطيش احلام « اهل الحل والعقد » من العلماء والقواد والاعيان، فبادر الفاسيون الى مبايعة الامير زيدان، وكان المنصور قد استدعاه من مقر عمالته في تادلا وولاه على فاس مكان المامون ولي العهد المعزول. ويرى المراكشيون في استبداد الفاسيين افتياتا عليهم واستخفافا بشأنهم، فيبايعون بدورهم ابا فارس خليفة المنصور في دار ملكه. وبدلا من ان يسعى ذوو المكانة والنفوذ في تلافي الامر وحل المشكل تسرع علماء فاس فأفتوا بوجوب قتال المراكشيين عملا بحديث « اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما ». والتقى جيش الملكين الاخوين على ضفة نهر ام الربيع. وكان ابو فارس لم يحضر القتال بنفسه، وانما اناب عنه اخاه المامون بعد اخراجه من السجن، واسفرت المعركة عن انهزام زيدان، ووجد المامون نفسه في عزة ومنعة بعد ان انضم اليه جند اخيه المهزوم، فقلب ظهر المجن لابي فارس واعلن نفسه ملكا على فاس. وظل اخوة الثلاثة يتنازعون الملك مدة طويلة دون ان يتم الامر لواحد منهم، فعمت الاضطرابات ارجاء البلاد كلها، وانتهى امر المامون بتسليمه مدينة العرائش الى الاسبانيين (1019 / 1610) طمعا في مساعدتهم له، فغضب عليه الشعب وقتله في ضواحي تطوان، كما قتل اخوه ابو فارس خنقا قبله، وقبع زيدان اخيرا في مراكش صارفا نظره عما وراء نهر ام الربيع، تاركا امر فاس وغيرها لعبد الله بن المامون ومنافسيه من الثوار. وقد انقرض امر السعديين في فاس بموت عبد الملك بن المامون (1036 / 1627).

لم يهنأ زيدان حتى بالجنوب الذي قنع به، اذ قام عليه احمد بن عبد الله بن ابي محلي في بلاد الساورة (1) مدعيا انه المهدي المنتظر، واستخف عقول العامة في درعة وتافيلالت واستطاع ان يطرد من مراكش زيدان الذي حمل معه اثناء فراره ما عز من الذخائر، ومن بينها مكتبة المنصور العظيمة المحتوية على 32.000 مجلد (2)، المشتملة على ذخائر علمية وفنية لا تقوم بثمن، من نسخ اصلية لكتب الفت للخزانة السلطانية واهديت اليها من طرف مؤلفيها اعلام المغرب والمشرق اذ ذاك، في الميادين العلمية والادبية والتاريخية. ومن مخطوطات مزخرفة محلاة بالذهب، ابدعتها انامل فنانين من امهر الوراقين والسفارين العرب والعجم. وقد عهد الامير الهلوع الجزوع بهذه الذخائر الى احد الاغراب من البحارة الفرنسيين لينقلها له من آسفي الى

1) الساورة: منطقة صحراوية مركزها قرى بني عباس، اغتصبها الفرنسيون في جملة ما اغتصبوا من جنوب المغرب والحقوها بالجزائر.

2) ذكر هذا العدد الشهاب الحجري ترجمان بلاط المنصور واحد العاملين في المكتبة، في كتاب (ناصر الدين): انظر النقل عنه في مجلة (دعوة الحق)، السنة الثانية، العدد الثالث، ص 23.

احتى المراسي السوسية ما دامت الطريق البرية غير مامونة . فكانت تلك الكارثة الثقفية التي حرمت البلاد من عصارة ادمغة خيرة ابنائها ، والقت بالحمولة العلمية الثمينة في غياهب دير الاسكوريال بضواحي مدريد ، على اثر مؤامرتي الاختطاف والقرصنة المشهورتين ... وستطول غيبة زيدان عن مراكش نحو ثلاث سنوات ، ولن يستطيع اخراج ابن ابي محلي (المتمهدي) من قصر البديع الا على يد صوفي ءاخر هو يحيى الحاحي الذي سيظل شوكة في جنب زيدان ، يمن عليه بالنصرة ، ويستبد دونه ببلاد الاطلس وسوس الى ان يقضي في السنة التي سبقت وفاة زيدان .

* * *

وشهدت المرحلة الثانية (1037 ــ 1051 / 1627 ــ 1641) مزيدا من التدهور في السلطة المركزية ، فعبد الملك المتملك الجديد كان اوهى عزما واسوأ حظا من ابيه ، لم يستطع بسط نفوذه على ابعد من ضواحي العاصمة، وكان مصيره القتل على اتباعه كما لقي اخوه من بعده، الوليد ومحمد الشيخ ، نفس المصير المفجع . وظهرت في الجنوب امارة ايليغ ، واستبد رئيسها ابو حسون علي بودميعة، حفيد الشيخ احمد بن موسى السملالي، بحوض سوس كله بعد ان انفسح المجال امامه بموت الحاحي . وامتد نفوذ بودميعة في بعض الاحيان الى بلاد درعة فتافيلالت . وقامت امارة المجاهد محمد العياشي بسلا ، وانضوت تحت لوائه جميع السهول الغربية من آزمور الى تطوان ، وادى تكاثر المهاجرين الاندلسيين في هذه المنطقة الى خلق « المشكل الموريسكي » اذ كونوا كتلة متميزة بعاداتها وعقليتها ، خصوصا بالرباط والقصبة (الوداية) وعززوا اسطول الجهاد في العدوتين بما لهم من رجال ومال ، وما ملكوا من سفن عظيمة . وقامت على الاثر « جمهوريات مدن ابي رقراق الثلاث » على غرار الحكومات المستقلة في المدن القرصنية الشهيرة كالبندقية وجنوا . وادى اختلال توازن القوى الى قيام فتن طويلة الامد بين الموريسكيين والمجاهد العياشي لم تنته الا باغتيال هذا الاخير .

* * *

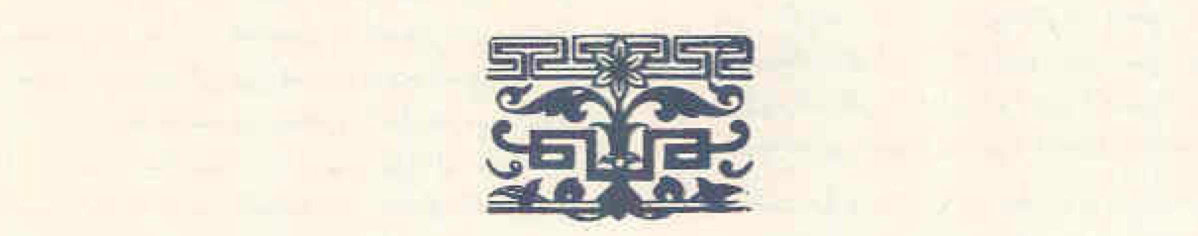
اما في المرحلة الاخيرة (1051 ــ 1080 / 1641 ــ 1669) فقد طفح الكيل وازداد ضيق افق النفوذ السعدي ، ولم يعد لمحمد الشيخ المقيم في مراكش اي نفوذ او ذكر الى ان اغتيل ، وصرع بعده ابنه احمد ءاخر الملوك السعديين (1069 / 1658) فاستبد عرب الشبانات بعاصمة الجنوب ، بينما اقتسم النفوذ سائر البلاد ثلاثة من المتزعمين : ابو حسون السملالي في سوس ، ومحمد الحاج الدلائي في الاطلس والسهول الغربية ، ومحمد ابن الشريف العلوي في تافيلالت . كان محمد الحاج قد نزع الى الحكم اثر وفاة والده الشيخ محمد بن ابي بكر الدلائي ، وانضم اليه برابرة زيان ، فاسس مدينة الدلاء او الزاوية الدلائية الحديثة في سفح الاطلس بين خنيفرة وقصبة تادلا ، واتخذها عاصمة اسكن معه فيها خمس قبائل من اكثر سكان الاطلس المتوسط عصبية وحمية ، فاستكمل بذلك مظاهر الابهة والسلطان ، وتكونت لديه قوة حربية هائلة يصول بها ويجول زهاء ثلث قرن ، ويمتلك زيادة على الاطلس ومجرى وادي ملوية بلاد تادلا والغرب حتى تطوان .

اما محمد الشريف العلوي فقد تزعم في منتصف القرن الهجري الحادي عشر حركة خلع نير ابي حسون السملالي الذي امتد نفوذه الى تافيلالت ، واثقل كاهل اهلها بالمغارم الفادحة ، وانزل اقسى العقوبات بالرؤساء وذوي الجاه ممن يتوسم فيهم خلق صعوبات في وجه سلطته . وكان من ضحاياه الشريف بن علي الحسني الذي قضى سنوات عديدة سجينا في سوس . فما كان من الابن الشاب محمد بن الشريف الا ان ثأر لابيه وقاد حملة طردت السوسيين بعيدا وجعلوا منه زعيم تافيلالت واميرها بدون منازع .

والمجال لا يسمح بالاسترسال في ذكر رؤوس المسائل السياسية ، بله التحدث عن الحالة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في الفترة المظلمة التي سبقت تاسيس دولة العلويين . وكلنا يعلم ما اصاب الحياة العلمية في بلادنا من تدهور بسبب تقتيل العلماء وتشريدهم واهمال شؤون الطلبة والمدارس والمعاهد ، اللهم الا ما كان من احتضان المراكز البدوية للعلوم الاسلامية خصوصا الزاوية الدلائية . وما نشأ عن تفكك السلطة من انعدام الامن وانتشار الجور وقطع السبل ، وفساد الاخلاق بذيوع شرب الدخان واكل (الحشيش) والاقبال على رقص القيان ... هذا الى تبديد الثروة

الطائلة التي كانت تكتظ بها الخزائن ودور الضرب في قصبة مراكش، وبضيع مستورد الذهب بالسودان، والقضاء على اهم موارد الرزق بافساد واهمال حقول قصب السكر ومصانعه ، وتوقف الحركة التجارية الداخلية بقيام الحواجز الاصطناعية بين الامارات المتنافسة . وحتى التجارة الخارجية فقدت فعاليتها بعد ان وجد المضاربون الاجانب مجالا للخوض في الماء العكر بالتضريب بين مختلف الامراء ، واحتل التهريب الدرجة الاولى في هذه الصفقات الخاسرة بالنسبة للمغرب : تهريب الاسلحة الاوربية الفتاكة وتزويد الثوار والمتزعمين بها لتظل نيران الفتنة مشتعلة ، وتهريب الذهب والنحاس وملح البارود وسواها من المعادن الثمينة امعانا في افقار وتقطيع اوصال هذه البلاد التي عدمت النصير المتبصر من ابنائها ، حتى ظهرت اعلام الرشيد بن الشريف في المغرب الشرقي ، وقوي امره بالدخول الى تازا وفاس، ثم بالاستيلاء على تافيلالت اثر القضاء على اخيه محمد ابن الشريف (1075 / 1664) ، وتمكن في السنوات الخمس التالية من ان يقضي على اثار الدلائيين والشبانيين والسملاليين ، ويعيد للبلاد وحدتها التي افتقدتها منذ عشرات السنين

الرباط : محمد حجي



أميرات علويات يساهمن في تدعيم العلاقات بين المملكة المغربية وغيرها من الممالك الأخرى .

للأستاذة ثريا بوطالب

لا اردد هنا القولة السائرة : (ان وراء كل عظيم امراة) ولكني ساقول ان حظوظ الرجل في النجاح يرجع الفضل في شطرها – ان لم اقل في الجزء الاوفر منها – الى زوجته بالذات ، فهو بعد ان يختفي عن الناس يدخل الى البيت حيث يلتقي هناك بانسانة يتحدث اليها في هدوء ، بعيدا عن الصخب ، وفي اخلاص بعيدا عن الريبة .. وهنا يمكن ان نتصور الكسب الذي يحصل عليه هذا الرجل وهو يستعرض اعمال يومه مع زوجته ، وما يلتقطه في منعطفات الحديث مع اهله وذويه من حكمة تنفعه ، او تدبير يلجأ اليه ، واذا كنا نتصور هذا في الاسرة العادية ذات المشاكل المحدودة التي لا تتعدى الدار او المكتب او المتجر او المعمل .. فينبغي ان نتصور هذا ايضا في بيوت القادة والزعماء وفي قصور الملوك والرؤساء ، بل ان هذه البيوت احق ان يلتمس فيها اصحابها مشورة زوجاتهم ومراجعة حظياتهم لانهم في خارج البيت قد لايجتمعون بمن يستطيع ان يتحدث اليهم في صراحة وفي راحة ، وقد يبتلون بنوع من الناس دأبوا على تحبيذ كل الخطوات ، وتحسين كل الخاطرات .. لذا ، فان حاجة الملوك وكبار المسؤولين الى من يفاتحونهم الحديث ويشاطرهم مشاعرهم في الدار ضرورة في غاية الالحاح ، ولذا نسمع من قديم عن ملوك كانوا يتخذون من زوجاتهم مستشارات ومساعدات ومواسيات لوقت اختلائهم بمشاكلهم عن انظار الناس ، وسمعنا عن ان القادة اذا لم يكن عندهم من يلجاون اليه في البيت يكون توفيقهم محدودا ونجاحهم قاصرا ...

*

ومن الطريف جدا ان تاريخ المغرب يتوفر على عدد من السيدات اللواتي كن لازواجهن خير معين ، بل عدد من الاميرات التي شاركن ازواجهن الامراء في المعارك ، وقاسمنهم السراء والضراء والفشل والنجاح

وقد لفت نظري بالخصوص حادثان بارزان عندي بالرغم من انهما ذكرا عرضا بين ثنايا السطور المقروءة، وقد جاء بروزهما من جهات ثلاث :

اولا انهما وقعا في وقت مبكر من تاريخ الدولة العلوية .

ثانيا انهما ساعدا الى حد كبير على تقوية اسباب الصداقة بين المغرب وبين دولتين اوربيتين عظيمتين .

ثالثا ان الملوك الذين وقع الحادثان في عصرهم اشتهروا – عند بعض الاوساط الاجنبية على الاقل – بان موقفهم حيال المراة كان شديدا ، وانهم كانوا لا يولونها كبير اعتبار في الشؤون الجارية بالبلاد .

واذكر في صدر هؤلاء الملوك مولاي اسماعيل الذي اشتهر اسمه كثيرا عند بعض الناس على انه سلطان لا يعتمد الا على رايه الخاص وان السياسة الخارجية للبلاد كانت رهنا بين شفتيه هو فقط. فلقد نقل المؤرخون الاروبيون انفسهم ان مولاي اسماعيل كان في بيته مثال المعاشرة الطيبة ومثال الخلق الدمث ، نقل ذلك بعض الاسرى الاجانب ممن كانوا يعملون داخل القصر بمكناس ، وممن كان السلطان لا يقصيهم عنه وقت حديثه مع حريمه ، فلقد كان يستشيرهن حتى في تصميمات البناء التي يجريها في قصوره بعاصمة ملكه وياخذ برايهن في كثير من الامور تستعصي عليه وحدث في بداية ايام السلطان مولاي اسماعيل ان نشبت الحرب بين المملكة المغربية وبين بريطانيا العظمى واخذت السفن الانجليزية تصطدم بمضايقات المراكب المغربية طيلة بضع سنوات، وقد ارسلت بريطانيا بعثة خاصة لتفاوض في الموضوع ولتتخلص من ضغط الاسطول المغربي عليها .. ولكن المحادثات كانت تتعثر احيانا بسبب تطرف هذا الفريق او تعصب الفريق الاخر .. وقد اهتدى السفير البريطاني الى مكاتب احدى الاميرات العلويات من زوجات المولى اسماعيل يلتمس منها التدخل من اجل انهاء حالة الحرب فورا بين البلدين في انتظار تسوية كاملة وان المستر Windus ولو انه احتفظ باسم هذه الاميرة الجليلة لكنه لم يستطع ان يخفي ما تركته هذه الرسالة من اثر ، فقد تحدثت الاميرة الى زوجها السلطان مولاي اسماعيل وكان ذلك سببا في ايقاف رحى القتال بين المملكتين وعودة المياه الى مجاريها ، وان حادثة مثل هذه من شانها ان تعطي نظرة صادقة عن المركز الرفيع للمراة ايام السلطان المذكور لانها تدل بوضوح على انها كانت تستطيع ان تشير حتى بوقف دائرة الحرب وهذا وحده دليل على تزييف ما نقل عن بعض الذين يجهلون تاريخ المغرب ويجهلون نفسية المولى اسماعيل التي كانت مشبعة باداب النبوة التي تدعو الى تبادل الراي مع الزم الناس الينا واكثرهم اتصالا بنا.

اما الحادثة الثانية فقد وقعت على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله .. لقد سمعنا عن هذا السلطان العظيم كثيرا وقرانا عنه انه كان السلطان العلوي الاول الذي استطاع ان يسمع اصداء مغربنا العزيز في ارجاء الدنيا : قارة آسيا ، قارة اوروبا، وحتى قارة امريكا .. ان هذا الفضل في هذا التفتح على العالم كله لا يمكن ان يتم دون مشاركة الاميرات العلويات فيه، مشاركة اولئك اللاتي كن يحظن بالسلطان سيدي محمد ابن عبد الله اناء الليل واطراف النهار ، لقد كان لهن اتصالات فعلا بالاميرات في الممالك الاخرى ، وذلك بلا شك يعبد الطريق ويسهل المهمات والماموريات ؛ فان الامير قد تربطه بالدولة الاخرى روابط ، وقد تصل هذه الروابط الى درجة وثيقة ولكنه قد ينساها عندما يغيب في جنبات قصره فلو انه وجد في البيت من له صلة باميرات تلك الدولة لظلت ذكراه لها مستمرة ، وهذا ما حدث ، فقد ذكرت بعض الوثائق التي تحتفظ بها بعض الخزائن الوطنية ان الاميرة لالة فاطمة زوجة السلطان سيدي محمد بن عبد الله كانت تتراسل مع بعض الاميرات الاسبانيات ، اميرة آستورياس Asturias وكانت تتلقى هي من هؤلاء الاميرات رسائل وذلك بواسطة السفير الاسباني على ذلك العهد، الامر الذي دعم وشجع كثيرا العلاقات بين المغرب واسبانيا ، والذي كان من نتائجه سلسلة من المكاسب التي نذكرها الان ونحن شاعرات بالغبطة والارتياح .

ان توفر المغرب منذ تلك الايام على اميرات يساهمن في تلطيف المناخ السياسي بين المغرب وغيره ليس فقط عن طريق القول العابر ولكن عن طريق المخابرات والمكاتبات ، ان ذلك يبعث في المراة المغربية روح الاعتزاز بوطنها وبزعيماتها المتقدمات والحاضرة .

وليس هذا الا مثل من الامثلة العديدة التي ساعدت الظروف على اكتشافه وانني متيقنة بان الذي استقصى الامور لابد ان يجد ان ظل الاميرات العلويات كان يهيمن على سير الامراء ؛ وان هؤلاء كانوا يصيخون باسماعهم الى مشاورات الاميرات فى البيوت ، ولابد ان نجد ان المرأة كانت شريكة الرجل فى كل المواقف التي شرفت المغرب وارتادت به اسمى المقامات .

الرباط : ثريا بوطالب



جلالة الملك يسلم الى الاميرة عائشة اوراق اعتمادها

« اختنا العزيزة البارة

انك ستقدمين على امة عريقة الحضارة ، متاصلة المدنية ، سفيرة لامة عريقة المجد ، شامخة العز ، فكوني احسن مبعوث للملك ، وخير رسول لشعبك ، نضاهي بك الشعوب والاقطار ، ونفاخر بك الامم والامصار ، ولا يخامرنا شك فى انك ستعرفين ببلادك احسن تعريف ، وتظهرين وطنك فى اجمل مظهر ، وتحببينه الى من لا يمت اليه بصلة ، وترغبين فيه من لا تربطه به وشيجة ، ولا يساورنا ريب فى ان رضانا عنك ، وعطفنا عليك ، ورعايتنا لك ، وما لك فى قلبنا من مكانة مرموقة ، ومحبة صادقة وثيقة ، كل هذا سيكون حافزا لك ومشجعا على النهوض بهذا العبء الجديد نهوضا سيكلل ان شاء الله باكليل الفوز والنجاح » .

من الرسالة السامية التي وجهها صاحب الجلالة الى صاحبة السمو الملكي الاميرة للا عائشة بعد تعيينها سفيرة لجلالته فى لندن

أميرات مغربيات حافظن على العرش المغربي

للأستاذة آمنة اللوه

انه امام اهتمام الباحثين في الشرق العربي باخبار النساء وابرازهم لطائفة من العربيات اللائي ضربن امثلة رائعة في النشاط السياسي والاجتماعي ..

وامام انبعاث المراة العربية هنا وهناك تضطلع باعبائها الاجتماعية وتساهم في تحمل المسؤوليات الجسام ..

وامام هذه النهضة المغربية التي اصبحت فيها المراة محط الانظار ومعقد الامال ..

كنت دائما اتساءل في نفسي : هل المراة المغربية او بالاحرى الاميرات المغربيات كان لهن دور ملحوظ في التاريخ ؟ وهل في ماضي امتنا المغربية امثلة حية صح ان تتخذ اسوة وتقدم كأمثولة لفتياتنا وبناتنا الناشئات ؟

وتحت الحاح هذا السؤال كنت اضرب في مجاهل التاريخ وانقب عن شذرات من اخبار النساء عامة والاميرات الشهيرات خاصة لعلني اعثر على صفحات مشرقة لبطلات مغربيات ..

وقد توفرت لدي الان مجموعة من الاسماء اللامعة اقدم بعضا منها اليوم في هذه الحلقة وارجىء الباقي لفرصة اخرى ..

واقدم بين يدي اعتذاري – سلفا – عن عدم استكمالي وايفائي للموضوع حقه بسبب قلة اخبار النساء المغربيات في مصادرنا التاريخية

كنزة الادريسية

هذه سيدة جليلة القدر عريقة في المجد اشتهرت بالدور الهام الذي لعبته في ارساء قواعد الدولة الادريسية .

اذ من المعلوم ان المولى ادريس بن عبد الله وفد على المغرب فارا من وقعة « فخ » المشهورة وليس معه من الانصار الا مولاه راشد .. ولما كان لال البيت الكرام من الصيت الحميد استقبلته قبيلة اوربة البربرية فانزلته منزل الترحاب والتكريم واوته ونصرته وتزوج من بناتها السيدة كنزة ... فكانت ناصره وساعده ، وان كان التاريخ لم يسطر من اخبارها في تلك الفترة العصيبة الا النزر اليسير غير انه كاف للدلالة على مدى نفوذها في الدولة الادريسية وخاصة حين وقعت الفاجعة بموت المولى ادريس الفجائي وهو متربع على عرش المغرب بفعلة الشماخ الشنعاء فعز الخلف واظلم الموقف . فهنا ذكرتهم الاميرة كنزة بحملها المنتظر فما عليهم الا ان ينتظرو بضعة اشهر فياتيهم الخلف ان شاء الله .. وظلت هي ومولاها راشد اثناء تلك الفترة ساهرين على شؤون الملك وتدبير امور الدولة الواسعة ، الى ان وضعت الخلف المولى ادريس الثاني . فقامت بتربيته احسن قيام وهيأته لتحمل اعباء الملك وهو طفل لم يتجاوز الحادية عشرة حيث اخرجته لهم واجلسته على كرسي الملك وتقدم القوم لمبايعته في تلك السن المبكرة وعليه مخايل النجابة وبوادر النبوغ والعبقرية .. فحكم البلاد بمعونتها ومشورتها وخط عاصمة ملكه مدينة فاس

وفتح الفتوحات وازدهرت البلاد واظهر شخصية الدولة المغربية كاملة ، فكان هذا من اعظم مواقف السيدة كنزة.

ثم نرى لها موقفا ءاخر لما تولى حفيدهـا محمد بن ادريس ملك المغرب واخذ اخوته ينافسونه الامر ويطمحون الى مشاركته ومزاحمته و آذن ذلك بشـر مستطير وفتنة عارمة بين الاخوة . فتدخلت الجدة كنزة واشارت على حفيدها باقتسام مناطق المغرب بين اخوته اجتنابا للفتنة وحفظا لاواصر الاخوة . فاقتسم المغرب كما اشارت واختص كل منهم باقليم ولم تقع فتنة ولا ما يعرض الدولة للزوال

فهذه بعض الادلة على الدور الهام الذي لعبتـه هذه الاميرة على مسرح السياسة المغربية انذاك بوصفها زوجة ووصفها اما ووصفها جدة مما يؤهلها لان تكون في مقدمة الاميرات المغربيات اللائي ساهمن في تدعيم الدولة المغربية

زينب المرابطيـة

هي زينب بنت اسحاق النفزاوية الشهيرة بالجمال والكمال وبالـدور الـذي لعبتـه في تأسيس الدولـة المرابطية وتدعيمها

ومن اخبارها انها كانت زوجة احد خصوم الدولة المرابطية وهو لقوط المغراوي من امـراء بني يفـرن الذي حارب عبد الله بن ياسين مؤسس الدولة المرابطية الى ان انتصر عليه عبد الله بن ياسين وقتله ، ثم صارت زوجة لابي بكر اللمتوني خليفة عبـد الله بن ياسين وامير المرابطين الاول باغمات عاصمـة المرابطيـن الاولى .. فاقام معها نحو ثلاثة اشهر هناك ثم عرض له ما اضطره الى التوجه الى الصحـراء لاصـلاح امورها واعادة الامن اليها (قيل ان مما حمله على التوجه الى الصحراء انه سمع ان عجوزا في الصحراء ضاعت لها ناقة فقالت ضيعنا ابو بكر بتركنا ..) فقال لزوجته بالحرف كما في الاستقصا : « يا زينب اني ذاهب الى الصحـراء وانت امرأة جميلة بضة لا طاقة لك على حرارتها واني مطلقك فاذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين فهو خليفتي على بلاد المغرب » فطلقها وصارت ليوسف الذي لم يلبث ان استفحل امره وعظم سلطانه .. فبلغ ذلك ابا بكر فاقبل يريد عزلـه . فاحس بذلـك يوسف واسره الى زينب متاورا لها . ففكرت ودبـرت وقالت له قولتها المشهورة : « ان ابن عمك متورع عن سفك الدمـاء فاذا لقيته فاتـرك ما كان يعهـده منك من الادب والتواضع معه واظهر اثر الترفع والاستبداد حتى كأنك مساو له ، ثم لاطفه مع ذلك بالهدايا من الاموال والخلع وسائر طرف المغرب واكثـر من ذلك فانـه بارض صحراء وكل ما جلب اليه من هنا فهو مستطرف لديه » . فانفذ يوسف رأيها حيث انهما لما التقيا لم ينزل عن فرسه ولا تأدب معه الادب المعتاد بل سلم عليـه ، راكبا ، سلاما مختصرا .. فتفطن ابو بكر وقال له : « ما تصنع بهذه الجيوش التي معك ؟ قال استعين بها على من خالفني » ففهم ابو بكر الامر المدبر ثم سأله : « ما هذه الابل الموقرة ؟ قال : جئت بكل ما معي من مال واثاث وطعام لتستعين به على بلاد الصحراء » . فعلم ابو بكـر الا مفر له من العودة الى الصحراء ، فقال : يا ابن العم انزل اوصيك ، فنزل ، فقال له : اني وليتك هذا الامر واني مسؤول عنه فاتق الله في المسلمين ، والله تعالى يصلحك ويوفقك ، فودعـه وانقلـب الى الصحـراء .. فنجحت خطة زينب المرسومة

لذلك وصف المؤرخون زينب بانها كانت عنوان سعد يوسف بن تاشفين والقائمة بملكه والمدبرة لامره والفاتحة عليه بحسن سياستها لاكثر بلاد المغرب . قال الناصري : « وهكذا كان امرها في كل ما تحاوله » .

وحكى ابن الاثير ان ثلاثة نفر اجتمعوا اذ ذاك ، فتمنى احدهم الف دينار يتجر بها وتمنى الاخر عمـلا يعمل فيه لامير المسلمين يوسف بن تاشفين وتمنى الاخر زينب زوجة له ، فبلغه الخبر فأحضرهم واعطى الاول الف دينار ، واستعمل الثاني ، وقال للثالث : يا جاهل ما حملك على الذي لا تصل اليه ؟ قيل انه ارسلـه الى زينب فتركته في خيمة ثلاثة ايام يحمل اليه خلالها طعام واحد ثم احضرته وقالت له : ما اكلت في هذه الايام ؟ قال : طعام واحد . فقالت له الطعام واحد والنساء واحد .. فسرحته بعد ان احسنت اليه بمال وكـوة ..

ذلك بعض اخبار هذه الاميـرة العظيمـة الشأن الموصوفة عند جل المؤرخين بانها حازمة لبيبـة ذات عقل رصين وراي متين ومعرفة بادارة الامور .. حتـى كان يقال لها الساحرة كما في الاستقصا . وكان مما قاله

عنها ابن خلدون : « انها كانت من احسن نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة »

فهل بعد هذا نحتاج الى القول بان زينب النفزاوية كانت من الاميرات المغربيات اللائي رفعن شأن الدولة المغربية سياسيا واداريا واجتماعيا ..

الزهــــراء الوطاسيــــة

هي الزهراء المدعوة بزهور بنت منصور بن زيان الوطاسي اخت ابي الحجاج يوسف الوطاسي

لقد لعبت هي ايضا دورا مرموقا في اخر الدولة المرينية واول عهد الدولة الوطاسية .

وبيان ذلك ان احوال الدولة المرينية اضطربت في عهد السلطان عبد الحق بن ابي سعيد اخر ملوك بني مرين بسبب وقعته الكبرى ببني وطاس وتوليته يهوديين على اهل فاس فاستبدا وتخطرسا الى ان عمد احدهما الى امراة شريفة وانحى عليها بالضرب وألهبها بالسياط فجعلت تتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يتميز غيظا كلما سمع ذكر رسول الله . فبالغ في تعذيبها . فهاج الناس وماجوا واعلنوا خلع السلطان عبد الحق وبايعوا نقيب الاشراف بفاس ابا عبد الله محمد بن علي الادريسي الجوطي العمراني . الذي اعتقل عبد الحق وانتزع منه خاتم الملك وقاده الى مصرعه فضربت عنقه . فانقرضت به دولة بني مرين . غير ان امارة هذا الشريف لم تدم طويلا اذ سرعان ما خلعه ابو الحجاج يوسف بن منصور الوطاسي ، قال في الاستقصا : « وبقيت حضرة فاس في يد اخت ابي الحجاج زهور الوطاسية مع قائده السجيري الى ان تولى الأمر محمد الشيخ الوطاسي اول الملوك الوطاسيين » .

وبما ان الشريف المذكور خلع في عام 875 هـ وتولى محمد الشيخ عام 876 هـ تكون الاميرة زهور الوطاسية قد بقيت فاس تحت حكمها نحو عام كامل ..

فنعجب كيف استطاعت هذه السيدة ان تقبض على زمام الحكم في ذلك الظرف العصيب وتحافظ على امن عاصمة فاس رغم هبوب عواصف الفتن والاعاصير التي واكبت نهاية المرينيين وبداية الوطاسيين .

حقا ان ذلك لعجيـــب !

السيـــدة الحـــرة

او عائشة بنت علي بن راشد صاحب مدينة شفشاون ومؤسسها .. من ذرية الولي الصالح مولاي عبد السلام ابن مشيش صاحب المقام المشهور بجبل العلم بشمال المغرب . وامها تسمى للا زهرة من اصل اسباني اسلمت هي واخوها وحسن اسلامها .

كانت تسمى بالحرة كما في تاريخ تطوان للاستاذ داود لشيوع التسري انذاك تكريما لها وتمييزا

ظهرت في صدر المائة العاشرة الهجرية في شمال المغرب وتلقت علومها عن كبار الرجال فكانت ذات معرفة ونظر ، وكان لها نفوذ كبير في مدينة تطوان ونواحيها . قال الأستاذ داود : ويصح ان يقال انها تولت الحكم فيها . وقال ابن عسكر : ان تطوان كانت في ولايتهـــا

وتفصيل ذلك ان والدها علي بن راشد كان يحكم شفشاون وما اليها الى ان توفي فخلفه ابنه ـ اخوها ـ ابراهيم ـ في نفس الوقت الذي كانت عائلة المنظري تحكم تطوان وما حولها . فتصاهرت العائلتان وذلك بان تزوج حاكم تطوان المنظري الحفيد بالسيدة الحرة .. فكانت تتولى بعض شؤون المدينة في غيبة زوجها وتنوب عنه في بعض القضايا لما كانت عليه من سداد الراي وحسن التدبير . ولما توفي قبضت على زمام الحكم وارتضى الناس حكمها لما كانت عليه من الحزم وحسن السياسة . قال داود : بالرغم من كون ولاية المرأة للحكم شيئا لم يكن معهودا بالمغرب الا ان مكانة العائلتين المنظرية والراشدية وذكاء الست الحرة ومرونتها وحزمها ودهاءها وقوة شخصيتها سوغ لها ان تحكم البلاد سياسيا واجتماعيا وحربيا . قال : وذلك من اغرب ما حدث في تاريخ تطوان .

ولا ننسى ان هذه الفترة هي من اواخر العهد الوطاسي الذي تقلص فيه الحكم المركزي عن بعض اطراف المملكة مما اتاح الفرصة لظهور شخصيات منها السيدة الحرة وابوها وزوجها في ذلك الاقليم . غير ان السلطان ابا العباس احمد بن محمد الوطاسي اراد ان يوثق علاقته مع اقليم الشمال فوفد على تطوان وتزوج فيها بالسيدة الحرة وبنى بها هناك في ربيع الأول عام

948 هـ موافق 1541 م . وقد ذكر مضمن ذلك في الاستقصا . الا ان السلطان سرعان ما غادر تطوان وبقيت هي بها حاكمة مما يؤكد ان هذا الزواج سياسي اريد به توطيد دعائم الدولة المغربية اعتبارا للمقام الممتاز الذي كان للسيدة الحرة ولعائلتها في تلك النواحي خصوصا وقد سبق للسلطان المذكور ان زوج اخته للقائد مولاي ابراهيم شقيق السيدة الحرة . وزاد الاستاذ داود يقول : لذلك ترك زوجته نائبة عنه في حكم الناحية . وصرح بقية المؤرخين بان ذلك الزواج انما كان لاستتباب الامن في تلك الربوع .

ولكن يظهر ان بعض افراد عائلة المنظري وغيرهم استاءوا من هذا الوضع فتآمروا ضد حكم السيدة الحرة فداهمت جماعة من الفرسان مدينة تطوان بقيادة محمد الحسن المنظري الذي اخرج السيدة الحرة من المدينة واستولى على جميع ممتلكاتها . فانتهت بذلك قصتها الغريبة والمثيرة ..

واخبار هذه السيدة ضئيلة جدا في مصادرنا العربية بعكس المصادر الفرنجية الاسبانية والفرنسية التي افاضت في ذكرها ووفتها بعض حقها وان كان فيها بعض الخلط . اذ ان الاسبان كانت لهم علائق متصلة مع السيدة الحرة وخاصة مع حكام سبتة وقواد الاساطيل الاجنبية التي كانت تمخر البوغاز .. وكان للسيدة الحرة نفسها مراكب بحرية تحرس الشواطيء، وتمارس القرصنة التي كانت مباحة ءانذاك .. مما يدل على سمعتها الواسعة ونفوذها الداخلي والخارجي .

فكانت هي الاخرى من هؤلاء النساء اللائي استطعن ان يمسكن دفة الحكم وينفردن بالسلطان في وقت حرج يعز فيه الرجال .

خناثة الاسماعيلية

هي خناثة بنت الشيخ بكار بن علي بن عبد الله المغافري من عرب معقل بالصحراء المغربية زوجة المولى اسماعيل العظيم ، اذ من الثابت انه كانت له سياسة في اصطفاء الانصار واختيار الاصهار .. فتوجه الى تخوم الصحراء المغربية سنة 1089 هـ اي بعد تربعه على العرش بنحو سبع سنوات لامور يرمي الى تحقيقها هناك سياسيا وعسكريا . ومنها انه يريد توثيق عرى الروابط الدموية والاخوية بينه وبين اخواله عرب معقل من اعراب الصحراء حيث ان امه من هؤلاء ، وكان يعتمد عليهم في تدعيم ملكه باتخاذه منهم سرايا وفيالق منظمة .. فأصهر اليهم بتزوجه بالاميرة خناثة الموصوفة عند المؤرخين بانها ذات ادب وعلم ودين . وقال فيها صاحب الجيش اكنسوس : كانت صالحة عابدة عالمة حصلت العلوم في كفالة والدها الشيخ بكار . وقال : رأيت خطها على هامش نسخة من الاصابة لابن حجر .

وقال عنها الوزير الشرقي الذي صحبها في رحلتها الحجازية « ما تعلم واحدة من الحرائر التي دخلت دار الخلافة من ازواج مولانا اسماعيل تشبه هذه السيدة ولا تدانيها همة وصيانة ورزانة وحصانة عقل ومتانة دين وكان لها كلام ورأي وتدبير مع مولانا امير المومنين ومشاورة في بعض امور الرعية وكانت له وزيرة صدق وبطانة خير تامره بالخير وتحرضه عليه وتتوسط في حوائج الناس ويقصد بابها اهل الحياء والحشمة وذوو الحاجات ، وكانت في ذلك ركنا من الاركان » .

وقال عنها صاحب الاستقصا : « كانت ذات جمال وفقه وادب » . وذكر كيف تم ذلك الزواج في حدود عام 1089 هـ .

واذا علمنا ان المولى اسماعيل توفي عام 1139 هـ علمنا انها بقيت في عصمته نحو الخمسين سنة اي طول مدة ملكه تقريبا الحافلة بجلائل الاعمال .. ولا شك انها كانت شريكة له لا في الحياة الزوجية فحسب بل في الحياة الاجتماعية والادارية وحتى السياسية بدليل ان الشرقي المذكور وصفها بانه كان يشاورها في بعض اموره وانها وزيرة له ويقصدها اهل الخير وذوو الحاجات وانها ركن من الاركان مما دل على ان لها شأنا عظيما في الدولة الاسماعلية .. ويدل على ذلك ايضا ما ذكره رحالة انجليزي وهو (وتداس دجون) المرافق للسفير الانجليزي (ستوارت) لافتداء اسرى انجليز من المولى اسماعيل .. وقد وصف في رحلته كل جوانب الحياة الاجتماعية والعمرانية بالمغرب التي لاحظها بنفسه وسجل الطريقة التي توصلوا بها الى افتداء الاسرى .. اذ قال عندما تحدث عن المولى اسماعيل : وتجد بجانبه سيدة فاضلة زوجه الاميرة خناثة التي يضمر لها كامل الاحترام ويسترشد بارائها في كثير

من الاحيان . قال : وقد تنبه السفير الانجليزي للدور الذي تلعبه هذه المرأة في حياة الملك فما ان احس بان مهمته توشك ان تبوء بالفشل حتى قصد بابها ووجه اليها خطابا يلتمس منها ان تتوسط لدى جلالته . قال : ولم يلبث ان جاءه جواب الاميرة بان المولى اسماعيل مستعد لمقابلته مرة ثانية . فكان ذلك من اسباب نجاحه في مهمته .

كما نجد ان الاميرة خناثة لعبت نفس الدور او اكثر منه في عهد ولدها المولى عبد الله بعد وفاة المولى اسماعيل الذي لم يستخلف احدا من اولاده ، فهاج العسكر وماج .. وبادر كل فريق ينصر اميرا ، فنصر الجنود الوداديا والمغافرة من اهل الصحراء الامير عبد الله الذي كتب له النصر وانعقدت له البيعة مرارا . وفي هذه الاثناء لعبت خناثة ادوارا خطيرة تعرضت فيها لمضايقات وامتحانات من بقية اولاد اسماعيل خرجت منها هي وولدها عزيزين منتصرين بفضل دهائها وتبصرها .

وقد ختمت اعمالها الجليلة بحجتها المبرورة الشهيرة سنة 1142 هـ التي ما زال صداها يرن في الاذان الى الان . وقد رافقها فيها حفيدها المغير المولى محمد المعروف فيما بعد بسيدي محمد بن عبد الله .. ولا شك انه ايضا من ثمرات تربيتها وغرس يدها .. وهو الذي اعز الله به المسلمين شرقا وغربا

ومما يدل كذلك على سلطانها ونفوذ امرها انها كانت تصدر باسمها وبخاتمها الخاص ظهائر الانعامات والايصاءات والتوقير والاحترام .. وما تزال كثير من العائلات تحتفظ بهذه الظهائر التي تحمل خاتمها الى يومنا هذا حسب ما افاده الوزير المختص بالنظر في ظهائر التوقير والاحترام في ديوان جلالة ملكنا الحسن الثاني حفظه الله

ولا شك ان هذه الاميرة بموازرتها المولى اسماعيل ما ينيف على الخمسين سنة وبخوضها معامع الفتن التي اندلعت بعد وفاته منتصرة لابنها عبد الله وبحدبها وحسن تربيتها لحفيدها سيدي محمد بن عبد الله كانت اعظم اميرة مرت في تاريخ الدولة المغربية بوصفها زوجة للمولى اسماعيل واما للمولى عبد الله وجدة لسيدي محمد بن عبد الله

افلا يجدر بنا ان نتخذ منها ومن سيرتها الحميدة خير امثولة لاميراتنا الخالدات اللائي اسهمن في المحافظة على كيان الدولة المغربية وعلى استمرار وجود هذا العرش المغربي عبر القرون والاجيال .

وفي النهاية اسجل ملاحظة عامة وهي انه يتجلى من اخبار سائر الاميرات اللائي ذكرت ان كل واحدة منهن برزت في وقت عصيب واستطاعت بفضل دهائها وقوة شخصيتها ان تنقذ الموقف وتتحمل المسؤولية بامانة واقتدار .

وهذا كاف في التدليل على ان المرأة المغربية الحديثة جديرة بان تعيد سيرتها الاولى

الرباط : آمنة اللوه



صور من تاريخ المغرب القريب

لمحات عن الدبلوماسية المغربية على عهد العلويين

للأستاذ المهدي البرجالي

الظروف المحلية والعالمية التي اسهمت في تنشيط ديبلوماسية المغرب على عهد العلويين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ـ هذه الظروف كانت كثيرة ومتداخلة بدرجة بالغة التعقيد ، والواقع ان النشاط الديبلوماسي المغربي كان من انشط مبادرات الديبلوماسية المغربية خلال العصور .

كان لسقوط الاندلس ، وعدم ولاية دولة قوية في اعقاب المرينيين ، كان لهذين العاملين اثرهما البالغ في اضعاف المركز الدولي ، الذي كان للمغرب من قبل ، والذي كان يجعل منه اداة فاعلة في سير الامور بمعظم الضفة الجنوبية للبحر المتوسط ، والجزء الغربي من ضفة المتوسط الاوربية

والواقع ان واقعة « وادي المخازن » قد كانت بمثابة ترميم قوي للصدع ، الذي احدثته حالة التراجع في فاعلية المغرب الدولية خلال القرون اللاحقة لسقوط الاندلس ويقارنها البعض ، بمعركة « بواتي » بالنسبة لاوربا ، اذ انه ـ كما حالت هذه الاخيرة دون توسع المسلمين في غربي اوربا ـ كما يظن ـ فان وادي المخازن ، قد منعت التاكل الذي حدث جذور قواعد الكيان الدولي المغربي من ان يستحيل في الاخير الى حالة اندثار كامل ، تحت وطء الهجمات المسيحية ، تمهد امامها السبيل حالة من التفسخ المعنوي ، والروح الانشقاقية التي سادت في بعض الحالات مناطق مختلفة من البلاد في ذلك الحين

غير ان الذي يلاحظه المراقب ان هذا الترميم ، لم يكن الا اداة فاعلية موقتة ، ولم ينل من عامل التآكل في الكيان الدولي المغربي ، بحيث يجتث اصوله في الصميم بل ان جميع عوامل التاكل هذا ، بقيت موجودة فاعلة ، ولو انها قد سترت ببعض التلاحم الملحوظ ، بل واستعادة بعض مظاهر العظمة والاستقرار على عهد المنصور السعدي رحمه الله .

وقد اشتد عامل التاكل هذا في اواخر عهد السعديين ووجد مظهره البارز في نزعة الطائفية التي عمرت الحياة السياسية بالبلاد ، ثم التوسع البرتغالي على الشواطيء المغربية ، الذي صحب ذلك ، وكان من مضاعفات هذه الامور ، ان انكمشت الى حد كبير ، وضعية المغرب الدولية ، بعد فترة توسع في العلائق بين المغرب واربا ، حدثت خلال عهد المنصور السعدي الذي كان من خطته ان استدعى سفراء من اكثرية دول اوربا البارزة حينئذ ، ليعدل على ما يظهر من عنف الالتحام الذي جرى بينه وبين الاوربيين في وادي المخازن .

* * *

التقلص الذي ذكر انه اصاب وضعية المغرب الدولية في فترات متعددة ، منذ نهاية عهد المرينيين ، كان ناشئا في كثير من جوانبه ـ كما اسلفنا ـ عن عوامل

التاكل التي اصابت نشاطه وتماسكه ، والتي كانت لها ـ ولا شك ـ جذور اجتماعية وفكرية ، تنعكس على السطح في صور سياسية واخلاقية من نوع ما يقصه تاريخ تلك الفترة

غير ان كل هذا لا ينبغي ان يصرف نظرنا عن ملاحظة عمل غير مباشر في الامر ، او ملابسة مهمة لا بد من اعتبارها بهذا الخصوص ، لان لها نوعا من الارتباط بظاهرة التحلل السياسي الذي حاق بالمغرب بعد نهاية المرينيين ، وهذه الملابسة التي هي ذات ابعاد عالمية كانت اوسع نطاقا بكثير من المغرب او من العالم العربي بكامله ، انها تتمثل في حالة التطور الشامل الذي بدأ يعرفه العالم ، منذ قيام عصر النهضة في اوربا ، واكتشاف امريكا ، وظهور مبادرات التحول الاقتصادي والاجتماعي بين الاوربيين ، وتبلور الظروف البعيدة التي ادت فيما بعد ، الى نشوء واستفحال الاستعمار الاوربي الحديث .

وكان العالم العربي باكثريته يعيش حالة تبعية سياسية للدولة العثمانية التي كانت بدورها تخوض جملة من المشاكل الدولية مع شرقي اوربا ، ومع عدد من الدول الكبرى حينئذ ، سواء منها الشرقية او الغربية اما اكثرية اقطار آسيا وافريقيا ، فكان منها الواقع مباشرة تحت السيطرة الاوربية او هو بصدد ان يقع تحت هذه السيطرة ، ولهذا فان الكثير من هذه الاقطار الافريقية والعربية والاسيوية ـ وان كانت في ذلك الحين ـ معرضة للاصطدام بمشكلة التناقض بين قيمها الحضارية التقليدية ، والقوة اللامعة الجارفة ـ المتمثلة في حالة التطور العلمي ـ الحضاري الزاحف من اوربا ـ ان كانت اقطار كثيرة من افريقيا وآسيا تصطدم هكذا بهذه التناقضات ، فانها لم تعان الازمة كاملة ، وبجميع ابعادها لان عددا من هذه الاقطار ، لم يكن يمارس فعلا مسؤوليات السيادة ، او كان يمارسها ، ولكن في اطار عزلة عن اوربا تقل او تكثر ، عزلة حضارية وغيرها نتيجة بعد جغرافي او عدم ارتباط مصالح اوربية به ، او لغير هذه الاعتبارات ـ اما المغرب فقد كان من بين الدول العربية والشرقية التي كان بناؤها الكياني ، له قوة ذاتية ـ ولو في اطار الضعف ـ مما يتيح له قدرا من المناعة التلقائية ضد حالة وقوع مباشر ، تحت حكم الامبراطوريات الكبرى في ذلك الحين ، بما فيها الامبراطورية العثمانية ايضا ولكن مناعة المغرب هذه ، كانت تفرض عليه التبعات الجسيمة ، التي تدعوه الى التلاؤم مع مقتضيات التطور العالمي الجديد او قبول التخلي عن هذا الكيان المستقل الذي تمسكت به هذه البلاد على امتداد القرون ، ولما لم يكن المغرب مستعدا للتخلي عن الكيان وغير مستعد كذلك لمواجهة القوى الامبراطورية الناشئة حينئذ ، كالامبراطورية البرتغالية مثلا ، لهذا لم يكن امامه من سبيل آخر الا ان يخوض صراعا غير متكافىء ، فقد خلاله الكثير من شواطئه وقلاعه بكل ما ادى اليه ذلك (اولا) من وهن الوضعية الدولية للمغرب ، (ثانيا) من حدوث ازمة ضمير وطني في المغرب ، وجدت كمترجم عنها النزعات المتناقضة الناشئة هنا وهناك . وكان الضمير الوطني حينها يتقمص روح الحماس الديني ، الذي كان من عوامل الانتصار الذي ناله المغرب في واقعة الملوك الثلاثة بوادي المخازن ، وانتقال الامر بالمغرب الى العلويين كان في حد ذاته تعبيرا سياسيا عن الحاجة الى اعداد جديد ، وتسلح جديد لمواجهة المرحلة الجديدة التي تفرضها الاوضاع الجديدة بالعالم ، ابقاء على روح التمسك بالكيان التي اخذ بها السعديون طويلا ، ولكن مقتضيات التحول لعلها كانت اكبر من ان يستطيعوا مواصلة الاضطلاع باعبائها اكثر مما اضطلعوا ، وسنرى في الفقرات التالية بعضا من آثار الديبلوماسية في هذه المرحلة الجديدة من تاريخ المغرب ، ومن خلال ذلك يتبين لنا بعض آثار الحيوية التي سجلتها هذه الديبلوماسية كمظهر من مظاهر القوة المتزايدة التي اصبح المغرب يواجه بها التزاماته في عالم كان على ابواب الوثبة الاستعمارية الاوربية التي استفحلت بكثير فيما بعد ذلك (1)

---

1) لا يراد بهذا الايعاز باننا سنقوم في هذا الموضوع بفحص الجواب عن موقف المغرب الدقيق تجاه الحضارة العالمية الحديثة في القرنين الاخيرين ، وانما هي لمحات فقط عن الديبلوماسية المغربية نوردها باختصار

موقع المغرب الترابي يجعله مطلا على ثلاث قرات ، ويحرين عالميين هما المتوسط والاطلسي ، كما انه يشرف على مضيق عالمي هو مضيق طنجة ـ ومن شان هذا كله ان يحدد لنا طبيعة العلائق العادية التي يجب ان تكون للمغرب في المضمار الدولي ويحدد لنا من خلال ذلك ، الحالة التي يجب ان تكون عليها وضعيته الدولية في اي وقت وبحسب الظروف العالمية الموجودة . فاذا وضعنا كل هذه الاعتبارات عن المغرب في خلال القرنين الثامن والتاسع عشر (ويمثلان عصر التفتح العالمي الشامل) فما ذا كان يجب ان تكون عليه علاقته الدولية حينئذ ؟

وما ذا كانت عليه هذه العلاقات في واقع الامر ؟

كان امام المغرب ـ في مضمار علاقاته الخارجية اختيارات اساسية يرجع بعضها الى بعض المثاليات التي ارتبطت بها هذه البلاد كمثالية الرابطة الاسلامية ، ويعود بعضها الاخر الى مصالح دنيوية مختلفة : مصالح سياسية ومصالح تجارية وغيرها ، كالمصالح التي كانت له في حوض البحر الابيض المتوسط ؟ كما ان بعض هذه الاختيارات يرجع الى بعد النظر الذي كان يجب ان يتحلى به ، دافعا اياه الى مراعاة الافاق العالمية الجديدة التي كانت تتفتح امامه ، والتزام الحذر والاستعداد للدفاع عن الكيان ، في ذات الوقت ، ضد الاحتمالات التي كانت تنذر بها هذه الافاق الجديدة ، وضد العواقب التي كانت لا تزال قائمة ، من عهود الغزو الاوربي الغربي للمغرب خلال عهود الوطاسيين والسعديين ومن مختلف زوايا هذه الاختيارات تتجلى اهمية الحساسية التي كان للمغرب ان يشعر بها تجاه المناطق الدولية المختلفة ، حفاظا على كيانه ومثالياته واستعدادا لمواجهة العواقب المزمنة والتقلبات الجديدة في اوربا واسيا والعالم الجديد ، فما هي اذن هذه المناطق الدولية الرئيسية التي كان على المغرب ان يضع لها اعتبارا في حساباته السياسية الدولية ، وفي بناء علاقاته مع العالم الخارجي ؟

1) هناك منطقة العالم العربي والاسلامي ، وهي منطقة لا تحددها اعتبارات جغرافية خاصة ، بقدر ما تحددها الروابط العقلية والروحية والثقافية وغيرها ، القائمة في نطاق الاسلام ، رابطة بين عدة اقطار هنا وهناك في مختلف انحاء الارض ، والضرورة التي كانت تفرض على المغرب مراعاة ارتباطاته بهذه المنطقة على وجه الخصوص ، كانت ضرورة مصلحية في بعض الاحيان ، ولكنها كانت اكثر من ذلك ، ضرورة عاطفية وفكرية كذلك ، ومعلوم ان الشعور بالرابطة الاسلامية في المغرب هو ذو تغلغل عميق ، وله تاثيرات بعيدة الغور في نظرة الدولة هنا الى علاقاتها ببقية البلاد الاسلاميـــة ؟

لكن يجب ـ قبل كل شيء ان نتصور وضعية العالم الاسلامي خلال القرون الاخيرة ، لندرك وجه العلاقة التي كانت للمغرب معه . فالعالم الاسلامي يمكن تقسيمه الى مناطق اربعة اساسية : منطقة افريقيا السوداء ، ثم اسيا الوسطى ، ثم الشرق الاقصى ، ثم العالم العربي وآسيا الصغرى واهم ما فيها تركيا . لقد كانت مختلف هذه المناطق ، اما لا تزال تعيش في نوع من العزلة تقل او تكثر ، او تتعرض لمبادرات التوسع الاوربي الاخذة اذ ذاك في الانتشار او واقعة فعلا تحت حالة حكم اوربي يجعل صلاتها بالدول المستقلة كالمغرب محدودة النطاق ، خصوصا في مضمار العلائق السياسية والتجاوب الديبلوماسي اما المنطقة الاقرب الى المغرب فهي منطقة العالم العربي والبلقان ، بحكم رابط البحر الابيض المتوسط ، وبحكم الرابطة الاشمل من ذلك وهي الرابطة الاسلامية . على هذا الاساس ندرك وجهة العلاقة المتينة التي انتهى اليها المغرب على عهد الملوك العلويين مع الخلافة العثمانية ، وبلغت قمتها في عهد المولى محمد بن عبد الله خلال القرن الثاني عشر الهجـــري .

لقد كانت الديبلوماسية المغربية على عهد المولى محمد ـ وكان المسير الرئيسي لها ـ كانت هذه الديبلوماسية بعيدة التفكير الى حد بعيد في سعيها لانماء العلائق مع الخلافة العثمانية ، اكثر ما يمكن ، ولعل من العوامل الرئيسية التي دفعت المولى محمد بن عبد الله الى هذا الاتجاه هي : (ومنها عوامل عاطفية واخرى موضوعية)

1 ـ انه لم يكن هناك سبيل لتحقيق علاقات جد عملية ورسمية ، مع معظم العالم العربي الا عن طريق

الاستانة التي كانت تشرف على البلاد العربية ، ما عدا اجزاء قليلة منها ، اهمها المغرب (1)

ب - كانت الخلافة العثمانية - ممثلة القوة الاسلامية العالمية في ذلك الحين - تخوض حلقات معقدة من الصراعات الدولية باوربا ، مما كان يوجب التضامن معها ، ضمن فكرة التضامن الاسلامي

ج - كان النفوذ العثماني مجاورا للمغرب على حدو دالجزائر ، وقد كان الحال يؤدي احيانا الى احتكاكات بين المغرب والاتراك المقيمين بالجزائر الامر الذي كان يضع على المغرب واجب الاتصالات الدائمة مع مصدر السلطات التركية بالاستانة وقد نجحت الديبلوماسية المغربية في هذا الميدان بدرجة كبيرة ، ويظهر ذلك في المساعي التي بذلها المولى محمد بن عبد الله سنة 1199 هـ حول الاتراك الموجودين على حدود المغرب ، والذين كانت تبدر منهم بوادر غير داخلة في النطاق الديبلوماسي اللائق ، فكان من السلطان عبد الحميد العثماني ان برهن بقدر كبير عن حرصه على جودة العلائق المغربية التركية سواء في نطاق الصلة بالخلافة العثمانية او بالاتراك الموجودين قرب حدود المغرب ، وكانت مبادرته بهذا الخصوص ايجابية الى حد كبير

اما الصور التي اتخذتها الصلات العثمانية المغربية على عهد المولى محمد بن عبد الله فتتمثل في عدة نواح اهمها :

ا - ناحية اللباقة الديبلوماسية والرغبة في احكام الروابط الاخوية ، ويتمثل ذلك في تبادل الهدايا مع السلطان مصطفى العثماني ثم عبد الحميد الاول ، وتبادل السفراء المتعددين بين الدولتين

ب - اتخاذ سياسة تضامنية ازاء المشاكل التي كانت تواجه البلدين، وقد اتخذ المغرب في هذا النطاق موقفا عمليا ، فعبر عن تضامنه - رسميا - مع تركيا اثر النكبة البحرية التي حدثت لها ، نتيجة المشاكل السياسية والعسكرية المزمنة التي كانت لها في غربي اوربا ، وتضامن المغرب كذلك مع العثمانيين - عمليا - حينما عمل المولى محمد بن عبد الله على افتكاك الاسارى الترك ، من مالطة ، حيث كانوا اسارى هناك وفي غير مالطة ايضا ، وكان هؤلاء الترك من المقيمين في الجزائر غالبا وهم ينتسبون الى الاسطول الذي كان يمخر عباب المتوسط اذ ذاك ، وتحدث له مشاكل ومصادمات مع البواخر الاوربية ، الامر الذي كان يدفع الاوربيين الى الانتقام فيقع بعض الترك هكذا اسارى ، وهم الذين افتداهم المولى محمد بن عبد الله

ج - ناحية تبادل المعونة المالية والفنية ، وقد كان المغرب على عهد المولى محمد بن عبد الله كثير الاعانة للدولة العثمانية - وخصوصا من الناحية المالية - وكان المغرب يوجه هذه المعونات الى العثمانيين في الغالب برسم الجهاد ، وكان من هذه المعونة ما كان يرسل ضمن خطة مقصودة في الاصل ، ومنها ، ما كان يرسل ايضا حتى بحكم الاحوال الطارئة ، مثل الاموال التي وجهها ملك المغرب الى الاستانة ، لتنفق في الجهاد ، وكانت هذه الاموال موجهة في الاصل الى مالطة كافتداء الاسارى ، فلما فشلت المفاوضة مع الجزيرة في ذلك الحين ، بعث المولى محمد بن عبد الله تلك الاموال مباشرة الى الاستانة ، لتصرف في وجوه الجهاد ، عوض ان يستردها المغرب الى خزانته، اما معونة العثمانيين للمغرب ، فكانت في الغالب تقنية عسكرية ، وتتمثل في جملة من انواع العتاد ، كانت ترسل الى المغرب وفي بعض الخبراء العسكريين الذين كانوا يبعثون لتدريب القوات المحلية على استعمال الاعتدة التركية ، وكانت ذات قيمة عصرية جدا بالقياس لذلك العهد !

وفي خلال عهد المولى سليمان ، عرفت العلاقات المغربية العثمانية مرحلة توثق جديد ، وبدا المغرب في اوائل القرن الثالث عشر الهجري ، شديد التضامن مع الاستانة الى درجة احتمال تعرضه - نتيجة هذا

1) لايعني هذا عدم وجود صلات بين المغرب والبلاد العربية في تلك العهود ، فقد اهدى المولى محمد بن عبد الله لامير مصر والشام ، وراسل المولى سليمان صاحب تونس حمودة باشا وهكذا ، انما المقصود ان العلاقات السياسية في نطاق واسع هي التي لم تكن موجودة

التضامن الى مشاكل دولية خطيرة ، فقد كانت الحرب وقتها حامية الوطيس ، يخوضها العثمانيون في شرقي اوربا ، وكانت الاعتبارات الستراتيجية توجب على الترك ان يسدوا منافذ تسرب الاعانة او اي شيء الى خصومهم في شرقي اوربا ، ومضيق طنجة هو من اهم الممرات العالمية التي تخشى بهذا الخصوص ، ومن ثم فقد وقف المغرب برغبة من الترك ـ وقفة الحارس الرابض على المضيق يحمي ظهر الخلافة العثمانية ان يتسرب الى محاربيها ما يعينهم عليها ، وحالف التوفيق سياسة المولى سليمان في هذا المجال ، فلم تحدث مضاعفات دولية نتيجة لذلك ، وتمكن المغرب في نفس الوقت من ان يقوم بمبادرة تضامنية عظيمة دل فيها على استعداداته العسكرية ، وامكانياته السياسية ، وحوافزه العاطفية القوية

وفي نطاق العلائق مع العالم العربي ، كان للمغرب على امتداد الدولة العلوية ، سياسة ارتباط متين بالحجاز على نحو مباشر ، واذا كانت الديبلوماسية المغربية تتعرض احيانا لتغيرات في علاقاتها مع الدول الاخرى ، نتيجة التقلب الذي قد يحدث في ظروف علاقاتها مع هذه الدول الاخرى ، فان الامر بالنسبة للحجاز يختلف ، اذ ان متانة العلاقة معه كانت قاعدة ثابتة في صلب الديبلوماسية المغربية لا تتخلف .

والواقع ان ربط العلائق مع الحجاز كان في مقدمة المظاهر الديبلوماسية المغربية على عهد العلويين يتجدد الاهتمام بتنمية هذه العلائق من السابق منهم الى اللاحق خلال العصور ، ويبدو ان من جملة الدواعي لذلك اولا الارتباطات العاطفية بالبقاع المقدسة ، وهذه الارتباطات كامنة ـ كما قدمنا ـ في الذهنية المغربية بقدر كبير جدا ثانيا المقتضيات العملية التي تفرضها صلة الحج ، وهي صلة قوية مستمرة تتكرر كل سنة وتتسبب في ربط علاقات واسعة بين علماء الحجاز وعلماء المغرب وبين الولاة الحجازيين وملوك المغرب ، بل بين الافراد العاديين هنا وهناك وليس لاية ديبلوماسية الا تضع في حسابها هذه الصلات الكبيرة التي تفرضها شعيرة الدين ، ويقوم في نفس الوقت الاعتقاد بانها ضرورية ايضا من ناحية دنيوية ، بحيث انها تعود على الافراد المسلمين ، والجماعات المسلمة بفوائد ناتجة عما يتيحه الحج من تعارف بين الناس

وكانت مظاهر استجابة الديبلوماسية المغربية ، لهذه المقتضيات « الحجازية » كثيرة وبصورة ملحوظة ، ولناخذ ـ مرة اخرى ـ عصر المولى محمد بن عبد الله كمثال بهذا الخصوص ، لانه كان عصرا مخصبا من ناحية المبادرات الديبلوماسية ، التي قام بها المغرب سواء في نطاق علاقاته بالشرق او بالغرب ، وفي هذا النطاق نرى ان من مظاهر هذا التواصل الديبلوماسي الحجازي المغربي ، ما دأب عليه الملوك العلويون من مهاداة امراء مكة وربط الصلة باهلها ، وكان مما يهدي الى امراء مكة : المصاحف الثمينة والنفائس المادية المختلفة

وقد عرف ميدان الاتصالات بين المغرب والحجاز على عهد المولى سليمان مظاهرة كان لها صداها البعيد في تلك الظروف عند ما ارسل الملك المغربي ولده الى الحجاز في موكب كبير ، محمل بالهدايا والرغبة في توثيق مزيد من العلاقات مع الحجاز وامرائه .

ولم تكن العلائق الحجازية المغربية منحصرة في نطاق اللباقة الديبلوماسية وما في بابها ، وانما كانت هناك الى جانب ذلك بعض الاتصالات العلمية واقعة بين علماء الحجاز وعلماء المغرب ، والمثير فيها للالتفات ، انها وقعت في بعض الاحيان بدافع من ملك المغرب نفسه حينما ارسل المولى سليمان عددا من العلماء مع ابنه ليتطارحوا مع الحجازيين قضايا الدين اثناء موسم الحج ، وتكشفت العلائق الحجازية المغربية عن تفتح فكري جد مهم ، كانت تنطوي عليه العقلية المغربية في بعض الميادين ، كان ذلك على اثر قيام السلفية في الحجاز بثورتها الفكرية الواسعة، متمثلة في دعوة محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله الى نبذ الملابسات الاسطورية التي علقت بالمفهوم الديني في عقلية المسلمين واتخاذ اساس صحيح للنظر والتفكير الديني يساعد على الرجوع للمنابع الاولى للاسلام ، مجردة من مختلف الملابسات الطفيلية التي غشت الحياة الدينية عند الناس . اما التفتح الفكري الذي اشرنا اليه ، فقد برز مظهره في الموقف الذي اتخذه المغرب الرسمي على عهد المولى سليمان ـ من الدعوة السلفية ، وتفهمه لها في وقت كانت تلاقي فيه عدم التفهم من بعض الجهات الاخرى في العالم الاسلامي وقد كان ذلك على اثر كتاب وجهه

محمد بن عبد الوهاب سنة 1226 الى المولى سليمان في الموضوع ، فارسل وفدا الى الحجاز للاستخبار في الامر وكان من اثر ذلك ان لقيت الدعوة السلفيــة تجاوبـا صادقا مع ملك المغرب الذي كان سلفيا بطبيعة تفكيره ، وقد وجد من العلماء المغاربة من ساند الفكرة السلفية، كما روجت الدعوة اليها في الحجاز .

* * *

المجال الذي كانت تنشط فيه الديبلوماسية المغربية على عهد العلويين بالنسبة لاوربا ـ المجال هـذا كان ذا نطاق واسع جدا ، والدواعي المتحكمة فيه كانت من اكثر الدواعي تدعيا بالنظر اولا ـ وكما تقدم ـ لموقع المغرب من اوربا ، وتشابك المصالح الدولية نتيجــة للنهضة العالمية الحديثة ، التي كانت في عنفوانها ، ثم للمشاكل المزمنة التي كان على المغرب ان يواجههـا كنتيجة لعهود اصطدامه بالاوربيين منذ القديم . ولهذا كان على الديبلوماسية المغربية ساعة تفتحها الواسع على العالم ، كان عليها عبء كبير بالنسبة لاوربا تضطلع بـه لكـي تصفـي «اثار الصراعات المسلحـة ، التي شاهدها تاريخ المغرب مع المغيرين عليه من الاوربيين . وكان عليها ـ في نفس الوقت ـ ان تعمل على تجنيب المغرب مؤونة التورط في مآزق دولية جديدة . يمكن تجنبها ، والتملص منها بوسائل المهارة الديبلوماسية ، وكان على المغرب خلال ذلك كله ان يعـرف كيف يستفيـد من الامكانيات الايجابية التي تفتحهـا لـه الافاق العالمية الجديدة ، وما تزخر به من احتمالات التعاون ، وتبادل المنافع بين الامم ، وخصوصـا في المجـال التجـاري الصرف ، دون ان تكون التجارة ـ مع ذلك ـ وسيلــة تحايل على وحدة القطر وسيادته ، او المس بمصالحه الحيوية ، سواء على الصعيد الاقتصادي او الفكـري او غيره . فهذه جملة اهتمامات كانت تحدد للديبلوماسية المغربية على عهد العلويين ، مجالات نشاط واسع في ميدان علائق المغرب مع اوربا . ولنلق لمحة سريعة عن بعض هذه المجالات فهناك :

1 ـ مجال العلائق مع الدول المجاورة لمضيق طنجة . واهمها دولتا شبـه الجزيرة الايبيريـة (اسبانيا والبرتغال) . وقد امتد الصراع بين المغرب على عهد العلويين وبين الدولتين الايبريتين اكثر من قرن ، كان ذلك منذ اواخر القرن الحادي عشر الهجري الى اواخر القرن الثاني عشر ، اذ تمكن المغرب بقيادة المولـى محمد بن عبد الله من اجلاء «اخر حامية برتغالية ، تقيم بالمغرب ، حينما تم افتتاح الجديدة سنة 1182 . وقبيل نهاية هذه الحقبة من الصـراع تدخلـت الديبلوماسيـة المغربية لتصفية الاثار السيئة لهذه العلائق المتوترة ، فكان من ذلك ، البعثات التي بدأت تتبادل بين المغرب واسبانيا حول اطلاق الاسارى المسلمين عند الاسبـان ، وكانت تلك مبادرات ناجحة ، ومهد ذلك الجو لتنقية العلاقات احسن مع اسبانيا . وتمت تصفية العلائق بين المغرب والدولتين الايبريتين كلتيهما بمعاهدة الصلـح والتجارة التي وقعها المغرب معهما في شهر مارس من سنة 1767 ميلادية ، وتم تكميلها في سنة 1799م .

وكانت الصدمات البحرية التي جرت بين المغرب وفرنسـا على عهد المولى محمد بن عبد الله ، وادت الى حادثة العرائش ، كانت هذه الصدمـات قـد استنفذت طاقة الانفعال الذي احدثته عند الطرفين ، ولم يعـد هناك موضوع لتنمية جـو التوتـر الذي خلقته تلـك الحوادث ، فلم يكن امام الديبلوماسية المغربية الا ان تدخل لتصفية الوضعيـة من اساسهـا فكان من ذلـك ، المحادثات التي جرت بباريس مع بعثة مغربية مرسلة الى العاصمة الفرنسيـة ، وتوجـت بمعاهـدة بحريـة وتجارية بين البلدين وذلك في نفس السنة التي وقعت فيها المعاهدات المغربية الاسبانية (سنة 1179 هـ) .

2 ـ مجال العلائق مع دول البحـر الابيـض المتوسط (الضفة الاوربية) وقد كانت وضعية الـدول الاوربية على هذه الضفة تختلف احيانا عما هي عليـه الان ، لان الحرب العالمية الاولى التي حدثت بعــد ذلك في اوائل قرننا الحالي هي التي اعطت تقريبـــا لاوربا صورة الكيانات الدولية الموجودة فيها اليوم .

وعنيت الديبلوماسية على عهد المولـى محمد بن عبد الله ، باقامة ارتباطات ودية مع بعض اقطار المتوسط هذه ، لتامين مجال للعمل التجاري والديبلوماسي يمكن الانتفاع به ، ومثال على هذه العلاقات المتوسطية ، ما ربطه المغرب من صلات ايجابية ودية مع مملكة «نابلي» وكانت مملكة قائمة بذاتها ، قبل تمام الوحدة الايطالية .

كان ذلك في سنة 1192 هجرية ، عند ما ارسلت سفارة مغربية برئاسة ابن عثمان لمقابلة ملك « نابلي » (فرنائد الرابع) واستطلاع الاحوال الحضارية والعمرانية بتلك الدولة الصغيرة والتوصل في نفس الوقت الى حل يتعلق بالاسارى من الجزائر وغيرها ، الذين كانوا ماخوذين الى تلك الدولة .

وفي موضوع العلائق ايضا مع دول البحر المتوسط ازدهرت في نهاية القرن الثامن عشر التجارة المغربية الفرنسية بقدر ملحوظ ـ وازدهار العلائق التجارية ، يعكس خصوصا في تلك العهود ـ حالة حتمية من حسن العلاقات السياسية والديبلوماسية ، وقد دابت فرنسا حينئذ على استيراد الزيوت لتموين مصانع الصابون القائمة في مرسيليا ، وبلغت التجارة بين البلدين بضع مئات الالاف من الليرات ، اواخر القرن الثامن عشر . ولم تكن العلائق التجارية مع « جنوة » المدينة البحرية الايطالية الكبرى ـ باقل ازدهارا

3 ـ منطقة شمال اوربا ، امتدت للمغرب علاقات ودية هامة مع بعض دول هذه المنطقة ، وكان للسويد مقام ملحوظ في مضمار العلاقات الخارجية للمغرب ، وفي ميدان تجارة الخارجية (من الامثلة : المعاهدة التي توصل اليها المغرب على عهد المولى محمد بن عبد الله مع السويد في القضايا البحرية ، ثم التجارة المزدهرة التي كانت سائدة بين البلدين خلال تلك الفترة) ، وكان للدنيمارك ايضا ارتباطات تجارية مهمة بالمغرب تنعكس من خلالها حالة العلائق الودية التي كانت موجودة بين البلدين .

ولا نبتغي هنا حصرا او استقصاء ، وانما هي نظرات سريعة في الموضوع ، اخذنا من خلالها امثلة عن الاوضاع الديبلوماسية ، ومن خلالها الاوضاع التجارية التي استطاعت الديبلوماسية المغربية ان تقيمها مع كثير من دول اوربا ، ما ذكر منها خلال هذه الفترة . وما لم يذكر كهولاندا وبريطانيا وغيرهما .

اما في افريقيا فقد كانت من اهتمامات المغرب المحافظة على امتداداته الترابية الصحراوية ، وكان يراقب تطورات التوسع الاوربي جنوب الصحراء بحذر بالغ واستعداد لمواجهة الاحتمالات التي كانت منتظرة من مثل هذه الاحوال .

* * *

نرى من هذه اللمحات السريعة جدا ، ان الديبلوماسية المغربية خلال القرون الاخيرة قبل نشوء الازمة المغربية التي ادت الى مؤتمر الجزيرة ـ هذه الديبلوماسية كانت من انشط ما كان في المغرب من نشاط في تلك العهود

والواقع ان النشاط الديبلوماسي المغربي ـ كان الى جانب الجيش المغربي من العوامل المهمة التي مدت في استقلال المغرب القديم ، الى هذا القرن الحالي

المهدي البرجالي





بمناسبة الذكرى السادسة لتتويج الحسن الثاني :

أهمية علاقات الدولة العلوية بتونس في بناء وحدة المغرب العربي

للاستاذ : عبد الكريم التواتي

تتناقل الانباء دوريا ومنذ فجر الاستقلال عن هذه الزيارات المتبادلة بين كبار المسؤولين في المغرب وتونس ، وكان آخرها تلك الزيارة الخاطفة التي قام بها وزير الصناعة المغربي ، مكلفا بمهمة من لدن الملك الحسن الثاني ، وبمناسبة الذكرى السادسة للاحتفال بعيد تتويجه راينا ان نبرز في ايجاز ، كيف ان هذه الزيارات بين الدولتين ، ذات علاقات متينة ، ليست وليدة اليوم ، او وليدة المصادفات وانما هي عريقة الجذور عراقة تاريخ الامتين .. آملين في نفس الوقت ان يكون قرار « التوصية » الذي اتخذته اخيرا لجنة الوفاق الافريقية المكلفة ببحث الخلاف المغربي الجزائري ، حول مشكل الحدود فاتحة عهد جديد ، وحجر الزاوية ، في انهاء هذا الوضع اللا طبيعي الموجود بين الدول العربية الثلاث ، وبسبب الحدود وفي قيام وحدة حقيقية ، بين اقطار المغرب العربي ، يكون الصالح العام رائدها وخدمة الاسلام والانسانية ، هدفها وغايتها ، والله نسال ان يوفق العاملين في هذا المضمار ، لما فيه خير الجميع .

ليس من المستغرب في شيء ، ولو في نظري على الاقل ، ان افكر في اختيار موضوع من هذا النوع ، كمشاركة مني في اعداد هذا العدد الممتاز من مجلتنا (دعوة الحق) الغراء . وذلك اذا علمنا اولا ، ان الاساس الذي قام عليه وجود هذه المجلة ، وان القيم التي الزمت على نفسها ان تنشدها وتدعو اليها لا تخرج عن نطاق البحث والتفكير في قيام حياة كريمة جديرة بالانسان الكامل . واذا علمنا ثانيا ، بان حياة من هذا الطراز ما كان لها ان توجد بدون وجود تكافل تام وعام ، وتكامل حقيقي بين كافة ابناء الجنس البشري .

واذا علمنا ثالثا ، وبوصفنا مسلمين ـ والاسلام دين الوحدة العامة الشاملة ـ بان تلك الحياة المؤسسة على ذلك التكافل ، لن تتم الا في دائرة قيام علاقات متينة خالصة بين مختلف القطاعات البشرية دون اعتبار لقمة او قاعدة .

ثم في هذا المضمار يكفي ان نذكر ان من بين الاهداف التي استحضرها النبي محمد صلوات الله عليه ، وهو يهم بمغادرة الارض جسمانيا ، وجعلها من بين اهم وصاياه التي ذكر بها في خطبة حجة الوداع والزم اعتبارها من اقانيم دعوته ، فكرة المساواة بين الناس ،

لان ربهم واحد واصلهم واحد ، وان هذه المساواة ما كانت لتوجد ويومن بها ، اذا لم يكن هناك تعارف وتلاق بين اولئك المتحدي الاصل والمصدر – قال محمد عليه السلام : (ايها الناس ان ربكم واحد ، وان اباكم واحد ، ليس لعربي فضل على عجمي الا بالتقوى، كلكم من ءادم ، وءادم من تراب ... ثم تلا : يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) والتذكير في هذا الموطن بالاصل الذي هو تراب ، وبوحدة المصدر لذلك الاصل ، التي هي الرب له مغزاه .

ومن هذه الزاوية يكون كل اتصال ، وكل ملتقى بين بني البشر يخدم هدفا ساميا من اهداف هذا الدين الذي جاء رحمة وهدى للعالمين ... وفي هذا المضمار اندفع المسلمون الاولون في انسياحهم على العالم يعملون في سعي دائب لقيام علاقات انسانية نبيلة بين مختلف الاناسي ، تتوخى الاخوة ، وتبغيا الهداية والنور وتبث الايمان بالحياة والانسان ، وبرب الحياة والانسان.

ومن ارومة اولئك المندفعين من الجزيرة العربية لحماية الانسان من استغلال اخيه الانسان ، ولقيام علاقات لحمتها المساواة وسداها الاخلاص والثقة المتبادلة والصراحة القائمة على الاعتراف بالواقع ، ينحدر ابناء هذه الامة : عربها وامازيغها

ومن هذا الدم المغربي المومن بالانسان وما فيه من طاقات خير وصلاح انبثق الحكم القائم في هذه الارض ، ومن هذه العقيدة المغربية الصميمة المومنة بالاخوة الانسانية ، يصدر المسؤول الاول في هذه البلاد ، في قراراته الداعية لبناء علاقات هذا الجزء من المعمور ببقية اجزاء الدنيا .

واذا كنا قد اخترنا بالخصوص في هذه الدراسة الخاطفة هذا الجانب من العلاقات المغربية دون الجوانب الاخرى ، فلانا ، اولا من المومنين بجدوى كلمة ابي هريرة (ما زال يوصيني بالجار) ، ولان هذه العلاقات ، ثانيا ، اتخذت مظهرا مغايرا لسواها من العلاقات ، وامتازت بالخصوص بحيويتها ومعطياتها في كل المناسبات . فان الاحداث التي شاهدها المغرب العربي – في هذا المجال ، ومنذ فجر استقلال اقطاره الاربعة : المغرب ، الجزائر ، تونس ، وليبيا ، وبالاخص على عهد الحسن الثاني وعهد المأسوف عليه ابيه محمد الخامس ، وعلى تباين الانشطة : اقتصادية واجتماعية وسياسية – احداث تدعونا الى التوقف قليلا لدراسة ابعادها ، وعمق تياراتها الاخذة دواما في الانطلاق والشمولية ، وتدعونا – وهذا اقل ما يوجبه الايمان بوحدة المغرب العربي – الى ابراز جدوى هذه العلاقات ، وابراز جذورها التاريخية ، وكيف انها ذخيرة في يد الذين يعملون في اخلاص لقيام وحدة ممكنة بين الدول الاربع ولان الطريقة التي سارت فيها هذه العلاقات تصلح ان تكون اساسا لكل عمل ايجابي فعال في مضمار تقريب وجهات النظر وفي تلمس الطرق السليمة للوصول للهدف المعين

... وبعد فنحن نعلم ان بداية العلاقات بين المغرب وتونس ، ولدت يوم وطئت اقدام العرب الفاتحين تراب هذه البلاد ، ويوم حل بها ركب ابناء عمومة البربر السكان الاولين لهذه الديار ، او اذا اردنا بالضبط ، توطدت هذه العلاقات ابتداء من سنة 88 هـ 707م حين انطلق ابو عبد الرحمن موسى بن نصير من تونس لفتح هوارة ، وزناتة ، وكتامة ... ولغزو طنجة . ولم تكن يومئذ هذه الحدود المصطنعة ولا هذه القوميات الضيقة التي يتبرأ منها الاسلام . ثم اذا نحن شئنا ان نحدد تاريخيا هذه العلاقة ، وبعد الفتح الاسلامي ، فانا لن نجد مظهرا عمليا لها ابرز من عمل المولى ادريس الثاني . اواخر القرن الثاني الهجري او ربيع الاول 193 هـ . دجنبر 808 م ، حين بنى الضفة الغربية لفاس – لا الشرقية كما سها الاستاذ عبد اللطيف خالص فذكر – (1) واسماها العالية او عدوة القيروان ، واسكنها الوافدين عليه من افريقية – تونس – وخاصة ابناء القيروان الذين الجأتهم الاضطرابات والفتن الداخلية التي كانت شهدتها بلادهم لعهد ئذ ، كما يذكر المراكشي في كتابه (المعجب) الى مغادرتها . ذلك ان ما قام به المولى ادريس كان يحقق اللبنة الاولى لقيام علاقات عملية بين البلدين ، وفي كل الميادين ، وخاصة تلك التي اتسمت بالطابع الثقافي – كما نرى –

---

1) انظر مجلة (المغرب) لوزارة الممثل الشخصي العدد الثالث صفحة 30 .

اذ عنها برز ما عرف في التاريخ الثقافي للمغرب بجامعة القرويين . وامـا العلاقات السياسية بين البلدين ، او بتعبير ادق العلاقات الحربية ، اذ لم تكن تلك العهود تعرفت بعد فيما اعلم ، الى هذه الكلمات الفنية ، والاصطلاحات الحديثة، في العلاقات بين الدول ، فيمكن القول بان قيام دولة المرابطين كان من ابرز هذه العلاقات بوصف ان نشوء هذه الدولة ، كان نتاج العون الثقافي التونسي للمغرب ان صح التعبير . فقد طلب فيما يتحدث عنه التاريخ ـ يحيى بن ابراهيم الكدالي اثناء مروره بتونس عائدا من الديار المقدسة بعد اداء فريضة الحج ، من ابي عمران الفاسي ، ان يتحفه ببعض نجباء تلامذته ، يصطحبهم معه الى المغرب لتجديد مدارس العلم هنا وتزويدها بروافد حية تعيد الدم جديدا الى شرايينها وتحيي الدارس منها . ويتحدث التاريخ عن كيف ان ابا عمران احال الكدالي على تلميذ له سابق كان يوجد يومئذ بالمغرب ، وهذا التلميذ هو الذي اختار من عرف فيما بعد في تاريخ المغرب بزعيم المرابطين وابيهم الروحي : عبد الله بن ياسين ، وقد وجه ابن ياسين هذا الى قبائل صحراء المغرب لبث الدعوة الدينية هناك . حتى كان من امره ما يعرفه الجميع من قيام تلك الدولة العظيمة التي حققت اعظم حلم شعبي لدول المغرب العربي واعني به وحدة الاقطار في كل شؤون الحياة ومرافق الدنيا . ثم توطدت هذه العلاقة الحربية السياسية باحداث الصليبية التي كانت المهدية بتونس مسرحا لها . ففي اواسط القرن السادس الهجري عبر الخليفة الموحدي عبد المومن ابن علي لانقاذ المدينة الشهيدة المهدية من ايدي الصليبيين .

ثم كانت رحلة ابي حسن المريني الى تونس لاعادة الامور الى مجراها القانوني حين استغاث به التونسيون اثر وثوب من لا حق له في العرش الى الحكم ، وعلى اشلاء ابيه واخيه ولي العهد . فقد كان قتل ملك تونس لذلك العهد ، ابو بكر الحفصي ، كما اغتيل ولي عهده ، على يد اخيه فرأى التونسيون ان لا حق لهذا في العرش فاستنجدوا بأبي الحسن الذي لم يكن ليتاخر عن استغاثة الملهوف ، وتقديم العون لكل ضعيف : فعبر الى هناك حيث وضع اهل البلاد مقاليد امورهم بين يديه . مفضلينه على ذاك الذي حاول اغتصاب ما لا حق له فيه : ولم يكن وجود ابي الحسن هناك ، والذي كانت تربطه بتونس ـ كما سنرى ـ روابط المصاهرة والدم ، وجودا غير شعبي او غير قانوني ـ فقد دعي الى اخذ مقاليد الامور بما يشبه الاجماع الشعبي حين استقبله ـ كما يتحدث التاريخ ـ فطاحل علماء تونس ليومئذ ، كابن عبد السلام ، وابن عرفة وابن راشد القفصي ، وابن هارون ، وابن عبد الرفيع . كما استقبله بكامل الترحاب والكرامة الموفورة والمقام المحمود ، الشعراء ، وعلى راسهم شاعر تونس ليومئذ غير مدافع : ابو القاسم الرحوي الذي انشد بهذه المناسبة قصيدته المشهورة التي منها :

اجابك شرق اذ دعوت ومغرب
فمكة هشت للقاء ويثرب
.. وقد كنت قبل اليوم كهف زعيمهم
فها انت كهف للجميع ومهرب
.. اذا لذ للاملاك خمر مدارة
فلذتك القرءان ، تتلو وتكتب
.. وان ادمن القوم الصبوح فانما
على ركعات بالضحى انت تدأب
.. لقد اصبحت بغداد تحسد «فاسهم»
« ودجلة » ودت ان يكون بها (سبو)
.. تملكت قطر الارض كسبا وقطرها
تراثا ، فطاب الملك : ارث ومكسب

ويجب ان لا يعزب عن بالنا ان هذا الاستنجاد لم يكن فقط من الجانب التونسي فان ابا الحسن المريني هذا كان هو الاخر استنجد بالتونسيين وبابي بكر الحفصي نفسه حين فتك الصليبيون بابنه ابي مالك في غزاة له للاندلس . فقد كان التونسيون انجدوه باسطولهم البحري الذي كان بقيادة زيد بن فرحون ، فالتبادل والعلاقات في هذا الميدان كانت قوية ومعمولا بها .

وكان يدعم تلك العلاقات السياسية علاقات اجتماعية تجلت في المصاهرة التي تمت بين ابي حسن المريني ذاك وبين ابي بكر الحفصي حين زوج . اولا ابنته فاطمة الحفصية ثم ثانيا اختها عزونة بعد وفاة فاطمة في الكمين الذي كان نصبه له نصارى الاندلس في غزاة سنة 741 هـ . وقد تطورت هذه العلاقات الى ما يشبه التكافل التام بين الامتين وفي السراء والضراء

وكانت تستهدف قيام وحدة حقيقية بين اقطار المغرب العربي وتعمل على ابعاد كل العناصر المعرقلة لهذه الوحدة. فعندما اكفهرت العلائق بين تونس والجزائر حاول ابو الحسن التأثير على الجانبين لتحسين الجو ، وحمل سلطان تلمسان ابا تاشفين على التزام المهادنة بينه وبين جيرانه التونسيين. وكان ابو الحسن في عمله ذلك يعمل تحت شعار ما تشير اليه الاية القرآنية: (وان طائفتان من المومنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله ، فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين)

واما عن العلاقات الثقافية ، فبالاضافة الى جامعة القرويين التي لتونس بعض الفضل في احداث بنايتها على الاقل ، نقرأ في التاريخ كيف ان المولى احمد افندي وفد من تونس في عهد عثمان باي سنة 1229 هـ - 1813 م على السلطان احمد المنصور الذهبي الذي القاه بقرىء المطول لسعد الدين التفتزاني وكيف حضر عديدا من الدروس بالقرويين. وان قال في ارتساماته عنها هذه الكلمة : (وجدت بالقرويين بمدينة فاس تسعة عشر كرسيا يقرئون التفسير ، وكلهم عن التفسير بمعزل ، الا ان ملكهم يفهم الخطاب (1))

وفي نطاق هذا التبادل الثقافي نقرأ في ترجمة حسونة القصري الفقيه العالم ، الرباطي الاصل والذي كان في تونس برسم التجارة كيف كان يقوم بالقاء دروس احتسابا لله فجر كل يوم قبل التوجه الى متجره ، وكيف انه رفض اخذ اي راتب على عمله ، موضحا رفضه عند ما سأله الباشا علي باي عن ذلك بانه لم يرغب عن البلاد بدليل انه اختارها ، وانما لان الله اغناه بما يسره له من ربح التجارة وهو لهذا لا يسوغ له اخذ الاجرة على العلم

كما كان هناك الفقيه الورع ابو عبد الله محمد الفاسي المتوفى بتونس عصر الثلاثاء ثاني ربيع الثاني سنة 1232 هـ 1817 م. والذي قال عنه احمد بن ابي الضياف في ترجمته (ورأى الناس من هذا البحر الزاخر ، مصداق كم ترك الاول للاخر ، اذ كان على درجة عليا في تحقيق العلوم الشرعية والادبية والعقلية كالمساحة والهندسة والفلك وغيرها (2) الخ)

وكان في نفس الوقت تونسيون يقيمون في فاس برسم التلمذ ، ومن ابرز هؤلاء الطلاب التونسيين ابو عبد الله محمد بن سليمان المتوفى سنة 1247 هـ 1832 م ففي كتاب اتحاف اهل الزمان لاحمد بن ابي الضياف (انه رحل في طلب الفقه الى حاضرة فاس فاخذ عن الشيخ عبد السلام البازامي ، والشيخ (3) تاودي)

ولعل عن طريق التبادل الثقافي الحر عرفت تونس من بين طرقها التربوية ، الطريقة القائمة على املاء الدرس من الحفظ والذاكرة دون النظر الى كتاب او فتح مرجع ، ومعالجة الدرس بتقرير النظريات والتعليق عليها ، ثم في النهاية يقرأ كتاب المصنف . فمن المحقق ان هذه الطريقة لم تكن معروفة في غير القرويين من جميع الجامعات الاسلامية المعروفة ليومئذ. وقد يؤيد نظريتنا هذه ما ذكره ابن ابي الضياف في ترجمة ابراهيم الرياحي (4) ، من ان هذه الطريقة في التدريس لم تعرف الا على يد هذا الرجل. وانه اول من باشرها بتونس ، اذا علمنا ان الرياحي هذا كان بالمغرب على رأس بعثة دبلوماسية كما سيمر بنا

وبلغت العلاقات الثقافية في عهد الدولة العلوية بينها وبين تونس ان اصبح المسؤولون الكبار يتراسلون بالاشعار. فان الرياحي المذكور كان مرة انشد قصيدة تهنئة في ابن للمولى سليمان العلوي عقب عودة هذا الابن من الديار المقدسة مارا بتونس ، وكان مطلع القصيدة :

هذا المنى فانعم بطيب وصال

فلطالما اشتاك طول مطال

فما كان من المولى سليمان الا ان اجابه بقصيدة على نفس الروي والوزن وكان مطلعها :

---

1) اتحاف اهل الزمان لاحمد بن ابي الضياف . الجزء السابع صفحة 11

2) المرجع المذكور صفحة 102 .

3) المرجع المذكور قبله صفحة 164 .

4) المرجع المذكور قبله صفحة 74

حيث فاحت قلب صب صال
كيما تبشره بطيب وصال

ثم ارسلت هذه القصيدة صحبة المراسلات الرسمية بين الدولتين ، حتى ان الباي عندما وجد القصيدة ضمن البريد الرسمي الح ان تتلى عليه قبل ارسالها لصاحبها الشيخ الرياحي

واما عن خصوص العلاقات بين الدولة العلوية وتونس فلها هي الاخرى مظاهر عديدة لا تقتصر فقط على المعهود بين الدول من العلاقات التقليدية ، وانما تتعدى ذلك الى قيام تكافل حقيقي ذي جذور عميقة القدم ، وفي كل المجالات والميادين ، وفي مقدمتها تأييد احدى الدولتين الاخرى والمحافظة على الحكم فيها فعندما ثار محمد بن شكر بمحلة الشتاء ضد السلطان محمد باي حتى ارغم هذا على الالتجاء الى الصحراء ، وعاث ابن شكر في اموال التونسيين ، والى الدرجة التي لم يجدوا منها فكاكا الا بالاستغاثة بالسلطان المقهور وتأييده من الداخل ، وبدعوته لانقاذ البلاد من طغيان ابن شكر ، وتم لمحمد باي الامر حيث عاد لدسته ، وحاول الثائر الالتجاء الى المغرب بحثا عن كون يعيد به الكرة على الباي رفض المولى اسماعيل حتى استقبال الرجل قائلا لمن ذكره بوجوده (ان من يفعل هذا الفعل مع ولي نعمته لا يكون محلا للصنيعة ، ومن كفر النعمة استوجب النقمة) (1)

وبلغ من اطمئنان التونسيين الى التكافل الموجود بينهم وبين سلاطين الدولة العلوية ان رؤساء الدولة بتونس كانوا يعتقدون ــ وهذا ما تنبيء عنه مواقفهم ــ ان في اعناقهم وذممهم تجاه المغاربة ، المحافظة على كل ما يمت الى المغرب بصلة فعندما تعرض قطاع الطرق من قبيلة (النمامشة) للحجاج الفاسيين سنة 1164 هـ 1750 م وسلبوهم خيلا وابلا واحمالا واموالا، رأى السلطان التونسي لذلك العهد، علي باشا ، ان يغزو بنفسه النمامشة ليسترد منهم ما سلبوه من حجيج فاس (2) وفي سنة 1206 هـ 1791 م وعندما اجتاز من الاراضي التونسية في طريقه الى البقاع المقدسة لاداء فريضة الحج ، المولى اليزيد ولي عهد المولى محمد بن عبد الله بن المولى اسماعيل ، وضع الباي حمودة باشا رئيس الدولة ليومئذ ، رهن اشارة المولى اليزيد كل اسباب الراحة وهيأ له كل وسائل الاكرام فقد (انزله بقصره من بساتين منوبة واتاه مسلما عليه وطلب منه ان يزور محله بباردو . (3))

وفي نطاق التكافل القائم بين الدولة العلوية ورؤساء دولة تونس تمت السفارة التونسية للمغرب تلك التي كانت في بعثة قادها الفقيه الشيخ ابراهيم الرياحي وذلك سنة 1218 هـ . 4 / 1803 م فقد وفدت هذه البعثة على المولى سليمان تقدم له شرحا ضافيا عن الاوضاع الاقتصادية السائدة في تونس ليومئذ والتي لم تكن حسنة ، وطلبت من المولى سليمان تقديم العون اللازم للخروج من الازمة ، ويقال ان رئيس البعثة الفقيه الرياحي قام بين يدي السلطان ــ استدرارا لعطفه وانجاحا لعمله الدبلوماسي ــ وانشد قصيدة مؤثرة اهتز لها الحضور ، وكان مما جاء في هذه القصيدة :

ان عز عن خير الانام مزار
فلنا بزورة نجله استبشار

.. واذا انامله اللطاف لثمتها
فحذار من غرق ، فهن بحار

.. هذا سليمان الرضى بن محمد
من اشرقت بجبينه الانوار

هذا الذي رد الخلافة غضة
وسما به للمسلمين منار

تهوى المشارق ان تكون مغاربا
ليعمها في الملتجين جوار

.. رد الزمان لصدره فكأنما الفا
روق بين ظهورنا امار

العدل بسط والنفوس سوامح
والدين يظهر والعلوم تدار

---

1) المرجع المذكور الجزء الثاني صفحة 65 ــ 66
2) ابن ابي الضياف الجزء الثاني صفحة 132
3) المرجع المذكور الجزء الثالث صفحة 21

والناس في رغد الحياة بجنة
تجري لهم من تحتها الانهار
فليشكروا النعم التي عمتهم
الله يعلم انهن غزار

كما حمل الرياحي معه كتابا خاصا من سلطانه الى الشيخ ابن شقرون ؟ من اعيان دولة المولى سليمان والذين كانت تربطهم بالباي التونسي فيما يظهر علاقات شخصية (1) ، وقد نجحت هذه السفارة في مهمتها وقدم المغرب العون الواجب للقطر الشقيق بان سرح المولى سليمان لابراهيم الرياحي اليد واعطاه الحرية في شراء كل ما يحتاجه ويرغب فيه من اسواق مملكته ، ثم حمل المولى سليمان هذه السلع والمشتريات في مراكب بشحنه ، واكرم الشيخ الرياحي وهادى الباي بجانب وافر من النحاس اذابه بالمحمدية مدافع تنيف على المائة (2).

ولم تتوقف هذه السفارات بين المولى سليمان ورؤساء دولة تونس ابدا ، وانما توبعت بكيفية مستمرة ودائمة. ففي سنة 1235 هـ 20 / 1819 م. وجه باي تونس الى المولى سليمان ابا العباس احمد خوجة كاهية بنزرت ، الذي وافاه الاجل المحتوم بفاس اثناء قيامه بمأموريته (3).

وتوطدت العلاقة بين المولى سليمان وتونس حتى اصبح كبراؤها يهادون كل من يمر بهم من مسؤولي رعاياه ، ويهادي هو اولئك الكبراء. فقد هادى الوزير ابا المحاسن يوسف خوجة صاحب الطابع بحصان اشقر اللون بديع الشكل اعجوبة ، كان يمتطيه في الحفلات الرسمية ، وذلك ردا لهديته التي كان هادى بها ربابنة الاسطول المغربي عند ما مر بالمياه الاقليمية لتونس (4). وكانت العلاقات بين البيت المالك في المغرب وبين رؤساء دولة تونس تتجاوز كل اعتبار وتتعدى كل نطاق. وكان التونسيون كما اشرنا الى ذلك سابقا ، يرون ان اكرام ابناء البيت المالك ومن يتصل بهم بسبب امرا دينيا ، واليكم القصة التالية : (في سنة 1226 هـ 1810 م. قصد المولى سلامة بن المولى محمد بن المولى عبد الله بن المولى اسماعيل ـ والذي كان اهل فاس خلعوه ـ تونس بعد عودته من مصر حيث كان اجتمع بنابليون بونابرت الاول وتهاديا. وكانت الغاية من زيارة المولى سلامة الاراضي التونسية ، الاقامة النهائية بها كما يتجلى من موقفه من الاحداث وما كادت رحال سلامة تحط بتونس حتى قام التونسيون وقطاع المسؤولين فيها بواجب الضيافة وحسن الوفادة ، واحاطوا سلامة بما يستحقه من اجلال واكبار ، وهكذا افرد له رئيس الدولة قصرا (ورتب له جراية كجراية اخيه (5))
وطاب بالمولى سلامة المقام واستوطن تونس الى ان وافته منيته هناك. وللتدليل على مكانة ابناء الدولة العلوية لدى التونسيين نسوق القصة التالية :

(زار ابو اسحق ابراهيم الرياحي ـ الذي اشرنا الى انه كان ترأس البعثة التونسية التي وفدت على المولى سليمان ـ المولى سلامة ، وحين هم بمفارقته وكان الوقت قيلولة استبقاه لتناول الغذاء. واذ حان وقت انصرافه انشد :

ولما نزلنا في ظلال بيوتكم
امنا ونلنا الخصب في زمن المحل
ولو لم يزد احسانكم وجميلكم
على البر من اهلي حسبتكم اهلي

فقال المولى سلامة مجيبا : (انك اتيت اخي ومدحته واجازك وهو سلطان ، وانا غريب) ثم نزع من اصبعه خاتما ثمينا وناوله الرياحي. فاعتذر هذا عن اخذه قائلا :

نظرت لخاتم قد حل قدرا
تحق له الجلالة والكرامة

---

1) المرجع المذكور الجزء السابع صفحة 53
2) المرجع المذكور الجزء الثالث صفحة 39
3) ابن ابي الضياف ج 3 ص 130
4) المرجع السابق ج 7 ص 97
5) المرجع السابق ج 3 ص 52 ـ 53 ـ 54

فقلت له شرفت واي فضل
حويت بلبس مولانا سلامة

واضاف الريحي ان خاتمك شريف والشريف لا يستعمل ، وقد اجازني اخوك في الدنيا وجائزتي منك في الاخرة ، وانتم رجال الدنيا والاخرة فلا تحرمني من جائزة الاخرة ، فهي خير وابقى ، والاعمال بالنيات . ثم وضع الخاتم بين يدي المولى سلامة وخرج .. وظل المولى سلامة في اجلال حتى اذا حضرته الوفاة شيع في موكب رسمي شهده الديوان والاعيان وكانت جنازته كجنائز الملوك ودفن بمقبرة سيدي عزوز بالحاضرة .

بل ان المتتبع لاخبار العلاقات بين المالك في المغرب وبين الدولة التونسية لياخذه العجب من هذا التفاهم السائد بين الجانبين حتى انه ليشمل الامور الداخلية الخاصة او امور المطبخ كما يقول المثل الفرنسي : فقد اصبح من العوائد المألوفة ان لا يتوفى الله سلطانا من سلاطين تونس حتى يبعث خلفه وفور تعيينه تعزيته لملك المغرب : فعندما توفي اخو الباي ابي النخبة مصطفى بادر بخبر النعي الى الحضرة السلطانية المغربية المولى عبد الرحمن ملتمسا في نفس الوقت اعتراف المغرب بتربعه هو مكان اخيه ، وقد اجابه المولى عبد الرحمن بكتاب بليغ (1) مؤثر . وعندما توفي ابو النخبة مصطفى باي هذا وقام مكانه ابنه المشير ابو العباس احمد باي بادر بدوره بارسال كتاب نعي وتعزية الى المولى عبد الرحمن وطالبا منه الدعاء والتأييد .. ولقد اصبحت هذه المراسلات من هذا النوع احدى الميزات التي كانت تطبع علاقات الاسرتين الحاكمتين في المغرب وتونس ايمانا بمبدأ المشاركة في السراء والضراء .

ومن زاوية هذا الايمان كانت تونس تزن مواقفها من المغرب ، واليكم هذه القصة الطريفة البالغة الدلالة: بلغ المشير ابا العباس احمد باي من طرق غير رسمية ان المولى عبد الرحمن قرر احداث تنظيمات عسكرية جديدة ، وانه حال دون تطبيقها عدم توفر الفنيين من غير الاتراك والفرنسيين الذين لا يمكن للسلطان الاعتماد عليهم نظرا لاختلاف اللغة والطبائع ، وانه لذلك يفكر في ان يستقدم الفنيين الضروريين لتنفيذ برنامجه العسكري من الشقيقة تونس ... ولكن مرت الايام ولم يصل تونس اي طلب في هذا الشأن من المولى عبد الرحمن ، فقال الباي ذات مرة وقد انجر الحديث عن هذه القضية لجلسائه (تمنيت لو وقع ذلك - والاشارة لطلب المغرب المعونة الفنية في الميدان العسكري - فقيل له : ومن تبعث ؟ فقال بداهة : ابعث الامير الالاي حسن المقرون ، وكان هذا رئيس اركان جنده ، ومعه ضباط من اشراف مساكن الذين بالعسكر ، واضاف : ثم اكاتبه باننا بعثنا لتشريف سلطنتك اشراف عساكرنا ، وجرايتهم علينا ، ونكتفي من فضلك بالقبول) (2) .

وقد يطول بنا الامر لو اننا مضينا نتقصى كل جوانب هذه العلاقات التي كانت تربط البيت المالك في المغرب برؤساء دولة تونس ، ولكن لا بد من كلمة ختامية حول العلاقات الحديثة والحالية القائمة بين الدولتين : فقد كان للاستعمار الفرنسي الذي سلط على البلدين : تونس والمغرب ، وحال طيلة عهده دون انماء تلك العلاقات الاخوية الى ما كان ينبغي ان تصل اليه ، اليد الطولى في عرقلة كل اتصال بين الدولتين . ولكن ما ان بزغ فجر الاستقلال - وكأن العناية الربانية التي شاءت ان تحافظ على علاقات البلدين عبر القرون نقية طاهرة لم يعكر صفوها حادث ما شاءت ان يتم استقلال البلدين في زمن متقارب جدا لتتألقا ، تحدوهما الرغبة الصادقة في بناء وحدة حقيقية متينة بين كافة اقطار هذا المغرب العربي نفس الخطوات الموفقة المباركة - اقول ما ان بزغ فجر الاستقلال على الامتين حتى عادت العلاقات التاريخية الى سابق عهدها، ووضعت اللبنات الاولى لتتميم ما كانت عطلته يد الاستعمار ، ولاعادة النظر في تنسيق الخطى وتحديد المهام ، ولم الشعب ، وتوحيد الكلمة ، وضم الصف .

وفي هذا المضمار استأنف البلدان الاتصالات الرسمية ... وكان اول لقاء بينهما بعد الاستقلال ، يبتدىء بالزيارة التي كان قام بها المأسوف عليه محمد

---

1) ابن ابي الضياف الجزء الثالث صفحة 200 .

2) المرجع المذكور الجزء الرابع صفحة 168 .

الخامس في اكتوبر 1956 الى تونس والتي كان رد عليها رئيس الدولة التونسية الحبيب بورقيبة بزيارة مقابلة للمغرب في مارس 1957 . وفي هاتين الزيارتين المتبادلتين تم الوصول الى ما يعرف حاليا في تاريخ البلدين الدبلوماسي بمعاهدة الاخوة والتضامن . ثم تكررت الزيارات بين كبار مسؤولي البلدين ، ومن ابرزها واهمها بالتسجيل والتدوين تلك التي قام بها الحبيب بورقيبة الى المغرب وبدعوة من محمد الخامس، بقصد بحث تطور الاحداث في الجزائر يومئذ ، اذ كانت حرب التحرير هناك على اشدها . وكان البلدان المحرران : المغرب وتونس ، يشعران بفداحة مسؤوليتهما ازاء استمرار تلك الحرب الضروس التي اوشكت ان تاتي على الاخضر واليابس في الشقيقة الجزائر ، ولوضع سياسة مشتركة فيما يخص هذه القضية وطرق علاجها زار الحبيب بورقيبة المغرب في شهر نوفمبر 1957 . وقد تمخضت هذه الزيارة عن توحيد الموقف تجاه المشكل الجزائري غداة عرضه على انظار الهيئة الاممية . ومما لا شك فيه ان هذا التوحيد كان ذا اثر محسوس وايجابي وفعال في القرار الذي كانت الجمعية العامة للامم المتحدة اتخذته في شان تطور القضية الجزائرية ، وذلك في جلستها المنعقدة بتاريخ عاشر دجنبر 1957 .

ثم كانت زيارة الحسن الثاني بتاريخ ابريل 1959، والحسن الثاني يومئذ ولي للعهد . وتوبعت الاتصالات في مختلف المستويات ، يدعمها التمثيل الدبلوماسي الذي كان الاداة الدائمة لقيام تفاهم حقيقي متبادل . ومن الانصاف الاعتراف بان هذه الاتصالات كان لها الاثر الفعال في الاتفاقيات التي توصل البلدان لابرامها كتوضيح وتحديد لبروتوكول معاهدة الاخوة والتضامن . فان الاتفاقيات الموقعة بتونس اثناء زيارة الملك الحسن الثاني لتلك الديار وبتاريخ 9 دجنبر 1964 ، والتي شهدت اهم الميادين الجذرية والاساسية لبناء تفاهم افضل وتقارب اتم كانت بدون ريب وستبقى اللبنات الاولى لمتابعة ما وضع اسسه الجدود وحافظ عليه الخلف . لقد شملت تلك الاتفاقيات شؤون العدل والنقل والثقافة والدبلوماسية والصحة والاذاعة والتلفزة والبريد والمواصلات والسينما والاستيطان .

ونحن لا نشك في ان التوقيع على تلك الاتفاقيات انما كان شكليا ذلك لان كل تلك الاشياء المنصوص عليها فيها انما هي اشياء كان يحيى معطياتها وابعادها شعبانا اللذان كانا وما يزالان يحسان انهما مدعوان لتتميم الرسالة الانسانية النبيلة التي جاء من اجل تدعيمها اجدادنا الاولون ، والتي من اجلها ، ولها ، يجب ان نعيش ويستمر وجودنا على هذه الارض المقدسة الطيبة .

ونحن هنا لا يسعنا الا ان نبارك جميع الخطوات التي قد تتخذ في هذا المضمار ، وكل بادرة يقوم بها اي انسان ، وبورك للنوايا الحسنة ، والاجراءات المخلصة وكل عمل من شانه تدعيم الوجود العربي الاسلامي في هذا الجزء من المعمور .

فاس : عبد الكريم التواتي



دبلوماسية الحسن الأول

للأستاذ ابراهيم حركات

دام ملك السلطان الحسن الاول رحمه الله مدة عشرين سنة او تزيد . وكثيرون جدا اولئك الذين يعرفون ان الحسن الاول من اشد ملوك الدولة العلوية دهاء في الميدان السياسي واخبرهم بخبايا الاحوال الدولية .

وقد تولى الحسن الاول الملك فيما بين سنة 1290 ــ 1311 (1873 ــ 1894) وهي فترة ثبت فيها الاستعمار الاوربي اقدامه في بلاد مختلفة من العالم ، وتونك ان تكون كل بقعة في القارات الخمس قد وطئتها في هذا الوقت اقدام مغامر او مستعمر اوربي . كذلك شهدت هذه الحقبة ظهور شخصيات عظيمة في عالم السياسة . ففي انكلترا كان يوجد (ديزرايلي) الذي نشطت في عهده الحروب الاستعمارية البريطانية . وفي المانيا برزت شخصية (بسمارك) الذي خطت هذه البلاد في عهده خطوات جبارة في طريق الوحدة على الرغم من استبداده ، فقد منع على رجال الدين القيام بنشاطهم في ميدان التعليم وفرض الزواج المدني ومنع حرية التجمع . وفي فرنسا ظهرت شخصية الماريشال (ماكماهون) و (كارنو) ذو الميول الملكية .

على انه يمكن القول بان العلاقات السياسية الدولية كانت تتجه نحو الاستقرار الا ما كان من التنافس الشديد بين الدول الاوربية الاستعمارية في الاستيلاء على البلاد المستضعفة باشكال مختلفة ، وكانت اعظم الدول الاسلامية وهي الدولة العثمانية تعاني صعوبات شديدة من جراء الاضطرابات المتوالية في البلاد الخاضعة لنفوذها خصوصا دول البلقان وسورية وشبه جزيرة العرب . كذلك مدت اليابان يدها الى بلاد الصين الممزقة الاوصال تقتطع منها اجزاء كثيرة، وعمدت فرنسا الى القطر التونسي فاحتلته سنة 1881 بينما كانت الثورة العرابية في مصر تغلي غلي المرجل ، ولكن زعيمها عرابي لم يستطع شيئا امام احتلال الانجليز للاسكندرية سنة 1882 ثم تدخلوا في شؤون مصر مباشرة يشرفون على الامن والمرافق العامة ويحتلون قناة السويس التي ظلت تحت سلطتهم الى زمن قريب ، كما يعلم الجميع . وما كادت تحل سنة 1885 حتى كانت فرنسا قد اقرت حمايتها على مدغشقر ثم قمعت ثورة وطنية قامت بها واستلحقت هذه الجزيرة العظيمة بفرنسا بعد عشر سنوات . وفي هذه الظروف كانت دول امريكا اللاتينية الصغرى تعاني بدورها صعوبات من جراء تدخل الولايات المتحدة وجاراتها القوية كالشيلي والارجنتين . وكانت انكلترا « شيخة الاستعمار » كما كان وصفها البعض ، تتحين الفرص وتعقد المعاهدات مع الدول الكبرى تارة مع روسيا واحيانا مع فرنسا وطورا مع المانيا لاقتسام البلاد المستضعفة او بسط نفوذها عليها كما حصل بالنسبة لافغانستان سنة 1881 والهند الصينية سنة 1885 وكل الاقطار الافريقية تقريبا .

تلك هي الظروف التي عاشها الحسن الاول ملكا في بلاد المغرب التي شهدت منذ العصر السعدي وفود عدد غير قليل من المغامرين الاجانب تجارا وفنيين واطباء وجنودا حتى لقد كانت مراكش في عصر المنصور السعدي نفسه عاصمة تكاد تكون اجنبية من حيث لغة ساكنها ، فقد كانت اللغة السائدة بها هي الاسبانية الى

جانب البربرية كما اكد ذلك (دوفردان) في كتابه القيم عن مراكش .

ولنتصور المغرب في عهد الحسن الاول يعيش منعزلا عن كل مساعدة محتملة من جيرانه ، فالجزائر والسينغال والسودان تحت الحكم الفرنسي ، وفي الشمال توجد اسبانيا والبرتغال وهما دولتان لهما نزاع عسكري وسياسي مع المغرب منذ عدة قرون خلت . ثم لنتصور مع هذا ان الجيش الاسباني يرابط فعلا في كل من سبتة ومليلية ، وان مبعوثين سريين ودبلوماسيين من طرف بلاد اجنبية يلعبون ادوارا خطيرة في تهديد السلطة المركزية ، يستميلون بعض القبائل بالمال ويمدون زعماءها بمساعدات مختلفة . وهناك عدد من رجال الدين خصوصا من بين اصحاب الزوايا قد سمموا عقول الشعب الساذج وحادوا به عن جادة الدين الحق ، مما جعل الشيخ احمد خالد الناصري يندد بافكارهم السخيفة ويدعو الى عبادة الله من غير تخاذل او تواكل او توسط ببعض هؤلاء الاولياء .

ولنتصور كذلك ان الاجانب قد استهوتهم خيرات المغرب فتقاطروا اليه من كل حدب وصوب ، يبحثون عن الكسب ويستولون بمختلف الطرق على الحركة التجارية والاقتصادية في البلاد ، وليس هناك من وسيلة لا للاستغناء عن وجودهم ولا لوضع حد لنفوذهم الفاضح ، فالدول التي ينتمون اليها اقوى عسكريا وسياسيا واقتصاديا من المغرب الذي كان يتمتع وحده بالاستقلال من بين كل الدول الاسلامية باستثناء البلاد التركية . وهذا الاستقلال المهدد بمختلف الوسائل لم يكن احد مهما بلغ من عبقريته يستطيع ان يخدمه اكثر مما خدمه الحسن الاول .

لقد كان الحسن الاول شديد الرفق بشعبه وان كان ذلك لا يمنعه من ردع اهل الفساد والظلم حاكمين ومحكومين . وكان عظيم العناية بسكان الثغور يستعمل عليهم الاكفاء ويكف عنهم عادية من ظلم منهم ويستقبلهم بالترحاب ويسمع شكواهم .

وكانت للحسن الاول رغبة عظيمة في اصلاح الاوضاع ببلاده ، وقد شجع المبادلات التجارية والاقتصادية مع الخارج ، مما يدل على حسن نية في التعامل مع الدول الاجنبية ، وقد كانت موانيء المغرب كطنجة والعرائش والدار البيضاء تستقبل يوميا عددا من البواخر التي تشحن البضائع او تصدرها الى المغرب ، وكان ميناء الدار البيضاء كثيرا ما يستقبل عشر بواخر وتزيد في اليوم الواحد . وانشأ المغرب في هذا العهد مصالح البريد الحديثة كما انشأ مركزا للغرافيا بطنجة بينما اضيفت قطع جديدة الى الاسطول المغربي وجهزت الموانيء الرئيسية تجهيزا حديثا ، كما اقيمت بعض المصانع وعلى الخصوص مصانع السلاح حيث وجه هذا الملك المصلح همه الى التنظيم العسكري لشدة الحاجة اليه مع التهديد وقيام الفتن في الداخل .

على ان اهتمام الدول الاجنبية كان منصبا في هذا العهد على توسيع نشاطها في الميدان التجاري والاقتصادي ومن ثم كانت متاعب الحسن الاول تشتد يوما عن يوم بسبب تنافس هذه الدول في الاحتكار الاقتصادي من جهة وعجز المغرب عن الاكتفاء الذاتي من جهة اخرى .

وكان في بعض السلع المستوردة ما لا يتفق يومئذ مع روح المحافظة التي كانت متغلغلة في سائر طبقات المجتمع ، حتى لقد اضطر مولاي الحسن الى منع تجارة التبغ على الرغم مما تدره من دخل في واردات الجمارك . على ان دخول التبغ الى المغرب لاول مرة يرجع الى زمن طويل قبل هذا العهد حتى لينسب الى جماعة من اهل السودان وردوا على المغرب وهم يلوكونه ، ايام المنصور الذهبي . وقد كان منع هذه البضاعة مما استوجب احتجاج الاجانب وتدخلهم لدى ممثلي دولهم كما يدل على ذلك نص رسالة موجهة من نائب السلطان بطنجة سنة 1308 ، وفيها يصرح باستحالة منع استيراد هذه « العشبة » .

وبلغ التنافس التجاري اشده بين الالمان والانجليز والفرنسيين ، وهؤلاء الاخيرون عرفوا كيف يستغلون ميناء الدار البيضاء لصالح منتجاتهم . ولقد تمكنوا في اواسط ايام السلطان مولاي الحسن من احتكار المبادلات التجارية في كل موانيء المغرب تقريبا الا ان الالمان والانجليز سرعان ما خلفوهم في هذا النفوذ الاقتصادي . وقبل تنصيب مولاي الحسن بسنوات طويلة كان الانجليز قد تولوا ظاهرا كبر الدفاع عن وحدة التراب المغربي واستقلاله حتى يحتفظوا بنفوذهم الاقتصادي لاطول امد ممكن .

وبلغ من ذكاء هذا السلطان انه لم يعمل في يوم ما على التغليب بين الدول المتنافسة التي تطمع في مزيد

من الامتيازات ، بل كان يعمل بسياسة التوازن التي عرف بمهارته كيف يحمل عن طريقها كل الدول المتنازعة ، على احترام سيادته ووجهة نظره .

ولقد كانت فرنسا بحكم احتلالها لكل من الجزائر وتونس اكثر الدول طمعا في احتلال المغرب بصفة مباشرة . وقد كانت مشاكل الحدود اهم وسيلة استغلت للتدخل العسكري عدة مرات من طرف الجيش الفرنسي على الرغم من ان فرنسا عانت ازمة مدية ونفسية خطيرة بعد ضم منطقتي (الالزاس واللورين) الى المانيا على يد (بسمارك) ، ولكن ذلك لم يؤثر في معنويتها كدولة تحتل قطرين من بلاد الشمال الافريقي .

وكانت مشكلة الحمايات الاجنبية التي خضع المغرب لشرها منذ سنة 1767 م قد بدأت تستفحل الى حد ان عدة دول بدات تطالب بامتياز حماية الرعايا المغاربة . وبما ان فرنسا كانت تتمتع باهم الحقوق ضمن هذا الامتياز . ثم ضعفت سمعتها بعد هزيمتها المذكورة ، فقد رأى مولاي الحسن ان الفرصة سانحة لعقد مؤتمر دولي يعالج هذه القضية ، وكانت فرنسا تعارض في عقده خوفا على امتيازاتها المتفاحشة ، ثم رضخت لعقده سنة 1880 برآسة السيد محمد بركاش وقد شاركت فيه دول كثيرة من اوربا ، وهي : فرنسا واسبانيا وبريطانيا وبلجيكا وايطاليا والدنمارك والنمسا وهولندا والبرتغال والمانيا والسويد والنرويج فضلا عن الولايات المتحدة ، واعطيت لمجموع هذه الدول نفس الحقوق التي كانت تستبد بها فرنسا وانجلترا .

وكان من نتائج هذا المؤتمر ان قبلت الدول ان يؤدي الرعايا المحميون ما يترتب عليهم من ضرائب فلاحية وان يمنع التجنس بالجنسية الاجنبية على المغاربة وان يعطي للاجانب حق الملكية . وكان هذا اول مؤتمر اوربي يشترك فيه المغرب حتى ان قضية المغرب اصبحت بفضله دولية لا تهم طرفا واحدا بل عدة اطراف . ومن ثم ربح المغرب تدويل قضيته لمدة ثلث قرن تاخر بعد هذا المؤتمر .

وحتى انجلترا التي ظلت الى اواخر عهد السلطان الحسن الاول تكتفي بامتيازاتها الاقتصادية والتجارية والقانونية ، قد فكرت سنة 1892 في اعداد مشروع لاقرار حمايتها على المغرب بل وضع المشروع فعلا على يد السيد (ايفان سميث) ولكنه اصطدم بمعارضة شديدة من طرف السلطان ، وكانت انجلترا تتوقع ان تمتد يد فرنسا في يوم ما الى ارض المغرب . وكان يحز في نفوس ضباط الجيش الفرنسي بالجزائر ان يبقى المغرب خارجا عن السلطة الفرنسية التي اقرت عسكريا وسياسيا بكل من تونس والجزائر . ومن الطبيعي ان هؤلاء الضباط كانوا يرون اسهل الوسائل للوصول الى تنفيذ مآربهم هو الانقضاض على الصحراء ومناطق الحدود ، اذ كان بعدها من جهة وتعذر تجهيزها تجهيزا كافيا بالسلاح والجند من طرف المغرب ، من جهة اخرى ، مما يطمع فيها غزاة الشمال الافريقي .

ولقد اقر بعض المتطرفين ممن كتبوا عن نشاط فرنسا بالمغرب في هذه الفترة بأن سياسة الحسن الاول فيما يخص مناطق الحدود ، بقدر ما كانت عبقرية حاذقة بقدر ما كانت سياسة الفرنسيين في نفس المناطق بعيدة عن ان توصف بهذه الصفة (Augustin Bernard : Le Maroc)

ونفس هذا المصدر (ص 313) يعترف بان تعيين السلطان لعاملين بوجدة وفكيك بعد زيارته الاولى سنة 1876 كان وحده كافيا لوضع حد للتوسع الفرنسي بيد ان الفرنسيين لم يفقدوا من بعض المغاربة انفسهم نصيرا فبعض رجال الطرق الذين شملتهم حماية الدولة الفرنسية في هذه الظروف الحرجة كانت سلطات هذه الدولة بالجزائر تستغل نفوذهم الروحي بناحية الصحراء وكان رئيسهم يبادل فرنسا اخلص العواطف كما يقول (بنسون) في كتابه « امبراطورية البحر الابيض المتوسط ص 224 » وكان اولاد « سيدي الشيخ » آلة طيعة في يد السلطات المذكورة التي استعانت بهم في احتلال الاراضي والواحات الصحراوية .

ولندع هذا الكاتب يتحدث عن نشاط الحسن الاول في هذه النواحي حيث يقول (ص 221) :

« قلما كانت تمر سنة بعد عام 1886 دون ان تتبادل الوفود والرسائل السرية (؟ !) بين اعيان القصور والبلاط الشريفي خوفا من المسيحيين الذين كانوا يهددون البلاد على الرغم من سلبيتهم »

والواقع ان فرنسا كانت تتملص بكل الوسائل من الدخول في مفاوضات مع المغرب حول مستقبل الصحراء التي لم تطأها قدم غاز اوربي منذ عهد القائد الروماني (بولينوس) وعند ما تدخل وزير خارجية المغرب السيد فضول غرنيط لدى ممثل فرنسا بطنجة لوضع حد للتوسع الفرنسي .

وفي الوقت الذي تبرز فيه المصادر ذات الصبغة الاستعمارية تدخل فرنسا بحجة ان الصحراء تحتفظ باستقلالها عن المغرب منذ عهود طويلة تؤكد ان زيارة الحسن الاول لمنطقة تافيلالت خلفت اثرا عظيما لدى السكان ، حتى اولئك الذين اتخذتهم صنائع لها ، بل بقي هذا الاثر مستمرا الى ما بعد وفاة هذا الملك المناضل ، ذلك ان الحسن الاول كان يتفقد باستمرار مختلف مناطق المملكة خصوصا منها الجهات النائية كما تقدم

وعلى الرغم من هذا الشره الذي ابدته عدة دول اوربية في استغلال خيرات المغرب وتمزيق اوصاله ، فان هذا البلد المضياف لم يغلق بابه امام الحضارة الاوربية ولا امام رعايا دول اوربا ، ذلك ان المصادر الاجنبية تكاد تجمع خطأ او دفاعا عن الفكرة الاستعمارية على ان المغرب ظل مغلقا على نفسه قرونا عديدة ولم تنفتح عيناه على المدنية حتى جاءت سنة 1912 . ولنا نود هنا ان نستعرض مساهمة المغرب نفسه في الحضارات التاريخية ولا كرمه في التعامل الحر مع مختلف رعايا دول العالم منذ قرون وفتحه لابواب الهجرة المسيحية واليهودية الى ارضه التي طالما نال فيها الاجانب امتيازات لم يتمتع بها المواطنون انفسهم ، وانما يهم هنا ان نثبت ان الحسن الاول لم يتعلق بحضارة الشرق تعلق المتعصب الذي يعيش في ظلمات الماضي . بل هداه احتكاكه المستمر بالاجانب وتتبعه لتطور الحضارة الحديثة وذكاؤه العجيب الى ان يلتفت الى هذه الحضارة بالذات ، يأخذ من مظاهرها بالحظ اللازم ويعتمد في تطبيق وسائلها واغراضها على هؤلاء الذين يصفون بلاده بالانغلاق على نفسها ، فالى فرنسا واسبانيا وانجلترا وايطاليا وغيرها وجهت بعثات طلابية لتلقي العلوم العسكرية والتقنية . وعلى الطريقة الاوربية نظم البريد بعدة جهات من المغرب ، وعدد كبير من التقنيين الاوربيين ساهموا في بناء الموانيء والمصانع . وفي عدد كبير من المدن كالدار البيضاء والصويرة وطنجة وفاس كانت تستقر جاليات اوربية بينها اطباء وتجار وفنيون في مختلف المهن . حتى التصدير والاستيراد واستقبال السفن في الموانيء تظم على الطريقة الاوربية، ولكن الحسن الاول لم يمتد به العمر مع الاسف حتى يحقق مزيدا من المشاريع لصالح بلاده،

فماذا يريد الاوربيون اكثر من هذا ، وقد كانت امتيازاتهم تفوق في عدة ميادين حقوق المواطنين انفسهم ؟

والواقع انه يمكن ان تلخص اتجاه السياسة الاوربية في هذا العهد كما يلي :

1) كانت فرنسا تريد ان تمد نفوذها المطلق على المغرب في حين كانت انجلترا تحرص خصوصا على الاحتكار الاقتصادي ، اما الدول الاخرى فكانت تحرص بدورها على ان تعامل من الناحية القانونية معاملة هاتين الدولتين

2) خلقت فرنسا مشكلة الصحراء بقصد التوسع وعرضت انجلترا مساعدتها للحسن الاول بزعم الحد من هذا التوسع

3) كان استغلال النفوذ الروحي لأرباب الزوايا لدى الطبقة الشعبية وسيلة اتخذتها فرنسا او استعانت بها في توسيع رقعة نفوذها وراء القطر الجزائري بينما رأت اكثر الدول الاوربية الاخرى التي لها رعايا بالمغرب في هذا التدخل تهديدا لمصالحها .

اما سياسة الحسن الاول فكانت كما يلي :

1) الاعتماد على الطرق الدبلوماسية اساسا لوضع حد للتوسع الفرنسي ، والحرص على معاملة الدول الاجنبية بنفس الطريقة وعدم الميل الى طرف معين .

2) شغلت قضية الصحراء بال الحسن الاول فعين فيها عمالا جددا وكان يغيرهم كلما بدر منهم التدخل الاجنبي وامد بمساعدته بعض الزعماء المحليين الذين تصدوا لمقاومة النفوذ الفرنسي كبوعمامة الذي انتهى به الامر اخيرا الى الاستسلام للجيش الفرنسي ، اما انجلترا فلم يقبل السلطان حمايتها كما لم يخطر بباله ان يقبل مساعدتها غيرها .

3) كان النفوذ الروحي للحسن الاول قويا جدا كما تشهد بذلك الوثائق الاستعمارية نفسها ، ومن ثم عرف السلطان كيف يستغل مقامه في السلالة النبوية وشخصيته الحقيقية كمناضل ضد النفوذ الاجنبي ، فوقف السكان الى جانبه واستمدوا المثل النبيل من كفاحه حتى بعد وفاته رحمه الله .

ابراهيم حركات



بالعرش قد غنى فمي   وبحبه يجري دمي

يا حسنه من جنة   فيها يطيب تنعمي !

فالشرق يرقب فجره   فى وجهه المتبسم

قد كان روضة شاعر   متعمق مستلهم

فيه البشائر والمنى   تحيي فؤاد المسلم

انى أصور خلده   فى لوعتي وترنمي

والفن يدعو قائلا :   بالله يا عرش اسلم !

أعظم به وبمجده   وبشعبه المتقدم !

فيه الحياة لذيذة   فيه العروبة تحتمي

والمغرب الاقصى غدا   للعرش حقا ينتمي

يا عرش دم لي فى الورى   كالبدر بين الانجم !



حادثة سبقت حوادث فلسطين وكانت نهايتها الرائعة على يد المولى الرشيد .

للأستاذ محمد ابن احمد اشماعو

ازقة مدينة فاس الرئيسية ـ على عادتها ـ زاخرة بالحركة والنشاط ، تتزاحم فيها المناكب وتتدافع الاجسام وتطأ الاقدام الاقدام ، من كثرة السكان ، وشدة الزحام . ولكن هذا الزحام ينفرج كل حين لينفسح المجال امام البغال القوية المثقلة بالسلع والاحمال التي لا يمكن أن تحملها الا هي ، وامام بغال اخرى مطهمة مرفهة بسروجها المطرزة ، ولجمها الفضية ، وزينتها الحريرية ، تختال بركابها النبلاء الذين لا يخلو ان يكون من بينهم عالم من العلماء ، او شريف من الشرفاء ، أو وجيه من الوجهاء ، او سيدة من السيدات الوقورات اللواتي لا يستطعن الصعود او النزول في عقبات فاس الصعبة ...

وان غير العارف بالامور ليتوهم ان مدينة فاس مشغولة بمشاكل التجارة والصناعة ، وبحركات المبادلات والاستيراد والتصدير ، تلك الحركات التي يتحمل القائمون بها مشاق وعورة الجبال وقسوة الصحاري ومخاطر السهول ، وهياج جموع الثائرين والمتعاركين الذين لا تكاد تخلو منهم ناحية من نواحي المغرب في هذه الايام ... لكن فاسا في الواقع متيقظة ، ومتتبعة للاحوال يوما بيوم ، وهي على قلب رجل واحد ، تحب وتقبل وتطيع على كلمة واحدة ، وتكره وترفض وتعصى في اجماع شامل ... يكفي ان يتصدى عالم جليل او شيخ حكيم او شريف اصيل ويصدر فتواه او يجهر برايه لتطيعه الاقوام وتتجند الجموع من ورائه ، وتصير على استعداد للموت في سبيل اعلاء هذه الكلمة

لقد عرف الشريف (مولاي الرشيد) كل هذا وادركه خلال نزوله بمدينة فاس بعد تجوله بعدة مدن وانحاء كثيرة من المغرب حواضر وبوادي ، انما ملك منه اعجابه على الخصوص : جامع القرويين العامر بمجالسه العلمية في مختلف دروسها : تفسير ، اصول ، منطق ، تنجيم ، حساب ، تاريخ ، تقويم بلدان ، نحو ، صرف ، بلاغة ، عروض ... هي فنون من العلم والادب ترفع من قيمة الانسان ، وتنسيه هموم الدنيا ، وتغريه بان ينقطع للتحصيل والدرس الى الابد . غير أن الحياة ومغالبة احداثها وتقليب الوجود فيها ... كل ذلك يحتاج الى اشياء اخرى مع هذا كله . والطلبة الكرام أيضا اخذوا بلب الشريف بحذقهم وتدبيرهم لشؤونهم وبلياليهم الحافلة بالمرح والفكاهة والنكت بقدر ما هي حافلة بالجد والحفظ والاستذكار والنقاش والمعارضات والمطارحات الممتعة .

ولكم اعجبه ان راى الطلبة يتسللون من فرشهم عند الفجر ويؤمون المساجد للوضوء والصلاة وتلاوة القرآن وبمجرد ما يعودون عند طلوع النهار ينصرف كل فرد من الافراد جماعاتهم الى القيام بالمهمة التي هو مطوق بها ، هذا يرتب الحجرة وينظفها ، وذلك ينفخ في النار ليشعلها ، والآخر اخذ القفة وتسلل الى السوق لاحضار طعام الافطار والغداء معا ، وبمجرد ما يعود ، يجد هؤلاء الشبان النشيطين متفتحي الشهية جدا للالتهام ما احضره ! وينصرفون جميعا بعد ذلك الى نصب قدر الغداء ، ثم الى كتبهم الضخمة الدقيقة

الكتابة .. انهم كلهم يراجعون الدروس قبل الذهاب لتلقيها ، واعينهم مع ذلك على القدر التي تغلي والجمرات التي يعلوها الرماد شيئا فشيئا ، ومتى ما حضر الوقت بدلوا ملابس البيت بملابس اخرى بسيطة نظيفة وتأبطوا اللبدات الصوفية وغدوا الى الجامع الذي يستغرق منهم نهارهم كله .. اما الليل فللسمر والتنكيت وقراءة اشعار الغزل واخبار العشاق التي خلدها الدهر مثيرة هكذا ، لتغذي خيالات هؤلاء العزاب المنقطعين للعلم ، وللعلم وحده ، مؤملين في مستقبل سعيد فيه يعشقون أو يعشقون ..!

لكن تتبخر الآمال وتضيق النفوس لما تشيع في وسطهم اخبار الثورات والحروب والفتن التي تثور هنا او هناك من انحاء الوطن ، لانهم يعرفون أن فاسا هي الهدف الاول لكل ذي حركة ، او نهاية المطاف بالنسبة اليه ، والطلبة ملزمون بالخوض فيما يخوض المواطنون الذين يساكنونهم ... وفي مثل هذه المناسبات تثور الاشجان في الطلبة (الآفاقيين) الواردين على كلية القرويين لطلب العلم ، فيذكر كل واحد حالة بلدته والمشاكل المحدقة بها ، وهم لا يقطعون برأي في ذلك ، ما داموا بعيدين عن مسارح الاحداث ، فهذا (الطنجي) يذكر أحوال بلاده تحت حكم الانكليز ، (والريفي) يفيض في مآسي منطقته على يد الاسبان ، وبمثل هذا يتحدث (الدكالي) ، ويتشاءم (الوجدي) من تربصات الاتراك بتلمسان المجاورة لمدينة وجدة ، ويود أن يقول (التدلاوي) شيئا عن الدلائيين الذين انقلبوا من عباد الى حكام ، فلا يجد عنده اخبارا جيدة وكذلك يحار (السلاوي) فيما يقوله عن آخر اخبار (الشيخ العياشي) ... سوى الشريف مولاي الرشيد فان عنده تفاصيل جديدة عن الاحوال بهذه المناطق كلها ، ولكنه وهو في ضيافة الطلبة يكتفي بالاستماع والاستفادة من اجل مستقبل يتهيأ له ، ولا يريد أن يكشف جهارا عما ينتويه ، فذلك ليس من الحكمة في شيء ... انما لاحظ ان الطلبة النبهاء يتجهون في نهاية الحديث الى طالب من بينهم رصين متزن ويسألونه :

— كيف حالكم مع ابن مشعل اليهودي ؟ كيف حالكم معه يا اهل تازة ؟ انه الآن يتقوى ويتجبر ، وسيأتي يوم يبتلعكم فيه ، ثم يتقدم الى فاس — وهي ليست بعيدة جدا منه — فيبتلعها ايضا ، ويأتي بعد ذلك دور مدن المغرب الواحدة بعد الاخرى ... فوالله لئن وصل الى فاس ليمزقن شر ممزق ، ولتقطعن بسكاكين الطعام هذه من لحمه ونرمي لقططنا ... اموال المغرب في صناديقه ، وبها سيحاربنا ويحتل البلاد ويتحكم في العباد ، يا ويل الاعزاء من حكم الاذلاء !

اشمأز الشريف الرشيد من هذا الخبر السيء الذي لم يكن له علم به مطلقا ، والتفت الى الطالب التازي منتظرا جوابه ، ولكن الشاب لم يكن له جواب شاف ، اذ لم ترد عليه اخبار من هناك ، حتى التجار التازيون الذين من عادتهم ان يتوافدوا على فاس قبل عيد الاضحى لشراء التوابل لم يزوروا فاسا حتى الآن ... ما السبب ؟ ان الطالب في الواقع حائر ، ويشعر بأن كرامته أمام زملائه مطعونة في الصميم ، ولكنه يتصبر ، لعلمه أن اهل بلدته ايضا لن يناموا لا على ذل ولا على ضيم ابدا ...

ومال الشريف الرشيد نحو الطالب وانتحى به ناحية بعيدة ليستفسره عن واقع الحالة في تازة . ان الرشيد اصبح يهوى المواقف الشديدة العسيرة ليتمكن من مواجهتها ومغالبتها ثم تحقيق الانتصار فيها ، ولعل تازة ستكون بداية الانطلاق نحو الغاية العظمى ؟ العدو الاكبر اصبح الآن هناك ، والمال الجزيل — قوام الاعمال — متوفر لديه ، وصناديد غياثة والتسول وغيرهم من رجال القبائل خدام مخلصون لآل البيت منذ كانوا .. يا للحظ السعيد ، فرصة يجب ان تغتنم ولا تضيع !

وفي بضع نظرات خاطفة من تينك العينين الواسعتين المكحلتين بدون كحل ، واللتين يتميز العديد من ذرية فاطمة الزهراء ، عرف الشريف الرشيد ما تنطوي عليه نفس الشاب التازي ، بل وجد في قامته المديدة المتينة ، وسحنته الصارمة ، وسمته ورصانته ، ما يستحق معه أن يكون له سندا وعمدة ، والرجال للشدائد ..!

والطالب التازي نفسه وبدوره الهم ان هذا الشاب الحازم لابد وأن يستطيع فعل شيء مفيد لمسقط الراس تازة ، ولربما للمغرب بأكمله . لقد كشف له الشريف عن نفسه ، وعما قاساه على يد أخيه (مولاي محمد) في تافيلالت من اعتقال وتقييد بالحبال والحديد كما حدثه دون تحفظ عن خططه ومطامحه في المستقبل فلم لا يكون في ركاب هذا الذي يحاول الملك ؟!

انصرف الشابان الى بعضهما ، واختليا متناجين ، وتجولا في مدينة فاس زقاقا زقاقا ، ودربا دربا ، وخرجا الى ظاهر المدينة وسارا بجوار اسوارها وصعدا الابراج زائرين ! وكلما كلت منهما الاقدام رجعا الى مهوى الفؤاد القرويين وانصتا الى بعض الدروس التي كان يفتتن بها الشريف ...

وطاب لهما ان يشدا الرحلة الى (حمة مولاي يعقوب) ، من حيث تمكن الشريف الرشيد من تضميد جروحه التي خلفتها الاغلال الثقيلة التي كان يغلها بها أخوه مولاي محمد . لقد انتعش الرشيد بالمياه المعدنية

الحارة ، واسترجع جميع صحته بفضل عناية الطالب الحاذق الذي كان يعرف بكامل الخبرة كيف ينوع مائدة الشريف العلوي ويجعلها في كل وقت لذيذة مفيدة بلحوم الخرفان وافراخ الحمام والديوك وبالاكباد والقلوب والكلي ... الكفيلة كلها باعطاء القوة لاضعف الاجسام، وبزيادة القوى منها قوة على قوة ، ولم يبق بعد هذا الاستجمام الكافي سوى الارتحال الى منطقة تازة !

وخلال الرحلة الى تازة توقف الرشيد وصاحبه ومن معهما عند (حمة سيدي حرازم) ذات المياه الدافئة المطهرة المنعشة ، والتي تقوم بعلاج الباطن كما قامت اختها من قبل بعلاج الظاهر ... انه لولا ضيق الوقت ، وطول المسافة الواقعة بين فاس وتازة للزما (الحمة) مدة طويلة ، ولكن في المناظر المتبقية من الطريق ما يغري بمواصلة السير ، والتوقف عند كل بقعة جميلة ، ان هناك من السهول الفسيحة الخضراء ، ومن الوهاد المتدرجة في الصعود والتي تغطيها اشجار غابوية مزدهرة فواحة ، ومن الجبال المغطاة والجرداء ما يملأ النفس رهبة وجلالا ، بل ان الجلال يتمثل بالذات في تلك المرتفعات التي لم تنبت شجرا ولا نبتا ، لتبقي التربة والصخور على حالها في الوانها الطبيعية الفاتنة : بني ضارب الى السواد وبني فاقع ، واحمر قان ، واحمر ممزوج بالوردي، ولون ازرق مازج هذه الالوان كلها كما يمازج السحاب اديم السماء ... يا للجلال ويا للجمال ! ويجد المسافران نفسهما ما تزالان عامرتين بالاحاسيس اللذيذة المنعشة ، وسط مضايق ومسالك بين الجبال تتسابق فيها ــ نافرة ــ حيوانات متوحشة تقصد تلك الشقوق العميقة الرهيبة العامرة بالظلام والتي لا يطل منها الا البوم بعيون لا تنطبق اجفانها !

ليت السفر في هذا الطريق الطويل الرائع لا ينتهي ، فالابصار متمتعة ، والخياشم معطرة ، والآذان مشنفة ، لكن البالين رغم ذلك غير مرتاحين ، ماذا يجري في تازة ؟ كيف حال سكان تازة وهم يستعدون لاستقبال عيد الاضحى ومن حولهم ازمة اليهودي المتجبر الذي يتربص بهم الدوائر ؟ هل استطاعوا الوصول اليه لمحقه ؟

وصل الشريف الرشيد الى تازة ، ومعه صاحبه وسقيه ابن تازة العريق ، وبذلك تمكن الشريف من الدخول الى عدة بيوت ابت الا أن تكرمه وتتبرك به وتجعل عيدها بوجوده اكرم الاعياد ، بل زادوا في اكرامهم له وابتهاجهم بمقامه بينهم فاخذوه في نزهات الى الضواحي الجميلة المحيطة بتازة بين منابع المياه وتحت ظلال الاشجار وفوق ارض مخضوضرة يانعة مزدانة بالزهور المختلفة الالوان والعطر ... الشيء الذي طاب معه التنزه والتفسح للكثيرين . وهكذا لاحظ الشريف الرشيد اليقظ النظرات موكبا يمر من بعيد ، موكبا فخما عظيما ، كثير الخيول ، متعدد الرجال والاتباع تحف به ثلة من الحرس المسلح العتيد، وقطيع من الكلاب الضارية ...

والتفت الشريف الرشيد ليسأل . فاذا الطالب عند اذنه يهمس :

ــ هذا هو الخطر يا مولاي ، هذه هي مصيبة تازة العظمى ، هذا هو الاستبداد الشنيع ، هذا هو المتجبر المتعنت عدو الله ابن مشعل ! دع حديثه بتفصيل حتى نعود الى مدينة تازة ، لقد تعرفت على من يستطيع ان يحكي التفاصيل كلها عما يجري داخل القلعة ...

ــ لا ، لا استطيع صبرا ، دعني اولا اسأل من هو ابن مشعل هذا ؟

ــ انه يهودي اصله من نواحي وجدة ، عرف آباؤه واجداده بالخبرة في الشؤون التجارية وتصريف الاموال ، وقضاء اغراض الملوك السابقين ، وورث هو عنهم مجدهم وثرواتهم ومساكنهم وقصورهم ، ولعله اليوم يملك أفخم قصور المغرب ، وقصره الذي يسكنه اليوم يوجد داخل قلعة محصنة ، ثم انه داخل هذه القلعة يعيش مستغنيا عما هو خارجها من اصغر الحاجات الى اكبرها ، ويكفي أن مؤونة القصر متوفرة لما يكفي لعدة سنوات اذا اقتضى الحال ، بفضل جهود الخدام المساكين الذين يعملون معه تحت اشراف رؤسائهم اليهود . لو ترى ايها الشريف ــ حسب ما حكي لي ــ وهم يعملون مرغمين ، ومن رفع الرأس مستاء فاللطم على وجهه ، والصفع على قفاه ، والركل من ورائه ، والدفن على صدره ، وفوق يسمع سبا مقذعا في آبائه وجدوده وفي الدين الكريم ايضا ... ولمن يشتكون ؟ نحن يا مولاي نضع امثالهم في المناصب الكريمة ، وعلى رأس الاعمال النظيفة ، بينما هم يضعون اخواننا في الاعمال الحقيرة، ويفرضون عليهم ما فيه اذلال وتحقير لهم ... ارأيت النفوس الخبيثة ؟!

احمرت عينا الرشيد الواسعتان ، وزاد محجراهما بروزا ، وكسا الغيظ وجنتيه السمراوين بحمرة كالحة ، وسمع لاسنانه صرير ، وارتعدت جميع اعضائه من شدة الانفعال ... وبذلك لم يعد له من

رغبة فى البقاء فى النزهة المقامة على شرفه ، وريثما يتهيأ جمع أدوات النزهة للعودة ، اخذ الرشيد يتجول وحيدا بين الاشجار والغيظ آخذ منه مأخذه ...

*

(هرون بن مشعل) امسى متهيأ بعد العشاء لاستقبال ضيوفه وزواره ، من حيث احاط نفسه بالوسائد والمتكآت وامامه موائد حافلة بصحون الفواكه والنقل والمخللات وقنينات خمر (ماحيا) ، يأكل من هذا وذاك ، ثم يقبل على الشراب يفرغه فى جوفه افراغا ؛ ان بطنه الكبيرة المتدلية حتى لتكاد تغطي ركبته وتلامس الارض من الجانبين فى حاجة الى المزيد ... فلا عجب اذا كان الوجه طافحا بالرضى والبشر ، توشك الدماء أن تتفجر من مسامه ، بدل العرق الناضح ، هذا الوجه التام الاستدارة البارز وسط شعر اللحية الغزير المسترسل على الصدر والمتشابك مع وفرة الرأس السوداء الفاحمة السواد ، بل ان الشعر يطل من المنخرين ملوثا بلطخات السعوط، ومع ذلك فمنظر هرون غير منفر ، لما يرتديه من ثياب جميلة ثمينة جدا ، جديرة بمن يستقبل علية القوم الواردين من طنجة وسبتة ومليلية ومن بلدان (البر الآخر) .

ان اقواما غرباء اللباس ، مختلفي اللغات ، يفدون على قلعة هرون بن مشعل ويختلون به وراء الابواب المغلقة مددا طويلة ، وقد يقضي الليل فى مناقشتهم ، مستعينا اذا لم يكونوا عارفين باللغة العبرية بابنته (زليخا) . وزليخا ترجمانة محنكة تعرف لغات (الفرنصيص ، والسبنيول ، والليتكليز) ، ذلك لان اباها اعدها اعدادا ثقافيا مهما فى (بلاد البر الآخر) لتكون زوجة لاحد النبلاء او الامراء ، يستطيع ان يستفيد منه عند الحاجة ، غير ان زليخا — بعد عودتها — اختارت شابا وسيما جدا وجعلته خليلها ، واوعزت لابيها أن يجعله اقرب المسلمين القاطنين بالقلعة اليه ؛ لقد شهدت فى حقه انه عاقل ومخلص ومستقيم ... فهي مقتنعة بهذه الفضائل فيه ، ولذلك تبيت فى حضنه منعمة ، وتكشف له عن ذات نفسها ، وتحكي له عن اسرار ابيها ، ان (بوزكري) فى نظرها لا يمكن أن يخفى عنه اي شيء من الاشياء كما مكنته — خلافا للباقين — من ان يغادر القلعة مرة فى الشهر لزيارة والديه فى الظاهر ، مع انه يغتنم الفرصة ويحكي ما يجري فى القلعة من الامور العظيمة فى مجالس تازة الغاضبة ... وكان ان اجتمع بالشريف الرشيد فى احدى الليالي ، وفصل له الاحداث كما تجري جهرا ، وكما تجري سرا قيا للخطر الداهم ... وتم الاتفاق على عمل جدي سريع ...

واخر صاحب القصر مقابلة ضيفه الشريف عمدا، ولما عول على مقابلته امر برفع الموائد بعدما تجرع جرعات سريعة من شراب (ماحيا) . انه لا يريد مقابلة هذا الضيف المسلم الا خلال فترة قصيرة . انه لولا مكانة الضيف — وهو اخو سلطان تافيلالت ومزاحمه على الملك — لما استقبله هذه الليلة ، بل لتركه ينتظر على الابواب ولكن لا احد يدري ما تخبئه الايام ..

دخل الشريف الرشيد على ابن مشعل ، وتلاقت النظرات وحدقت العيون فى بعضها ، وانكشف السر . وبادر ابن مشعل الى التزحزح من مكانه ، وحاول القيام لاستقبال زائره وهو الذي لم يكلف نفسه منذ جلس بعد العشاء أن يقوم لاحد ، بل كان ينتظر من كل من دخل ان ينحني له ويحييه تحية الامراء ، بل لقد تلقى فعلا بعض القبلات على راحته . وها هو يجذنفسه الآن مرغما على الوقوف : — مرحبا بمولاي ، مرحبا بابن الرسول فى هذا القصر المتواضع ، هذا القصر الذي كان من الواجب ان يسعى اليكم لا ان تسعوا انتم اليه ، وان يجعل رجاله وجنوده واسلحته وانصاره فى الداخل والخارج فى خدمتكم .. وفى استقبالكم ..

— لا داعي لذلك يا ابن مشعل ، دع انصارك وجنودك فى سلام ، فمقصودي هو انت ، فالجزار هو الذي يسعى الى الذبيحة ولا يكلف الذبيحة مشقة القدوم اليه !

— هيه ، هيه .. مرحبا بمولاي مرحبا ، صدقني يا مولاي انه كان من الواجب ان تضاء جنبات القصر بالاضواء الساطعة ، وان يطلق البخور ، وأن تفرش الزرابي ، وان تفتح الخزائن وينثر منها اللؤلؤ والياقوت والذهب — وما هو بحمد الله بقليل — بين قدمي مولاي الكريمتين ، ما قيمة كل ذلك بالنسبة لمقام مولاي العظيم ...

— متى انتهينا من امر الذبيحة فصوفها وجلدها ولحمها وشحمها وحتى راسها ... كل ذلك سيكون تحت اليد .

— والله يا مولاي لقد شرف دينكم الخالد الكريم بفضيلة الضحية يوم عيد الاضحى بها تتقربون الى الله، ان دينكم الشريف اهتم بأشياء اهملها ديننا الموساوي ... لكم اسعدني منظر المسلمين العاملين معي وهم يذبحون اضحياتهم يوم العيد واولادهم من حولهم

يحيطون بهم في ابتهاج ... أجر ومنفعة ايها المسلمون ما اسعدكم !

— عيد الاضحى فات يا ابن مشعل ، ومن الغد سيحتفل المسلمون هنا بقصرك بعيد آخر ويحتفل معهم سكان النواحي وتازة ، كما سيحتفل سكان المغرب كلهم فيما بعد ، ان اكباش هذا العيد ونعاجه كثيرة .. لا بل انهم ليسوا اكباشا ولا نعاجا فهذه المخلوقات لا تؤذي احدا ، وليس فيها خطر ابدا ، انما هم افاعي واحناش وثعابين ، على راسهم ثعبان خبيث ماكر فظيع بلغ الحد الاقصى في ضرره ، فيجب ان يقطع منه الراس لنستريح وتستريح معنا البلاد والعباد ... افهمت يا ابن مشعل ؟

— لا تصدق يا مولاي لا تصدق ، انني اعمل كما عمل اجدادي من قبلي في خدمة هذه الامة المجيدة، ولا يهمني الا سعادتها ، لو استقرت الاحوال لما ترددت في مدها بالمال والجهد ، انني املك من المال ما يغني كل فرد من هنا حتى اقاصي الصحراء ، ولكن الفتن لم تترك لنا مجال للعمل من اجل خدمة الوطن ايها الشريف ، ولهذا لزمت هذا القصر في انتظار ... .

في هذا الوقت برز في المجلس الشاب (بوزكري) تياها طروبا ، وجلس بجانب الرشيد ليواجه ابن مشعل بقوله :

— انت يا عدو الله اصبحت طاغية عنيدا، كافرا بحق الوطن الذي يرعاك ويغذيك ويرفهك ، فصرت ترغم اخواني العاملين معك على الخضوع لك والتذلل بين يديك ، وبين يدي اعوالك من بني عمومتك ... منعت عنهم صلواتهم وصيامهم وحفلات عيدهم وذبح اضحياتهم .... (وهنا تبادل ابن مشعل النظرات مع الشريف الرشيد ثم اطرق مرتعبا من الخجل الممزوج بالخوف) ... وعندي — يا ابن مشعل معلومات ، هي من ابنتك زليخا خليلتي ، وليسمح الشريف فيما اقول، تؤكد انك تتآمر على البلاد ، وتريد اخراج دولة الاسلام منها ...

— هذا غير صحيح ايها الشريف ... غير صحيح وحق لا اله الا الله ، محمد رسول الله .

— اسكت يا عدو الله وعدو وطنه ، ابنتك حكت لي ذلك ، وهي اعرف بامورك !

— مخرطة ، مخروطة انا بريء منها ، ساذبحها بيدي ، اسمع يا بوزكري ، انني مثل ابيك ، احبك واثق بك ، واعاملك معاملة لا اعامل بمثلها احدا ، تسافر معي ، وتنام في حجرة بجانب اهلي ، ولا احاسبك على شيء ، تخرج لزيارة اهلك ... وانت تعرف ان هذه المعاملة لا يفوز بها احد ممن يسكن معي في هذا القصر ولو كان من عشيرتي . ومع ذلك ها انت تسبني وتتهمني بحضرة الشريف ، استح يهديك الله !

— اترك عنك هذه الحيل واساليب المكر ، واعترف امام الشريف بذنبك قبل ان تلقى مصيرك المحتوم ، والله ان لم تقض عليك الليلة لعجلت بالقضاء علينا ... انا نحب وطننا ولا نريد بيعه للغير ، ونحن وان اختلفنا ففي دائرة مغربيتنا : اننا نريد وطننا مستقلا مسلما الى الابد أسمعت يا ابن مشعل ؟

— نعم ، هذا صحيح . وانا اريد ان اكون منكم ، وان قبلتم فانا مسلم مثلكم .

— مسلم ؟ حاشا الله ، المسلم لا يسعى في اهانة المسلمين ولا يظلمهم ولا يعتدي ، ولا يشعر ابدا بافضلية عليهم ، حالهم مثل حاله في الصلاة والصيام والحج ... كيف تستطيع انت ذلك وقد الفت الطغيان والتعنت والتجبر ... آن لك ان تؤدي الحساب وتلقى جزاء خيانتك وتعذيك ايها الثعبان الخبيث ...

وارتعدت اطراف ابن مشعل ، وخارت قواه ، واسودت الدنيا في عينيه وحاول ان يرفع صوته صارخا ولكن الصراخ اختنق في حلقه ثم خرج في زعقة منكرة ... وتدحرج الراس على البساط تفور منه الدماء .

وتنفيذا للخطة المدبرة امتلأت جنبات القصر بخمسمائة من الابطال بقصد احتلاله وتصفية عناصر الشر منه ، تلك العناصر التي استيقظت مذعورة على صوت الطالب الثائر وهو يصيح مكبرا مهللا ، والاصوات الجهيرة تردد التكبير والتهليل من بعده .

الرباط : محمد بن احمد اشماعو

النهضة العلمية

على عهد العلويين قبل الحماية

للأستاذ : محمد العلمي
الملحق الثقافي للمكتب الدائم
لتنسيق التعريب في العالم العربي..

من المعلوم ان الدول التي تعاقبت على عرش المغرب ، من الادارسة والمرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين والعلويين لم تخل واحدة منها من الاهتمام بجانب او جوانب من تنظيم العمران البشري والعناية بكل ما من شانه ان يجعل من حضارة هذا الشعب مثلا يحتذى ونبراسا يستضيء به العاملون فى حقل الحياة السعيدة والتطور المثمر والعمل لخير البلاد والعباد .

واذا كان الادارسة قد شغلهم امر توطيد الامن وتنظيم الدولة المغربية بمعناها الحديث فى جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ، واذا كان المرابطون من جهتهم قد اضافوا الى كل ذلك اهتماما زائدا وخاصا بفنون الفقه وعلوم الدين ، فان الموحدين قد اعاروا اهتماما زائدا لعلوم الحياة وتطوير الصناعات وتنظيمها على اسس من الواقع المغربي وعلى نظام حديث لم يسبقوا اليه بالعالم ، وان المرينيين ايضا عمدوا الى تنظيم الدراسة وبناء المدارس ووضع قواعد المناهج التعليمية على جميع المستويات ، اما الشرفاء السعديون فهم وان كانوا يوجدون فى عصر كثرت فيه الاطماع الاجنبية بالمغرب واشتدت فيه وطاة الصليبية المسيحية التي كانت تريد الاجهاز على الاسلام وقتله فى داره ، فانهم قد قاموا بمجهودات مشكورة فى حقل البناء والتشييد مع مقاومتهم للتيارات السياسية والحركات الهدامة التي تهدف الى قتل الروح الدينية وتشريد المغاربة وخلق البلبلة والتشويش بين صفوفهم الموحدة قصد استعمارهم او استغلال ضعفاء العقيدة منهم على الاقل

واذا كان موت الملك العظيم احمد المنصور الذهبي قد خلف مآسي جسيمة فى الدولة المغربية ، وبالاحرى عندما تقاتل ابناؤه على الرئاسة والسلطان واستنجد بعضهم بالاجانب الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمغرب والمغاربة ، فان الله سبحانه وتعالى قد من على الشعب المغربي وجعل له من بعد العسر يسرا ومن الضيق مخرجا حيث اذن لدولة الاشراف العلويين ان تقوم بالمغرب بانية معمرة ومنظمة ومهيئة لاجواء البناء والتعمير والتحرير والتشييد ، وهكذا عرفت البلاد ادوارا من التقدم والازدهار فى مضمار الحضارة والعرفان . ورغم انهماك الملوك العلويين فى احكام التنظيمات المادية لاجهزة الدولة والعمل لضمان استقرارها ووحدة ترابها ، فانهم اولوا عناية فائقة ايضا بالعلم والدين واخلاق الشعب والمحافظة على التقاليد الاسلامية التي كانوا يعتبرونها اعظم طابع يطبع عهدهم السعيد

واذا كان المولى رشيد قد اتى من العمل ما خلف بعض الاثر فى نفوس بعض رجال العلم والفكر فى الدولة فى عصره ، فانه قد قام بانجازات هامة فى حقل المعارف والعلوم ، فتشريده لرجال الزاوية الدلائية الذين ظهروا فى وقت كان المغرب فى حاجة اليهم بعد النكبة الفكرية التي عرفها بموت الملك العظيم احمد المنصور الذهبي ، لم يكن القصد منه النيل من المجهود العلمي المشكور الذي قاموا به ، ولكن الصبغة السياسية التي اصطبغت بها حركتهم هي التي حدت بالمولى رشيد وامثاله الى اتخاذ اجراءات من شانها ان تحد من نشاطهم السياسي وتوقفهم عند حدودهم ، فادى ذلك الى اخماد جذوة النهضة العلمية التي باشروها الى حين قيام النهضة العلمية فى عهد العلويين بمعناها الصحيح الشامل .

فعلامة المغرب ابو علي اليوسي خريج الزاوية الدلائية المذكورة قد امكن لعلومه ان تتفجر بالمغرب

رغم انحلال زاويته التي نهل منها وكرع من حياضها ، حيث ان المولى رشيد نقل اهل العلم والمعرفة منها معززين مكرمين وتعهدهم بعنايته ورعايته وبنى لهم المدارس والمعاهد ليعكفوا على العلم والتعليم ويحضروا مجالسه التي كانت لاتخلو من رجال العلم والصلاح والخير والدين ، ويكفي ان نذكر من مآثره مدرسة الشراطين بفاس ذات البناء البارع والهندسة العجيبة والمناسبات الطلابية التي كانت تقام على عهده ، وخاصة نزهة الطلبة الربيعية التي كانت تقام سنويا بقصد التسلية والترويح عن النفس من عناء الدراسة والتدريس ، ويشارك فيها علاوة عن الطلبة الاساتذة بعض رجال الدولة الرسميين ، وقد يحضرها الملك بنفسه تقديرا للعلم ورجاله ، وقد بقيت عادة متبعة الى يومنا هذا بعد ان ادخلت عليها تعديلات وتطويرات رعيا للظروف ومقتضيات الاحوال ، اما المولى اسماعيل فقد انصرفت همته الى تعزيز امن البلاد داخلا وخارجا وتقوية نفوذ الدولة بتنحية الاجانب عن التدخل في اي شان من شؤونها مهما كان قويا او ضعيفا كثيرا او او قليلا . ولذلك يحيطه علماء التاريخ المسلمون وغيرهم بهالة كبيرة من الاجلال والاعظام ، وقد اضاف ولده محمد الثاني في عهده الى هذا العمل المفيد تنظيمه لمناسبات ثقافية مهمة جعلت النابهين والنبغاء من الادباء والعلماء يجتمعون عليه في سوس ويقيمون اسواقا نافقة للعلم والادب ، ولولا ما وقع له مع ابيه مما اودى بحياته لاستفاد المغرب من بعثه وتجديده في حقل العلوم والفنون ..

وبقدر ما كان المولى محمد بن عبد الله يهتم بشان البناء والتعمير وتنظيم الجيوش على احدث طراز معروف في عصره ويتتبع آثار النهضات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في العالم كان ايضا شغوفا بالعلم والمعرفة يقتفي آثار من سبقوه من ملوك الدول وعلمائها ويسعى الى استصلاح الحياة العلمية واستنهاض همم العلماء لمجاراة تيار الحياة العلمية الحاضرة والعمل على الخلق والابتكار والابداع ، وقد ذهب الى ابعد من هذا حيث عمد الى تمثيل ادوار الملوك المجددين واقتفاء آثارهم في تطهير كتب العقائد والفقه مما علق بها مما لايساعد على نهضة عامة شاملة تهدف الى خلق اجيال مسلمة واعية شاعرة تعمل بمقتضى الحكمة الخالدة « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك كانك تموت غدا » وتساير اهداف التعليم التي شرعها القرآن الكريم وتضمنتها الآية الكريمة : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، واحسن كما احسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الارض ، ان الله لايحب المفسدين » فقد امر المولى محمد بن عبد الله بالقضاء على كتب الفروع والكلام والجدل والخلاف التي لاتفيد الا في تشعب المسائل الدينية وتعقيد قواعد الشريعة الاسلامية التي امتازت من بين الشرائع الاخرى بالسماحة المتجلية في الوضوح واليسر واعاد للسنة مكانتها حيث عوض كتب الفروع والفقه بكتب الاصول والحديث ، وكتب بذلك المنشورات والرسائل الى كافة علماء المملكة يلزمهم بالرجوع الى الامهات واعتبار الكتاب والسنة المرجع الوحيد في كل تشريع وحكم عملا بقول الله تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ولكنه لم يذهب الى حد بعيد في الموضوع ، فلم ينهج نهج يعقوب المنصور الذهبي في دولة الموحدين الذي امر بتحريق كتب الفروع وتحريم النظر في كتب الخلاف والجدل ؛ بل امر بجعلها من المراجع التي يرجع اليها الاخصائيون والذين يرغبون في زيادة العلم والتخصص . وقد الف بنفسه كتبا عديدة جمع فيها بين الاصول والفروع والنصوص الفقهية والحديثية ؟ منها كتاب مسانيد الائمة والفتوحات الالاهية ، وانما اقدم على التاليف مع اشغال الدولة الكثيرة ليعطي بذلك امثلة لعلماء الدولة ومتخصصيها حتى ينسجوا على منواله ويحتذوا حذوه ، ولم يتأخر عن الاعراب عن آرائه وبيان مذهبه حيث كان ياخذ بمذهب مالك في الفقه وبعقيدة الحنابلة متجنبا طريقة الاشاعرة التي اتسمت بكثير من التأويلات والتخريجات . وقد اهتم خاصة بتنظيم الدراسة في جامعة القرويين وبتجديد مناهج التعليم بها معتمدا العقائد السلفية والتشريعات القرآنية والنبوية ، واهم منشوراته لاصلاح التعليم المنشور الذي اصدره سنة 1203 هـ والذي يلزم جميع الواقفين عليه من العلماء ورجال الدولة وعامة الشعب بالعمل به . وقد ذكره الاستاذ عبد الله كنون في كتاب النبوغ المغربي بنصه ، مما لو كتب لامثاله ان يظهر استمرار التاريخ العلمي ببلادنا على نسق يوازي او العلمية على غير هذا اللون وليقينا مثلا يحتذى مع استمرار التاريخ العلمي ببلادنا على نسق يوازي او يفوق احدث ما عند الامم العالمية الكبرى .

وقد اراد للمغرب ان يكون دولة راقية بكل ما في الكلمة من معنى فسعى لتحصينها من جهة الجنوب مثلا ببناء مدينة الصويرة الذي ابطل به حصن اكادير الذي كان الثوار يتفدون منه الى جميع البلاد

ويعيثون في الارض فسادا ، كما حصن العواصم والثغور الاخرى وشيد بها الابراج والمعاقل المنيعة وشحنها بالمدافع والعساكر القوية واستكثر من انشاء السفن الحربية والتدريبات العسكرية الكثيرة ؛ ومتن العلائق الثقافية والاقتصادية والسياسية مع سائر الدول الاجنبية فارضا احترام المغرب على الجميع .

وقد اصيب المغرب بوفاته برزء عظيم وخسارة كبرى لم يخفف من شدتها ، ولم يضمد من جراحها الا همة المولى سليمان العالية وضلاعته العلمية وتفكيره الطويل في اعادة ما بناه جده العظيم حيث اعاد للسلفية الاسلامية صولتها واحيا ما اندثر من مشاريع العلم والعرفان ووطد اركان البناء والتشييد والعمران فمن مساعدة على النشاط الفلاحي بغية تقوية الانتاج بالاكتفاء بانواع الزكوات والتعشير والتخفيف من الجبايا الاقتصادية الى تدعيم للسلفية الصالحة بابطال العوائد الضالة الى فتح ابواب العلم ومنافذه في وجه عامة الشعب على مصاريعها والتشجيع على النهل منه والتنافس في مضماره ، ولقد بالغ في تقوية الحركة العلمية بالبلاد واعتبارها اعظم نموذج حي يعطى على تقدم البلاد المغربية وازدهارها في جميع الميادين ، وفي ايفاد ابنه ابراهيم الى الشرق مع نفر مهم من العلماء بقصد المناظرة واحياء الصلات العلمية والثقافية الا دليل ظاهر وبرهان باهر افحم الاصدقاء والاعداء على السواء ، على ان المغرب منذ كان دولة وهو يسابق ويسبق ويتقدم على الصعيد العالمي في جميع المستويات

ولم يكن آخر النهضة العلمية باقل شانا من اولها فالامجاد والعظائم والتقدم الحق قد كتب لها ان تحيا كلها من جديد على يد البطل الشهير والملك الكبير المولى الحسن الاول ؛ فمن الناحية الادارية والسياسية قرر ان يجعل حدا للفوضى كيفما كان نوعها ومن اية ناحية أتت ؛ وبذلك تمكن بان يوقف القبائل الشاردة عند حدودها ويسكت جميع الالسن المناوئة ويعمل على استدراج الاجانب وتصوير المغرب في عيونهم وعقولهم بغير الصورة التي اعتادوا ان يتخيلوها عنه ليستسيغوه لقمة باردة في بعض الايام ، وقد اصاخوا له في كثير من الاوقات واعتبروا بنصائحه وبوعده ووعيده .

ومن الناحية العلمية وهي التي تعنينا في هذا البحث المتواضع يكفي ان نقف قليلا عند الثورة العلمية التي اراد ان يحدثها بالبلاد متخطيا جميع سابقيه وضاربا بكل المثبطات والمخدرات والمسكنات عرض الحائط ، على انه لم يكن يسعى في العزلة الدولية ولم يكن يرضى ان يبقى المغاربة قابعين في بيوتهم يعيشون على ما عندهم دون ان تتفتح اذهانهم على العالم الخارجي ودون ان يتصلوا بغيرهم من البشر بقصد التعارف والتكافل والتعاون على ما يفيد سعادة البشرية وغيرها طبقا لتعاليم القرآن الذي يقول: « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ؛ ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير » وتبعا لتشريعات النبي محمد صلى الله عليه وسلم التي جاءت في هذا الموضوع : (لا فضل لعربي على عجمي ولا لابيض على اسود الا بالتقوى) والتقوى هي كل خير وكل عمل يقرب الى الله ويجعل البشر سواء آمنين مطمئنين .

وعلى هذا الاساس اراد المولى الحسن الاول ان يبني نهضة المغرب الحديثة وان يكون اطرا قمينة بالاضطلاع بكل ما يناط بها ولكنه ـ ويا للاسف الشديد ـ اصطدم بعراقيل كانت تحول دون تنفيذ رغائبه الاصلاحية وتبذل اقصى جهودها لابقاء المغرب في فلك الشعوب الجامدة المتاخرة ، وكان الذي يقوم بهاته العراقيل صنفان من البشر ، فهناك هيئة المحافظين التي كانت تخشى على التعاليم الاسلامية والتقاليد العربية ان تنفذ اليها سموم اوربا فتشوهها وتبعثرها وتعمل على ابادتها بجميع الوسائل وبمختلف الاساليب ، وهناك شرذمة من الانتفاعيين المغرضين الذين ابتليت البلاد بهم مثلما ابتلي غيرها ، وقد كانوا يسعون للابقاء على نفوذهم على حساب المصلحة العليا ويعرقلون كل تطور وتقدم في الاطار العلمي يمكن ان يتفتح عن ميلاد عناصر حية متجددة تطوح بالمغرضين وتطيح بجميع التقاليد البالية التي ليس فيها نفع ولا تدعو الى خير وصلاح . ولكن همة الملك العظيم فوق كل قوى فقد استطاع ان يتغلب على كل المناوئين لنظامه الاصلاحي بعد ان ظل يعمل في صمت ، وقد كان اهتمامه بالغا بتنظيم الجيش وتعزيزه باحدث الاجهزة لمواجهة جميع الطوارىء والاخطار التي تهدد كيان المغرب في الداخل والخارج ؛ فاسس مدرسة للمدفعية تحدث عنها الاستاذ كامبو في كتابه (المغرب مملكة تنهار) وبعث عددا من المغاربة للتدريب العسكري الى انجلترا واسبانيا وامريكا ، كما ارسل بعثات من الطلبة المتفوقين الى فرنسا وايطاليا والمانيا لدراسة الهندسة العسكرية واتمام التكوين العلمي العام ، وقد اظهر الطلبة المغاربة تفوقا واستعدادا كبيرا استحقوا معه من التنويه والتقدير ما جعل اعداء المغرب في الداخل والخارج يتحرقون حنقا وحسدا ، وبعد عودتهم الى المغرب ثارت ثائرة المتزمتين من المغاربة

كما كثر اعداء البلاد عن انيابهم قصد تخريب هاته النهضة العلمية وقطع جذورها من الاساس حتى يصفو لهم الجو ، فصار يعامل بعض المسؤولين منهم هؤلاء العلماء باحتقار كبير ويسدون في وجوههم ابواب الوظائف والاعمال الرسمية ، وبعد تدخلات كثيرة من لدن كبار المسؤولين سمحوا لبعضهم بالعمل في المكاتب الجمركية بالرباط وطنجة مقابل اجرة زهيدة لاتتعدى (14) سوردي ، ولا يخفى ان هذا العمل الجامد لمن شأنه ان يثبط العزائم ويخمد القرائح ويسعى لعرقلة التطور العلمي ، ويكفي ان نذكر بناء على اقوال بعض المؤرخين أن اول بعثة علمية خرجت من المغرب كانت في الوقت الذي خرجت فيه اول بعثة يابانية ، فلو قدر لبعثاتنا ان تجد الجو الملائم للعمل بعد رجوعها لكان المغرب ارقى من اليابان وارقى من الدول الاخرى التي لم يكن شأنها شأن المغرب .

وقد خصص الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله استاذ الحضارة والتاريخ في جامعة محمد الخامس فصلا للثقافة والفن بالمغرب في هاته الفترة تحدث فيه باسهاب عن المساعي التي بذلها الملوك العلويون وعلى الاخص جهود الملك المولى الحسن الاول واورد نقولا كثيرة عن علماء الشرق والغرب في هذا المضمار .

واذا كان يحق لبلد ان يفتخر بماضيه العلمي فان المغرب يكون في الطليعة في هذا الباب لان الجذوة العلمية لم تخمد فيه في وقت من الاوقات ولو في الوقت الذي كانت فيه البلاد العلمية تعاني الازمات الشديدة لان المغاربة منذ كانوا وهم يعرفون انه لا حياة بدون علم وأن أعمار الامم وعظمتها انما تقاس بما احرزت عليه من تقدم في مضمار العلم لانه هو الكفيل بضمان التقدم والازدهار لجميع شعوب العالم .

الرباط : محمد العلمي
الملحق الثقافي في المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي



ملك رياضي... وشعب رياضي

للأستاذ: عبد الله الوزاني

العقل السليم في الجسم السليم .. فكرة آمنت بها الشعوب قديما وحديثا ، آمن بها الاغريق القدامى ، وآمنت بها الامم المتقدمة والنامية ، فعملت على تشجيع الرياضة بشتى اشكالها ومظاهرها لان الرياضة هي وحدها الكفيلة باعطاء هذه الفكرة كنهها ومدلولها ، وكثير من هذه الدول اعتبرت الرياضة أمرا حيويا بالنسبة للفرد والجماعة ، فشجعتها بشتى الامكانيات ، وجعلت من الرياضي شخصا مقدسا . وصاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله آمن اشد الايمان بهذه الفكرة ، فمنذ صغره ، وهو يزاول مختلف الانشطة الرياضية ، شأنه في ذلك شأن كل طفل مغربي ، يريد أن يفجر طاقاته . ولم يكن يعتقد أن هناك رياضة بورجوازية لا تليق الا بالامراء والملوك ، واخرى شعبية لا تليق الا بابناء الشعب ، ولذلك شهدته بعض الملاعب وبعض الغابات ، يزاول كرة القدم ، بنفس الشغف الذي يزاولها به كل شاب مغربي . وشهدته الملاعب متفرجا ، يبدي رأيه في مختلف اطوار المقابلة ، فيصفق ويهتز وينفعل ، بعفوية تامة ، لان حضوره هذه المباريات حفظه الله ، انما املته رغبة شخصية ، وتذوق تلقائي للرياضة الشعبية الاولى في بلدنا . او ليس الملك ابن الشعب ؟ والحسن الثاني حفظه الله يزاول مختلف الانشطة الرياضية ، العنيفة منها والهادئة ، فمن كرة القدم الى كرة السلة ، الى التنس ، الى السباحة وركوب الخيل ، الى الصيد ، الى غير ذلك من الالعاب التي يهرع اليها كل فرد يريد أن يجدد حيويته باستمرار ، فيخرج الى الفضاء يملا رئتيه هواء نقيا ، فيكسب جسمه خفة واناقة ، ويكسب ذهنه صفاء وجلاء .

هذا هو الحسن الثاني ، الملك الرياضي ، الممارس للرياضة . وهناك جانب آخر من حياته الرياضية لا يقل اهمية عن الاول ، والذي يكمل الشخصية الرياضية المثلى ، ذاك هو التشجيع ، فملكنا ينظر الى الرياضة نظرة غيرية ، ينظر اليها على انها شيء حيوي



صاحب الجلالة ينزل الى الملعب ليسلم الكاس للفرقة الفائزة

ينبغي أن يستفيد منه الشعب بأكمله ، ولذلك فهو لا يدخر وسعا في تشجيع الرياضة والرياضيين ماديا ومعنويا ، ولعل أول مظهر لهذا التشجيع واسماه ، تشريفه بحضوره نصره الله مختلف المهرجانات الرياضية، وهنا تتجلى شعبيته في انصع صورها ، فكثيرا ما ينزل الى الملعب فيلتف حوله اللاعبون حفظه الله، وكلهم شوق الى أخذ صور تذكارية مع جلالته ، تكون اغلى ما يحتفظ به من هذه المناسبة ، اغلى من المهرجان نفسه ، ومن الرسم ومن الانتصار . ان هذه الشعبية تضفي على المهرجانات الرياضية طابعا خاصا يتميز بهذا التجاوب التلقائي بين ملك رياضي ، وبين شعب رياضي . والحسن الثاني بصفته رئيس دولة ، ومسؤولا أولا عن الرياضة ببلدنا ، يرى ان هذه في حاجة الى رعاية مستمرة ، حتى يضمن لها الاستمرار والازدهار .

وما استقباله حفظه الله لابطالنا ، وتوشيح صدورهم بأوسمة الاستحقاق ، وكذا صدور أولئك الذين ادوا خدمات الى الرياضة ، الا دليل على ان هذه الرعاية هي رعاية فعليه ، مجسمة في هذه



في عيد الشباب ....



ابتسامة رياضية متجلية في محيا العاهل الكريم ..

الاستقبالات الرياضية ، وفى هذه الاوسمة ، وهـذه الوصايا والتعليمات . وان بعد نظره حفظه الله عند اسدائه لنصائح او تزويد وفودنا الرياضية بتعليماته الرشيدة ، ليشهد له بالخبرة الواسعة فى هذا الميدان، وبرغبة اكيـدة فى ان يتمسك رياضيونا بالمبـادىء الاساسية للرياضة ، حتى لا يحيدوا عـن اهدافهـا السامية ، الرامية الى تقوية الجسـم ، والى صقـل الذهن ، والى تقويم الاخلاق .

هذه هي المبادىء التي تشبـع بهـا صاحـب الجلالة الحسن الثاني حفظه اللـه منـذ صغـره ، والتي يحرص على ان يتشبث بها كل رياضي ، لانـه يومن ايمانا قويـا بفعالية هذه المبادىء ، وبدورها فى كل مجتمع ، بالنسبة للفـرد والجماعة .

هذا هو الحسن الثاني ، الملك الرياضي ، الـذي آمن باهداف الرياضة السامية ، وبجدواهـا للفرد ، فمارسها بشغف وتذوق ، وآمن بها كضرورة للجماعة ، فشجعها بشتى الامكانيات ، وشجع القائميـن بهـا . ويقيننا أن الرياضة فى بلدنا ستزدهر ، وانها ستتخطى الحواجز والعقبات التي وضعت فى طريقها ، ما دام هناك حام يحميها ، وراع يرعاها .

الرباط : عبد الله الوزاني
« المعهد الكبيـر »



صاحـب الجلالـة الملـك الرياضـي
يحضر احدى المهرجانـات الرياضية الكبـرى لكرة القدم ...

في هذا العدد :

الصفحة

وعـــد... واعـــتـــذار...

وصلنا بعد تنظيم العدد الخاص بالمطبعـة بحث قيـم بعنوان : (الملك العبقرى سيدى محمد بن عبد الله) لفضيلة الاستاذ سيدى عبد الله كنـون ، وكذلك وصلنا بحث قيـم آخر بعنوان : (الثقافة والعلم فى العصور الحديثة بالمغرب) للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله الامين العام للمكتب الدائـم لتنسيق التعريب فى العالم العربـى ، وغيرهما من الكتاب والادبـاء .

ونظـرا لعدم تمكننا من ادراج هذه المواد القيمـة فى هذا العدد الخاص الذى يسجل مآثر وامجاد دولة ملوكنـا العلويين ، فاننا نعد قراءنـا الكـرام بادراجها فى عددنا المقبـل بحـول اللـه .

ومعـذرة مـرة أخـرى ... وشكـرا ..

صورة الغلاف

مدخل رائع لقصر دار السلام

مطبعة فضالـة ـ المحمديـة